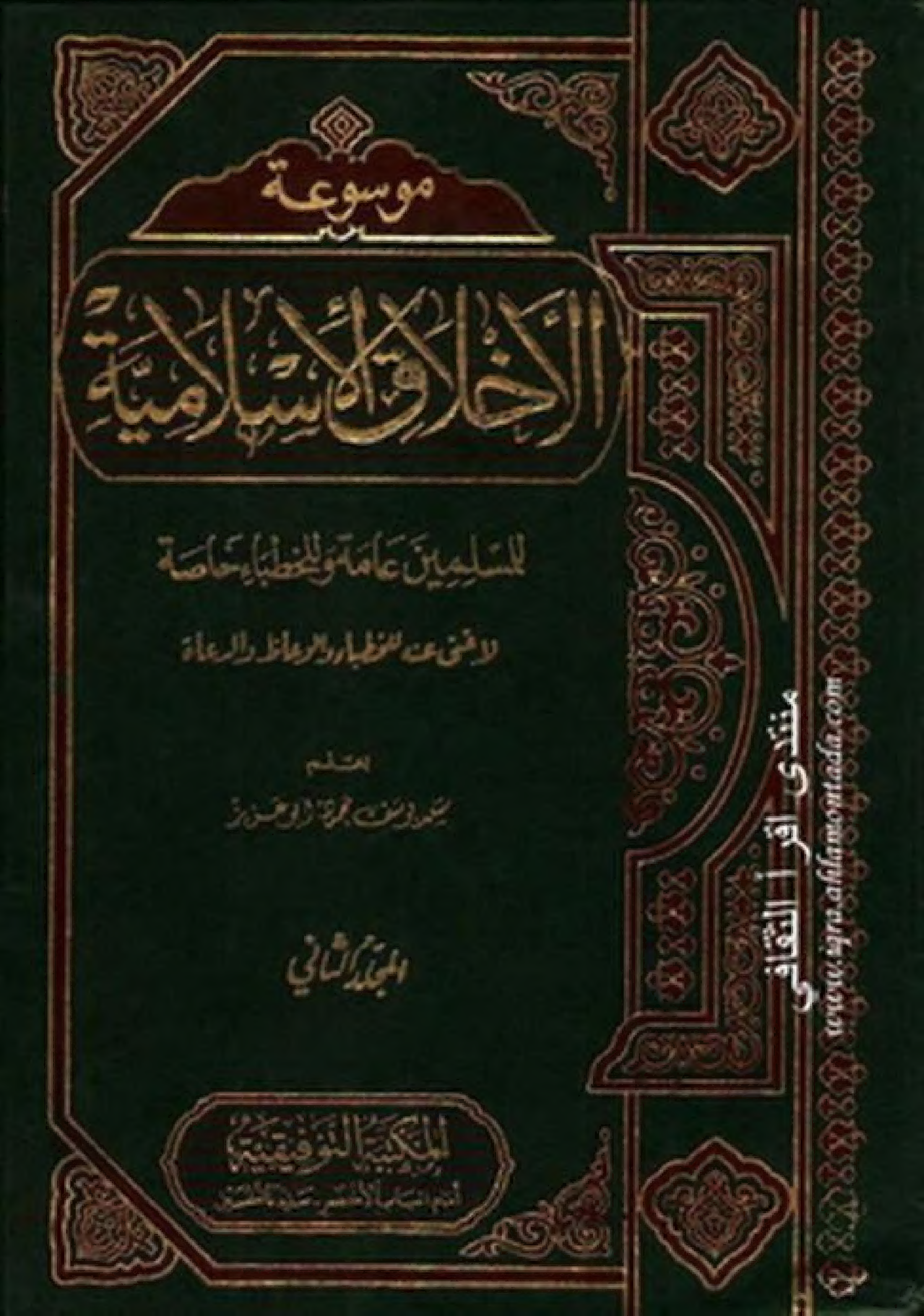

موسوعة
الأخلاق الإسلامية
للمسلمين عامة وللخطباء خاصة
لا غنى عنه للخطباء والوعاظ والدعاة
المجلد الثاني
المكتبة التوفيقية
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

موسوعة

الأخلاق الإسلامية

للمسلمين عامة وللخطباء خاصة

لا غنى عنه للخطباء والوعاظ والدعاة

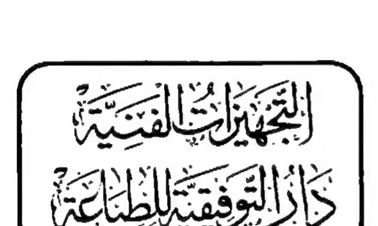
بقلم

سعد يوسف محمود أبو عزيز

الجزء الثاني



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠



المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt

Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان


بسم الله الرحمن الرحيم



٣٩- الغَيْرَة

اعلم - أخي المسلم - أن الغَيْرة خُلُقٌ كريم، فهو: حِلْيَةُ المؤمنين، وتاجُ العارفين، وسُربالُ المتقين، وَفِطْرةُ رَبِّ العالمين.

به تُصَان الأعراض، وَتُحَفظ الحُرمات، وتحترم البيوت، ويتميَّز الإنسان عن الحيوان.

وقد تعرّض هذا الخُلُق - في هذه الأيام - لحملاتٍ مكثّفة من قِبَل الأعداء لِطَمْسِ معالمه وَمَحْو أَثَره، والإجْهَاز عليه.

ونجح الأعداءُ في حملاتهم تلك، فقد مات هذا الخُلُقُ عند أقوام، وهو يُحْتَضر عند آخرين، بينما لا يزال حَيًّا يقظًا، يتمتّع بقوّته وحيويته عند قليل من المؤمنين.

وفي محاولة منا لإيقاظ هذا الخُلُقِ عند المسلمين، فالحديثُ على السّطور التالية يدور حول أربعة أمور:

الأول: تعريف الغَيْرة.

والثاني: الأسبابُ الباعثة عليها.

والثالث: أنواعها.

والرابع: ثمراتها.

والله الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أولاً: تعريف الغَيْرة

الغَيْرة «لُغة»: مَصْدَرُ قَوْلهم: غِرْتُ على أهلي غَيْرَةً، وهو مأخوذٌ من مادة (غ ي ر) التي تدلّ على صلاحٍ وإصلاحٍ ومنفعةٍ، كما تدلّ - أيضًا - على معنى اختلاف الشيئين، ومنه قولنا: هذا الشيء غير ذاك، أي: سواه وخلافه[1].

(١) انظر: «المقاييس» (٤/٤٠٤).

وقال الحافظ ابْنُ حَجَر - رحمه الله تعالى - :

« الغَيْرة مُشْتَقّة من تَغيّر القلب وَهَيجانِ الغضب، بِسَببِ المشاركة فِيما بِهِ الاخْتِصاص، وأشدّ ما يكونُ ذلك بين الزَّوْجَين » ا.هـ[1].

و « اصطلاحًا » : كَرَاهَةُ شِرْكَةِ الغَيْرِ في حَقِّه.

وقال الكَفَويُّ: « الغَيْرةُ : كَرَاهةُ الرَّجُلِ اشْتراكَ غَيْرِه فيما هو مِنْ حَقِّه » ا.هـ[2].

وَذِكْرُ الرَّجُل هنا على سبيل التمثيل، وإلاّ فإن الغَيْرة غَريزةٌ تشترك فيها الرجالُ والنِّساءُ، بل قد تكونُ من النِّسَاء أَشَدُّ[3].

ثانيا: الأسبابُ الباعِثة على الغَيْرة:

اعلم - أيها الكريم - أن الأسباب الباعِثة على الغَيْرة كثيرة، نذكر منها - هنا - سَبَبين:

الأوّل: نَقَاءُ الفِطْرةِ وَسَلامتها:

فالغَيْرة مركوزة في فطرة الإنسان، يُولد بها، وتدخل معه قبره، ولا تُنزع منه إلاّ إذا تلوّثت فِطْرَتهُ، أو اعْتَراها التغيّر.

وفي الحديث الصحيح:

« **كُلُّ مولودٍ يُولَد على الفِطْرة، فأبواهُ يُهوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرانه، أَوْ يُمَجِّسانه** » .

فدَلّ هذا الحديث على أن الفطرة إذا تغيَّرت انقلب القلبُ مع تَغَيُّرها رأسًا على عقب.

وَيُرْوىَ عن عبد الله بن محمد - بسند مُرْسل - عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) « فتح الباري » (٩/٣٢٠).

(٢) « الكليات » للكفوي (٦٧١).

(٣) « نضرة النعيم » (٧/٣٠٧٧).

«إني لغيورٌ، وَمَا مِن امْرئٍ لا يَغَار إلاّ مَنْكُوس القلب»[1].

فمسخ الفِطْرة، يثمر خبائث، منها: الشّرك، والدِّياثة.

السَّببُ الثَّاني: اجتنابُ المعاصي:

قال الإمامُ ابْنُ القيِّم - رحمه الله تعالى - :

«ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نارَ الغَيْرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخَبَث والصّفات المذمومة، كما يُخرج الكِيرُ خَبَثَ الذّهَب والفِضّة والحديد، وأشرف الناس وأعْلاهم هِمّة أشدّهم غَيْرة على نفسه وخاصّته وعموم الناس. ولهذا كان النبي ﷺ أغيَرَ الخَلْق على الأُمّة، والله سُبحانه أشدّ غيرة منه، كما ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال في خطبة الكسوف:

«يا أُمّة مُحَمّد، ما أحد أَغْيَر مِنَ الله أنَ يَزني عَبْدُه أو تَزْني أَمَتُهُ»[2].

وفي «الصّحيح» - أيضًا- عنه ﷺ أنه قال:

«لا أَحَد أغْيَر مِنَ الله، من أجل ذلك حَرّم الفواحِشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن، ولا أحد أحَبّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك أَرْسَل الرُّسل مُبشّرين ومنذرين، ولا أحد أحبّ إليه المدح مِنَ الله، من أجل ذلك أثْنى على نفسه»[3].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان.

والله - سبحانه - مع شدّة غيرته - يحبّ أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم، ولأجل ذلك

(١) رواه أبو عمر التوقاني في كتاب: «معاشرة الأهلين».
(٢) رواه البخاري (٩/٥٢٢١)، ومسلم (٩٠١).
(٣) رواه البخاري (١٣/٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

أرسل رسله، وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال، فإن كثيرًا ممّن تشتد غيرتُه من المخلوقين تحمله شدّة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدّة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممّن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلّة الغيرة حتى يتوسّع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال:

«**إن من الغَيْرة ما يُحبها اللّهُ، ومنها ما يَبْغَضها اللّهُ، فالتي يَبْغَضها اللّهُ الغَيْرَة في غَيْر ريبة**» وذكر الحديث[1].

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محلّ الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًّا.

ولمّا جمع الله – سبحانه – صفات الكمال كلّها كان أحق بالمدح من كلّ أحد، ولا يبلغ أحدٌ أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه، فالغيوّر قد وافق ربَّه – سبحانه – في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصّفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربّه، وأدْنَتْهُ منه، وقربته من رحمته، وصيّرته محبوبًا له، فإنه – سبحانه – رحيم يحبّ الرُّحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحبّ العلماء، قويّ يحبّ المؤمن القويّ، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حتى يحبّ أهل الحياء، جميل يحبّ أهل الجمال، وتر يحبّ أهل الوتر.

ولو لم يكن في الذّنوب والمعاصي إلاّ أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصّفات، وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة، فإن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة تقوى فتصير عزيمة، ثم تصير فعلاً، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة.

---

(١) سيأتي بتمامه بعد قليل.

وحينئذٍ يتعذّر الخروج منها، كما يتعذّر الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود: أنه كلّما اشتدت ملابَسَته للذّنوب أَخْرَجت من قَلْبه الغَيْرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يُحَسِّن الفواحش والظّلم لغيره، ويزيّنه له، ويدعوه إليه، ويحثّه عليه، وكذلك مُحلِّل الظُّلْم والْبَغي لغيره ومزيِّنه له.

فانظر ما الذي حملت عليه قلّة الغيرة.

وهذا يدلُّك على أن أصل الدِّين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش. وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة. ومثل الغيرة في القلب مثل القوّة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوّة وَجَدَ الدّاءُ الْمَحَلَّ قابلاً، و لم يجد دافعًا، فتمكّن فكان الهلاك.

ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوّه» ا.هـ[1].

قلت: وهذا الكلام منتزع من قول النبي ﷺ :

«تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصير عُودًا عودًا فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا[2] نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ[3] سَوْداءُ، وأيُّ قَلْبٍ أَنْكَرها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاء، حتى تَصِيرَ على قَلْبين: على أبيضَ مثلِ الصَّفا[4] فلا تَضُرُّه فِتْنَةٌ ما دامتِ السّمواتُ والأرضُ، والآخرُ أسْوَدُ مُرْبَادًا[5] كالْكُوزِ

---

(١) «الداء والدواء» (٧٧- ٨٠).

(٢) **أُشربها:** دخلت فيه دخولاً تامًّا وألزمها وحلّت منه محلّ الشراب.

(٣) **نُكت نُكْتة:** نُقطَ نقطة.

(٤) **الصَّفا:** الحَجَر الأَمْلس الذي لا يَعْلَق به شيء.

(٥) **الرّبدة:** لون بين السّواد والغبرة.

مُجَخِّيًا[١] لا يَعْرِفُ مَعْروفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[٢].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - :

«قال صاحبُ التحرير: معنى الحديث: أن الرّجل إذا تَبع هواه وارتكب المعاصي دخل قَلْبَه بكلّ معصية يتعاطاها ظُلْمة، وإذا صار كذلك فُتِن وزال عنه نورُ الإسلام. والقلب مثل الكُوز فإذا انْكبَّ، انْصَبّ ما فيه و لم يدخْله شيءٌ بعد ذلك» ا.هـ[٣].

أخي المسلم:

إن الغَيْرة شيءٌ غريزي لذا تراها عند بعض الحيوانات!!

فلو نظر المرء منا إلى حيوان ضعيف أليف وديع مثل الحمام فإنه يجد أن أُنثى الحمام لا تسمح لغير ذَكَرِها أن يَعْلوها، وكذلك لا يسمح ذكرُها لغيره أن يمتطيها، بل لا يفكّر أصلاً أي ذكر أن يَنزو على غير أليفته، بما فَطَرَهُ اللّهُ عليه!

فحافظ على هذه الفطرة بلا اختِلال، فأين الشّهامة يا رجال؟!

ذكر البخاري في «صحيحه» عن عمرو بن ميمون الأودي، قال:

«رأيتُ في الجاهلية قِرْدًا زَنَى بِقِرْدَةٍ، فاجتمع القرودُ عليهما فَرَجَموهما حتى ماتا!».

فليتعلم أهلُ الإباحة من القرود وسائر الحيوانات إن لم يتعلّموا من شرع الله، وليتّعظ الذين تأثّروا بالغرب وانسلخوا من هويتهم الإسلامية ورأوا في حدود الله وعقوباته - بزعمهم - شيئًا من الشّدة والقسوة لا تتفق مع روح العصر، وتعارض الحرية الشخصية، وخاصّة حرية المرأة التي أطلقها الغرب باسم التحرير والمساواة، وتحت شعار الديمقراطية التي قررها لها القانون!!»[٤].

---

(١) قال القاضي: «شبه القلب الذي لا يعي خيرًا بالكوز المنحرف الذي لا يثبت فيه الماء» ا.هـ.

(٢) رواه مسلم (١٤٤).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/٢٣١).

(٤) «ولا تقربوا الفواحش» لجمال بن عبد الرحمن إسماعيل (٣٠).

وَمَــنْ يَـتَّخِذِ الغُـرابَ له دَلِـيلاً يَمُــرُّ بِــه عــلى جِـيَفِ الكِــلابِ

ثالثًا: أنواع الغيرة:

عن جابر رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ مِنَ الغَيْرة ما يُحبُّ اللّهُ - عز وجل - ومنها ما يُبْغضُ اللّهُ عز وجل وَمِنَ الخُيَلاْءِ ما يُحبُّ اللّهُ عز وجل ومنها ما يُبْغِضُ اللّهُ عز وجل:

فأمّا الغَيْرةُ التي يُحبُّ اللّهُ عز وجل فالغَيْرةُ في الرِّيبة[1]. وأَمَّا الغَيْرَةُ التي يُبْغض اللّهُ عز وجل فالغَيْرةُ في غَير ريبة.

والاخِتيالُ الّذي يُحبُّ اللّهُ عز وجل اختيالُ الرَّجُل بِنَفْسه عنْد القِتال وعند الصَّدَقة. والاختيالُ الذي يُبْغِضُ اللّهُ عز وجل الخُيلاءُ في الْباطِل»[2].

دلّ هذا الحديث على أن الغَيْرة نوعان:

الأول: نوع يُحبّه اللّهُ تعالى: وهي الغَيْرة في الرِّيبة: أي في الشّك، وهذا الشّك ينتج عن تصرفات وأحوال تطرأ على المرأة تنبئ عن سوء سلوكها: كالتَّبجُّح، والسّفور، وصفاقة الوجه، والتَّجرُّد من الحَيَاء، والتَّبذُّل، وإعلان التمرّد العام على الفضيلة، والشّرف، والميل إلى مخالطة الساقطات وتقليدهن، والسماح لدخول الأجانب بيتها دون ضابط ولا رابط... وغير ذلك من التصرفات المريبة.

والْغَيْرة التي تنشأ عن رُؤية مثل هذه التّصرُّفات، غَيْرة يُحبُّها اللّهُ، وَيُعْلي قَدْر أصحابها، وقد مَدَحَها النبي ﷺ وأثنى على أصحابها في أحاديث، منها:

---

(١) الرِّيبة: الشّك.

(٢) حسن: انظر: «صحيح سنن النسائي» (٢٣٩٨).

(١) عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

لمّا نزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]. قال سعد بن عبادة – وهو سيّد الأنصار– :

أَهَكَذَا أُنزلت يا رسول الله؟

فقال رسولُ الله ﷺ:

« **ألا تَسْمَعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سَيِّدكم!!** ».

قالوا: يا رسول الله، إنّه رجل غيّور، والله ما تزوَّج امرأةً قطّ إلاّ بِكْرًا، وما طَلّق امرأةً قَطّ فاْجترأ رَجُلٌ مِنّا على أن يتزوّجها من شدّة غَيْرته.

فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حَقّ، وأنها من عند الله، ولكن قد تعجّبتُ أن لو وجدت لُكَاع[1] قد تَفَخّذها رَجُلٌ لم يكن لي أن أُهَيِّجه ولا أُحرّكه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لآتي بهم حتى يَقْضي حَاجَتَه، فما لبثوا إلاّ يسيرًا حتى جاء « هلالُ بْنُ أميّة » مِنْ أرضه عَشيًّا، فوجد عند أهله رَجُلاً، فرأى بِعَيْنه، وسمع بأُذنه، فلم يهيّجه حتى أصبح، وَغَدا على رسولِ الله ﷺ، فقال:

يا رسول الله، إني جئتُ أهلي عشيًّا فوجدتُ عندها رجُلاً، فرأيتُ بعيني، وسمعتُ بأُذني، فكره رسولُ الله ﷺ ما جاء به، واشتدّ عليه، فقال سعد بن عبادة:

الآن يضرب رسولُ الله ﷺ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّة، ويبطل شهادته في المسلمين.

فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا، فقال هلال:

يا رسول الله، إني قد أرى ما قد اشتدّ عليك مِمّا جِئْتُك به، والله يعلم أني لصادق. فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضَرْبه إذ نزل عليه القرآنُ، وكان إذا نزل عليه

(١) المراد باللّكع في الحديث: العبد، أو اللئيم.

عرفوا ذلك في تَربّد جِلْده[١] ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ.... ﴾ (الآيات كلها) [النور: ٦ - ٩] [٢].

(٢) وعن المغيرة؛ قال:

قال سعدُ بْنُ عُبادة: لو رأيتُ رَجُلاً مع امرأتي لضربتُه بالسَّيْف غَيْر مُصْفِح[٣] ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال

« **تَعْجَبون من غَيْرة سَعْد، والله لأَنَا أَغْيَرُ مِنْه، واللّهُ أَغْيَرُ مني، وَمِنْ أَجْل غَيْرَة الله، حَرَّم الفواحِشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن، ولا أَحَدَ أَحبُّ إليه العُذْرُ مِنَ الله، وَمِنْ أَجْلِ ذلك بَعثَ الْمُبَشِّرين والمنذرين، ولا أَحَدَ أَحَبُّ إليه الْمِدْحَةَ مِنَ الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِك وَعَدَ اللّهُ الجَنَّة** »[٤].

(٣) وعن حذيفة، قال:

قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر:

« **لو رأيتَ مع أمّ رُومان رَجُلاً ما كنتَ فاعِلاً به؟** ».

قال: كنتُ والله فاعلاً به شرًّا.

قال: « **فأنت يا عمر؟** ».

قال: كنتُ والله فاعلاً. كنتُ أقول: لَعَنَ اللّهُ الأَعْجَز، وإنه لخبيث. قال: فنزلت:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ (الآية)[٥].

---

(١) تربد جلده: تغيّر إلى الغبرة.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في « المسند » (١/٢٣٨)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) **غير مُصْفِح**؛ أي: غير ضارب بصفح السيف، وهو جانبه، بل أضربه بِحَدّه.

(٤) رواه البخاري (٧٤١٦)، واللفظ له، ومسلم (١٤٩٩).

(٥) **صحيح**: أخرجه البزّار في « كشف الأستار » (٢٢٣٧)، وقال الهيثمي في « المجمع »: رجاله ثقات، وقال الدكتور/ أبو عمر نادي الأزهري في « المقبول » (٤٨٣): إسناده صحيح.

هذه بعض الأحاديث التي تمدح أقوامًا تفور دماؤهم في عروقهم إذا حاول كائنٌ من كان النَّيْل من أعراضهم، ومحاولة تلويث سمعتهم وإهانتهم، وتنكيس رءوسهم.

وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على عظمة هذا الدِّين، الذي عظّم الحُرمات، وشرع من التدابير الوقائية، والإجراءات العلاجية، ما يحسم بها مادة الشّر، ويقطع دابر الفساد.

أخي:

إن الغَيْرة حِصْنٌ عظيم، ودرع متين، يَتّقي المسلمُ به كَيْدَ الفَجّار، ويدرأُ به خَطَر الأشرار.

فإن سَقَط عنه ، وتَعرَّى منه، سقط عِرْضُه فريسة للمجرمين، ومرعى للفاجرين.

إنّ الرّجال الناظرين إلى النّساء ... مثل السّباع تطوف باللُّحْمَان

إن لَمْ تَصُنْ تلك اللّحوم أسودُها ... أُكِلَتْ بلا عِوَض ولا أثْمان

وها هو **الحسن البصري** - رحمه الله - يتعجّب من رجال فرّطوا في هذا الخلق الكريم، فسمحوا لنسائهم بمخالطة الفُجّار دون نكير، فيقول:

«أتدعون نساءكم لِيُزَاحِمْن العُلُوجَ في الأسواق قَبّح اللّهُ من لا يغار»[1].

النوع الثاني: **نوع يكرهه الله تعالى**: وهي الغَيْرة في غَيْر رِيبة؛ وهذا النوع ابْتُليَ به بعضُ الأزواج - فهناك من رُزق بزوجة صالحة، تقية، تؤدّي الفرائض، وتجتنب المحارم، وتراقب ربّها، ومع هذا فهو يَتَخَوّنها، ويتتبّع عَوْرتها، يَتَلمَّس لها الثّغرات، ويضخّم لها الهفوات، ويرميها بالفاحشة، وهي أطهر من الماء الطاهر!!

فهذا نوع ركبه الوسواس، أمسك الشيطان بزمامه، وقاده إلى خراب بيته، والإساءة لعِرْضه، وتلويث شرفه.

---

(١) «الإحياء».

وهذا النّوع من الغَيْرة، مرفوض عقلاً وشرعًا.

والمكان الوحيد الذي يسع هذا «الموسوس»: مستشفى الأمراض العقلية، مع المعتوهين والمجانين!، فلا يجوز تركه - هكذا - بلا زمام وخطام، يتهم الأبرياء، ويلوّث سمعة الشّرفاء دون رادع أو مانع.

أخي الكريم:

وأعلى مقامات الغَيْرة؛ الغَيْرةُ على دين الله - تعالى - إذا أُنتهكت حُرُمَاته، أو أُهينَتْ مُقَدَّسَاته.

فبئست الحياة أن نعيش، ويموت ديننا،

وها هو النبي ﷺ يخبرنا أن الله تعالى يَغَار إذا انْتُهِكَت حُرُمَاته:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن الله - تعالى - يغار، وَغَيْرةُ الله أن يأتي المؤمنُ ما حرَّم اللَّهُ عليه»[1] .

فعلى المسلم أن يتخلّق بأخلاق الله - تعالى -، فيغار على دينه، وينتقم مِمّن انتهك حرماته.

فلا يداهن.

ولا يصل حباله بأعداء الله.

ولا يحني رأسه لغير مولاه.

بل يجاهد، ويجالد، ويقاوم، شعارُه في حِلِّه وَتِرْحَاله، في قيامه وقعوده:

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

رابعًا: ثمراتُ الغَيْرة:

وللتخلّق بهذا الخُلُق ثَمَرات، منها:

(١) صيانة الأعراض، وحفظ الحرمات.

(٢) مؤشّر على قوّة الإيمان ورسوخه في القلب.

(٣) تعظيم شعائر الله وحفظ حدوده.

(٤) مظهر من مظاهر الرجولة الحقّة.

(٥) نشر الفضيلة في المجتمع وتطهيره من الرذيلة.

(٦) إفساد مخططات الأعداء.

(٧) مقاومة الشيطان وأعوانه.

هذا، وعلى الله قصد السبيل.



٤٠- القناعة

اعلم - أخي المسلم - أن القناعة: ثمرة من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، بها يرضى الإنسان ربَّه، ويَكْبح جِمَاح نَفْسِه، ويستريح من الجري وراء السّراب.

قال أبو بكر الورَّاق - رحمه الله - : «لو قيل لِلطّمع مَنْ أبوك؟ قال: الشَّكّ في المْقدور، ولو قيل: ما حِرْفَتك؟ قال: اكتساب الذُّل، ولو قيل: ما غايتك؟ قال: الحِرْمَان!»[1].

من أجل هذا، فحديثنا - هنا - يدور حول أربعة أمور:

الأول: تعريف القناعة.

والثاني: فضلها.

والثالث: مواعظ في القناعة.

والرابع: مواقف من حياة أهل القناعة.

أولاً، تعريف القناعة:

القناعة «**لغة**»: مَصْدَرُ يَقْنَعُ قَنَاعة، إذا رَضِيَ.

و «**اصطلاحًا**»: **قال ابْنُ السُّني**: «القناعة: الرِّضا بالْقِسْم».

وتنوَّعت عباراتُ القوم في تعريف القناعة:

قال أبو سليمان الدّاراني - رحمه الله - : «القناعة من الرّضا بمنزلة الورع من الزّهد، هذا أوّل الرّضا، وهذا أوّل الزّهد».

وقال أبو عبد الله بن خفيف: «القناعة: ترك التَّشَوُّف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود».

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٢٤).

وقال محمد بن علي الترمذيّ: «القناعة: رضا النفس بما قسم لها من رزق».

وقيل: القناعة: السكون عند عدم المألوفات.

وقيل: الاكتفاء بالموجود، وزوال الطمع فيما ليس بحاصل.

ثانيا: فضل القناعة:

ورد في فضل القناعة آيات، وأحاديث، وآثار:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٦].

(٣) وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

قال كثير من المفسّرين: «الحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة».

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيائي عندي لمؤمنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ[1]، ذُو حَظٍّ مِنْ الصَّلاة، أَحْسَن عِبادةَ رَبِّه، وأَطَاعَهُ في السِّرّ، وكان غَامِضًا في النّاس، لا يُشَار إليه بالأصابع، وكان رِزْقهُ كَفَافًا، فَصَبَرَ على ذلك» ، ثم نفض بيده، فقال:

(١) خفيف الحاذ: هو الخفيف الظهر من العيال، القليل المال، القليل الحظّ من الدنيا.

« عُجِّلَتْ مَنيتُهُ، قَلَّتْ بَوَاكِيه، قَلَّ تُرَاثُهُ ».

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال:

« عَرَضَ عَلَيَّ رَبي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لاَ يا رَبِّ، ولكن أَشْبَعُ يَوْمًا، وأجوع يَوْمًا - وقال: ثلاثًا أو نحو ذلك: فإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُك، وإذا شَبِعْتُ شَكَرْتُك وَحَمِدْتُكَ »[1].

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« انظروا إلى من أَسْفَلَ منكم، ولا تَنْظُروا إلى مَنْ هو فَوْقَكم، فهو أجْدَر أن لا تَزْدَروا نِعْمَةَ الله »[2].

(٣) وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« ليس الغِنى عن كَثْرة الْعَرَضِ[3]، ولكن الغِنى غِنى النَّفْس »[4].

(٤) وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« مَنْ يَأْخُذُ مِني هذه الكلمات فَيَعْمَل بِهنّ أَوْ يُعَلِّم مَنْ يعملُ بِهنَّ؟ ».

فقال أبو هريرة: قلتُ: أنا يا رسول الله، فَأَخَذ بيدي، وعَدَّ خَمْسًا، قال:

« اتَّقِ الْمَحَارم تكن أَعْبَدَ النّاس، وارْضَ بِما قَسَم اللّهُ لك تكن أَغْنَى النّاس، وأَحْسِنْ إلى جارِك تكن مُؤْمِنًا، وأَحِبّ للنّاس ما تُحبّ لنفسك تكن مُسْلِمًا، ولا تكثرُ الضَّحِكَ، فإن

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٤٧)، وحسنه، وقال محقق « جامع الأصول » ـ ١٣٧/١٠: إسناده حسن.

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)، واللفظ له.

(٣) العَرَض: متاع الدنيا.

(٤) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

كثرةَ الضّحك تُميتُ القَلْبَ»[١].

ومن الآثار:

(١) عن أبي عمرو الشَّيْباني، قال:

سأل موسى – عليه السّلامُ – رَبَّهُ ﷻ: أيْ رَبِّ، أيُّ عِبادِك أحَبُّ إليك؟

قال: أكثرُهُم لي ذِكْرًا.

قال: يا رَبِّ، فأيُّ عِبادك أغْنَى؟

قال: أقْنَعُهُم بما أعْطَيْتُه.

قال: يا رَبِّ، فأيُّ عِبادك أعْدَل؟

قال: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»[٢].

(٢) **وقال بِشْرُ الحافي:** «القناعة مَلك لا يسكن إلاّ في قَلْب مؤمن».

(٣) **وقال ذو النون المصري:** «مَنْ قَنَع اسْتَراح مِنْ أهْل زَمَانه، واسْتطال على أقْرانه».

(٤) وقيل **لأبي اليزيد البسطامي:** بماذا وَصَلْتَ إلى ما وَصَلْتَ؟ فقال:

«جمعتُ أسبابَ الدنيا فربطتُها بحبل القناعة، ووضعتُها في مَنْجنيق الصِّدْق، وَرَمَيْتُ بها في بَحْر اليأس فاسْترحت».

(٥) وقال **الشافعيُّ** – رحمه الله –:

رأيتُ القناعة رأس الغنى ... فَصِرْتُ بأذْيالها مُتَمَسّكْ
فَلاَ ذَا يَرَاني على بَابِه ... وَلاَ ذَا يَرَاني بِه مُنْهَمِكْ
فصِرتُ غَنيا بلا دِرْهَم ... أمُرُّ على النّاس شِبْه الْمَلِكْ[٣]

---

(١) حسن: «صحيح سنن الترمذي» (١٨٧٦).

(٢) أخرجه ابن السّني في كتاب «القناعة»، وقال محققه: رجاله ثقات مشهورين غير شيخ ابن السُّني واسمه «جعفر بن عيسى أبو أحمد الحلواني».

(٣) «ديوان الشافعيّ» (٥١).

وقال - أيضًا - :

قَنَعْتُ بالْقُوتِ مِنْ زَمَاني ... وَصُنْتُ نَفْسِي عن الْهَوانِ

خَوْفًا من الناس أن يقولوا ... فَضْلُ فُلانٍ عَلَى فُلاَنِ

مَنْ كنتُ عن مَالِه غَنيا ... فلا أُبَالي إذا جَفَاني

وَمَنْ رآني بِعَيْن نَقْص ... رأيتُه بالّتي رَآني

وَمَنْ رآني بعَيْن تَمٍّ ... رأيتُهُ كَامِلَ الْمَعَاني[1]

إيضاحٌ مهم:

هذا، وبعض الناس يظن أن شيوع الأحاديث المتقدمة - الداعية إلى الرّضا بقسمة الله، والقناعة - في الأُمَّة يعين على القعود والفتور، وبالتالي يكون سببًا في تخلّفها وإذلالها! وهذا الاعتقاد ليس صوابًا:

قال الشيخ/ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - :

«إن الأحاديث التي ذُكِرَتْ - هنا - صحيحة كلّها. والعَيْب ليس فيها ولا ما في غيرها من تعاليم! وإنما العيب في تحريف الكلم عن مواضعه.

إذا كان الرّضا بالقسمة دينًا فهل نحسب التطلّع إلى ما فوقها زيغًا؟

إليك من سير الأنبياء ما يصرع هذه الشبهة، ويدلّك على أن الطموح لا ينافي خلال المتقين، بل قد يكون سِرّ صَلاحِهم واصطفائهم!

□ ألم تسمع إلى سليمان عليه السلام وهو يطلب من الله مُلْكًا فَذًّا لا يشبهه فيه أحدٌ فيقول:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥].

---

(١) نفس المرجع السابق (٧٥).

فكان من إجابة الله له:

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

إن الله لم يقل له قِفْ عندما قُسِم لك...

- ألم تر أيوب عليه السلام وكان يغتسل عُرْيانًا فوقع عليه جَرَادٌ من ذَهَب، فطارت واحدة، فَجَرى خَلْفَها، فقال اللّهُ له: يا أيوب ألم أكن أَغْنيتُك عن هذا؟

  فقال: بلى، ولكن لا غِنى لي عن بَرَكَتِك[1]...

  فلم يقل اللّهُ له: قف عندما قسم لك.

- وانظر إلى يوسف عليه السلام وهو خارج من السجن وكان بِحَسْبه - وقد أُتيحت له نعمة الحرية بعد اعتقال طويل - أن يحيا في كنفها، قانعًا وادعًا، فأبى لنفسه تلك المنزلة، وقال لعزيز مصر:

  ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٥].

  وامتنّ الله على يوسف إذا تسنم هذا المنصب العالي فقال:

  ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

  و لم يعاتب الله يوسف على هذا التطلّع.

  فلم يقل له: قف عندما قُسم لك...

هؤلاء نفر من المسلمين الكبار لم يخدش الطموح ما عرفوا به من تقوى، ولا نزل بمكانتهم عند الله قَيْد أُنْمُلَة...

---

(١) قال ﷺ:« بينما أيوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خرّ عليه رِجْلُ جَرَادٍ من ذَهَب، فَجَعلَ يَحْثي في ثوبه فناداه ربُّهُ: يا أيوب ألم أكن أغنيتُك عمّا ترى؟ قال: بَلَى يا رَبّ ، ولكن لا غِنى لي عن بَرَكتك» رواه البخاري. ومعنى (رِجْل جراد): أي جماعة جراد.

إن الرّضا بالقسمة قد يكون من الدين، وقد يكون من العَجْز الذي يَزْجُرُ عنه الدِّين إذا سعى الرجل ضاربًا في طول البلاد وعرضها واستنفد قواه في استنباط الخير وتقريب الرزق فإذا هو يدركه الكلال ويداه فارغتان، فهل ينتحر جزعًا، أم يطوي فؤاده على ضرب من السكينة والركون للأحداث؟

وإذا رأى غيره يُؤْتى الكثير، فهل يدع سوارت الضغينة تأكل قلبه لأنه فشل حيث أفلح غيره، أم يرضى عن الآخرين ويعدل في شعوره نحوهم؟

إن الإسلام يوجب الرّضا بالقسمة يوم يكون هذا الشعور النبيل عزاء للمحروم «المجتهد»، أمّا إذا قعد الرجل عن الكسب لإعالة نفسه، وإعزاز شخصه، فرضاه بالمقسوم جريمة خُلُقية!

وإذا أبطأ في توسيع ثروته لتربية أولاده وصيانة حاضرهم ومستقبلهم فرضاه بالمقسوم جريمة اجتماعية[1].

وإذا ترك كيان أُمّته في الميادين العامة يتداعى بالخمول والطراوة، والقنوع بأدنى العيش، فالرّضا بالمقسوم جريمة سياسية.

إن الرّضا المحمود عنوان عاطفة تعمل في نطاق محدود، ومن التزوير أن يؤخذ هذا العنوان ليكون غطاء رذائل نبذها الإسلام، وَعَدَّ أصحابها مرضى.

أمّا الدنيا التي لعنها اللّهُ وازدراها أولو الألباب فهي دنيا الغرور والمفاسد والأهواء، لا دُنيا العمل والغَرْس والكفاح، وَمَنْ مِنَ النّاس يَحْمد هذه الدنيا؟

لقد رأيناها تمزّق الأرحام بين الأخوة والأشقاء وتُغْري بَعْضهم باغتيال البعض وإخماد أنفاسه، استئثارًا بعرض زائل.

لقد رأينا فتنتها تنسج على الأبصار غشاوات جعلت الأرض تسودها الوحشة

---

(١) هذا التوسيع عمل محمود ما دام من حلال، وقد قال الرسول ﷺ: لسعد بن أبي وقاص: «لان تَذَر وَرَثَتك أغنياء خير من أن تذرهم عَالَة يتكففون الناس».

والرهبة. فأينما يممت لا تلمح إلاّ ركض الوحوش تهيّجُها الغرائز الوضيعة، فلا حق ولا خير، ولا أمن، ولا وئام.

أرأيت ألوانها الزّاهية وألحانها السّابية؟ إنها تقبل عليك كالمائدة الحافلة الشهيّة، وتنتهي بك - أو تنتهي معها - مِثْلَما ينتهي الطعام في بَطْنك .. فَضَلاتٍ مُنْتِنَة مزعجة.

قُبِّحَتْ هذه الدُّنيا، ما تَغُر إلا الْحَمْقَى، وما يتمحّض لها إلا المغفّلون»ا.هـ[1].

حكاية:

قال الشَّعْبي: «حُكِيَ أن رَجُلاً صاد قُنبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟

قال: أَذْبَحُكِ وآكلك.

قالت: والله ما أشْفي من قرم، ولا أُشْبع من جوع، ولكن أُعلمك ثَلاَثَ خصال هي خير لك من أَكْلي، أمّا واحدة: فأعلمك وأنا في يدك، وأما الثانية: فإذا صرتُ على الشجرة، وأمّا الثالثة: فإذا صرتُ على الجبل.

قال: هَاتِ الأُولى.

قالت: لا تلهفنّ على ما فاتك. فخلاّها، فلمّا صارت على الشجرة، قال:

هاتِ الثانية:

قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون. ثم طارت فصارت على الجبل تقول:

يا شقيّ لو ذبحتني لأخرجت من حوصَلتي دُرَّتَيْن زِنَةُ كُلِّ دُرّة عشرون مِثْقالاً.

قال: فَعَضّ على شَفَتَيْه وَتَلَهَّف، وقال:

هاتِ الثالثة:

قالت: أنت نسيت اثنتين فكيف أُخبرك بالثالثة، ألم أقل لك: لا تلهفن على ما فاتك، ولا تصدقن بما لا يكون؟ أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف

---

(١) «من معالم الحق» (٩٢ - ٩٤) باختصار.

يكون في حوصلتي دُرّتان كلّ واحدة عشرون مثقالاً؟! ثم طارت فذهبت.

هذا مثال لِفَرط طَمَع الآدمي فإنه يعميه عن دَرَك الحق حتى يُقَدِّر ما لا يكون أنه يكون» ا.هـ[1].

ثالثًا: مواعظ في القناعة :

- قال أبو العتاهية:

رَغِيفُ خُبْزٍ يَابِسٍ ... تَأْكُلُه في زَاوِيَه

وكُوزُ ماءٍ بَارِدٍ ... تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَهْ

وَغُرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ ... نَفْسُكَ فِيها خَالِيَهْ

أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ ... عَنِ الْوَرَى[2] في ناحِيَهْ

تَدْرُسُ فِيه دَفْتَرًا ... مُسْتَنِدًا بِسَارِيَهْ[3]

مُعْتَبِرًا بِمَنْ مَضَى ... مِنَ القُرُونِ الخَالِيَهْ

خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ في ... فَيْءِ القُصُورِ العَالِيَهْ

تَعْقُبُها عُقُوبَةٌ ... تَصْلَى بِنَارٍ حَامِيَهْ

فَهَذِه وَصِيَّتِي ... مُخْبِرَةٌ بِحَالِيَهْ

طُوبَى لِمَنْ يَسْمَعُهَا ... تِلْكَ لَعَمْرِي كَافِيَهْ

فاسْمَعْ لِنُصْحِ مُشْفِقٍ ... يُدْعَى أَبَا العَتَاهِيَهْ[4]

- وقيل: مَرّ أبو حازم – رحمه الله – بجزّار ومعه لحم سمين، فقال:

خُذْ يا أبا حازم فإنه سمين. فقال:

ليس معي دِرْهم. فقال:

---

(١) «تهذيب مكاشفة القلوب» للغزالي (٨٤).

(٢) الورى : الناس.

(٣) السارية : العمود.

(٤) «ديوان أبي العتاهية» (٣٠٧).

أنا أُنْظِرَك. فقال:

«نَفْسِي أَحْسَن نظرة لي منك».

رابعًا: مواقف من حياة أهل القناعة:

القناعة – كما يقولون – كَنز لا يَفْنى، إنها تدلّ على صدق معدن الإنسان، وقوّة إيمانه، وحُسن يقينه، وعظيم توكّله، واستعلائه على شهواته، وقدرته على كَبْح جِمَاح نفسه وإذلال الشيطان.

وهذه مواقف مِنْ حَيَاة أَهْل القَناعة تُكْتَب بِمَاءِ الذّهب على صفحات القلوب:

الموقف الأول: قناعة النبي ﷺ:

والحديث عن قناعة النبي ﷺ حديث يطول، ويكفي أن نشير هنا إلى حديث واحد:

عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت لعروة بن الزبير:

«ابن أختي، إنْ كُنّا لننظرُ إلى الهلال ثلاثةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرين وما أُوقِدَتْ في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ[1]!!

قال عُروة: فقلتُ: ما كان يَعيشُكم؟

قالت: الأَسْوَدَان: التَّمْرُ والماءُ، إلاّ أنه كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار كان لهم مَنَائحُ[2]، وكانوا يَمْنَحُون رسُولَ الله ﷺ من أبياتهم، فَيَسْقِينَاهُ!»[3].

الموقف الثاني: قناعة محمد بن واسع:

قال الإمامُ الغزالي – رحمه الله – :

«كان محمد بن واسع[4] – رحمه الله – يَبُلُّ الْخُبْزَ الْيَابِسَ بالْمَاء ويأْكُلُ ويقول: مَنْ

(١) يعني: لا يطبخون شيئًا.

(٢) المنائح: جمع منيحة وهي العطية، والأصل فيها منحة اللبن.كالناقة أو الشاة تعطيها غيرك يحتلبها ثم يردّها عليك.

(٣) رواه البخاري (٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٣).

(٤) من التابعين.

قَنَع بِهَذا لَمْ يَحْتَجْ إلى أَحَدٍ»[١].

الموقف الثالث: قناعةُ صَفْوَانِ بْنِ سُلَيْم[٢]:

روى كثيرُ بن يحيى، عن أبيه، قال:

«قَدِمَ سُليمانُ بْنُ عبد الملك[٣] المدينة، وعمرُ بْنُ عبد العزيز عَامِلٌ عليها، قال: فَصَلّى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة، واستند إلى المحراب، واستقبل الناسَ بوجهه، فَنَظر إلى «صَفَوانِ بْنِ سُلَيْم»، فقال لعمر:

«مَنْ هذا؟ ما رأيتُ أَحْسَن سَمْتًا منه».

قال: صفوان.

قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار.

فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم.

فأتى حتى جلس إلى «صفوان» وهو يُصَلّي، ثم سلّم، فأقبل عليه، فقال: ما حاجتُك؟

قال: يقولُ أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك.

فقال صفوان: لستُ الذي أُرْسِلْتَ إليه.

قال: ألستَ صَفْوان بْنَ سُلَيْم؟

قال: بلى.

قال: فإلَيْك أُرْسِلْتُ.

(١) «الإحياء» (٣/٢٩٣).

(٢) تابعيّ جليل، كان من الفقهاء العاملين، أَثَّر كَثْرَةُ سُجوده في عِظَامِ جُمْجُمَته!!، تُوفِّيَ سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(٣) أمير المؤمنين.

قال: اذْهَب فاستَثْبِت.

فَوَلَّى الغلامُ، وأخذ «صفوانُ» نعليه وخرَج، فَلَمْ يُرَ بِهَا حتى خرَج سليمانُ من المدينة!»[1].

الموقف الرابع: قناعة سالم بن عبد الله بن عمر [2]:

قال ابْنُ عُيَيْنة: «دخل هشام[3] الكعبة في موسم الحجّ، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال:

سَلْني حَاجَةً؟

قال سالم: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره.

فلمّا خرجا، قال:

الآن فَسَلْني حَاجَة؟

فقال له سالم: مِنْ حَوَائج الدُّنيا أَمْ من حوائج الآخرة؟

فقال: من حوائج الدنيا.

قال: والله ما سألتُ الدّنيا مَنْ يَمْلِكُها، فكيف أسألُها مَنْ لا يَمْلِكها؟!».

أخي المسلم:

هذه مواقف من حياة أهل القناعة، تبين بوضوح عميق إخلاصهم، وصلابة دينهم، ورفضهم لكل محاولات الإغراء، فما أحوجنا إلى هذه الأخلاق في هذا العصر، الذي صَرَع فيه الطمعُ كثيرًا من الناس، فأضلّهم، وأذلّهم، وهزم إيمانهم، وكَسَرهم أمام عدوّهم،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٣٦٨).

(٢) هو: الإمام، الزاهد، القدوة، العابد، الحافظ، مفتي المدينة، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أحد التابعين، تُوفيّ سنة ست ومائة، وصلّى عليه هشام بن عبد الملك.

(٣) هو: هشام بن عبد الملك ، أمير المؤمنين.

وقطع أرحامهم، وكان سببًا مباشرًا في:

- سفك الدماء.
- أكل الحرام.
- ظهور الأنانية.
- فشو الكذب.
- انشار الخيانة.
- شهادة الزّور.
- الغش في البضائع.
- الغش في النصائح.
- الغش في التَّديُّن.
- ظهور الرِّياء.
- ظهور العداء.
- ظهور الخداع.
- ظهور المكر.
- الغيبة.
- النميمة.
- التعامل بوجهين.. إلخ.

هذا، ولا أدْرِي لماذا يطمع الإنسان؟!

ألم يعلم بأن الرزق مقسوم، والأجل محسوم.

يا عباد الله:

«إنه لن تموت نَفْسٌ حتى تَستَوفي رِزْقَها وأَجَلها».

رُفِعتِ الأقلامُ وَجفّت الصُّحُف.

۞۞۞۞۞

٤١ - انْتِظَارُ الْفَرَج

أخي المسلم:

إذا استحكمت الأزماتُ وتعقّدت حبالُها، وترادفت الضّوائقُ وطال لَيْلُها، وتتابعت المصائبُ وكثرت هُمُومُها، فاعلم أن فَرَج الله قريب!

□ قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله - صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين - عند ضيق الحال وانتظار الفَرَج من الله في أحْوج الأوقات إليه» ا.هـ[1].

□ وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

□ وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهاتين الآيتين:

«أي إنّ مع الضّيق والشدّة يسرًا، أي سعة وغنى. ثم كرر فقال: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام، وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسمًا مُعَرّفًا ثم كَرّروه، فهو هو، وإذا نَكّرُوه ثم كَرّروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر؛ قاله ثعلب.

وقال ابن عبّاس: «يقول الله تعالى: خَلَقْتُ عُسْرًا واحدًا، وخَلَقْتُ يُسْرَيْن، ولن

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٧٦٨).

يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن».

وقال ابن مسعود: «والذي نفسي بيده، لو كان الْعُسْرُ في حَجَرٍ لَطَلبه الْيُسْرُ حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن».

وكتب أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر بن الخطاب يذكر جموعًا من الرّوم، وما يُتخوّف منهم؛ فكتب إليه عمر - رضي الله عنهما - :

«أمّا بعد:

فإنه مهما ينزل بعبدٍ مؤمن من منزل شدّة، يجعل اللّهُ بعده فَرَجًا، وإنه لن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن، وإن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»[1].

وللشافعيّ - رحمه الله - :

وَلَرُبَّ نازلةٍ يضيقُ لها الْفَتَى ذَرْعًا، وعند الله منها الْمَخْرَجُ
ضاقت فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُها فُرِجَتْ، وَكُنْتُ أَظُنُّها لا تُفْرَجُ

فيا أيُّها الْمُبْتَلَى:

صَبْرًا جَمِيلاً ما أسْرَع الفَرَجا مَنْ صَدَقَ اللهَ في الأُمور نَجَا
مَنْ خَشِيَ اللهَ لم يَنَلْهُ أَذَى وَمَنْ رَجَا الله كان حَيْثُ رَجَا

هذا، وكم من مِحَن في طَيِّها مِنَح، وكم من بلايا في طَيِّها عطايا!.

فاصبر - أخي الكريم - واعلم أن انتظار الفَرَج عبادة[2].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢٠/٩٥) باختصار.

(٢) عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ : «سَلُوا الله مِنْ فَضْله، فإن الله يُحِبّ أن يُسْأل من فضله، وأفضلُ العبادة انتظارُ الفَرَج» أخرجه الترمذي (٣٥٧١)، وغيره، وإسناده ضعيف، لكن معناه صحيح.

مَفَاتِيحُ الْفَرَجِ:

هذا، وهناك مفاتيح «شرعية» جعلها الله - تعالى - أسبابًا لتفريج الكروب، وستر العيوب، وغفران الذنوب، وحصول المطلوب، ودفع المكروه، وإزالة الهمّ والغمّ، ومن هذه المفاتيح:

الْمِفْتَاحُ الأوّل: الدعاء:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

«الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلّف أثره عنه، إمّا لضعفه في نفسه - بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان - وإمّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا فإن السّهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإمّا لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب ، واستيلاء الغفلة والشهوة واللّهو وغلبتها عليها. كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«ادْعُوا الله وأنتم موقِنون بالإجابةِ، واعلموا أن الله لا يَسْتَجِيبُ دَعَاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ لاهٍ» [(١)].

فهذا دواء نافع مزيل للدّاء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوّته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوّته ويضعفها...

وللدعاء مع البلاء **ثلاث مقامات:**

---

(١) حسن: رواه الحاكم، والترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٢٤٥).

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في «صحيحه» من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ:

«لا يغنى حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، والدّعاء يَنْفع مِمّا نزل وَمِمَّا لَمْ يَنزلْ، وإنّ الْبَلاءَ لينزل فَيَلْقَاه الدّعاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إلى يومِ القيامة»[1] ا.هـ[2].

حكاية أغرب من الخَيال:

قال عَبّاسُ الدُّوري: حدثنا علي بن أبي فَزَارَة - جارُنا - قال:

كانت أُمّي مقعدةً من نحو عشرين سنة، فقالت لي يومًا:

اذهب إلى أحمد بن حنبل، فسله أن يدعو لي.

فأتيتُ، فدققتُ عليه وهو في دِهْليزه، فقال:

من هذا؟

قلتُ: رجلٌ سألتني أُمّي وهي مُقْعَدةٌ أن أسألك الدّعاء، فسمعتُ كَلامه كلام رَجُل مُغْضَب، فقال:

نحن أَحْوج أن تدعو الله لنا.

فَوَلَّيْتُ مُنصرفًا، فَخَرَجَتْ عَجوزٌ، فقالت: قد تركتُه يَدْعو لها، فجئتُ إلى بيتنا. ودققتُ الباب، فَخَرَجَتْ أُمّي على رِجْلَيْها تَمْشِي!!».

(١) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٦)، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٧٧٣٩).

(٢) «الداء والدواء» (١٠، ١١) باختصار.

قال الإمام الذهبي - رحمه الله تعالى - :

« هذه الواقعة نقلها ثِقَتان عَنْ عبّاس» ا.هـ[(١)].

المِفْتَاحُ الثانـي: كَثْرَةُ الذِّكْر:

قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال **ذو النّون المصري** - رحمه الله - :

« مَنْ ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة نَسيَ في جَنْب ذِكْرِه كُلّ شيء، وَحَفِظَ اللّهُ عليه كُلّ شَيء، وكان له عِوَضًا مِنْ كلّ شيء».

وقال **الإمام ابن القيّم** - رحمه الله - :

« أنه ما استُجْلبت نِعَمُ الله ﷻ واستُدفعت نِقَمه بِمثل ذِكْر الله تعالى، فالذّكر جَلاّب لِلنّعم، دافع للنّقم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [الحج: ٣٨]. وفي القراءة الأخرى: ﴿ **إن الله يَدْفَعُ** ﴾، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوّة إيمانهم وكماله، ومادّة الإيمان وقوّته، بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وأكثر ذكرًا كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذِكْرًا بِذكْرٍ وَنِسيّانًا بِنسيّان»ا.هـ[(٢)].

المفتاح الثالث: الصّلاة:

قال ابن مسعود ﷺ: « مَنْ كان في الصَّلاة فهو يَقْرع بابَ الْمَلِك، وَمَنْ يَقْرع بابَ الْمَلِك يوشك أن يفتح له».

وقال **ثابت بن أسلم** - رحمه الله تعالى - : « الصّلاةُ خِدْمَة الله في الأرض، ولو كان شيء أفضل منها لما قال تعالى:

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

---

(١) « سير أعلام النبلاء» (١١/٢١١، ٢١٢).

(٢) « الوابل الصيِّب» (٩٩، ١٠٠).

والصلاة كانت سببًا في نجاة يونس عليه السلام من بطن الحوت. قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٤].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي من المُصَلِّين. ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: عقوبة له؛ أي يكون بطن الحوت قبرًا له إلى يوم القيامة »ا.هـ(١).

المِفْتاح الرابع: الدعاء بدعوة ذي النون عليه السلام:

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **دَعْوَةُ ذِي النّون إِذْ دَعَا رَبَّه وهو في بطن الحوت:** ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ في شيءٍ قَطُّ إلاَّ اسْتُجِيبَ له »(٢).

المِفْتاح الخامس: الإكثار من أدعية علاج الكَرْب؛ وهي:

- عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب:

« **لا إله إلاّ اللّهُ العظيمُ الْحَليمُ، لا إله إلاّ الله رَبُّ الْعَرْشِ العظيم، لا إله إلا اللّهُ رَبُّ السّموات السَّبْع، وَرَبُّ الأرضِ رَبُّ الْعَرشِ الكريم** »(٣).

- وعن أنس، أن رسولَ الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ، قال:

« **يا حَيُّ يا قَيومُ برحَمَتِك أَستَغيثُ** »(٤).

---

(١) تفسير القرطبي (١١١/١٥).

(٢) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٣٥١٦)، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٣٨٣).

(٣) رواه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠)، وغيرهما.

(٤) **حسن:** أخرجه الترمذي (٣٥٣٥)، وانظر: « صحيح الجامع » (٤٧٧٧).

□ وعن أبي بَكرة الثّقفيّ، أن رسول الله ﷺ قال:

«**دَعَواتُ المَكْروب: اللّهمّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فلا تَكِلْني إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأَصْلِحْ لي شَأْني كُلَّهُ، لا إله إلاّ أنت**»[1].

□ وعن أسماء بنت عميس، قالت:

قال لي رسولُ الله ﷺ:

«**ألاَ أُعَلِّمُكِ كَلِماتٍ تَقُولِيهِنَّ عند الكَرْبِ، أو في الكَرب: اللّهُ اللّهُ رَبِّي لا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[2].

المفتاح السادس: الجهاد في سبيل الله:

فعن عبادة بن الصّامت، قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**عليكم بالجهاد، فإنه بَابٌ مِنْ أَبْواب الجَنَّة، يَدْفَعُ اللّهُ به عَنِ النفوس الْهَمَّ والْغَمَّ**»[3].

المِفتاح السابع: الإقبال على الآخرة:

فعن أنس، قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**مَنْ كانت الآخرةُ هَمَّه جَعَل اللّهُ غِنَاهُ في قَلْبه، وجَمَع له شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِمةٌ، وَمَنْ كانت الدّنيا هَمَّه جَعَل اللّهُ فَقْرَه بين عَيْنيه، وفَرَّق عليه شَمْلَه، ولم يأتِه من الدُّنيا إلا ما قُدِّر له**»[4].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٣٨٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وصحّحه الألباني.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣١٤/٥)، وانظر: «الصحيحة» (١٩٤١).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٥١٦).

سمعتُ نبيكم يقول:

«مَنْ جَعَل الهمومَ هَمًّا واحدًا هَمَّ المعاد كَفَاه اللّهُ هَمَّ دُنياه، وَمَنْ تَشَعّبَتْ به الهمومُ أحْوَالَ الدّنيا لم يبالِ اللّهُ ﷻ في أيّ أَوْدِيته هَلَك»[1].

المِفتاح الثامن: الانكسارُ لِلّه تعالى:

وهذا مفتاح عظيم، به ينزل الرّخاءُ، وَيُرْفع البلاءُ، فأين الناسُ منه اليوم؟!.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«هذا عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرّعوا حين نزول العذاب، ويجوز أن يكونوا تضرّعوا تضرُّع من لم يُخْلص، أو تَضَرّعوا حين لابسهم العذابُ، والتضرّع على هذه الوجوه غير نافع. والدعاء مأمور به حال الرّخَاء والشِّدّة» ا.هـ[2].

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله – :

«قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ أي: فهلاّ إذ ابتليناهم بذلك، تضرّعوا إلينا وتمسْكنُوا لدينا، ولكن ﴿ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: مَا رَقّتْ ولا خَشَعَتْ ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي» ا.هـ[3].

قصّة:

وهذه قِصّة تدلّ على فضل الانكسار لله – تعالى – عند نزول البلاء:

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وانظر: «صحيح الجامع» (٦١٨٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/٣٢٢).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/٢١٢).

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في «البداية والنهاية» (٦/٣٦٩):

«قحط الناس أيام القاضي مُنْذِر البلّوطي[1] – رحمه الله – قاضي قضاة الأندلس، فأمر المَلك أن يستسقي للناس، فلمّا جاءته الرسالة مع البريد قال لحاملها:

كيف تركتَ الناس؟

قال: تركتهم أخشع ما يكون وأكثر دعاءً وتضرّعًا. فقال:

«سُقيتمُ والله، إذا خشع جبّارُ الأرض، رَحِمه جبّارُ السَّماء».

ثم قال لغلامه:

ناد في الناس: الصّلاة.

فجاء الناسُ إلى محل الاستسقاء، وجاء القاضي منذر فصعد المنبر والناس ينظرون إليه ويسمعون ما يقول، فلمّا أقبل عليهم كان أوّل ما خطبهم به قال:

﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ثم أعادها مرارًا فأخذ الناس في البكاء والنحيب والتوبة والإنابة فلم يزالوا كذلك حتى سُقُوا ورجعوا يخوضون في الماء!».

فما أحوجنا – في هذا العصر – الذي تكالبت علينا فيه كلُّ قوى الكفر، تريد النَّيْل من ديننا، وعرْضنا، وأرضنا، ومقدساتنا إلى الانكسار لله، والعودة إليه، والبكاء بين يديه، عساه أن يكْشِفَ الغُمّة، ويرحم هذه الأمّة، وهو على كل شيء قدير.

المفتاح التاسع: الإكثار من دعاء علاج الهَمِّ والحزن؛ وهو:

ما رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) هو: «منذر بن سعيد البلّوطي»، قاضي الجماعة بقرطبة، قال ابن بشكوال: «منذر بن سعيد خطيب بليغ مِصْقع، لم يكن بالأندلس أخطب منه، مع العلم البارع، والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم، والدين، والورع، وكثرة الصيام، والتهجّد، والصدع بالحق، كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقى غير مرّة، فسُقِي! ». انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٦/١٧٦).

«ما أصابَ عَبْدًا هَمٌّ ولا حَزنٌ فقال: اللّهم إني عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِك، ابْنُ أمتِكَ، ناصيتي بيدكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضَاؤُك، أسألُك بكل اسْمٍ هو لَك سَمَّيْتَ به نَفْسَك، أو أنزلْتَهُ في كِتابِك، أو عَلَّمْتَه أَحَدًا من خَلْقِك، أو اسْتَأثَرْتَ به في عِلْمِ الغيب عنْدَك، أن تجعل القرآن العَظِيمَ ربيعَ قَلْبي، ونُورَ صَدْري، وَجَلاءَ حُزْني، وَذَهَابَ هَمِّي، إلاّ أذْهَبَ اللّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّه، وأَبْدَلَهُ مَكَانَه فَرَحًا».

المفتاح العاشر: الإكثار من الصَّلاةِ على النبي ﷺ:

عن أُبي بن كَعْبٍ ﷺ قال:

كان رسولُ الله ﷺ إذا ذَهَب ثُلُثَا اللّيل قَامَ فقَال:

«يا أيُّها النّاس، اذْكُروا الله، جاءت الرّاجِفةُ تَتبَعُها الرّادِفَةُ، جاء الموتُ بِمَا فيه».

قال أُبي: قلتُ: يا رسولَ الله، إني أُكْثِر الصّلاةَ عَلَيْك، فكم أَجْعَلُ لَكَ من صَلاَتي[1]؟

فقال: «ما شِئْتَ».

قال: قلتُ: الرُّبع؟

قال: «ما شِئْتَ، فإن زِدْتَ فَهو خَيْرٌ لَكَ».

قال: قلتُ: فالنِّصْف؟

قال: «ما شِئْتَ، فإن زِدْتَ فَهو خَيْرٌ لَكَ».

قال: قلتُ: فالثُّلثين؟

قال: «ما شِئْتَ، فإن زِدْتَ فَهو خَيْرٌ لَكَ».

قلتُ: أجعلُ لَكَ صَلاَتي كُلَّها؟

---

(١) قال الحافظ المنذري: «معناه: أُكْثِرُ الدُّعاء، فكم أجْعَل لك مِن دُعائي صَلاةً عليك» ا.هـ.

قال: «**إذا تُكفَى هَمَّك، ويُغفر لك ذَنْبُك**»[١].

أخي الكريم:

هذه عشرة مفاتيح «شرعية» يدفع اللّهُ بها البلاء، ويُرْخِي بها الرّخاء، وينصر بها على الأعداء، فتمسّك بها، وعَضّ عليها بالنّواجذ، واعلم أن اللجوء إلى الله تعالى في أيام «الرّخاء»، ينفعك في أيام «الشدّة والبلاء»:

قال ﷺ:

«**احْفَظ الله تَجِدْه أمَامَك، تَعرَّف إلى الله في الرّخاء يَعْرِفْكَ في الشدة**»[٢].

نعم - أخي الكريم - مَنْ وَصَل حِباله بمولاه، حفظه وتَولاّه، وَمِنَ كُل كَرْبٍ نَجّاه.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦].

بلى يكفي مَنْ عَبَدَهُ وتوكل عليه.

قال إبراهيم بن مسعود:

«كان رجل من تجّار المدينة يختلف إلى جعفر بن محمد[٣] فيخالطه ويعرفه بحسن الحال، فتغيرّت حالته فجعل يشكو ذلك جعفر بن محمد، فقال جعفر:

فلا تَجْزَع إذا أعْسَرتَ يَوْمًا … فقد أيسَرتَ في الزّمن الطويل

ولا تيأس فإن اليأس كُفْرٌ … لعلّ الله يُغْني عن قليل

ولا تظن بِرَبِّك ظَنَّ سَوْءٍ … فإنّ الله أوْلى بالْجَمِيل

قال: فخرجتُ من عنده وأنا أغنى الناس»[٤].

---

(١) صحيح: رواه الترمذيّ (٢٤٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد (١٣٦/٥)، وغيرهما، وقال الحافظ الهيثميّ في «المجمع» (١٦٠/١٠): «إسناده جيّد».

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، وأبو يعلى (٢٥٥٦).

(٣) هو: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ﷺ، ويسمى جعفر الصّادق.

(٤) «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٩٠).

فَارْضَ - أخا الإسلام - بمواقع القضاء، ولا تجزع لحادثة الليالي، فما لحوادث الدنيا بقاء.

واعلم أن انتظار الفَرَج من الله - تعالى - عبادة.

« اللَّهم اجْعلنا مِمّن توكَّل عليك فكَفَيْتَه، وَمِمّن اسْتَهْدَاك فَهَدَيْته، ومِمَّن اسْتَرحَمك فَرَحِمْتَه ».



٤٢- التّعفّف عَنِ الْمَسْألة

أعجب عندما أرى الناسَ في بلاد الغرب كالنَّحْلِ في خَلاَياها، لا تهدأ لهم حركة، ولا يضعف لهم إنتاج!

بينما نحن في - بلاد الإسلام - لا نزال ندور حول أنفسنا، ونتحرّك في مواضعنا، ونذهل عن مصايرنا!

و لم نتوقّف عند هذا الحدّ، بل هبط مستوانا إلى درجة «التّسوّل»!!

فأين العزّة يا رجال؟!

ومن المسؤول عن هذا التخلّف؟

المسؤول الوحيد: المسلمون. نعم المسلمون الذين أساءوا فهم دينهم ودنياهم، فعاشوا عَالَةً يتكَفّفون الناس، تَمرَّنوا على الذُّل، وَمَرَدُوا على التَّسَوّل، وأصبحوا أحْوج خلق الله إلى نظرة عطف!

يراهم العالَمُ حَيَارى، كُسَالى، يستهلكون كثيرًا، وينتجون قليلاً!!

وليت شعري، هل أمرَهم دِينُهم بهذا؟

اللّهم لا.

إن ديننا الحنيف ذمّ المسألةَ وَزَجَر عنها، **اقرأ:**

□ عن ثوبان ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ يَتقبّلْ لِي واحدةً، أَتقبّل له بالجنّة؟».

قال ثوبان: أنا.

قال: «**لا تسأل النّاسَ شيئًا**».

فكان ثوبان تسقط عِلاقَةُ سَوْطه[١] فلا يَأْمُر أَحَدًا أن يناوله، وَيَنزلُ هو فيأخذها[٢]!

فأين هذا الخُلُق في دنيا المسلمين اليوم؟!

□ وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال:

« لا تزال المسألةُ بأحدِكم حتى يَلْقَى الله تعالى، وليس في وَجْهِه مُزْعَةُ[٣] لَحْمٍ »[٤].

□ وعن سَمُرة بن جُنْدب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« إنّما المسائلُ كُدُوح يَكْدَحُ بِها الرجلُ وَجْهَه، فَمَنْ شَاء أَبْقَى على وَجْهه، ومن شاء تَرَك إلاّ أن يَسْأل ذَا سُلْطَانٍ، أو في أَمْرٍ لا يَجِدُ منه بُدًّا »[٥].

□ وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ سَأَلَ النّاسَ في غَيْرِ فَاقةٍ نزلَتْ به، أو عيالٍ لا يُطِيقُهُم جاءَ يَوْمَ القيامةِ بِوَجْهه لَيْس عَلَيْه لَحْمٌ »[٦].

□ وعنه ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« لَوْ يَعْلَمُ صَاحِبُ المسألةِ مَا لَه فيها لم يَسْأل »[٧].

□ وعن حَبَشِيِّ بن جُنَادة رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) **عِلاَقة السَّوْط**: ما في مقبضه من السَّيْر.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/٢٧٥)، وأبو داود (١٦٣٩)، وغيرهما.

(٣) **الْمُزْعَةُ**: القطعة.

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٥) **صحيح**:رواه أبو داود، وغيره، وانظر: « صحيح الترغيب » (٧٨٧)، **والكُدُوح**: آثار الخموش.

(٦) **حسن**: انظر: « صحيح الترغيب » (٧٨٩).

(٧) **حسن**: رواه الطبراني في « الكبير »، وانظر: « صحيح الترغيب » (٧٩٢).

«مَنْ سَألَ مِنْ غَيْرِ فَقْرٍ، فكأنّما يأكُل الْجَمْر»[١].

- وعن عليّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ سَأل مَسْألَةً عَنْ ظَهْرِ غِنىً، اسْتكْثَر بها من رَضْفِ جَهَنّم[٢]».

قالوا: وما ظَهْرُ غِنىً؟

قال: «عَشَاءُ لَيْلة»[٣].

- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«اسْتَغْنُوا عن النّاس ولو بِشَوْصِ السِّوَاك»[٤].

- وعن سَهْل بن سعد ﷺ قال:

جاء جبريلُ إلى النبي ﷺ فقال:

«يا مُحمّد عِشْ ما شئتَ فإنّك مَيّتٌ، واعْمَلْ ما شئتَ فإنّك مَجْزِيٌّ به، وَأَحْبِبْ مَنْ شئتَ فإنّك مُفَارِقُهُ، واعْلَم أن شَرَف المؤمنِ قِيَامُ اللّيْلِ، وعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤه عَنِ النّاس»[٥].

هذه بعض النصوص الدّالة على أنّ الإسْلاَم بَرِيءٌ مِمَّا نُسب إليه «ظُلْمًا وزورًا» من أنه دين يدعو إلى التخلّف، ويحث على البطالة، ويحضّ أهله على التواكل والاسترخاء.

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٧٩٦).

(٢) الرَّضْف: الحِجَارة الْمُحَمّاة.

(٣) صحيح: رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على «المسند»، والطبراني في «الأوسط»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٧٩٨).

(٤) صحيح: رواه البزار، والطبراني بإسناد جيد والبيهقي، وانظر: «صحيح الترغيب» (٨١٢).

(٥) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن، وانظر: «صحيح الترغيب» (٨١٧).

أخي الكريم:

إنَّ سرّ تأخرّ المسلمين ليس دينهم - حاشاه - إنما الْحَوَل الفكري الذي تسلل إلى أدمغتهم وهم لا يشعرون من قِبَل الأَعْدَاء والأَدْعِياء على حَدٍّ سواء.

يقول الشيخ/ محمد الغزالي - رحمه الله - :

«إن ثمرة التدين لا تتأخّر إلى ما بعد الموت.. إن الإسلام ضمان يومنا العاجل، وحياتنا الأُولى، إنه مَجْدُنا هنا قبل أن يكون سَعْدُنا هناك...! والذين هَكوا قوى الإيمان، ونكّسوا في بلادهم راية الدين بدأوا يتجرّعون الآثار الْمُرَّة لذلك الانحلال، لأهم خلقوا مجتمعات منحلّة كسولةً، وأنشأوا أجيالاً ظالمة مُظْلمة لا تُحْسن صُنعًا ولا تبلغ هدفًا...

والشكوى الآن عالية من ضعف الإنتاج وسوء الإدارة، وهما مرضان يورثان التخلُّف السياسي والفشل الاقتصادي، بل هما من وراء التخلّف الإنساني الذي يُوصَم به العالم الثالث، ويُحرمه كل تقدير!

وما ضعف الإنتاج وسوء الإدارة إلا نتائج ضعف اليقين، وغياب العزم، وسيادة الهوى، وإظلام العقل.

كان العامل - أيّام الرجعية كما يقولون - يحسن ما بين يديه ، ويخرجه مُتقنًا أو أقرب إلى الإتقان، ويحمد الله على التوفيق، ويتناول أجره فينفقه في مواضعه المشروعة، ويَلْحقه من بركات الله ما يمنحه الرِّضا...

ثم تغيّرت الأحوال، وامتدت العين إلى مزيد من المتاع، وجمعت الشهوات، فمع الطعام غناءٌ، ومع الغناء نساءٌ، ومع النساء خمرٌ، ومع الخمر مخدراتٌ، وأمسى الأَمْرُ فُرُطًا، ووقف العامل أمام آلته أو في إدارته، يطلب حقوقًا ولا يُؤدِّي واجبات، ويكثر اللغو ولا يُحْسن العمل...

وتَعَلّم من حُدَاة الرَّكْب ألا يسمع حديثًا عن الله، وألا يتعوَّد التَّردّد على المسجد، وألا يتعلّق بالدّار الآخرة.

وتراكضت النتائج المفزعة، فإذا الدّول ترهقها الديون، وكانت من قبل خالية البال، وإذا الدّول الغنية يتفلّت ثراؤها من بين أصابعها، ويلوح أمامها شبح الضَّياع...

وكأن الأرض كَفَّت عن الإثمار، وكان من قبل عطاءً مِدْرَارًا...

وأرسلتُ عيني إلى أجهزة الإدارة فرأيتُ العجب! هذا طلب لإنسان يشكو ضُرًّا نزل به، لقد تحوّلت الورقة الواحدة إلى ملف كبير، وما انكشف ضُرٌّ ولا تحقّقت مصلحة!

إن العمل صوريٌّ لا صلة له بالواقع، ومثل هذا السلوك لا جدوى منه أبدًا...

إن الذي يتحرك في موضعه لا يقطع مرحلة ولا يحقّق هدفًا، وتلك حالنا في غياب الدين، وضعف اليقين، وانقطاع حبلنا مع الله»ا.هـ[1].

هذا تَصْويرٌ دقيق لحالنا لذا سجلناه بتمامه؛ إن الأمّة الإسلامية لن ترفع رأسها، ولن تلتقط أنفاسها، ولن تسترد مكانتها، إلاّ إذا عادات لدينها، فأخذته كاملاً غير منقوص، لأن التطبيق المشوّه للإسلام في شتى نظم الحياة، لن يحقق الهدف الذي جاء به الدينُ الكامل.

أقول هذا، لأن بُلْدانًا إسلامية طبقت أجزاء من دينها وأهملت أجزاء، فلم تستطع أن تقيم نفسها وسط الأُمم، فظن المغفّلون والحاقدون أن الإسلام لا يصلح لقيادة الدنيا!!.

أخي المسلم:

إن التَّسَول – لغير ضرورة – يُعَدّ عملاً قبيحًا، وفعلاً مشينًا، وعادة سيئة، وجريمة في حق مِلّتنا وأُمّتنا، هذا إذا كان على مستوى الأفراد.

أمّا إذا كان على المستوى الدّولي، فالجريمة أبشع، والعمل أقبح.

وأعجب عندما أرى متسوّلين يجوبون البلاد طولاً وعرضًا، يجمعون ملايين الجنيهات، ويتفننون في اختراع إصابات وآفات وبليّات، يستدرّون بها عطف الناس، مع

(١) «الحق المر» (١٣٢، ١٣٣).

أنهم – في الحقيقة – يتمتعون بصحّة تنحت من الجبال بيوتًا!!

إن هؤلاء في نظر الشرع «لصوص»، يأكلون سُحْتًا، وإن كانوا في نظر الناس يَسْتَحقّون عَطْفًا!!

إنّهم وَبالٌ على مِلّتِهم، وَوَباءٌ على أُمّتهم.

طَهّر اللّهُ الأرضَ مِنْ أمثالهم، وَعَجّل بمماتهم.

عن أبي بِشْر قُبيصَة بن الْمُخَارق ﷺ قال:

تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً[١]، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ أسْأَلُهُ فيها، فقال:

«**أَقِمْ حَتّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةَ فَنَأْمُرَ لَكَ بِها**»، ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تَحِلُّ إلا لأَحَدِ ثَلاثَةَ:**

رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالةً فَحَلَّتْ له المسألةُ حتى يُصِيبَها ثُمَّ يُمْسِكَ.

وَرَجُلٍ أصَابته جَائِحةٌ[٢] اجْتَاحَت مَالَهُ فَحَلَّتْ له المسألةُ حتى يُصيب قَوَامًا[٣] مِنْ عَيْشٍ– أو قال – : **سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ.**

وَرَجُلٍ أَصَابَتْه فاقةٌ[٤] حتى يقول ثلاثةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَى[٥] مِنْ قَوْمه: لقد أصابَتْ فلانًا فاقَةٌ، فَحَلّت له المسألةُ حتى يُصيب قَوَامًا مِنْ عَيْش – أو قال – : **سِدَادًا[٦] مِنْ عَيْشٍ.**

فما سِواهُنّ من المسألة يا قُبيصَةُ سُحْتٌ يأكُلُها صاحِبُهَا سُحْتًا»[٧].

---

(١) الحَمَالة: الدّية يتحملها قوم عن قوم، وقيل: هو ما يتحمله المصلح بين فئتين في ماله ليرتفع بينهم القتال ونحوه.

(٢) الجائحة: الآفة تصيب الإنسان في ماله.

(٣) القوام: ما يقوم به حال الإنسان من مال وغيره.

(٤) الفاقة: الفقر والاحتياج.

(٥) الحجى: العقل.

(٦) السِّداد: ما يسدّ حاجة المعوز ويكفيه.

(٧) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

بَيَّن هذا الحديث: من تحلُّ له المسألة، ومن لا تحلّ له المسألة.

كما بيَّن: أن من سأل الناس من غير سبب «شرعي» إنما يأكل سُحْتًا!

وعن حَبَشِيّ بن جُنَادة ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ في حَجَّة الوداع وهو واقفٌ بعرفة أتاه أعرابي فأخذ بطَرَف رِدائه فسأله إيَّاهُ فأعْطَاه وَذَهَب، فعند ذلك حُرِّمت المسألةُ، فقال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ المسألةَ لا تَحِلُّ لِغَنيٍ وَلاَ لذي مِرَّةٍ[1] سَوِيٍّ[2] إلاّ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ، وَمَنْ سَألَ النَّاسَ لِيُثْرِيَ به مَالَهُ كانَ خُمُوشًا في وجهه يَوْمَ القيامة، وَرَضْفًا يأكُلُهُ مِنْ جَهَنَّم، فَمَنْ شاءَ فَلْيُقْلِلْ، وَمَنْ شاءَ فَلْيُكْثِرْ، وإني لأُعطِي الرّجُلَ العَطِيَّةَ فَيَنْطلِقُ بها تَحْتَ إبِطه، وما هِي إلاّ النَّارُ».

فقال له عمر: ولم تعطِي يا رسول الله ما هو نارٌ؟

فقال: «**أَبَى اللّهُ لِي الْبُخْل، وأبَوْا إلاّ مَسْألَتي**».

قالوا: وما الغني الذي لا تنبغي معه المسألة؟

قال: «**قَدْرُ ما يُغَدِّيه أو يُعَشّيه**»[3].

فيا أخا الإسلام:

لا تَخْضَعنّ لمخلوقٍ على طَمَعٍ ... فإن ذاك مُضِرّ منك بالدِّين
واسترزق الله مِمّا في خزائنه ... فإنّما هي بين الكافِ والنّون

وعليك بمفاتيح الرزق، وهي كثيرة، منها:

---

(١) المِرَّة: الشّدة والقوة.

(٢) السَّوِي: التامّ الْخَلْق، السّالم مِنْ مَوَانع الاكتساب.

(٣) صحيح: رواه رزين بهذا التمام، والترمذيّ مختصرًا، وصحّحه الألباني.

(١) الاستعفاف:

فعن حكيم بن حِزَام ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«اليدُ العُلْيا خَيْرٌ من اليد السُّفلى، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْر الصَّدَقَةِ ما كان عَنْ ظَهْرِ غِنىً، ومن يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللَّهُ»[١].

(٢) تحريك سلسلة الأسباب:

وأعني بها: السّعي في طلب الرزق. قال تعالى:

﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥].

(٣) الهمّة في طلب الرزق:

وهذا شيء زائد عن السبب السابق؛ وتنشأ هذه الهمّة نتيجة شعور داخلي، وحرص باطني على أهمية صيانة الوجه عن ذُلّ السؤال:

قال محمود الورّاق:

لا تَحسَبَنّ الموتَ مَوْت البِلَى ... فإنما الموتُ سُؤال الرِّجَال
كلاهما مَوْتٌ ولكن ذَا ... أشدّ مِنْ ذاك لِذُلّ السُّؤال

وقال غيره:

وَنَقْلُ الصّخْر من تلك الجبال ... أَخَفّ عليّ من مِنَن الرِّجال
يقول الناسُ كَسْبٌ فيه عَارٌ ... فقلتُ: العَارُ في ذُلّ السّؤال

(٤) التوكّل على الله:

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

قال رسول الله ﷺ:

«**لو توكلْتم على الله حَقّ تَوكُّله، لَرَزَقكم كما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوح بِطَانًا**»[١].

(٥) الدّعاء بالسَّعة:

فعن خالد بن الوليد ﷺ أنه شَكَا إلى رسولِ الله ﷺ الضِّيق في مَسْكنه، فقال: «**ارفع يديك إلى السماء، وَسَلِ الله السّعة**»[٢].

(٦) القناعة بما قسم الله:

ولا تعني القناعة - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - الكسل والفتور والتراخي في الأسباب! لا، إنما تعني: بذل المجهود، ثم الرّضا بما قسم الله.

قال رجل: يا رسول الله، أوصني؟ قال:

«**عَلَيْكَ باليأس مِمّا في أيدي الناس فإنه الغنى، وإيّاك والطَّمَع فإنه الْفَقْر الحاضر، وَصَلِّ صَلاَتك وأنت مُوَدّع، وإيّاك وما يُعْتَذَرُ منه**»[٣].

(٧) القضاء على كل مظاهر الإسراف:

فالإسْراف عَدوّ الغِنَى، وأعظم البلاء: اجْتِماع الإسْراف مع الفقر!! فهل يطيبُ عَيْشٌ بينهمَا؟!

قال تعالى: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ [الطلاق: ٧].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/٣٠)، والترمذي (٢٤٤٧)، وغيرهما.

(٢) رواه الطبراني بإسنادين، أحدهما حسن.

(٣) حسن: أخرجه أحمد (٥/٤١٢)، وابن ماجه (٤١٧١)، وغيرهما.

أخي المسلم:

هذه بعض أسباب استدرار الرّزق، والحفاظ عليه، وقد ذكرنا في خُلُق « السّعي على الرزق » المزيد من هذه الأسباب فانظرها. والله الموفق.



٤٣- الزِّيارَةُ في اللّهِ تعالى

اعلم - أخي المسلم - أن «**الزيارة في الله تعالى**» لها فضائل وآداب:

أمَّا فضائلها:

فقد ورد في فضائلها عدّة أحاديث، منها:

(١) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«**أن رَجُلاً زارَ أخًا له في قَرْيةٍ أُخرى، فأرْصَدَ**[1] **اللّهُ له على مَدْرَجَتِه**[2] **مَلَكًا، فلمّا أتى عليه قال:**

أيْن تُريد؟

قال: أُريد أخًا لي في هذه القرية.

قال: هل لَكَ عَلَيْه مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها؟[3]».

قال: لا، غير أني أحببتُه في الله ﷻ.

قال: فإني رسولُ اللهِ إليك بأن الله قد أحبَّك كما أَحْبَبْتَه فيه»[4].

قال الإمامُ النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث:

«قوله: «**بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه**» قال العلماء: محبّة الله عَبْده هي رحمته له، ورضاه عنه، وإرادته له الخَير، وأن يفعل به فعل المحبّ من الخير. وأصل المحبّة في حق العباد ميل القلب، والله تعالى منزه عن ذلك.

---

(١) أرصد: أقعد.

(٢) مدرجته: طريقه.

(٣) تربّها: أي: تقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذلك.

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٧).

وفي هذا الحديث: فضل المحبّة في الله تعالى، وأنها سبب لحب الله تعالى العبد، وفيه فضيلة زيارة الصّالحين والأصحاب، وفيه أن الآدميين قد يَرَوْن الملائكة»ا.هـ[١].

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«مَنْ عَادَ مَرِيضًا أو زارَ أخًا له في اللهِ ناداه مُنَادٍ: أن طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وتَبَوَّأْتَ مِنَ الجنَّة مَنزلاً»[٢].

قال العلاّمة المباركفوري – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث:

«قوله: «**من عاد مريضًا**» أي: مُحْتَسِبًا «**أو زار أخًا له**» أي: في الدِّين «**في الله**» أي: لوجه الله لا للدنيا «**ناداه مُنَادٍ**» أي: مَلَكٌ «**أن طِبْتَ**» دعاء له بطيب عَيْشه في الدّنيا والأخرى «**وطاب ممشاك**» مصدر أو مكان أو زمان مبالغة. قال الطيبي: كناية عن سيره وسلوكه طريق الآخرة بالتعرّي عن رذائل الأخلاق والتحلّي بمكارمها «**وتبوأت**» أي: تهيّأت «**من الجنّة**» أي: من منازلها العالية «**منزلاً**» أي: منزلة عظيمة ومرتبة جسيمة بما فعلت. وقال الطيبي: دعاء له بِطِيب العيش في الأخرى، كما أن طبت دعاء له بطيب العَيْش في الدّنيا، وإنّما أخرجت الأدعية في صورة الأخبار إظهارًا للحرص على عيادة الأخيار»ا.هـ[٣].

(٣) وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ألا أُخبِرُكم بِرِجَالكم في الجنّة؟»

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: **«النبي في الجنّة، والصِّدِّيقُ في الجنّة، والرّجُلُ يَزُور أَخَاه في ناحية الْمِصْرِ لا يَزُورُهُ**

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/٩٦).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٠٠٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٣) «تحفة الأحوذي» (٥/٤١٦).

إلا للّه في الجنَّة».

ألا أُخبِرُكم بنسائكم في الجنة؟».

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: «وَدُودٌ وَلُودٌ إذا غَضِبَتْ أَوْ أُسِيءَ إليها أَوْ غَضِبَ زَوْجُها قالت: هذه يَدِي في يَدِك لا أَكْتَحِلُ بِغَمْضٍ[1] حتى تَرْضى»[2].

ولن تحقق الزيارة هذه الثمرات: إلاّ إذا كانت «لِلّه» ثمّ توفّرت فيها الآداب الشرعية الآتية:

ثانيا: آداب الزّيارة في الله:

للزيارة في الله عدة آداب شرعية، منها:

الأدب الأوّل: ***إخْلَاص النية***؛ بمعنى: أن تكون لله تعالى:

قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[3].

أما إذا كانت الزيارة لهدف خبيث - كغالب زيارات اليوم: يزور من أجل إقامة علاقة آثمة مع زوجة أو أخت صاحبه!

أو يزور للتجسسّ، وكشف العورات!؛ فهذه زيارة مشؤومة، والسّاعي إليها آثم خبيث النفس.

الأدب الثاني: اختيار الوقت المناسب للزيارة:

فلا يتعيّن وقت الطعام والنّوم، فغالبًا ما يضيقَ صَدْرُ المزور بالزائر في هذين الوقتين.

أمّا إذا ضرب الطرفان موعدًا مسبقًا، فلا حرج.

---

(١) أي: بنوم.

(٢) حسن: رواه الطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٦٠٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٨].

فهذه آداب «مهمّة» أدّب اللهُ - تعالى - بها المؤمنين؛ فما أحوجنا إليها - خصوصًا في عصرنا - الذي انتشرت فيه الفوضى في كلّ شيء.

الأدب الثالث: مراعاة الآداب الشرعية في الاستئذان:

وقد بيّنّاها في خُلُق «الاستئذان» فانظرها هناك.

الأدب الرابع: تخفيف الزّيارة:

يدلّ على هذا الأدب، قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ ﴾ (الآية) [الأحزاب: ٥٣].

فللناس أشغال، ولهم أعمال، فينبغي مراعاة ذلك.

لكن إذا رغب المزور في إطالة مدّة الزّيارة - وَعُلِمَ منه ذلك - فلا بأس بالإطالة حينئذ.

الأدب الخامس: لا يَتَقَدّم على الْمَزور في مَجْلِسٍ ولا في صَلاة إلاّ بإذْنِه:

وقد ورد النّهيُ عن ذلك في أحاديث، منها:

أ- عن مالك بن الحويرث ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **مَنْ زَارَ قَوْمًا، فلا يؤمّهم، وَلْيَؤمّهم رَجُلٌ مِنهم** »[1].

ب- وعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **لا يُؤَمُّ الرّجُلُ في سُلْطانه، ولا يُجْلَسُ على تَكْرِمَته**[2] **في بيته إلا بإذْنِه** »[3].

قال ابْنُ العربي في « عارضة الأحوذي »:

« إذا كان الرّجُلُ من أهل العلم والفَضْل، فالأفضل لصاحب المنزل أن يُقدِّمه، وإن استويا فمن حُسْن الأدب أن يَعْرِضَ عليه » ا.هـ[4].

الأدب السادس: أن يَغُضَ بَصَره عن عورة أهل البيت:

فلا يَتخوَّن صَاحِب البيت، ولا يُسَارقه النّظر، ولا يُكثر الالتفات كاللّص فإن ذلك من سوء الأدب، ويدل على خبيئة سيئة.

قال ابْنُ عبّاس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى:

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

هو الرّجُل يَنْظُر إلى المرأة فإذا نَظَر إليه أصحابُه غَضَّ بَصَره، فإذا رأى منهم غفَلة تدسَّس بالنّظر، فإذا نظر إليه أصحابهُ غَضّ بَصَرَه، وقد علم اللّهُ ﷻ منه أنه يودّ لو نَظَر إلى عَوْرَتها.

(١) صحيح « صحيح سنن أبي داود » (٦٠٩).

(٢) التكرمة: المكان الْمُعَدّ لجلوس صاحب البيت.

(٣) صحيح رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(٤) « تحفة الأحوذي » (١٦١/٢).

الأدب السابع: أن لا يتدخل فيما لا يَعْنيه:

فلا يسأل عمّا يخص أهل البيت من أسرار، اللّهم إلا إذا طُلب منه ذلك.

فعن أبي هريرة ﵁ قال:

قال رسول الله ﷺ :

«**مِنْ حُسْنِ إسْلامِ الْمَرْءِ: تَرْكُه مَا لاَ يَعْنيه**»[(١)].

أي: ما لا يهمّه من أَمْر الدِّين والدّنيا من الفعال والأقوال[(٢)].

هذا، وفي المقابل: فعلى المزور أن يُكْرِم زائرَه، بما في مقدوره دون إجهاد.

وقد ورد في إكرام الضيف أحاديث وآثار:

فمن الأحاديث:

عن أبي هريرة ﵁ قال:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال:

إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت:

لا والذي بعثك بالحقّ ما عندي إلا ماءٌ، ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك، حتى قُلْن كُلُّهنَّ مِثْلَ ذلك: لا والذي بعثك بالحقّ ما عندي إلا ماءٌ، فقال:

«**مَنْ يُضيفُ هذا اللَّيْلَةَ رَحِمَه الله**».

فقام رجلٌ من الأنصار فقال:

أنا يا رسول الله.

فانْطَلَقَ به إلى رَحْلِه فقال لامْرَأَتِه:

---

(١) حسن : رواه الترمذي (٢٧١٣)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) «شرح الأربعين النووية» (ص٥٥).

هل عِنْدك من شَيءٍ؟

قالت: لا، إلاّ قوتَ صبياني.

قال: فَعَلِّليهم بشَيءٍ، فإذا أرادُوا العَشَاءَ فَنَوِّميهم، فإذا دَخَل ضَيْفُنا فأطْفئي السِّرَاجَ، وَأريه أنّا نأكلُ- وفي رواية: فإذا أهْوى لِيأْكُلَ، فَقُومي إلى السِّراج حتى تُطْفئيه - قال:

فَقَعدوا وأَكَل الضّيفُ، وبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمّا أَصْبَحَ غَدَا[1] على رسولِ الله ﷺ فقال

« قد عَجِبَ اللّهُ من صَنيعكما بِضَيْفِكما ». زاد في رواية فنزلت هذه الآية:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩][2].

ومن الآثار:

عن إبراهيم بن نشيط - رحمه الله - أنه دَخَلَ على عَبْدِ الله بن جَزْءٍ الزَّبيديِّ ﷺ، فرمى إليه بوسادة كانت تحته، وقال:

« مَنْ لَم يُكْرِم جليسه فَلَيْس من أحمدَ، ولا من إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام »[3].

والخلاصة أن الزيارة نوعان:

الأوّل: زيارة لله تعالى: ويترتب عليها ما سبق من فضل.

النوع الثاني: زيارة لغير الله: وهي شؤم على صاحبها.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

« الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرّته أرجح من منفعته، وأقلّ ما فيه أنه يفسد القلب ويضيّع الوقت.

---

(١) أي: الأنصاري.

(٢) رواه مسلم، وغيره.

(٣) قال المنذريّ في « الترغيب » (٣٦٨٩): رواه الطبراني موقوفًا، ورواته ثقات.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة، والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه **ثلاث آفات**:

أحدها: تزيّن بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة: فالاجتماع والخلطة لقاح إمّا للنفس الأمّارة، وإمّا للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللّقاح، فمن طاب لقاحُه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيّبة لقاحها من الملَك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله - سبحانه - بحكمته الطّيّبات للطّيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك»ا.هـ[1].

أخي المسلم:

وإنّما أَجْزَل اللّهُ - تعالى - للّزائر والمزور الثّواب، لِمَا يترتب على الزّيارة من بركات، فَهي سَبَبٌ في:

- مسح الآلام.
- وحلّ المشكلات.
- وتوطيد العلاقات.
- وإدخال السّرور.
- وإظهار الوحدة وتماسك المجتمع.
- وصلة الرّحم: العامّة والخاصّة.
- والتعاون على البرّ والتقوى.
- وإفساد مخططات الشيطان.

---

(١) «الفوائد» (٤٧).

وفوق كلّ ذلك:

- مرضاة الرحمن.
- ونيل مَحَبَّته.
- ودخول الجنة.

هذا، وعلى الله قصد السبيل.



٤٤- الاسْتِئْذَان

اعلم – أخي المسلم – أن البيت في الإسلام له حُرْمَة يجب أن تُرَاعى وَتُحتَرم.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل: ٨٠].

أي: «تكنّكم من الحرّ والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة»[1].

«وإنّما سُمِّي البيت «سَكَنًا» لأنّه محل الارتياح، والاطمئنان، والاستقرار، والأمان؛ فالبيت هو آخر ملاذ لصاحبه؛ فإذا فقد السكينة فيه، فأين يذهب بعد بيته؟!

إن البيتَ كالْحَرَم الآمِن لأهله؛ لا يستبيحه أحدٌ إلاّ بعلم أهله وإذنهم، في الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبّون أن يلقوا عليها النّاس، ولا يحلّ لأحدٍ أن يَتطفّل على الحياة الخاصّة للأفراد؛ بالاستنصات، أو التّجسس، أو اقتحام الدّور، ولو بالنّظر من قريب، أو بعيد، بمنظار، أو بدونه»[2].

ولأهمّيّة «الاستئذان» ، فالحديث – هنا – يدور حول ثلاثة أمور:

الأول: تعريف الاستئذان.

والثاني: حُكمه.

والثالث: كَيْفيّته.

والله الهادي إلى الصّواب.

---

(١) «تفسير السّعدي» (٤٤٥).

(٢) «الأدب الضائع» للشيخ/ محمد بن إسماعيل المقدّم (٦).

أوّلاً، تعريفُ الاسْتِئْذان،

الاستئذان «**لُغَةً**»: طَلَبُ الإذن، والإْذن: مِنْ أَذِنَ بالشَّيء إذْنًا بمعنى أَبَاحَهُ؛ وعليه فإن الاستئذان: طلب الإباحة.

و «**اصطلاحًا**»: **قال الْجُرْجَانِي**: «الإِذْنُ: فَكُّ الحَجْرِ وإِطْلَاقُ التَّصَرُّف لِمَنْ كان مَمْنُوعًا شَرْعًا»[1].

وهذا تعريفه عند الفقهاء، أمّا الاستئذان الذي تتعلّق به الصّفة فقد أشار **ابنُ حجر** – رحمه الله – إلى بعض أنواعه فقال في «الفتح» (١١/٣):

«الاستئذان: طَلَبُ الإذْنِ في الدّخول لِمَحَلٍّ لا يَمْلِكُه الْمُسْتَأْذِن»ا.هـ.

ثانيا، حُكْمُ الاسْتِئْذان،

الاستئذان: «**واجب**» على الناس أجمعين، إن احتلموا.

والأدلة على وجوبه:

(١) قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

قال الإمام الفخر – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«أوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلاّ بعد الاستئذان والسلام، لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرّة ما لا خفاء به»ا.هـ[2].

(٢) وعن عطاء، قال:

قلتُ لابن عباس: أَسْتَأْذِنُ على أُخْتِيَ؟

فقال: نعم.

---

(١) «التعريفات» (١٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٢/٥٢٤).

فأعدت فقلتُ: أُخْتَان في حِجْري - وأنا أَمُونُهما[١] وأُنفِقُ عَلَيْهما - أَسْتَأْذِنُ عليهما؟

قال: نَعَم. أَتُحِبُّ أن تَرَاهُما عُرْيَانَتَيْن؟ ثُمَّ قرأ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ ﴾ [النور: ٥٨].

قال: فلم يُؤْمَرْ هَؤُلاء بالإذْنِ إلاّ في هذه العَوْرَاتِ الثّلاث. قال:

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ [النور: ٥٩].

قال ابن عباس: فالإذْنُ واجِبٌ، زاد ابنُ جُرَيْج: على النّاس كُلِّهم»[٢].

(٣) وقال جابرُ بن عبد الله - رضي الله عنهما - :

«يستأذنُ الرّجُلُ على وَلَدِه وأمِّه - وإن كانت عَجُوزًا - وأَخيه وأخته وأبيه»[٣].

(٤) وسأل رجلٌ حذيفة ﷺ قال: «أستأذن على أُمِّي؟ فقال:

«إن لم تستأذن، رأيتَ ما تَكْرَه».

وفي رواية: «ما يسوءك»[٤].

والحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِية الاستئذان ووجوبه:

سَتْر عَوْرات الأنفس والأموال عن الغير، وبقاء البيت سَكَنًا لصاحبه؛ يأوي إليه لراحته، ويقضي فيه حاجته.

---

(١) أمونهما : أي: أحتمل نفقتهما.

(٢) صحيح : أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٦٧)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح.

(٣) صحيح : أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٦٦)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح.

(٤) حسن : «صحيح الأدب المفرد» (٨١٠).

فأين أدَب الاسْتِئْذان اليوم؟

لقد تُوفِّي هذا الأدبُ عند كثير من المسلمين اليوم!! وَفَتَحت البيوتُ أبوابها على مصراعيها أمام الأشرار والفجّار، فَهُتِكت الأعراضُ، وانتشر الزّنا والعار.

ولقد رأيتُ بنفسي أقوامًا يتعجبون حين يَرَوْنَ حِرْصَنا على الاستئذان عند دخول بيوتهم، فمنهم من يستحسن ذلك، وَيُذكِّره بِمَحاسن دينه، ومنهم من يَمْتَعِضُ له، ويعدّه تزمّتًا لا داعي له!

فما أَبْعَد الشُّقّة بين المسلمين وتعاليم إسلامهم!

فيا ترى ما سبب هذا الانفلات؟

إن سببه: الاتباع الأعمى لغير المسلمين:

ورحم اللّهُ الشاعر/ محمد مصطفى حمام حين قال:

كُـلّ مَـنْ قَلَّـد الفِـرِنْجة فينـا ... قـد أسَـاءَ التَّقْلـيدَ والتَّمْثـيلاَ

نَشَـرُوا الـرِّجْسَ مُجْمَـلاً ... فَنَشَـرْناه كِـتابًا مُفَصَّـلاً تَفْصِـيلاَ

ثالثًا: كيفية الاستئذان:

يمكننا إجمال كيفية الاستئذان في الخطوات التالية:

الأولى: أن لا يَسْتَقْبِلَ الْبَاب:

لأن الاستئذان جُعل من أجل النظر، وقد ورد في ذلك أحاديث وآثار، منها:

(١) عن عبد الله بن بُسْر ﷺ قال:

«إن النبي ﷺ إذا أتى بابًا يُريد يَسْتَأذنُ لَمْ يَسْتَقْبِلْه، جاءَ يمِينًا أو شِمالاً، فإن أُذِنَ له وإلاّ انْصَرف»[١].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٨٢)، وغيره.

(٢) وعن ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«**لا يَحِلُّ لامْرِئٍ مُسْلِمٍ أن يَنظُرَ إلى جَوْفِ بيتٍ حتى يَسْتَأْذِن، فإن فَعَل فقد دَخَل**»[١].

(٣) وعن سهل بن سعد السّاعدي، قال:

اطَّلعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ من جُحَرِ النّبي ﷺ، ومع النبي ﷺ مِدْرَى[٢] يَحُكُّ بها رأسَه، فقال:

«**لو علمتُ أنّك تنظرُ لطَعَنْتُ به في عَيْنِك، إنما جُعِلَ الاستئذانُ من أَجْلِ الْبَصَر**»[٣].

(٤) وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«**لو أنّ رَجُلاً اطّلع عَلَيْكَ بِغَيْر إذْنٍ، فَخَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ، فَفَقَأْت عَيْنَه ما كان عَلَيْك جُناح**[٤]»[٥].

الثانية: أن يَدُقَّ الْبَابَ دقًّا خَفِيفًا، يُسْمِع ولا يُفْزِع:

فعن جابر ﷺ قال:

أتيتُ رسول الله ﷺ في أَمْر دَيْن كان على أبي[٦]، فَدَقَقْتُ الْبابَ، فقال:

«**مَنْ ذا؟**».

فقلت: أنا.

فخرج: وهو يقول:

«**أنا، أنا!!**»؛ كأنه كرهها[٧].

---

(١) صحيح: انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٨٣١).

(٢) المدرى: مشط صغير من حديد.

(٣) رواه البخاري (١١/ ٢٠، ٢١)، ومسلم (٢١٥٦)، وغيرهما.

(٤) الجناح: الإثم.

(٥) رواه البخاري (٦٨٨٨)، ومسلم (٢١٥٨).

(٦) أبوه: عبد الله بن عمرو بن حرام، شهيد «أُحُد» كلّمه اللّهُ كِفَاحًا – بدون حجاب – !.

(٧) رواه البخاري (١١/ ٣٥)، ومسلم (٢١٥٥).

وعن أنس رضي الله عنه : «أن أبوابَ النَّبي ﷺ كانت تُقْرَعُ بالأَظَافِيرِ»[١].

قال ابْنُ مفلح – رحمه الله تعالى:

«ولا يدق البابِ بعنف، لنسبة فاعله عرفًا إلى قلّة الأدب، وفي معناه الصّياح العالي، ونحو ذلك»ا.هـ[٢].

فأين هذا الأدب اليوم؟

لقد رأينا من يقرع الباب بقبضة يده قرعًا شديدًا، يكاد الأصم يستغيث منه!!

بل رأينا من يقرع الباب بِقَدَمه!!

فأين الأدب أيها النّاس؟!!

أين الذّوق؟

هذا، والأدب الذي ينبغي مراعاته عند دق الباب، هو نفسه الذي ينبغي مراعاته عند دق جرس الباب.

مع الأخذ بعين الاعتبار أن دَقّ الباب أو الجرس يقوم مقام الاستئذان باللفظ الذي هو الأصل كما سيأتي.

الثالثة: تقديم السّلام قبل الاستئذان:

مع مراعاة الجمع بينهما:

فعن ربعي بن حراش، قال:

«حدثنا رجلٌ من بني عامر، قال: إنه استأذن على النّبي ﷺ وهو في البيت، فقال: «أَلِجُ؟[٣]».

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد».

(٢) «الآداب الشرعية» (١/٣٩٩).

(٣) الولوج: الدخول.

فقال رسولُ الله ﷺ لخادمه:

« **اخرُجْ إلى هذا فَعَلِّمْهُ الاستئذان؛ فَقُلْ له: قل: السَّلامُ عليكم، أأدْخُلُ؟** ».

فسمع الرجلُ ذلك من رسول الله ﷺ فقال:

« السّلام عليكم، أأدخل؟ ».

فَأَذِنَ لَهُ؛ فَدَخَل »[1].

الرابعة: التَّعْريف بِنَفْسه:

إذا قال له صاحبُ البيت: « مَنْ » ، فعليه أن يفصح عن اسْمه، ولا يكتفي بقول: « **أنا** »، لحديث جابر المتقدّم ، الذي قال فيه: « أنا »، فقال النبي ﷺ: « **أنا، أنا** » كأنّه كَرِه ذلك.

قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى – :

« قال العلماء: إذا استأذن أحد فقيل له من أنت؟ أو من هذا؟ كره أن يقول: « أنا » لهذا الحديث. ولأنه لم يحصل بقوله: « أنا » فائدة ولا زيادة، بل الإبهام باق، بل ينبغي أن يقول: فلان باسمه. وإن قال: أنا فلان، فلا بأس كما قالت أمُّ هانئ حين استأذنت فقال النبي ﷺ: « **من هذه؟** ». فقالت: أنا أمّ هانئ.

ولا بأس بقوله: أنا أبو فلان، أو القاضي فلان، أو الشيخ فلان إذا لم يحصل التعريف بالاسم لخفائه. والأحسن في هذا أن يقول: أنا فلان المعروف بكذا »ا.هـ[2].

الخامسة: الاستئذان ثلاث مرات:

فعن أبي نَضْرة – رحمه الله – عن أبي سعيد الْخُدْريِّ ﷺ قال:

استأذَن أبو موسى على عُمَرَ، فقال:

السّلامُ عليكم، أأدْخُلُ؟

---

(١) **صحيح**: « صحيح الأدب المفرد » (٤٤٨).

(٢) « تحفة الأحوذي » (١٢٨/٧).

قال عمر: واحدة، ثم سَكَت سَاعَة، ثم قال:

السّلام عليكم، أأدخلُ؟

قال عمر: ثِنْتَان، ثم سَكَتَ سَاعَةً فقال:

السّلام عليكم، أأدخلُ؟

فقال عمر: ثلاثٌ، ثُمّ رَجَع، فقال عُمَرُ لِلْبوَّاب: ما صَنَع؟

قال: رَجَع.

قال: عَليَّ به، فَلَمَّا جَاءَه قال:

ما هذا الذي صنعت؟

قال: السُّنَّة.

قال: آلسُّنَّةُ؟ والله لَتَأْتِيَنِّي على هذا بِبُرْهان أو ببينةٍ، أو لأَفْعَلَنّ بك.

قال: فَأَتَانا وَنَحْنُ رُفْقَةٌ مِنَ الأَنْصَار، فقال:

يا مَعْشَر الأنْصَارِ، أَلَسْتُم أَعْلَم النّاسِ بحديثِ رسولِ الله ﷺ؟ أَلَمْ يَقُلْ رسولُ الله ﷺ:

«**الاسْتِئْذَانُ ثلاثٌ، فإنْ أُذِنَ لَكَ وإلاّ فارْجِعْ؟**».

فجعلَ القومُ يُمَازِحُونه[1].

قال أبو سعيد: ثم رفعتُ رأسي إليه فقلت: فَمَا أَصَابَك في هذا مِنَ العقوبة فأنا شريكُك، قال: فَأَتى عُمَرَ فَأَخْبَرَه بذلك، فقال عمر:

«ما كنتُ عَلِمْتُ بهذا»[2].

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

---

(١) وفي رواية لمسلم: «فجعلوا يضحكون». قال النووي: «سبب ضحكهم التعجّب من فزع أبي موسى وخوفه من العقوبة مع أنهم قد أمِنُوا أن يناله عقوبة لِقوّة حُجّته»ا.هـ.

(٢) رواه البخاري (٢٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٤)، والترمذي (٢٦٩٠)، وغيرهم.

«إذا استأذن ثلاث مرّات فلم يُؤذن له وظن أنه لم يسمعه؛ ففيه **ثلاثة مذاهب:**

أظهرها: أنه ينصرف ولا يعيد الاستئذان.

والثاني: يزيد فيه.

والثالث: إن كان بلفظ الاستئذان المتقدّم لم يُعِدْه، وإن كان بغيره أعاده، فمن قال بالأظهر: فحجّته قوله ﷺ في هذا الحديث، ومن قال بالثاني: حمل الحديث على من علم أو ظنّ أنه سمعه فلم يأذن» ا.هـ.

وقال الشيخ/ **محمد الأمين الشنقيطي** - رحمه الله - :

«اعلم: أن الذي يظهر لنا رجحانه من الأدلة، أنه إن علم أن أهل البيت، لم يسمعوا استئذانه لا يزيد على الثالثة، بل ينصرف بعدها؛ لعموم الأدلة، وعدم تقييد شيء منها بكونهم لم يسمعوه؛ خلافًا لمن قال: له الزيادة» ا.هـ[1].

هذا، والحكمة من تثليث الاستئذان ما قاله **الإمام القرطبي** - رحمه الله - :

«إنّما خُصّ الاستئذان بثلاثٍ لأن الغالب من الكلام إذا كُرِّر ثلاثًا سُمِعَ وَفُهِم؛ وذلك كان النّبي ﷺ : إذا تكلّم بكلمةٍ أعادها ثلاثًا حتى يُفْهم عنه» ا.هـ.

وقال **قتادة** - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ «هو الاستئذان ثلاثًا؛ فمن لم يُؤْذن له، فليرجع؛

أمّا الأولى: فليسمع الحيّ.

وأما **الثانية:** فليأخذوا حِذْرهم.

وأما **الثالثة:** فإن شاءوا أَذِنوا، وإن شاءوا رَدُّوا، ولا تَقِفَنّ على باب قوم رَدُّوك عن بَابِهم؛ فإن للناس حَاجَات، ولهم أشْغال، والله أَوْلى بالْعُذر» ا.هـ[2].

---

(١) «أضواء البيان» (٦/١٧٥).

(٢) «تفسير ابن كثير».

وقال **الإمام الفخر** – رحمه الله – :

«واعلم أن هذا من محاسن الآداب، لأن في أوّل مرّة: ربّما منعهم بعض الأشغال من الإذن، وفي المرة الثانية، ربّما كان هناك ما يمنع أو يقتضي المنع أو يقتضي التساوي، فإذا لم يُجب في الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع ثابت، وربّما أوجب ذلك كراهة قربه من الباب فيتعيّن عليه الرجوع، ولذلك يقول: يجب في الاستئذان ثلاثًا أن لا يكون متّصلًا. بل يكون بين كلّ واحدة والأخرى وقت.

فلمّا قرع الباب بعنف والصِّياح بصاحب الدّار فذاك حرام لأنه يتضمّن الإيذاء والإيحاش، وكفى بقصّة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤]» ا.هـ[1].

قلت: أخرج الطبراني وغيره **بسند حسن**[2] عن زيد بن أرقم، قال:

جاء ناسٌ من العرب إلى حُجَرِ النبي ﷺ فجعلوا ينادون:

يا محمّد، فأنزل الله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤].

السادسة: إن قيل له: ارْجِعْ، فَلْيَرْجِعْ دُون ضجر:

قال تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ ﴾ [النور: ٢٨].

قال العلاّمة السَّعْدي – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقًّا

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٢/٥٢٧).

(٢) انظر: «المقبول من أسباب النزول» للدكتور: أبي عمر نادي بن محمود الأزهري (٦٠٩).

واجبًا لكم، وإنّما هو متبرّع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا يأخذ أحَدَكم الكبرُ والاشمئزازُ من هذه الحال، ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله،من كثرة وقلّة، وحسن وعدمه» ا.هـ[1].

السابعة: الرّد على الزّائر بالمعاريض - عند الضرورة - :

نُقل عن «السّلف» أن في المعاريض مَنْدوحة عن الكذب.

قال عمر ﷺ : «أمَا في المعاريض ما يَكْفي الرّجُلَ عن الكَذب؟!».

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما: «ما يَسُرُّني بِمَعَارِيض الكَلامِ حُمْرُ النَّعَم»[2].

«وإنّما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأمّا إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعًا، ولكن التعريض أهون»[3].

ومثال التعريض:

- كان إبراهيم النخعي - رحمه الله - إذا طَلَبَه مَنْ يَكْرَه أن يَخرُج إليه وهو في الدّار، قال للجارية:

  قولي له: اطلبه في المسجد، ولا تقولي له ليس ههنا كيلا يكون كذبًا!»[4].

- وكان الشّعبي - رحمه الله - إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في المنزل، خَطّ دائرةً وقال للجارية: ضعي الأصْبع فيها وقولي: ليس ههنا![5].

- وعن إسحاق بن هانئ قال:

كنا عند أحمد بن حنبل في منزله، ومعه الْمَرُّوذِي، وَمُهَنَّى؛ فَدقَّ داقٌّ الباب، وقال:

---

(١) «تفسير السعدي» (٥٦٥).

(٢) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٣/٢٤٨).

(٣) «الإحياء» (٣/١٣٩).

(٤) نفس المرجع (٣/١٤٠).

(٥) نفس المرجع (٣/١٤٠).

آلمرُّوذي هُنا؟

فكأن المروذي كره أن يعلم موضعه، فوضع مهنى أصبعه في راحته، وقال:

«ليس المروذي ها هنا، وما يصنع المروذي ها هنا؟».

فضحك أحمد، ولم ينكر[١].

«وهذا كلّه في موضع الحاجة، فأمّا في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللّفظ كذبًا فهو مكروه على الجملة»[٢].

الثامنة: غض البصر عن عورات البيت وأهله:

وهذا أدب مهم، وقد سبقت بعض الأدلّة الْمُحذِّرة من مَغَبَّة إرسال الْبَصر في بيت المزور.

وعن مسلم بن نذير، قال:

استأذن رجلٌ على حذيفة، فاطَّلَع، وقال:

أَدْخُل؟!

فقال حذيفة ﷺ : «أمّا عَيْنُك فقد دَخَلَتْ، وأمّا إسْتُك فلم تَدْخل!!»[٣].

وعن القعقاع بن عمرو، قال:

صعد «الأحنف بن قيس» فوق بيته، فأشرف على جاره، فقال:

«سَوْءَةٌ سَوْءَةٌ دخلتُ على جاري بغير إذْن، لا صَعدتُ فَوْق هذا البيتِ أبدًا!!»[٤].

قلت: فماذا يقول «الأحنفُ» لو رأى أَهْلَ زماننا، بعد أن تطاولت البيوت وتقاربت النوافذ، وانتشر التبرّج، وسقط الحياء، وماتت الغَيْرة، وأصبح الجارُ يرى جاره

(١) «نزهة الفضلاء» (٥٤٩/٢).

(٢) «الإحياء» (١٤٠/٣).

(٣) صحيح: «صحيح الأدب المفرد» (٨٣٠).

(٤) «الأدب الضائع» (٨٨).

ويتابعه في مسكنه، وعلى سريره، وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا!!

اللّهم إنا نشكو إليك ذهاب الحياء، وموت الأدب.

التاسعة: تخفيف الزيارة:

وقد ذكرنا في خُلُق «الزيارة في الله» طرفًا من ذلك، فراجعه إن شئت.

وخلاصة القول - هنا - :

لا يجوز للزّائر إطالة الجلوس عند المزور، إلاّ إذا رغب أهلُ البيت في ذلك.

فكم تَسَبَّبتْ زيارةُ «الثُّقلاء» في ردود فعل خطيرة، على الزّائر وعلى المزور معًا.

وإليك بعض هذه الرّدود:

- عن هيثم، قال:

كان «إسماعيل بن أبي خالد» مِنْ أَحْسَن النّاس خُلُقًا، فلم يزالوا به - يعني الثّقلاء - حتى ساءَ خُلُقه[1].

- وعن إسماعيل بن موسى، قال:

دخلنا إلى أنس بن مالك، ونحن جميعًا من أهل الكوفة، فحدَّثنا بسبعة أحاديث، فاستزدناه، فقال:

من كان له دِينٌ فلينصرف.

فانصرفت جماعة، وَبَقِيتْ جماعة أنا فيهم، ثم قال:

من كان له حياء فلينصرف.

فانصرفت جماعة، وبَقِيَتْ جماعة أنا فيهم، ثم قال:

من كانت له مروءة فلينصرف.

---

(١) «الجامع» للخطيب البغدادي (١/٢١٨).

فانصرفت جماعة، وبقيت جماعة أنا فيهم، فقال:

«يا غلمان افقئوهم[١]؛ فإنه لا بُقْيا[٢] على قوم لا دين لهم، ولا حياء، ولا مروءة»[٣].

العاشرة: إشعارُ الرَّجُل أَهْلَه بدخوله:

وهذا - أيضًا - أدب مهم.

قالت زينب - امرأة ابن مسعود - رضي الله عنهما - :

«كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب، تَنَحْنَح، وبَزَق؛ كَرَاهة أن يَهْجم مِنّا على أَمْرٍ يكرهه».

قلت: أو بأي نوع من أنواع الإشعار، كرفع الصّوت بالذِّكر، أو بأي نوع من أنواع الكلام المباح.

ولا يجوز للرّجل أن يهجم على أهل بيته - على حين غفلة - يتخوّنهم، فقد ورد النّهيُ عن ذلك.

فعن جابر، قال:

«نهى رسولُ الله ﷺ أن يطرق الرجلُ أهله ليلاً يتخوّنهم، أو يطلب عثراتهم»[٤].

أخي الكريم:

هذه بعض آداب الاستئذان، فاحرص على تطبيقها تعش حُرًّا، عفيفًا، كريمًا، أنت وأهل بيتك، ولا تلتفت إلى كلام وأفعال الإباحيين، فقد حذّر ربُّك من مشابهتهم واتّباعهم، فقال:

---

(١) يعني: أخرجوهم.

(٢) لا بُقيا: لا بقاء.

(٣) «الجامع» (٢١٥/١).

(٤) رواه أحمد، وغيره.

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧].

نسأل الله العفو والعافية.



٤٥- التواضع

سُئِلَ « سُلَيْمانُ التَّيمي » - رحمه الله - عن السَّيئة التي لا تَنْفعُ مَعَها حَسَنة، فقال: « الكِبْر »[١].

وهذا صحيح، فقد قال تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم.

وفي بعض التفاسير: سأحجب قلوبَهم عن الملكوت.

وقال **ابْنُ جُرَيْج**: سأَصْرِفُهم عن أن يتفكّروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عليه السلام:

« إنّ الزّرعَ ينْبت في السَّهْل[٢] ولا ينبت على الصَّفا[٣]، كذلك الحِكْمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبّر، ألا تَرَوْن أن من شَمَخَ برأسه إلى السّقف شَجَّه، ومن طأطأ أظَلَّه وأكَنّه؟! ».

فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يُحْرَمون الحِكْمة.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« **لا يدخلُ الجنّة مَنْ كان في قَلْبه مثقالُ ذَرَّة من كِبْر** ».

فقال رجلٌ: إن الرّجل يحبُّ أن يكون ثوبُهُ حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنَةً؟

---

(١) « الإحياء » (٣/٣٤٥).

(٢) السَّهْل: المكان المنخفض.

(٣) الصَّفا: الحَجَر الأمْلَس.

قال: «**إنّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ**[١]**، وغَمْطُ النَّاس**[٢]»[٣].

وقال الشيخ/ محمد الغزالي – رحمه الله تعالى – :

«الكبر كالشّرك، يبدأ عوجًا في تصرّف صغير فلا تكون له فداحة الكفر بالله، فلا يزال ينمو حتى يتحوّل بَطَرًا على كلّ حَقٍّ، وغَمْطًا لكلّ فَرْد، وعندئذٍ يكون الكبر والكفر قَرِينَين» ا.هـ[٤].

أخي المسلم:

وبعد أن بان لك ضَرَرُ الكِبْر، وَكُشِفَ لك عن خطورته، فحديثي إليك – هنا – يدور حول **ستة أمور**:

الأول: معنى التواضع.

والثاني: درجات التواضع.

والثالث: الفرق بين التواضع والمهانة.

والرابع: فضل التواضع.

والخامس: صور ومواقف من حياة أهل التواضع.

والسادس: ثمرات التواضع.

والله الموفّق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أوّلاً: معنى التواضع:

التواضع «**لغة**»: مصدرُ تَوَاضَعَ أي: أَظْهَرَ الضَّعَة، وهو مأخوذٌ من مادة (و ض ع)

---

(١) بطر الحق: دفعه وردّه.

(٢) غمط الناس: احتقارهم.

(٣) رواه مسلم والترمذي.

(٤) «الإسلام والاستبداد السياسي» (٢٧).

التي تدلّ على الخَفْضِ للشّيء وَحَطِّه.

و «**اصطلاحًا**»: إظهار التَّنزل عن المرتبة لِمَنْ يُراد تَعْظِيمُهُ، وقيل: هو تعظيم من فوقه لفضله، وفي «الرسالة القشيرية»:

التواضع: هو الاسْتِسْلام للحقّ، وترك الاعتراض في الحُكْم.

هذا، وقد تنوّعت عِبارات العلماء في تعريفه:

- قال الإمام الجنيد- رحمه الله - :

«التواضع: هو خفض الجناح، ولين الجانب»[(١)].

- وسُئل الحسن البصري - رحمه الله - عن التواضع، فقال:

«التواضع: أن تخرج من مَنزلك ولا تَلْقى مُسْلمًا إلاّ رأيتَ له عليك فَضْلاً»[(٢)].

- وسُئل الفضيل بن عياض - رحمه الله - عن التواضع، فقال:

«يَخْضَعُ لِلحَقّ، وَيَنْقادُ له، ويَقْبَلُهُ مِمَّن قَاله، ولو سَمِعَه مِنْ صَبي قَبِلَهُ، ولو سَمِعَه من أَجْهَلِ النَّاسِ قَبِلَهُ»[(٣)].

ثانيا: درجات التواضع:

للتواضع **ثلاث درجات**:

الأولى: التواضع لِلدِّين:

هو أن لا يعارض بمعقولٍ منقولاً، ولا يتهم للدِّين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

والتواضع للدِّين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان.

فلا ينازع رسولَ الله ﷺ في حُكْمه، ولا يرى رأيًا يخالف قوله، ولكن يُسَلِّم تَسْلِيمًا.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٤٢).

(٢) «الإحياء» (٣/٣٤٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٣٤٢).

قصَّة:

ذَكر أهلُ السِّيَر: أن «جَبَلَةَ بْنَ الأَيْهَم» آخر ملوك الغَسَاسِنَة - حين رَغِبَ في الإسلام أقبل إلى المدينة - في عهد عمر بن الخطاب - في موكب كَبير، عليهم ثياب الْوَشْيِ[1]، وهو لابِسٌ تاجه!

ففرح عمرُ بقدومهم.

فلمّا جاء الموسم خرج للحجّ مع عمر، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وَطِئَ على إزاره رَجُلٌ من «فَزَارَةَ» فَحَلَّ الإزار، فَلَطَمَه «جَبَلَة» على أَنْفه فَهَشَمَه، وسال الدم!

فاسْتَعْدى الفِزاريُّ عليه عُمَرَ.

فقال عمرُ لِجَبَلَة: ما دعاك لأن تَلْطِمَ هذا الفَزَارِيَّ؟

قال: إنّه وَطِئَ إزاري فَحَلَّه.

قال عمر: أَمَا وَقد أَقْرَرْتَ، فإمَّا أن تُرْضِيَهُ، وإلاّ فعل بك مِثْلَ ما فعلتَ به!

قال جبلةُ: أَيَصْنَعُ هذا، وأنا مَلِكٌ، وهو سُوقَةٌ؟!

قال عمر: لقد سَوَّى الإسلامُ بينك وبينه؛ فما تَفْضُلُه بشيءٍ إلاّ بِحُسْنِ العمل!.

قال جبلةُ: والله لقد رجوتُ أن أكون في الإسلام أعزَّ مِني في الجاهلية!

قال عمر: إنه لكذلك[2].

قال جبلة: أَخِّرْني إلى غدٍ، حتى أُفَكِّر في الأَمْر يا أمير المؤمنين.

قال عمر: ذلك لك!

فلمّا كان جُنْحُ اللّيل خَرَج هو وأصحابُه حتى دخلوا القسطنطينية على «هِرَقل»، فَتَنَصَّر «جَبَلَةُ» وأقام عنده!

---

(١) الْوَشْي: خطوط وعلامات تكون في الثياب.

(٢) أي: أنت كذلك عزيزٌ في الإسلام ما دُمت على الحقّ، والعدوان على الناس ليس من الحقّ.

وقيل: إن عمر أرسل إليه يسترْضِيه فأبَى الرّجوع![1]

أخي المسلم:

حُبُّ الرِّياسة داءٌ يُخْلِقُ[2] الدِّينَا	ويجعلُ الْحُبَّ حُرْمًا لِلْمُحِبينا
يَنْفِي الحقائِق والأرْحَامَ يَقْطَعُهَا	فلا مُروءَة يُبْقِي لا وَلاَ دِينا

نعوذ بالله من العُتوِّ والكِبْر.

الدرجة الثانية: أن تَقْبَل الحَقّ مِمَّن تُحِبّ وَمِمَّن تَكْرَه، وتَقْبَل مِنَ الْمُعْتَذِرِ مَعَاذِيره:

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال:

أتاه رَجُلٌ، فقال:

يا أبا عبد الرحمن، عَلِّمني كلماتٍ جَوَامع نَوَافع.

فقال له عبد الله: «لا تُشْرِك بالله شيئًا، وَزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحقّ فاقْبَلْ منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فارْدُدْه عليه، وإن كان حَبيبًا قريبًا»[3].

الدرجة الثالثة: أن تعبد الله - تعالى - بما أمَرك به على مُقتضى أمْره لا على ما تراه مِنْ رأيك:

ولا ترى لنفسك حقًّا على الله لأجل عملك، لأنّك عَبدتَّه، بِنِعَمِه، وَحُسْن توفيقه.

حكاية:

حُكي: أن عابدًا من عُبّاد بني إسرائيل، عَبَد الله - تعالى - ليلة، فلمّا أصبح، ورأى من غفلة الناس ما رأى، ضَرَبه العُجْبُ، فقال:

---

(١) «سيرة عمر بن الخطاب» للأستاذ/ أحمد التاجي (٢٣١، ٢٣٢)، و «السِّير» (٣/٥٣٢).

(٢) يُخْلِقُ: يبلي.

(٣) «صفة الصفوة» (١/٢١٩، ٢٢٠).

نِعمَ الرَّبُّ أَنْتَ، ونِعم العبدُ أنا!!

فَلمّا كانت الليلة الثانية، أراد أن يتعبّد، فَضَربَ عليه عِرْقٌ في يَده، فلم يطق أَلَمه، وظلّ طَوال ليله يتوجّع ويتأوّه، فلمّا أصبح، تنبّه، وندم، وقال:

يا ربّ، تُبْتُ إليك، فإنّما عبدتُك بنِعَمِك، ولولا حُسْن توفيقك، لكنتُ من الغافلين.

ثالثًا: الفرق بين التواضع والمهانة (أو الذّلّ):

والفرق بين التواضع والمهانة (أو الذّلّ): أن التواضع يتولّد من بين العلم بالله -سبحانه-، ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبّته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاقا، فيتولّد من ذلك كله خلق هو «التواضع» وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذّلّ والرحمة لعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلُق إنّما يَعْطيه اللّهُ ﷻ مَنْ يُحبُّه وَيَكرِّمُهُ وَيُقرِّبُهُ.

وأمّا المهانة (الذُّلُّ): فهي الدَّنَاءَةُ والخِسَّةُ وَبَذْلُ النَّفْس أو ابتذالُها في نيل حُظُوظها وشهواتِها كتواضع السَّفَل في نيل شهواتِهم، وتواضع طالب كلّ حظّ لمن يَرْجو نيل حظّه منه فهذا كلّه ضِعَةٌ لا تواضعٌ، والله - سُبْحَانه - يُحِبُّ التواضع وَيَبْغَض الضِّعَةَ والْمَهَانة.

والتواضعُ المحمودُ على نَوْعَيْن:

النوع الأوّل: تواضع العبد عند أمر الله - تعالى - امتثالاً، وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب الرّاحة تَتَلَكّأُ في أَمْره فيبدو منها نوعُ إِبَاء وشرود هَرَبًا من العبودية، وتثبّتُ عند نَهْيه طَلَبًا للظَّفَرِ بما مُنِع منه، فإذا وضع العبدُ نفسه لأَمْر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضع لعظمة الرَّبِّ وجلاله، وخضوعه لعزّته وكبريائه، فكلّما شَمَخَت نَفْسُه ذَكَر عَظَمَة الرَّبِّ تعالى وَتَفَرُّدَهُ بذلك، وَغَضبَه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نَفْسُه، وانْكَسَر لِعَظَمة الله قَلْبُه واطمأن لهيبته، وأَخْبَتَ لِسُلْطَانه، فهذا غاية

تواضع، وهو يَسْتَلْزِمُ الأوَّل من غيرِ عكْس والمتواضع حقيقة رُزِقَ الأَمْرَيْن معًا[١].

رابعًا: فضلُ التواضع:

وَرَد في فضل التواضع آيات وأحاديث وآثار كثيرة:

فمن القرآن:

(١) قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومن السُّنة:

(١) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«مَا مِن امْرِئٍ إلا وفي رَأْسِه حَكَمَةٌ[٢]، والحَكَمَةُ بيدِ مَلَك، إن تَوَاضَعَ قيل لِلْمَلَكِ: ارْفَعِ الحَكَمَةَ، وإن أَرَادَ أن يَرْفَعَ قيل لِلْمَلكِ: ضَعِ الحَكَمَة أَوْ حَكَمَتهُ»[٣].

(٢) وعن عمر بن الخطاب ﷺ لا أعلمه إلاّ رفعه – قال:

«**يقولُ اللّهُ تبارك وتعالى: مَنْ تَواضع لِي هَكَذا،** (وجعلَ يزيدُ[٤] بَاطِنَ كَفِّه إلى

---

(١) «الروح» للإمام ابن القيم (٢١٠، ٢١١).

(٢) حَكَمَة – بفتحات –: حديدة في اللّجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه.

(٣) حسن: رواه الطبراني والبزار، وانظر: «الصحيحة» (٥٣٨).

(٤) أحد رواة الحديث.

الأرض وأدْنَاها)، **رفعتُه هَكَذا**» (وجعل بَاطِنَ كَفِّه إلى السّماء ورفعها نحو السّماء)[١].

(٣) وعن عياض بن حمّاد ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

«إنّ الله أَوْحَى إليّ أن تواضعوا حتى لا يَفْخَر أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يَبْغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ»[٢].

ومن الآثار:

- **قال لقمان الحكيم:**

«وقفتُ يَوْمًا أمام حَقْلٍ من حقول القمح فاسْتَرْعَتْ نظري سنابُل تطاولت في خُيَلاَء، وسنابل حَنَتْ رَأْسَها في تواضع وَحَياء، ولكم عَجِبْتُ حين تلمستُها إذ رأيتُ الأولى فارغة، ووجدتُ الثانية مَلأى بحبّات القمح!!

فقلت: كم في حقول الحياة من سنابل رفيعة الرأس فارغة!!»

- وقال **أبو بكر الصّدّيق** ﷺ :

«وَجَدْنا الكرمَ في التقوى، والغنى في اليقين، والشَّرَفَ في التَّوَاضُع».

- وقال **عُرْوَةُ بن الْوَرْدْ** - رحمه الله - :

«التواضع أحدُ مصايد الشّرف، وكُلُّ نعمةٍ محسودٌ عليها صاحُبها إلاّ التَّواضع».

خامسًا: صور ومواقف مِنْ حَيَاة أهْلِ التواضع:

المُوقف الأول: تواضعُ النّبي ﷺ:

كان النبي ﷺ الأنموذج الأمثل في تواضعه، ويكفي وَصْفُ اللّهِ - تعالى - له بقوله:

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٨/٨٢): رواه أحمد والبزّار ورجالهما رجال الصّحيح.

(٢) رواه مسلم، وغيره.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد شمل تواضعه ﷺ معاملاته، وأعماله، ومظهره العام:

(١) عن عروة بن الزبير، قال:

سأل رجلٌ عائشة - رضي الله عنها- هل كان رسولُ الله ﷺ يعمل في بيته؟

قالت: «نعم. كان رسولُ الله ﷺ يَخْصِف نَعْله[1]، وَيَخِيطُ ثَوْبَه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدُكُم في بيته»[2].

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«**مَا بَعث اللّهُ نَبيا إلاّ رَعَى الغَنَم**».

فقال أصحابُهُ: وأنت؟ . فقال:

«**كنتُ أَرْعاها على قَرارِيطَ[3] لأَهْلِ مَكَّة**»[4].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

«وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربّه والتّصْريح بمنّته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء - صلوتُ الله وسلامُه عليه وعلى سائر الأنبياء - »ا.هـ[5].

(٣) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال:

---

(١) **يخصف**: يطبق طاقة على طاقة ويخرزها.

(٢) **صحيح**: أخرجه البغوي في «شرح السُّنَّة» (١٣/٢٤٢)، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٣) قال سويد - أحد رواة الحديث - : يعني كل شاة بقيراط، يعني القيراط الذي هو جزء من الدِّينَار أو الدِّرهم.

(٤) رواه البخاري (٢٢٦٢).

(٥) «فتح الباري» (٤/٥١٧).

يا خَيْرَ البريَّة، فقال رسولُ الله ﷺ:

«**ذاكَ إبراهيمُ عليه السّلامُ**»[١].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - :

«قال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم عليه السلام لخلّته وأبوّته، وإلاّ فنبينا ﷺ أفضل كما قال ﷺ:

«**أنا سيِّد وَلَدَ آدم**» ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على من تقدّمه، بل قاله بيانًا لما أمر ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ﷺ: «**ولا فَخْر**» لينفي ما قد يتطرّق إلى بعض الأفهام السّخيفة»ا.هـ[٢].

(٤) وعن أنس بن مالك ﷺ قال:

إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير:

«**يا أبا عُمَيْرٍ ما فَعَل النُّغَيْرُ**[٣]؟»[٤].

(٥) وعن البَرَاء بن عازب ﷺ قال:

كان النبي ﷺ يَنْقُلُ التُّرابَ يوم الخندق حتى اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يقول:

والله لولا اللّهُ ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صَلَّيْنا

فَأنزِلَنْ سكِينةً علينا ... وثَبِّتِ الأقْدَامَ إن لاقَيْنا

إن الأُلَى قد بَغَوْا عَلَيْنا ... إذا أرادوا فتْنَةً أَبَيْنا

وَيَرْفَعُ بها صَوْته: أَبينَا، أَبينا[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٩).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/٥٠٧).

(٣) النُّغير: طائر معروف يشبه العصفور. والراجح: أنه كان طائر أحمر المنقار.

(٤) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

(٥) رواه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).

والأحاديث في تواضعه ﷺ أكثر من أن تُحصى.

الموقف الثاني: تواضع عمر بن الخطاب ﷺ:

خرج عُمَرُ بْنُ الخطّاب ﷺ إلى الشّام ومعه أبو عبيدةَ بْنُ الجرّاح فَأَتَوْا على مَخَاضَةٍ، وَعُمَرُ على ناقةٍ له فَنزل عنها وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعُهما على عَاتِقِه[1] وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة فقال أبو عبيدة:

يا أميرَ المؤمنين، أنْتَ تفعلُ هذا؟! تَخْلَعُ خُفَّيْك وَتَضَعُهُما على عَاتِقِكَ، وتأخذُ بزمام ناقتِكِ وتخوضُ بها المخاضة؟! ما يَسُرُّني أن أهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفوك[2].

فقال عمر: أَوَّهْ[3]، لو يَقُلْ ذَا غَيْرُك أبا عبيدة جعلْتُه نكالاً لأمّة محمد ﷺ إنا كُنّا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللّهُ بالإسلام، فمهما نطلب العِزَّ بغير ما أعزَّنا اللّهُ به أَذَلّنا اللّهُ»[4].

الموقف الثالث: تواضعُ المتوكّل:

خَرَجَ الخليفةُ «المتوكل» يوم الفِطر، وقد ضرب له المصافّ نحوًا من أربعة أميال، وَتَرجَّل الناسُ بين يديه، فصَلّى وَرَجع، فأخذ حفنة من تراب، فوضعها على رأسه، فقيل له في ذلك، فقال:

«إني رأيتُ هذا الجَمْع، فأحببتُ أن أتواضع لِلّه ﷻ!»[5].

الموقف الرابع: تواضع عمر بن العزيز:

ذكر أهلُ السِّير: أن «عمر بن عبد العزيز» – رحمه الله – دخل المسجد – في خلافته – قبل أذان الفجر، فعثر في رَجُلٍ نائم، فاستيقظ الرجلُ فَزِعًا، قائلاً: «أأعمى أنت؟!»

---

(١) العاتق: ما بين الْمِنكَب والعُنُق.

(٢) رَأَوْك.

(٣) أوّه: كلمة توجّع وتضجّر.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٢/١)، وصحّحه، ووافقه الذهبي.

(٥) «المنتظم» لابن الجوزي (٣٥٦/١١).

- وهو لا يعرفه - ، فقال عمر: «لا». فهمّ الناسُ بالرّجل، فقال عمر:

«دعوه، فقد سألني ، أأعمى أنت، فقلتُ لا!!».

هذه - والله - أخلاق الإسلام ، فأين هي الآن؟!.

الموقفُ الخامس: تواضع الإمام أحمد:

قال أحمد بن الحسن الترمذيّ:

«رأيت أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - يشتري الخبز من السّوق، ويحمله في الزَّنْبيل، ورأيتهُ يشتري الباقلاء غير مرّةٍ، ويجعلُهُ في خِرقة، فيحملُه آخذًا بيد عبد الله ابنه!» ا.هـ[1].

سادسًا: ثمرات التواضع:

مِمّا سبق يتبين لنا أن لِخُلُق التّواضع ثَمَرات، منها:

١- علوّ مكانة المتواضع عند الله وعند الناس.

٢- نيل محبّة الله - تعالى - .

٣- الوصول إلى رحمة الله - تعالى - وجنّته.

٤- التفاف الناس حوله.

٥- النجاة من الزّيغ والضلال.

٦- التواضع دليل على حُسْن الخلق.

٧- التواضع دليل على سلامة الباطن.

٨- التخلّق بأخلاق الأنبياء والمرسلين.

٩- متابعة النبي ﷺ في أخلاقه.

---

(١) «السِّير» (١١/٣١٠).

فيا أخا الإسلام:

تواضــع تكــن كالــنَّجم لاَح لــناظر — عــلى صــفحات المــاءِ وهــو رَفــيع
ولاتــكُ كالدخــان يَعْلُــو بِنَفْسِــه — عــلى طــبقاتِ الجــوِّ وهــو وَضِــيع

واعلم:

أن من كَابَر الله، صَرَعه.

ومن نازعه، قَمَعه.

ومن ماكَرَه، خَدَعه.

ومن توكّل عليه، مَنَعه.

ومن تواضع له، رَفَعه.



٤٦- الاستِغْفار

اعلم – أخي المسلم – أن من المهلكات: أن يُذنِب الْعَبْدُ ذَنْبًا، فيقول:

لا يغفره اللّهُ!!

عن البراء ﷺ قال له رجلٌ:

يا أبا عمارة، ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أهو الرجلُ يلقَى العدوّ فيقاتل حتى يُقتل؟

قال: «لا، ولكن هو الرجلُ يذنب الذّنب، فيقول: لا يغفره اللّهُ»[(١)].

فلا تيأس – أخي المذنب – من رحمة الله، فرحمةُ ربِّك أوسع من ذَنْبك.

عن جابر بن عبد الله، قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

واذنوباه، واذنوباه، فقال هذا القول مرّتين أو ثلاثًا، فقال له رسولُ الله ﷺ:

«**قل: اللّهم مَغْفرتك أَوْسع من ذُنوبي، ورحمتك أَرْجَى عندي من عملي**»، فقالها ثم قال:

---

(١) قال المنذريّ: في «الترغيب» (٢٣٣٨): رواه الحاكم موقوفًا، وقال: صحيح على شرطهما.

قلت: وقد روى البخاريّ عن حذيفة، قال: «نزلت في النَّفقة»، وعن أسْلم أبي عمران التّجيبي، قال: كُنّا بمدينة الرّوم، فأخرجوا إلينا صَفًّا عظيمًا من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مِصْر عُقْبَةُ بن عامر، وعلى الجماعة فُضَالةُ بن عُبيد، فَحَمل رجلٌ من المسلمين على صفّ الروم، حتى دخل عليهم، فصاح الناسُ وقالوا: سبحان الله يُلْقِي بيده إلى التهلكة! فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: أيها الناس إنكم لتأوّلون هذه الآية هذا التأويل؛ وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لمّا أعزّ اللّهُ الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعضٍ سرًّا دون رسول الله: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله – تبارك وتعالى – على نَبيه يردّ علينا ما قلنا: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو. رواه الترمذي، وإسناده صحيح، انظر: «الصحيحة» (١٣).

«عُدْ».

فعاد، ثم قال:

«عُدْ».

فعاد، ثم قال:

«قُمْ فَقَد غَفَرَ اللّهُ لَك»[1].

وكان بعضُ السّلف يقول في مناجاته:

«يا رب وأيّ أَهْل دَهْر لم يعصوك؟ ثم كانت نعمتك عليهم سابغة، ورزقك عليهم دَارًا، سُبحانك ما أحْلمك، وعزّتك إنّك لَتُعْص ثم تُسْبغ النّعمة، وَتدرّ الرّزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب!»

ولأهمية الاستغفار، فالحديث حوله يرتكز على **ثلاثة أمور**:

الأوّل: تعريفه.

والثاني: الاستغفار المطلوب.

والثالث: فضله.

أولاً: تعريف الاستغفار

الاستغفار «**لغة**»: مصدر قولهم: استغفر يستغفر وهو مأخوذ من مادة (غ ف ر) التي تدلّ على الستر في الغالب الأعم، فالغفر السّتر، والغفر والغفران بمعنى واحد.

و «**اصطلاحًا**»: الاستغفار من طلب الغفران. والغفران: تغطية الذّنب بالعفو عنه. وهو أيضًا طلب ذلك بالمقال والفعال[2].

(١) قال المنذريّ في الترغيب (٢٣٣٧): رواه الحاكم، وقال: رواته مدنيون لا يعرف واحد منهم بجرح.

(٢) «له الأسماء الحسنى» للدكتور أحمد الشرباصي – رحمه الله – (٢/٢٦٣).

ثانيا: الاستغفار المطلوب:

قال الإمامُ القرطبي – رحمه الله – :

«قال علماؤنا: الاستغفارُ المطلوب هو الذي يَحُلّ عَقْدَ الإصْرار ويثبت معناه في الجَنَان، لا التّلفّظ باللّسان. فأمّا مَنْ قال بلسانه: استغفر الله، وَقَلْبُهُ مُصِرّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر. وروي عن الحسن البصريّ أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

قلت: [(١)] هذا في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسانُ مُكبًّا على الظُّلْم حَرِيصًا عليه لا يُقْلِع، والسُّبْحَةُ في يده زاعمًا أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاءٌ منه واستخفافٌ. وفي التنزيل: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ ﴾ [البقرة: ٢٣١]» ا.هـ[(٢)].

قلت: هذا يقوله في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسان مُكّبًا على الحرام، وعلى شرب المسكرات والمخدّرات، حريصًا على ذلك لا يقلع، قد أكل الحقدُ قلبه، وغلب الهوى على فؤاده، قاده الشيطان، وسيطر عليه الرّياء، ومع ذلك يدّعي – ظُلمًا وزورًا – أنه من الأولياء، وأحد الأقطاب! وهمّه الوحيد: إظهار الذّكر، وتحريك المِسْبَحة، يتباهى بزبيبة – مُصْطنعة – للصّلاة، زَيَّنت ناصيته الكاذبة الخاطئة!

ثالثًا: فضل الاستغفار:

اعلم أن الاستغفار عظيم، وثوابه جسيم، ومن فضائله:

(١) يمحو اللّهُ به الخطايا، ويغفر به الذنوب؛ والدليل:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ

---

(١) الكلام للإمام القرطبي – رحمه الله– .

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/٢٠٠).

فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية، ما مختصره:

«يُروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية. والفاحشة تطلق على كلّ معصية، وقد كثر اختصاصها بالزّنا حتى فسّر جابر بن عبد الله والسُّدِّي هذه الآية بالزّنا.

و﴿ أَوْ ﴾ في قوله: ﴿ أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ قيل: هي بمعنى الواو؛ والمراد ما دون الكبائر. ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ معناه بالخوف من عقابه والحياء منه. ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي: طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم. ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي: ليس أحد يغفر المعصية ولا يزيل عقوبتها إلاّ الله. ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾ أي: ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا. ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال ابن عباس: أن الإصرار ضارّ، وأن تركه خير من التمادي. وقال الحسن بن الفضل: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن لهم ربًّا يغفر الذنوب» ا.هـ[(١)].

ب- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس أنه قال في هذه الآية:

«أخبر اللّهُ عباده بعفوه وحلمه وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا» ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال» رواه ابن جرير.

وعن حبيب بن أبي ثابت، قال:

«جاءت امرأةٌ إلى عبد الله بن مَغفل ﷺ فسألته عن امرأة فَجَرت[(٢)] فَحَبلت، فلمّا

(١) «تفسير القرطبي» (٤/١٩٩- ٢٠١) باختصار شديد.

(٢) فجرت: زنت.

ولدت قَتَلَتْ ولدَها؟! ، قال عبد الله بن مغفل:

« لها النار ».

فانصرفت وهي تبكي فدعاها ثم قال:

« ما أرى أمْرَك إلاّ أحَد أمْرَيْن: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. قال:

فمسحت عينها ثم مضت »[1].

جـ - وعن بلال بن يسار بن زيد ﷺ قال:

حدّثني أبي عن جدّي أنه سمع النبي ﷺ يقول:

« مَنْ قال: أستَغْفِر الله الذي لا إله إلاّ هو الحَيَّ القيومَ وأتوبُ إلَيْه غُفِرَ له، وإن كان فَرَّ مِنَ الزَّحْف »[2].

د - عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

« إنّ العبدَ إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قَلْبهُ نُكْتَةٌ[3]، فإن هو نزع واستَغْفَرَ صُقِلَتْ، فإن عاد زِيد فيها حتى تَعْلوَ قَلْبَه، فذلك الرّان الذي ذَكَرَهُ اللّهُ تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] »[4].

والآيات والأحاديث في هذا المقام أكثر من أن تحصى.

(٢) يهلك الشيطان، ويهدم أعماله:

فعن أبي سعيد الخدريّ ﷺ عن النبي ﷺ قال:

« قال إبليسُ: وعزتك لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله تعالى: وَعزّتي وجلالي لا أزالُ أغْفِرُ لَهُمْ، ما استَغْفَرُوني »[5].

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٨٣٩/١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذي، وصحّحه الألباني.

(٣) النكتة: العلامة.

(٤) حسن: رواه الترمذيّ، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (١٦٧٠).

(٥) حسن: رواه أحمد، والحاكم، وانظر: « صحيح الجامع » (١٦٥٠).

(٣) أَحَدُ الطرُق الموصِّلة إلى الجنّة:

فعن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«**طُوبى لِمَنْ**[١] **وَجَد في صَحِيفته اسْتِغْفَارٌ كثير**»[٢].

(٤) يُنَقِّى صَحائف الأعمالَ من الذّنوب والخطايا:

عن الزّبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**مَنْ أحبّ أن تَسُرَّهُ صَحِيفتُهُ فليكثر فيها من الاسْتِغْفار**»[٣].

(٥) يُفَرّج اللّهُ به الكروب:

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ لَزِمَ الاسْتغفار: جعل اللّهُ له مِنْ كُلّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلّ ضِيق مَخْرجًا، ورزقه من حيث لا يَحْتَسب**»[٤].

(٦) يزيد اللّهُ به بدن الإنسان قوّة:

قال تعالى - حكاية عن هود عليه السلام - :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) طوبى: أي الجنة، وقيل: طوبى: شجرة في الجنة.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٩٣٠).

(٣) حسن: رواه البيهقي بإسناد لا باس به، وحسّنه الألباني: انظر: «صحيح الجامع» (٥٩٥٥).

(٤) رواه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وأحمد في «المسند» (٢٢٣٤)، وصحّحه الشيخ/ أحمد شاكر.

(٧) أحد أسباب سعة الرزق وطول العمر:

قال تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ عطف على الأوّل. ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. وقيل: إنما قدّم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها؛ فالمغفرة أوّل في المطلوب وآخر في السبب. ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: ﴿ يُمَتِّعْكُم ﴾ يعمركم؛ وأصل الامتاع الإطالة. وقال **سهلُ بن عبد الله**: المتاع الحسن: ترك الخَلْق والإقبال على الحق. وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمْرٍ مَخُوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكَرَبِها؛ والأوّل أظهرَ. ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله. وقيل: ويؤت كل من فضلت حسناته على سيئاته ﴿ فَضْلَهُۥ ﴾ أي الجنة، وهي فضل الله؛ فالكناية في قوله: ﴿ فَضْلَهُۥ ﴾ ترجع إلى الله تعالى.

وقال **مجاهد**: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمل بيده أو رِجْله، أو ما تطوّع به من ماله فهو فضل الله، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يَتَقبّله منه إن كان كافرًا» ا.هـ[1].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/٥، ٦) باختصار.

(٨) كفّارة ما يكون في المجالس:

فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

ما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس إلاّ قال:

« **سُبْحَانَك اللّهم رَبي وبحمدِك، لا إله إلاّ أنت أسْتغفِرُك وأتوبُ إليك** ».

فقلتُ له: يا رسول الله ما أكثر ما تقول هؤلاء الكلمات إذا قمت.

قال: « **لا يقولُهنّ مِنْ أَحَدٍ حين يقوم من مَجْلِسِه إلاّ غُفِر له ما كان منه في ذلك المجلس** »[(١)].

(٩) يعالج العقم!:

فالاستغفار – بنصّ القرآن – أحد الأسباب المعالجة للعقم!:

قال تعالى – حكاية عن نوح عليه السلام – :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

قال ابن صُبيح: شكا رجلٌ إلى الحسن – البصريّ – الجدوبة، فقال له:

استغفر الله.

وشكا آخر إليه الفقر، فقال له:

استغفر الله.

وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا؛ فقال له:

استغفر الله.

وشكا إليه آخر جفاف بستانه؛ فقال له:

استغفر الله.

فقلنا له في ذلك؟ فقال:

ما قلتُ من عندي شيئًا، إن الله تعالى يقول في سورة «نوح»:

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾

(١٠) أحد أسباب نزول الأمطار:

قال **الشَّعْبي** - رحمه الله -:

خرج عمر بن الخطاب يستسقى فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا، فقالوا:

ما رأيناك استَسْقَيْتَ؟ فقال:

لقد طلبت المطر بمَجاديح[1] السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ:

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[2].

(١١) أحد الأسباب المُسْقِطة للعقوبة في الآخرة:

قال شارح الطحاوية: «فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسّنة:

السبب الأول: التوبة؛ قال تعالى:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [مريم: ٦٠].

وليس شيءٌ يكون سببًا لغفران جميع الذنوب إلاّ التوبة.

---

(١) المجدح: نجم من النجوم. وهو عند العرب من «الأنواء» الدّالة على المطر، فأراد عمر ﷺ أن يعلمهم أن مجاديح السماء هو ما تلفظ به من القرآن، وليست «الأنواء» كما كانوا يزعمون في الجاهلية.

السبب الثاني: الاستغفار؛ قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

لكن الاستغفار تارةً يُذكر وحده، وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذُكر وحده دخلت معه التوبة، كما إذا ذُكرت التوبةُ وحدها شملت الاستغفار.

فالتوبةُ تتضمّن الاستغفار، والاستغفار يتضمّن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمّى الآخر عند الإطلاق، وأمّا عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، **فالاستغفار**: طلبُ وقاية شرّ ما مضى، **والتوبة**: الرجوعُ وطلبُ وقاية شرّ ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

السبب الثالث: الحسنات: فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسّيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحادُه عشراته. وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷺ:

«**وأتبع السَّيِّئة الحسَنَة تَمْحُها**»(١).

السبب الرابع: المصائب الدنيوية:

قال ﷺ: «**ما يُصيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ، ولا غمّ ولا همّ ولا حَزَن، حتى الشوكةَ يُشاكها، إلا كَفّر بها من خطاياه**»(٢).

السبب الخامس: عذاب القبر:

وهو نوعان: منه ما هو دائم، كما قال تعالى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ

(١) حسن: رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه، وهو كما قال.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

وكذلك في حديث البراء بن عازب في قصّة الكافر:

«**ثم يُفْتح له بابٌ إلى النار فينظر مَقْعَده فيها حتى تقوم السّاعة**»[(١)].

والنوع الثاني: أنه مدّة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العُصاة الذين خفّت جرائمُهم، فيُعذّب بحسب جُرْمه، ثم يُخفّف عنه.

السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارُهم في الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يُهدى إليه بعد الموت، من ثواب صدقة أو قراءة[(٢)] أو حج.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت في «الصحيح»:

«**أن المؤمنين إذا عَبَروا الصِّراط وُقفوا على قَنْطَرة بين الجنّة والنّار، فَيُقْتَصّ لبعضِهم مِنْ بَعْض، فإذا هُذّبوا أُذِنَ لهم في دخول الجنّة**»[(٣)].

السبب العاشر: شفاعةُ الشّافعين.

السبب الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جُرمه، فلابدّ من دخوله إلى الكير، ليخلص طيبُ إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرّة من إيمان، بل من قال: لا إله إلاّ الله»ا.هـ[(٤)].

قلت: والسبب الثاني عشر: والذي لم يذكره شارح الطحاوية: إقامةُ الحدّ.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه، وغيره، وصحّحه الألباني وغيره.

(٢) اختلف العلماءُ في وصول ثواب قراءة القرآن للميت على قولين: أرجحهما عدم الوصول.

(٣) هو طرف من حديث؛ أخرجه البخاري في «المظالم»، وأحمد (١٣/٣و ٦٣).

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٢٧- ٣٢٩) باختصار.

فإقامة الحدّ في الدّنيا يُسْقط عن العاصي العقوبة في الآخرة، فالله - تعالى - أكرم من أن يُثَنِي العقوبة على عبده:

عن عُبادة بن الصّامت ﷺ قال:

كُنّا عند النبي ﷺ فقال:

«**تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا**» وقرأ عليهم الآية[١]، «**فَمَنْ وَفَّى منكم فأجْرُه على الله، وَمَنْ أصاب من ذلك شيئًا فَعُوقب عليه فهو كفّارة له، وَمَنْ أصاب من ذلك شيئًا**[٢] **فستر اللّهُ عليه فهو إلى الله، إن شاء عَذّبه، وإن شاء غَفَر له**»[٣].

هذا، والاستغفار يكون في كُلّ وقت؛ فَعَنِ الأغرّ الْمُزَني، وكانت له صحبة، أن رسول الله ﷺ قال:

«**إنّه لَيُغَانُ**[٤] **على قَلْبي، وإني لأسْتغفر الله في اليوم مِائَةَ مَرّة**»[٥].

وعن أبي هريرة ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سَبْعين مَرَّة**»[٦].

وأفضل أوقاته: وقت السَّحَر:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

قال **الإمام القرطبي** - رحمه الله - في تفسير هذه الآية - ما مختصره- :

«واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ فقال أنس بن

---

(١) الآية رقم (١٢) من سورة الممتحنة.

(٢) يعني ما عدا الشّرك.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٤) الغين والغيم ما يتغشّى القلب.

(٥) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٦) رواه البخاري (٦٣٠٧).

مالك: هم السائلون المغفرة. وقال قتادة: المصلّون.

قلت[١]: ولا تناقض، فإنّهم يُصلّون ويستغفرون. وخصّ السَّحر بالذّكر لأنّه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء.

روى الأئمةُ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«ينزلُ اللّهُ ﷻ إلى سماءِ الدّنيا كُلّ ليلة حين يمضي ثلثُ الليل الأوّل فيقول: أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر»[٢].

والاستغفار مندوبٌ إليه، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها فقال: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨]. وقال أنس بن مالك:

أُمرنا أن نستغفر بالسَّحر سبعين استغفارة. وقال نافع: كان ابن عمر يُحيي اللّيل ثم يقول: يا نافع أسْحَرْنا؟ فأقول: لا. فيعاود الصّلاة ثم يسأل، فإذا قلتُ: نعم قعد يستغفر.

وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه، قال: سمعتُ رجلاً في السَّحر في ناحية المسجد يقول:

«يا ربّ، أمرتني فأطعتكُ، وهذا سَحَرٌ فاغْفِرْ لي». فنظرتُ فإذا هو ابن مسعود.

والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاريُّ عن شدّاد بن أوس، عن النبي ﷺ قال:

«سَيِّدُ الاسْتغفار أن يقول: اللّهمّ أنتَ رَبي لا إله إلاّ أنتَ، خلقتني وأنا عَبْدُك، وأنا على عَهْدكَ وَوَعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبوء لك بِنعمَتك عليّ، وأبوء بِذَنْبي فاغفر لي فإنه لا يغفرُ الذّنوبَ إلاّ أنْتَ - قال - **مَنْ قالها من النهار مُوقنًا بها فمات من يَوْمه قبل أن يُمْسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من اللّيل وهو موقن بها فمات من لَيْلهِ قبل أن يُصْبح فهو من أهل الجنة»**[٣] ا.هـ[٤].

---

(١) الكلام للإمام القرطبي.

(٢) رواه مسلم (٧٥٨) وغيره.

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٦). قال الطّيبي: «لمّا كان هذا الدُّعاء جامعًا لمعاني التوبة كلّها استعير له اسم السَّيد وهو في الأصل الرئيس الذي يُقصد في الحوائج، ويرجع إليه في الأمور» فتح الباري (٩٩/١١).

(٤) «تفسير القرطبي» (٣٧/٤، ٣٨) باختصار.

فاغسل – أخي المذنب – :

أدران ذنوبك ، وأوساخ معاصيك، بكثرة الاستغفار، والبكاء بالأسحار، والانكسار بين يدىْ الواحد الجبار، واعزم على الاستقامة مع سبقِ الإصرار والترصّد، واعلم أن الله تعالى وضع لقبول التوبة ومحو الذنوب شروطًا، فقال:

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

فاجعلها نُصب عينيك، واستعن بالله ولا تعجز.

مسك الختام:

عَنْ بَعْض الأعراب، أنه تعلّق بأُستار الكعبة وهو يقول:

«اللّهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بِسَعة عَفْوك لَعَجْز، فكم تتحبّب إليّ بالنّعم مع غناك عَني، وأتبغّض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا مَنْ إذا وَعَد وَفّى، وإذا توعّد تَجاوز وَعَفَا، أَدْخِلْ عَظِيم جُرْمِي في عظيم عفْوِك يا أَرْحَم الرّاحمين»(١).

۞۞۞۞۞

٤٧- التوكل

اعلم – أخي الكريم – أن التوكل: مَنزلٌ من منازل الدِّين، ومقامٌ من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرَّبين.

وهو: من أعظم الأسباب التي يَحْصُل بها المطلوب، ويَنْدَفِع بها المكروه.

وهو: نظامُ الإيمان، وقرينُ التوحيد.

وهو: السّبب المؤدِّي إلى نَفْي الفَقْر، ووجود الرَّاحة.

قال شقيقُ البَلْخيّ لحاتِم الأَصَمّ – رحمهما الله تعالى – :

مُذْ صَحِبْتَني، أيَّ شيءٍ تَعلَّمْتَ مني؟

قال: **ستَّ كلمات**:

- رأيتُ النّاسَ في شكٍّ من أمْر الرِّزْق، فتوكلتُ على الله. قال الله تعالى:
  ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦].
- ورأيتُ لكلّ رَجُلٍ صَديقًا يُفْشِي إليه سِرّه، ويشكو إليه، فصادقتُ الخير ليكونَ معي في الحساب، ويجوز معي الصِّرَاط.
- ورأيتُ كُلّ أحدٍ له عدوّ، فمن اغتابني ليس بِعَدُوِّي، وَمَنْ أَخَذ مني شَيْئًا ليس بِعَدُوِّي، بل عَدُوِّي من إذا كنتُ في طاعةٍ، أمرني بمعصية الله، وذلك إبليس وجنوده، فاتَّخَذْتُهم عَدوًّا وحاربتُهم.
- ورأيتُ النّاسَ كُلّهم لهم طالب، وهو مَلَكُ الموت، فَفَرَّغْتُ له نَفْسي.
- ونظرتُ في الخَلْق، فأحببتُ ذا، وأبغضتُ ذَا. فالذي أحببتُهُ لم يعطني، والذي أبغضتُه لم يأخذْ مني شيئًا، فقلتُ: من أين أُتيتُ؟ فإذا هو من الحسد فطرحتُه، وأحببتُ الكلّ، فكلّ

ورأيتُ النّاسَ كُلّهم لهم بيتٌ ومأوى، ورأيتُ مأْواي القَبْر، فكلّ شيء قدرتُ عليه من الخير قَدَّمْتهُ لنفسي لأُعَمِّر قَبْري.

فقال شقيق: عليك بهذه الخصال[1].

من أجل هذا وغيره، فالحديث - على السّطور التالية - يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف التوكل.

والثاني: الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكّل.

والثالث: درجات التوكل.

والرابع: مواطن التوكل.

والخامس: ثمرات التوكّل.

أوّلاً: تعريف التوكّل:

التوكّل «**لغةً**»: مصدرُ تَوَكَّلَ يتوكَّلُ وهومأخوذٌ من مَادّة (و ك ل) التي تدلُّ على اعتماد على الغَيْر في أمْر ما، ومن ذلك التوكُّلُ وهو إظهارُ العَجْزِ في الأَمْر والاعتماد على غَيْرك، وواكل فُلاَنٌ إذا ضَيَّع أَمْرَهُ مُتوكّلاً على غيره. والوِكالُ في الدَّابّة: أن يَسيرَ بِسَيْر الآخر.

والمتوكّل على الله: الذي عَلِم أنّ الله كافِلُ رِزْقه وَأَمْرِه فيركَنُ إليه وَحْدَه، ولا يتوكّل على غيره.

و «**اصطلاحًا**»: صِدْقُ اعْتمَاد القَلْب على الله - ﷻ - في اسْتجلاب المصالح، ودفع المضارّ من أمور الدُّنيا والآخرة، وَكِلَةُ الأمور كُلّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنّه لا يُعْطي ولا يَمْنَع ولا يَضُرُّ ولا ينفعُ سواه[2].

وقال الجُرْجَاني: التوكّل: هو الثقةُ بما عند الله، واليأس عمّا في أيدي الناس.

هذا، وتنوّعت عبارات القوم في تعريف التوكّل.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤٠٩).

(٢) نفس المصدر السابق.

قال **حَمْدُون القَصَّار** - رحمه الله تعالى - :

«التوكّل: هو الاعتصام بالله تعالى».

وقال **أبو تُراب النَّخْشبي** - رحمه الله - :

«التوكّل: طَرْحُ البدن في العبودية، وتعلّقُ القلبِ بالرّبوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعطى شكر، وإن مُنع صبَر».

وقال **ذو النّون المصريّ** - رحمه الله - :

«التوكّل: تركُ تَدْبير النّفس، والانخلاع من الْحَوْل والقوّة، وإنما يَقْوى العبد على التوكّل إذا عَلِمَ أن الحق - سبحانه - يَعْلم ويَرى ما هو فيه».

وقال **سهل بن عبد الله** - رحمه الله تعالى - :

«التوكّل: الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد».

وقال **عثمان سعيد الحيري** - رحمه الله - :

«التوكّل: الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه» [1].

ثانيا: الأخْذُ بالأسْباب لا يُنَافي التوكّل:

ضلّ قومٌ فَظَنّوا أن الحركة تنافي التوكّل! فعاشوا - في هذه الحياة - عالة على غيرهم، فانكسروا لعدوّهم، وضاقت الدنيا بسبب وجودهم!!

قال **الإمام ابن القيم** - رحمه الله - :

«التوكّل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكّل. ولكن من تمام التوكّل: عدم الرّكون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حالُ قَلْبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محلّ حِكْمَة اللهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيه. والتوكّلُ متعلّق بربوبيته وقضائه وَقَدَره، فلا تقوم

(١) «الرسالة القشيرية» (١٦٦).

عبوديّةُ الأسباب إلاّ على ساق التّوكّل، ولا يقوم سَاقُ التّوكل إلاّ على قدم العبودية» ا.هــ[١].

قال سهلُ بْنُ عَبْد الله – رحمه الله – :

«مَنْ طَعَن في الحركة فقد طعن في السُّنَّة، ومن طَعَن في التوكّل فقد طعن في الإيمان»[٢].

وقد ذكر **الشيخ/ محمد الغزالي** – رحمه الله – في كتابه «الجانب العاطفي من الإسلام» كلامًا طيّبًا يستحق التسجيل، قال – رحمه الله – :

«التوكل كلمة مظلومة، إنها تعني ركون الإنسان إلى الله فيما لا طاقة له به لأنه لا يستطيع عمله. أمّا ما يدخل في حدود طاقته ويملك الْبَتَّ في بدايته ونهايته فلا مكان للتوكل فيه.

إذا دخل الليلُ وهو في حُجرته نهض إلى المصباح فأوقده، هذا عمله الذي يقوم به ولا ينتظر من السماء أن تنوب عنه فيه.

إذا سار في طريق التزم الجانب الأيمن؛ وتجنّب مظان الخطر؛ وأجاب داعي الحَذَر، أمّا إيثار الفوضى وانتظار السلامة باسم التوكل فَجَهْلٌ... إذا سكن بيتًا غلق أبوابه ليلاً، وتعّهد ثغراته حتى لا يجد اللّصوص لهم منفذًا.

وهكذا.

من أجل ذلك أجاب رسولُ الله ﷺ الأعرابي الذي سأله:

أتركها وأتوكّل أم أعقلها وأتوكلّ – يعني ناقته – ؟ » فقال:

«**اعْقِلْها وتوكّل**»[٣].

ونبّه اللّهُ – تعالى – المجاهدين – إذا ضمّتهم جنبات الميدان – أن يكون انتباههم حادًّا، وتيقّظهم بالغًا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٢٥).

وقبل أن يأمر اللّهُ نبيَّه بالتوكّل عليه في قوله:

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

قبل ذلك مباشرة قال:

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

فالأمر بالتوكل جاء بعد إعلان عن عمل موصول وصبر طويل.

ورأى أحد الأئمّة فقيرًا ينطلق إلى الحجّ دون زاد، فسأله أين زادك؟

فقال: أنا متوكّل على الله.

فقال له: أمُسَافر أَنْتَ وَحْدك؟

قال: بل مع القافلة.

فقال له: أنت متوكّل على القافلة!!

وَصَدَق، فهذا متأكّل لا متوكل، وهذا الصِّنف جاهل بالإسلام، ومعرفته بالله غامضة، يشوبها حُمْقٌ كثير.

التوكل إيمان بالغيب بعد استنفاذ كل الوسائل المقررة في عالم الشهادة.

إيمان بالله بعد أداء كل ما يرتبط بالنفس من واجبات»ا.هـ[1].

قال الشاعر:

توكّل على الرّحمن في الأمر كُلّه ... ولا ترغبنّ في العَجْز يومًا عن الطَّلَب

ألم تَرَ أنّ الله قال لِمَريَم ... وَهزّي إليك الجِذْع يُساقط الرُّطَب

ولو شاء أدْلى الجِذْع من غير هزّه ... إليها ولكن كلّ شيءٍ له سَبَب

وقال آخر:

وَكُــنْ بــالّذي خَــطٌ بــاللَّوْح راضيًا ... فــلا مَهْــربَ ممَّــا قَضَــاه وَخَطَّــهُ
وإنَّ مــع الــرِّزْق اشْــتراطُ الْتماســه ... وقــد يَــتَعَدَّى إن تَعَدَّيْــتَ شَــرْطَهُ
ولــو شــاء أَلْقَــى في فَــمِ الطَّيْر قُوته ... ولكــنَّه أَوْحــى إلى الطَّــيْرِ لَقْطَــهُ

هذا، والآيات والأحاديث والآثار الحاضّة على تحريك سلسة الأسباب كثيرة:

فمن الآيات:

قوله تعالى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

ومن الأحاديث:

عن أنس بن مالك ﷺ قال:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، أعقلها وأتوكّل، أو أطلقها وأتوكّل؟ - يعني ناقته - .

قال: «**اعقلها وتوكل**»(١).

وفي رواية:

عن عمرو بن أُميّة الضّمري ﷺ قال:

قال رجلٌ للنبي ﷺ : أُرْسِلُ ناقتي وَأَتوكّل؟

قال: «**اعْقِلْها وتوكّل**»(٢).

وفي لفظ: «**قَيِّدها وتوكّل**»(٣).

قال العلاّمة المناوي - رحمه الله تعالى - :

---

(١) حسن: رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (١٠٦٨).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه»، وقال العلامة المناوي في «فيض القدير» (١١/٢): إسناده صحيح.

(٣) إسناده حسن: قال الحافظ العراقي: رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث عمرو بن أُميّة الضّمري، بإسناد

«قوله ﷺ: « **اعْقِلْها** » أي: شدّ رُكْبَة ناقتك مع ذَرَاعِها بِحَبْل «**وتوكّل**» أي: اعتمد على الله... وذلك لأن عقلها لا يُنافِي التوكّل الذي هو الاعتماد على الله وقطع النّظر عن الأسباب مع تَهْيئتها، وفيه بيان فضل الاحتياط والأخذ بالحزم» ا.هـ[١].

ومن الآثار:

عن معاوية بن قُرّة، أن عمَر بْنَ الخطّاب ﷺ لقى أُناسًا من أهل اليمن فقال:

من أنتم؟

قالوا: نحن المتوكّلون.

فقال: بل أنتم الْمُتَّكِلون، إنّما المتوكّل الذي يلقي حَبَّة في الأرض، ويتوكّل على الله[٢].

ثالثًا: درجاتُ التّوكّل:

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – ما مختصره:

«التوكّل: حال مركّبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلاّ بها.

فأوّل ذلك: معرفة الرَّبِّ وَصِفاته:

من قُدْرته، وكفايته، وَقَيّوميّته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أوّل درجة يضع بها العبدُ قَدَمه في مقام التوكّل.

الدرجة الثانية: إثبات في الأَسْبَاب والْمُسبِّبات:

فإن مَنْ نفاها فتوكّله مدخول، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرّأي: أن إثبات الأسباب يقدح في التوكّل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكّل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدّعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به.

---

(١) «فيض القدير» (٢/١٠).

فالأسباب محلّ حِكْمة الله وأَمْره ودينه، والتوكل متعلّق بربوبيته، وقضائه وَقَدَره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلاّ على ساق التوكّل، ولا يقوم ساق التوكّل إلاّ على قدم العبودية[١].

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مَقَام توحيد التَّوكُّل:

فإنّه لا يستقيم توكل العبد حتى يصحّ له توحيده. بل حقيقة التوكّل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشّرك، فتوكّله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحّة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفاتُ شُعبة من شُعَب قَلْبه، فنقص من توكّله على الله بقدر ذهاب تلك الشُّعْبة، ومن ههنا ظنّ مَن ظنّ أن التوكّل لا يصحّ إلاّ برفض الأسباب. وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتوكّل لا يتم إلاّ برفض الأسباب عن القلب، وتعلّق الجوارح بها، فيكون مُنْقَطِعًا منها مُتَّصِلاً بها[٢].

الدرجةُ الرابعة: اعتمادُ القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه:

بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السّكون إليها من قلبه، ويلبسه السّكون إلى مسببها.

وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحبّ منها، وإقبال ما يكره، لأن اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصّنه من خوفها ورجائها، فحاله حال من خرج عليه عدوّ عظيم لا طاقة له به، فرأى حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن.

فهو يشاهد عدوّه خارج الحِصْن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوّه في هذه الحال لا معنى له.

---

(١) استدلّ الرّافضون للأسباب بحديث: «يدخل الجنةَ من أُمّتي سَبْعون ألفًا بغير حساب، لا يكتوون، ولا يَسْترقون، ولا يَتَطيّرون، وعلى رَبِّهم يتوكلون» رواه أحمد، ومسلم، وسيأتي بتمامه بعد قليل - إن شاء الله تعالى - واستدلالهم في غير موضعه، لأن التداوي - في الأصل - مباح، فتركه عزيمة، والأخذ به رُخْصة. والله أعلم.

(٢) قال الشيخ الشعراوي - رحمه الله تعالى - : «اليد تَعْمَل، والقَلْب يَتوكّل».

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عزّ جلّ:

فعلى قدر حُسن ظنّك بربك ورجائك له. يكون توكّلك عليه. ولذلك فسّر بعضهم التوكّل بحُسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن بالله يدعوك إلى التوكل عليه، إذ لا يتصوّر التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلّها إليه، وقطع منازعاته. وبهذا فسّره مَنْ قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير.

الدّرجة السابعة: التفويض:

وهو روح التوكّل ولُبّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلّها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كُرهًا واضطرارًا.

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة، انتقل منها إلى:

الدرجة الثامنة: وهي: درجة الرّضا:

وهي ثمرة التوكل. ومن فسّر التوكل بها فإنّما فسّره بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده، فإنه إذا توكّل حقّ التوكّل، رضي بما يفعله وَكيلُهُ» اهـ[1].

رابعًا، مواطن التّوكّل،

إن التوكّل على الله ﷻ مطلوبٌ في كُلّ شئون الحياة، بيد أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحضّ على التوكّل والأمر به للمصطفى ﷺ والمؤمنين، وقد ذكر **الفَيْروزاباديُّ** من ذلك:

(١) إن طلبتم النصر والفرج فتوكّلوا عليه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢٩١- ٢٩٣) باختصار.

(٢) إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكّل: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

(٣) إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على الوكيل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

(٤) إذا تلي القرآن عليك أو تلوته فاستند على التوكل: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

(٥) إذا طلبتَ الصُّلْح والإصلاح بين قوم لا تَتوسَّلْ إلى ذلك إلاّ بالتوكل: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦١].

(٦) إذا وَصَلَتْ قوافلُ القَضَاءِ فاستقبلْها بالتوكل: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

(٧) إذا نَصَبَت الأعداءُ حِبَالاَتِ الْمَكْر فادْخُلْ أنت في أرْضِ التوكل: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس: ٧١].

(٨) إذا عَرَفْتَ أنَّ مَرْجِعَ الكُلِّ إلى الله وتقديرَ الكُلِّ فيها لله فَوطِّن نَفْسَك على فَرْشِ التوكّل: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ [هود: ١٢٣].

(٩) إذا عَلِمْتَ أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتِّكَالُكَ إلاّ عليه: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

(١٠) إذا كانت الهدايةُ مِنَ الله، فاستَقبِلْها بالشُّكْر والتَّوكُّل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

(١١) إذا خشيت بأْسَ أعداء الله والشيطان والغدَّار فلا تَلْتَجِئ إلاّ إلى بابِ الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

(١٢) إذا أردتَ أن يكون اللهُ وكيلَك في كلِّ حال، فتمسّك بالتوكّل في كلِّ حال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

(١٣) إذا أردتَ أن يكون الفردوسُ الأعلى مَنزلَك فأنزل في مَقَام التوكّل: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤٢].

(١٤) إن شئتَ أن تنال مَحبّة الله، فأنزل أوّلاً في مقام التوكّل: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١٥) إذا أردت أن يكون الله لك، وتكون لله خالصًا فعليك بالتوكّل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] ا.هـ[١].

خامسًا: ثمرات التوكل:

اعلم - أخي الكريم - أن للتوكّل على الله - تعالى - ثمرات طيّبة، يذوق المسلمُ طَعْمَها في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، من هذه الثمرات:

(١) سعة الرِّزق:

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

« لو أنّكم توكلْتُم على الله حَقَّ تَوكّله، لَرَزَقكم كما يَرْزُق الطَّير، تَغْدو خِماصًا[٢]، وتَرُوح بطانًا[٣] »[٤].

وللشافعيّ - رحمه الله - :

توكلتُ في رزقي على الله خَالِقي وأيقنتُ أنّ الله لا شكَّ رازقي

(١) « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » للفيروزابادي (٢/٣١٣- ٣١٥).

(٢) خماصًا: جياعًا.

(٣) بطانًا: ممتلئات البطون.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد في « المسند » (١/٥٢)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ومـا يـكُ مـنْ رِزقـي فَلَيْسَ يفُوتني	ولـو كـان في قـاعِ الـبحار العَوَامِقِ
سـيأتي به اللّـهُ العظـيم بفَضْـله	ولـو لم يكـن مـني اللّسـانُ بِـنَاطِقِ
ففـي أي شـيءٍ تذهبُ النَّفسُ حَسْرةً	وقـد قَسَـمَ الـرّحمنُ رِزْقَ الخَلائـقِ

(٢) قضاءُ الدَّيْن:

□ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه.

وعن خليد العمري - رحمه الله تعالى - قال:

«ما من عبد ألجأته حاجة فأخذ بأمانته توكّلاً على ربِّه، ثم أنفقه على أهله في غير إسراف، فأدركه الموتُ ولَمْ يَقْضه إلاّ قال اللّهُ - تبارك وتعالى - لملائكته:

عبدي هذا ألجأته حاجة فأخذ بأمانته توكّلاً عَليّ، وثقة بي، فأنْفقه على أهْله في غير سَرَف، أشهدكم أني قد قَضَيْتُ عنه دَيْنَهُ، وأَرْضَيْتُ هذا من حَقّه!!»[١].

(٣) تفريجُ الكرْب:

وهذه قصّة عجيبة تدلّ على هذا.

قال أبو الحسن الصَّفّار الفقيه:

كنّا عند «الحسن بن سُفيان»[٢]، وقد اجتمع إليه طائفةٌ من أهل الفَضْل، ارتحلوا إليه، فخرج يومًا فقال:

اسمعوا ما أقول لكم قبل الإمْلاء: قد علمنا أنكم من أبناء النِّعَم، هَجَرْتُم الوطن، فلا يَخْطُرَنّ ببالِكم أنكم رَضيتم بهذا التَّجَشُّم لِلْعلم حَقًّا، فإني أُحَدِّثكم ببعض ما تحملتُه في طلب العلم:

ارتحلتُ مِنْ وطني، فاتَّفَقَ حُصُولي بِمِصْرَ في تِسْعَةٍ من أصحابي طَلَبةِ العِلْم، وكُنّا نَختَلف

(١) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (١٤).

(٢) الإمام، الحافظ، الثّبت، أبو العباس الشَّيْباني الخُراساني النَّسَويّ، ارتحل إلى الآفاق في طلب الحديث، وهو من أقران الإمام أبي يعلى، وقال عنه الحافظ أبو بكر أحمد الرّازي: «ليس للحسن في الدّنيا نظير». انظر

إلى شيخ أرفع أهلِ عَصْره في العلم مَنزلة، فكان يُمْلي علينا كُلَّ يوم قليلاً، حتى خفَّت النَّفقةُ، وَبِعْنا أثاثَنا، فطَوَيْنا ثلاثًا(١)، وأصبحنا لا حَرَاكَ بنا، فأَحْوَجَت الضرورةُ إلى كَشْف قِنَاعِ الحِشْمَة وَبَذْلِ الوَجْه، فَلَمْ تَسْمَحْ أنْفُسُنا، فوقع الاختيارُ على قُرْعة، فَوَقَعَتْ عَلَيَّ، فتحيَّرتُ وعدلت، فصلَّيْتُ ركعتين، ودعوتُ، فلم أَفْرُغْ حتى دَخَلَ المسجدَ شَابٌّ معه خادم، فقال:

مَنْ منكم الحسنُ بْنُ سفيان؟

قلتُ: أنا.

قال: إن الأمير «طولون» يُقْرِئكُم السَّلاَم وَيَعْتذر مِنَ الغَفْلة عن تَفَقّد أحوالكم، وقد بَعَث بهذا، وهو زائِركُم غدًا!

ووضع بين يدي كُلِّ واحدٍ مائة دينار! فتعجّبنا وقُلْنا:

ما القصّة؟

قال: دخلتُ عليه بُكْرَةً فقال:

أُحِبُّ أن أخْلُوَ اليوم.

فانصرفنا، فبعد ساعةٍ طَلَبني، فأتيتُه، فإذا به يَدُهُ على خَاصِرَته لِوَجَعٍ مُمِضٍّ اعْتَراه، فقال لي:

تعرفُ الحسنَ بْنَ سُفيانِ وأصحابَه؟

قلتُ: لا. قال:

اقْصِدِ الْمَسْجِدَ الفُلاَني، واحمْل هذه الصُّرَرَ إلَيهْم، فإنَّهم مُنْذُ ثلاثةِ أيَّامٍ جِياع، وَمَهِّدْ عُذْري لَدَيْهم. فسألتُه، فقال:

انْفَرَدتْ فَنِمْتُ، فرأيتُ فَارِسًا في الهواء، في يَدِه رُمْحٌ، فَنزل إلى بَابِ هذا البيت، وَوَضَع سَافِلَةَ رُمْحِه على خاصِرَتي، وقال:

قُمْ فأدرك الحسنَ بْنَ سفيان وأصحابَه، قُمْ فأدركْهُم، فإنّهم مُنْذُ ثلاثٍ جياعٌ في المسجد ا'لفلاني، فقلتُ له: مَنْ أنتَ؟ قال:

«أنا «رضوان» صاحبُ الجنة!».

فمنذُ أصاب رَمْحُه خاصِرتي أصابني وَجَعٌ شديد، فَعَجِّل إيصَالَ هذا المالِ إليهم ليزول هذا الْوَجَعُ عَني.

قال الحسنُ: فعجِبْنا وشكَرْنا الله، وَخرَجْنا تلك الليلة مِنْ مِصْر لئلاّ نُشْتَهر، وأصبحَ كُلُّ واحدٍ منّا واحدَ عَصْرِه، وقَرِيعَ دَهْره في العلم والفضْل.

قال: فلمّا أصبح الأمير «طولون» فأحَسَّ بخروجنا، أَمَرَ بِاْبتياع تلك الْمَحلّة، وَوَقَفَها على الْمَسْجد، وعلى مَنْ يَنزلُ به من الغُرَباء وأهل الفَضْلَ، نَفَقَةً لهم، لئلاّ تَختَلَّ أمورُهم، وذلك كُلّه مِنْ قَوّةَ الدِّين وصفاءِ العقيدة[1].

أخي:

لا تسألن بني آدم حَاجةً	**وَسَلِ الّذي أبوابه لا تُحْجب**
الله يَغْضب إن تركتَ سُؤاله	**وبني آدم حين يُسأل يغضب**

أخي:

مَنْ يَسْأل النّاس يحرموه	**وسائل الله لا يخيب**

أخي:

من اعتمد على مَاله قَلّ.

ومن اعتمد على عَقْله ضَلّ.

ومن اعتمد على جاهه ذَلّ.

ومن اعتمد على الله لا قَلّ، ولا ضَلّ، ولا ذَلّ.

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

(٤) الوقاية من الشيطان:

- فعن أنس بن مالك ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ قال** - يعني إذا خرج من بيته - **بسم الله، توكلتُ على الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، يُقال له: كُفيتَ، ووقيت، وَهُديتَ، وتَنَحَّى عنه الشيطانُ، فيقول لشيطانٍ آخر: كيف لك بِرَجُلٍ قَدْ هُدِي، وَكُفِيَ، وَوُقِي**»[١].

- وعن سفيان الثوري - رحمه الله - في قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]، قال:

«أن يَحْمِلَهم على ذَنْبٍ لا يُغْفر»[٢].

- وعن هيم أبي بكر العجليّ - رحمه الله - عن رجل من أهل الكوفة، قال:

«بينا أنا في بستان لي إذ خيّل لي رؤية شخص أسود، ففزعتُ منه، فقلتُ:

«حسبي الله ونعم الوكيل»، قال: فَسَاخَ في الأرض وأنا أنظر إليه، وسمعتُ صَوْتًا من ورائي يقرأ هذه الآية:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٣].

فالتفتُ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا!»[٣].

(٥) طريقٌ لِلغنى:

قال أبو قدامَة الرَّمْلي: قرأ رجلٌ هذه الآية:

---

(١) صحيح: رواه أهلُ السُّنن.

(٢) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (٢٥).

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨].

فأقبل عَلَيَّ «سليمان الخوّاص»، فقال:

«يا أبا قدامة، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ غير الله في أمْرِه، ثم قال:

كيف قال اللّهُ - تبارك وتعالى - :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾.

فأعْلَمَك أنّه لا يموت، وأن جميع خَلْقه يموتون، ثم أَمَرك بعبادته، فقال:

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ .

ثم أخبرك أنه خبير بصير، ثم قال:

والله يا أبا قُدامة لو عامل عبدٌ الله بحُسْن التوكّل، وَصِدْق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراءُ فَمَنْ دُونهم، فكيف يكون هذا مُحْتَاجًا، ومؤمّله وملجؤه إلى الغني الحميد!»[١].

(٦) يُذْهِبُ التشاؤم:

- فعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«الطِّيَرَةُ من الشِّرْك، ولكن الله يُذْهِبها بالتوكل»[٢].

- وعن ابن مسعود - أيضًا - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«الطِّيرة شِرْكٌ، وما مِنّا إلاّ، ولكنّ الله يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّل»[٣].

---

(١) «التوكل على الله» (٣٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، والبغوي في «مصابيح السُّنة» (٢/٩٧)، وانظر: «الصحيحة» (٤٣٠).

(٣) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨٦٦).

قال العلامة المناوي – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث:

«**الطِّيرة**» – بكَسْر فَفَتْح – : قال الحكيم: هي سوء الظنّ بالله وهرب من قضائه.

«**شركٌ**» أي: من الشّرك لأن العرب كانوا يعتقدون أن ما يتشاءمون به سبب يؤثّر في حصول المكروه، وملاحظة الأسباب في الجملة شِرْك خَفيّ فكيف إذا انضمّ إليها جهالة فاحشة وسوء اعتقاد، ومن اعتقد أن غير الله ينفع أو يَضرّ اسْتِقلالاً فقد أشْرك... والفرق بين الطّيرة والتطيّر: أن التطيّر: الظّن السّيئ بالقلب، والطيرة: الفعل المترتب عليه» ا.هـ[1].

(٧) طريق إلى دخول الجنة بغير حساب!!

فعن عمران بن حُصين رضي الله عنه قال:

قال نبي الله ﷺ:

«**يدخُل الجنّة من أُمّتي سبعون أَلْفًا بغير حساب**».

قالوا: ومن هم يا رسول الله؟

قال: «**هم الذين لا يكْتَوُن، ولا يَسْتَرقُون، وعلى رَبِّهم يتوكلون**».

فقام عُكَاشةُ[2]، فقال:

ادْعُ الله أن يجعلني منهم.

قال: «**أنْتَ منهم**».

فقام رجل، فقال: يا نبي الله، ادْعُ الله أن يجعلني منهم.

قال: «**سَبَقَك بها عُكَاشة**»[3].

قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى – ما مختصره:

---

(١) «فيض القدير» (٣/٣٨٨).

(٢) هو: «عُكَاشة بن مِحْصَن» رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢١٨).

«اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فقال الإمام المازريّ: احتجّ بعضُ الناس بهذا الحديث على أن التداوي مكروه، ومعظم العلماء على خلاف ذلك، واحتجّوا بما وقع في أحاديث كثيرة من ذِكْره ﷺ لمنافع الأدوية والأطعمة كالحبّة السوداء، والقسْط، والصَّبْر، وغير ذلك، وبأنّه ﷺ تداوى... فإذا ثبت هذا، حُمل ما في الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطبعها، ولا يفوّضون الأمر إلى الله تعالى.

قال القاضي عياض: قد ذهب إلى هذا التأويل غير واحدٍ ممّن تكلّم على الحديث، ولا يستقيم هذا التأويل، وإنما أخبر ﷺ أن هؤلاء لهم مزية وفضيلة يدخلون بها الجنة بغير حساب، وبأن وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر، ولو كان تأوّله هؤلاء لما اختُصّ هؤلاء بهذه الفضيلة؛ لأن تلك هي عقيدة جميع المؤمنين، ومن اعتقد خلاف ذلك كفر.

وقد تكلّم العلماءُ وأصحابُ المعاني على هذا، فذهب أبو سليمان الخطابي وغيره إلى أن المراد مَنْ تَرَكها توكُّلاً على الله تعالى، ورضاء بقضائه وبلائه.

قال الخطّابي: وهذه من أرفع درجات المحققين بالإيمان. قال: وإلى هذا ذهب جماعة سمّاهم.

قال القاضي: وهذا ظاهر الحديث، ومقتضاه: أنه لا فرق بين ما ذكر من الكيّ والرّقي وسائر أنواع الطّب.

وقال الداودى: المراد بالحديث الذي يفعلونه في الصّحة؛ فإنه يُكْره لِمَنْ ليست به علّة أن يتّخذ التمائم[1]، ويستعمل الرُّقي. وأمّا من يستعمل ذلك ممّن به مرضٌ فهو جائز وذهب بعضهم إلى تخصيص الرُّقي والكيّ من بين أنواع الطّب بالمعنى وأن الطّب غير قادح في التوكّل إذ تطبب رسولُ الله ﷺ والفضلاء من السّلف. وكل سبب مقطوع به كالأكل والشرب للغذاء والرّي لا يقدح في التوكل عند المتكلمين في هذا الباب، ولهذا لم ينف عنهم التطبب، ولهذا لم يجعلوا الاكتساب للقوت وعلى العيال قادحًا في التوكل إذا لم يكن ثقته في رزقه باكتسابه وكان مفوضًا في ذلك كلّه، إلى الله تعالى...

---

(١) التمائم: خرزات كان يعلّقها الجُهّال يعتقدون أنها تدفع الآفات، وتردّ العين! لكن المقصود – هنا – : ما

والظّاهر من معنى الحديث: ما اختاره الخطّابي وَمَنْ وافقه كما تقدّم، وحاصله:

أن هؤلاء كمل تفويضهم إلى الله ﷻ، فلم يتسبّبوا في دفع ما أوقعه بهم.

ولا شكّ في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها. وأمّا تطبّب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز. والله أعلم»ا.هـ[1].

أخي المسلم:

هذه بعضُ ثمرات «التوكّل على الله» ، فتوكّل - أيها المسلم - على الحيّ الذي لا يموت، وسبحّ بحمده.

وإيّاك أن تتوكل على الحيّ الذي يَموت، فَيضلّ سَعْيُك، وَيَخيب أَمَلُك.

«اللّهم إنّا نعوذ بك من الخوف إلاّ منك، والركون إلاّ إليك، والتوكل إلاّ عليك، والسؤال إلاّ منك، والاستعانة إلاّ بك، أنت ولينا ونعم المولى ونعم النصير».

۞۞۞۞۞

٤٨- الزُّهْدُ

اعلم - أخي الكريم - أن «مِنْ تَمَام النِّعمة عليك: أن يَرْزَقَكَ اللّهُ ما يَكْفِيك، وَيَمْنَعَكَ ما يُطْغِيك، ليقلّ ما تَفْرحُ به، ويقلّ ما تَحْزَن عَلَيْه»[1].

إذا نَوى المؤمنُ النّجاة من هذه الحياة إلى رحمة الله، وقرر الجهادَ في سبيل الله، والاشتباك مع قوى الباطل في حرب موصولة الكرِّ والفرّ فيجب عليه أن يحدّد صِلَته بما في الدنيا من مُتَعٍ وما تهواه النّفسُ من لَذّات...

ذلك أن التمشّي مع مغريات الحياةَ يفتح الشهيّة للمزيد، ويعلّق القلب بمطامع تشغله عمّا يجب أن يخلص له.

وصدق المتنبي إذ يقول:

ذِكْرُ الفتى عُمره الثاني وحاجته ... ما قَاتَه وفضول العَيْش أشْغال

وترضية النفس بمستوى من العيش يضمن الكفاية، وينفي الفضول، أعون شيء على رفع الجبهة، وتوفير العزّة، وإرضاء الله.

- قيل يومًا لأحد شيوخ الأزهر: افعل كذا وإلاّ أصابك ما لا تحمد عقباه!

فقال: هل سأمنع من التردد بين بيتي والمسجد؟

قيل: لا.

قال: فافعلوا ما بَدَا لكم...

- ولمّا سُجن **الشيخ عليش** في أعقاب الثورة العرابية قيل له:

تملق الخديوي ليعفو عنك.

فقال قصيدته التي مطلعها:

(١) من كلام ابن عطاء الله السكندريّ - رحمه الله تعالى - .

الـــزم بــــابَ رَبِّـــك واتــــرك كـــلَّ دون

واســــأله السّــــلامة مـــن دار الفُــــتون

لا تكـــثر لِهَمِّـــك مـــا قُـــدِّر يكـــون

وأساس هذا السلوك: توطين النّفس على أسلوب من العيش خفيف المؤنة، قليل الكلفة، والإنسان في هذا المجال يمكن أن يمتد، ويمكن أن ينكمش.

والـنّفسُ طامِعة إذا أطعمتها وإذا تُـرَدّ إلى قليل تَقْـنع

ونحن لا نحرّم حلالاً، ولا نحجر واسعًا، وإنما نصف الطريق التي لابد من سلوكها لأصحاب الرسالات وحملة الدعوات.

فإنه لا يتفق طمع في الدنيا، وانتصار للمثل العليا.

ولا ينسجمان: الحرص على إعلاء كلمة الله، والحرص على تكثير المغانم واسترضاء الخلائق، وفي الحديث:

«يا أيّها النّاس: هلمّوا إلى ربّكم، فإنّ ما قلّ وكفى خيرٌ مِمّا كثُر وألْهَى»[1].

إن التعلّق بأذيال الدنيا، والخلود إليها، أذلّ أعناق الرجال.

والتهافت على جمعها، أصاب أصحابها بالعمى، عمى القلوب لا عمى الأبصار.

وتغلغل حُبّها في القلوب، أورث في الناس الجبن والانكسار.

والسّعي إلى تحصيلها – من أي وجه كان – : أخرس الألسنَ عن قول الحق، وأعمى الأعينَ عن الآخرة، وأصَمّ الآذان عن سماع النّصيحة، وَحَجَبَ عن القلوب نور الإيمان، وأجّج في النفوس نارَ الشهوات، وأمات في الأفئدة الضمائرَ، وجفّف في القلوب منابع الخير والرحمة والإحسان.

فيا تعاسة عُبّاد الدّنيا، وقادة الشهوات.

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد، ورواته رواة الصّحيح. وانظر: «الجانب العاطفي من الإسلام» للغزالي (١٦٤).

أخي المسلم:

إن دَلِيلنا إلى عِزّة النَّفْس والوصول نحو المعالي: خُلُق كريم، تداوَى به الصّالحون من الدنيا وأوصابها، فكان سببًا في ارتفاعهم وعلوّهم، طالت رؤوسُهم السّماء فلامستها، وانحنت السّماءُ على رؤوسهم فتوّجَتْها.

أتدري ما هذا الخُلُق؟

إنّه خُلُق «**الزّهد**».

وَلِعُلوّ مكان هذا الخُلُق بين الأخلاق الإسلامية، فالحديث على السطور التالية يدور حول **ستة أمور**:

الأوّل: تعريف الزّهد.

والثاني: الترغيب فيه.

والثالث: أقسامه.

والرابع: ما يعين عليه.

والخامس: خطأ في مفهوم الزّهد.

والسّادس: لقطات من حياة الزّهاد.

أولاً: تعريفُ الزُّهد:

الزّهد «**لُغَة**»: **قال ابن فارس**: «الزّاي والهاء والدّال» أصل يدلّ على قِلّة الشيء. والزّهيد: الشّيء القليل، وهو مُزْهِدٌ: قليلُ المال، ويقال:

رجل زهيد: قليل المطعم، وهو ضَيِّق الخُلُق أيضًا، وقال بعضهم: الزّهيد: الوادي القليل الأَخْذِ للماء، والزَّهَاد: الأرضُ التي تسيلُ من أدْنى مَطَر[1].

والزّهدُ ضد الرَّغبة، يقال: فلان يزهد في الشيء أي: يرغب عنه.

---

(١) «المقاييس» (٣/٣٠).

و «اصطلاحًا»: **قال الإمام ابن تيمية** - رحمه الله تعالى - : «الزّهد المشروع: هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدّار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يُسْتعانُ بها على طاعة الله»ا.هـ[١].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «إن الزّهد سفرُ القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنَّف المتقدِّمون كُتُبَ الزُّهد، كالزُّهد لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولِهَنَّاد بن السَّري، ولغيرهم.

وَمُتَعلَّقُهُ سِتَّةُ أشياء لا يستحقُّ العبدُ اسم الزُّهد حتى يزهد فيها وهي:

المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك، فقد كان سليمانُ وداود - عليهما السلام - من أزهد أَهْل زمانهما، ولهما من المال والْمُلْك والنِّساء ما لَهُمَا، وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق، وله تِسْعُ نِسْوةٍ، وكان عليّ بن أبي طالب، وعبد الرّحمن بن عوف، والزّبير وعثمان رضي الله عنهم من الزُّهّاد مع ما كان لهم من الأموال، وغيرهم كثير»ا.هـ[٢].

وقال ابن المبارك - رحمه الله - :

«الزّهد: هو الثّقة بالله مع حُبِّ الفقرِ».

وقال سفيانُ الثوريّ - رحمه الله - :

«الزُّهْد في الدنيا: قِصَر الأَمَل، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباءة».

وقال وهيبُ بن الْوَرْد - رحمه الله - :

«الزهد في الدنيا أن لا تأس على ما فاتك منها ولا تفرح بما أتاك منها».

هذا، ومن أحسن ما قيل الزّهد: كلام **الحسن البصري**، أو غيره:

---

(١) «مجموع الفتاوي» (٢١/١٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١٣/٢).

«ليس الزّهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال؛ ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون ثواب المصيبة - إذا أُصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك».

فهذا من أجمع الكلام في الزّهد وأحسنه.

ثانيا: التَّرغيبُ فيه:

جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ترغّب في «الزّهد» وتحض عليه:

فمن القرآن:

(١) قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

(٢) وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧].

(٣) وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

ومن الأحاديث:

(١) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ:

«ازْهَدْ في الدُّنيا يُحِبُّك اللّهُ، وازهد فيما في أيْدي النّاسِ يُحِبُّكُ النّاس»[١].

(٢) وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ:

«طُوبى لِمَنْ هُدِي للإسْلاَم، وكان عَيْشُه كَفَافًا، وقَنع به»[٢].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٩٢٢).

(٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«صلاحُ أَوَّلِ هذه الأُمَّةِ بالزُّهْدِ واليقين، وَيَهْلَكُ آخِرُها بالْبُخْلِ والأَمَلِ»[1].

(٤) وعن عبد الله بن محصن ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ أَصْبَحَ منكم آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى في جَسَده، عنده قوتُ يَوْمِه، فكأنّما حِيزَتْ له الدنيا بِحَذَافِيرِها»[2].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة:

ثالثًا: أقسام الزّهد:

قال **الإمامُ ابْنُ القيمّ** - رحمه الله تعالى -:

الزهد أقسام:

الأوّل: **زهد في الحرام:**

وهو فرض عين.

والثاني: **زهد في الشُّبُهات:**

وهو بحسب مراتب الشُّبهة، فإن قَوِيت التحق بالواجب، وإن ضَعُفت كان مُسْتَحبًّا.

قلت: وفي الحديث: **«فَمنِ اتّقى الشُّبهات فقد اسْتَبْرأ لِدينه وَعِرْضه»**[3].

وقد فسّر الإمام **أحمد** - رحمه الله - الشبهة بأنها منزلة بين الحلال والحرام:

يعني الحلال المحض والحرام المحض وقال: **«من اتقاها فقد استبرأ لدينه»**.

---

(١) حسن: رواه أحمد في «الزهد»، والطبراني في «الأوسط»، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٨٤٥).

(٢) حسن: رواه الترمذي، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٠٤٢).

وفسّرها باختلاط الحلال والحرام[١].

والثالث: زهد في الفُضُول:

وهو زهدٌ فيما يَعْني مِنَ الكَلاَم والنَّظر والسؤال واللقاء وغيره، وزهدٌ في الناس، وزهد في النَفس حيث تهون نفسُهُ في الله.

والرابع: زُهْدٌ جامِعٌ لذلك كُلِّه:

وهو الزُّهد فيما سوى ما عند الله، وفي كلِّ ما يشغلُك عن الله، وأفضلُ الزّهد إخفاء الزُّهد، وأصعبُهُ الزّهد في الحظوظ» اهـ[٢].

رابعًا: ما يُعين على الزّهد:

والذي يصحّحُ هذا الزّهد **ثلاثة أشياء:**

أحدُها: علم العبد أن الدنيا ظلٌّ زائلٌ، وخيالٌ زائرٌ، فهي كما قال تعالى:

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد: ٢٠].

وسمّاها الله ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة الْمُغْتَرّين، وحَذَّرنا مِثْلَ مَصَارِعِهِم، وذمّ من رَضِي بها، واطمأن إليها.

الثاني: عِلْمُه أن وراءها دارًا أعظم منها قَدْرًا، وأجلّ خَطَرًا، وهي دارُ البقاء، فالزُّهد فيها لكمال الرّغبة فيما هو أعظم منها.

قلت: ومّما يعين على ذلك: زيارة القبور. قال ﷺ:

«كنتُ نهيتكُم عن زيارةِ القبور، فَزُوروها، فإنّها تُزَهِّد في الدنيا وتذكِّرُ الآخرة»[٣].

---

١) «جامع العلوم والحكم» (٧٩).

٢) «الفوائد» (١١٨)، مع إضافة.

٣) حسن: رواه ابن ماجه (١٥٧١) واللفظ له، قال في «الزوائد»: إسناده حسن، وأصله عند مسلم (٩٧٦، ٩٧٧).

والثالث: معرفته وإيمانه الحقُّ بأن زهده فيها لا يَمْنَعُه شيئًا كُتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلبُ له ما لَمْ يُقْضَ لَهُ مِنْها، فمتى تيقَّن ذلكَ ثَلِجَ له صدرُه، وعلم أن مضمونه منها سيأتيه.

فهذه الأمور الثلاثة تُسهِّل على العبد الزُّهد في الدنيا وتُثَبِّت قَدمَه في مَقَامه[1].

خامسًا: خطأ مفهوم الزُّهد:

«يفهم بعضُ الناس الزهد فهمًا خاطئًا، إذ يرون أن الإسلام يحب الفقر للمسلمين ويدعوهم إلى تفضيله وإيثاره، فيجعلهم هذا التصوّر الخاطئ يُبَطِّئون همتهم عن العمل والإنتاج وعمران الدنيا، ويرغبون في اللّجوء إلى الزوايا والتكايا والصّوامع بزعم التفرغ للعبادة وإيثار عمل الآخرة، ويصابون بعد ذلك بداء الكسل والإخلاد إلى الراحة، وداء الطمع بعطاءات الناس ومنحهم، وما يبذلونه لهم من مآكل ومشارب.

وسبب خطئهم أنهم لم ينظروا إلى جملة النصوص الإسلامية التي يكمّل بعضُها بعضًا، لقد تعلّقوا بنصوص التزهيد في الدنيا وأساؤوا فهمها، ولم ينظروا إلى نصوص الحثّ على العمل والكسب وعمران الدنيا والأخذ بأسباب القوّة، ونصوص الحثّ بعد ذلك على البذل في سبيل الله بعد الكسب الحلال زهدًا في الدنيا وابتغاء لرضوان الله.

إن دعوة الإسلام إلى الزّهد في الدنيا ليست دعوة إلى ترك العمل والإنتاج والاستثمار، وليست ترغيبًا بالفقر والضّعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء، والبعد عن رذائل البخل والشّح، ومسببات قسوة القلب، والكبر والعُجب والاستعلاء على الناس والطغيان والاستهانة بالفضائل، وما ينجم عن ذلك من انحطاط كبير عن مراتب الكمال الإنساني في الفكر والنفس والسلوك.

ودعوة الإسلام إلى الزّهد في الدنيا دعوة إلى القناعة بما قسم الله من رزق، وتربية على العفّة عمّا في أيدي الناس، وعدم الطمع بما لدى الآخرين، وعدم النّظر إليه بحسد

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٤٥، ٢٥٥) باختصار.

ورغبةٍ بامتلاكه.

ودعوة الإسلام إلى الزّهد في الدنيا دعوة إلى أن يصرف المؤمن قلبه عن التعلّق بالأشياء الدنيوية لذاتها أو للذّاتها، كي يتوجّه شطر الآخرة ومحبّة الله وابتغاء مرضاته.

ولا يبطّئه ذلك عن العمل والكسب، لأن العمل والكسب عندئذٍ من أفضل العبادات:

أمّا مَنْ تفرغ للعلم وإرشاد الناس وتعليمهم فهو عامل في أشرف الأعمال وأفضلها، وعلى الأمة أن تكفيه معاشه[1]، وهو من أزهد الناس في الدنيا متى كان صادقًا مع الله.

هذا هو المفهوم الإسلامي الصّحيح»[2].

سادسًا: لقطات من حياة الزُّهّاد:

اعلم - أخي المسلم - أنه لا يجدُ طعمَ الزّهد إلاّ من عاش فيه، أو تقلّب في رياض الزاهدين، فاقتبس من أخبارهم، وتحسّس أحوالهم، وتجوّل في بستانهم:

وهذه لقطات من حياتهم، نتعرّف من خلالها: كيف عاشوا، وفيم تحدّثوا:

اللَّقْطَةُ الأُولى: زُهْدُ النبي ﷺ:

اعلم أن الله - تعالى - عَرَض علىّ نَبيِّه ﷺ الدنيا فَرَدَّها، وعَرَض عليه مفاتيح كنوزِها فَرَفَضَها! ثم رضى أن يعيش عيشة البسطاء!

اقرأ:

□ عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

---

(١) عن أنس ﷺ قال: «كان أخَوان على عهد النبي ﷺ فكان أحَدُهما يأتي النبي ﷺ: وفي رواية: «يحضُر حديث النبي ﷺ وَمَجْلِسَهُ»، والآخر يحترفُ، فشكا المحترفُ أخاه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا أخي لا يُعينني بشيء، فقال ﷺ: «لَعَلَّكَ تُرْزَق به». رواه الترمذي (٢٣٤٦)، والحاكم (٩٣/١، ٩٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي والألباني. انظر: «الصحيحة» (٢٧٦٩).

(٢) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» لعبد الرحمن حسن حبنكة (٥٢٨/٢، ٥٢٩) باختصار.

دَخَلَتْ عَلَيَّ امرأةٌ من الأنصار فَرَأَتْ فِرَاشَ رسول الله ﷺ عباءَةً مثنية، فَرَجَعَتْ إلى مَنزلها، فَبَعَثَتْ إليَّ بِفِراشٍ حَشْوه الصُّوف، فَدخَل عليّ رسولُ الله ﷺ فقال:

« **ما هذا؟** ».

فقلتُ: فلانةٌ الأنصارية دخلتْ عليّ، فرأت فراشك، فبعثت إليّ بهذا.

فقال: « **رُدِّيه** ».

فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال:

« **يا عائشة، رُدِّيه، والله لو شئتُ، لأَجْرَى اللّهُ مَعي جِبَالَ الذَّهبِ والفِضّة** »[١].

- وعنها - رضي الله عنها - قالت:

« إنْ كُنَّا آلَ مُحَمّدٍ ﷺ لَنَمْكُثُ شَهْرًا ما نَستَوْقِدُ بِنَارٍ، إنْ هُوَ إلاّ التَّمْرُ والْمَاءُ »[٢].

- وعنها - رضي الله عنها - قالت:

« كانَ فِرَاشُ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَدَمٍ[٣] وَحَشْوُهُ لِيفٌ »[٤].

- وخطبَ النعمانُ بن بَشير - رضي الله عنهما - قال:

ذَكَر عُمَرُ ما أصَابَ النّاسَ من الدنيا، فقال:

« لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَظلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوي، ما يَجدُ دَقَلاً[٥] يملأُ به بَطْنَهُ »[٦].

- وعن ابن مسعود ﷺ قال:

نام رسولُ الله ﷺ على حصير[٧] فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا:

---

(١) **صحيح**: رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٨)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٣) **الأدم**: الجلد.

(٤) رواه البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢).

(٥) **الدَّقَل**: رديء التمر.

(٦) رواه مسلم (٢٩٧٨).

(٧) **الحصير**: فراش منسوج من الخوص.

يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال:

« مالِي وما لِلدُّنيا، ما أنا في الدُّنيا إلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شجرةٍ ثم رَاحَ وتركها »[1].

▫ وعن جابر ﷺ قال:

« لَمَّا حَفَر رسولُ الله ﷺ الخندق، أصابهم جُهْدٌ شَديد، حتى رَبَط النبي ﷺ على بطنه حَجَرًا من الجوع! »[2].

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ[3] أحشاءَه وَطَوَى
تحت الحِجَارَةِ كَشْحًا[4] مُتْرَفَ[5] الأَدَمِ

وراودته الجبالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ
عَنْ نَفْسِهِ فأراها أَيَّمَا شَمَمِ

اللَقْطَةُ الثانية: زهدُ موسى عليه السلام:

قال الحسن البصريّ - رحمه الله - :

« وأمّا موسى عليه السلام، فَرُئي خضرة الْبَقْل مِنْ صِفَاقِ بَطْنه من هُزَاله، ما سأل الله تعالى يَوْمَ أَوَى إلى الظِّلِّ إلاّ طَعَامًا يأكله، مِنْ جُوعه، ولقد جاءت الرِّوايات عنه أن الله تعالى أَوْحَى إليه؛ أن يا موسى، إذا رأيتَ الْفَقْر مُقْبلاً، فَقُلْ: مَرْحَبًا بشعار الصَّالحين، وإذا رأيتَ الغنى قد أقبل، فَقُلْ: ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ »[6].

اللقطة الثالثة: زُهْدُ سليمان بن داود - عليهما السّلام - :

قال الحسن - رحمه الله - في كتابه لعمر بن عبد العزيز - يصف زهد داود وسليمان - عليهما السلام - :

---

(١) رواه الترمذيّ (٢٣٧٧)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) صحيح رواه أحمد في « المسند ».
(٣) السّغب: شدّة الجوع.
(٤) الكشح: البطن.
(٥) مترف: ناعم رقيق.
(٦) « حلية الأولياء » (١٣٧/٢).

«ولو شئتُ ربّعتُ بسليمان بن داود - عليهما السلام - فليس دُونهم في العَجَب؛ يأكل خبز الشّعير في خاصّته، ويُطْعم أَهْلَه الخشكار[1]... فإذا جنّه الليلُ لبس الْمسوح، وَغَلّ اليدَ إلى العُنق، وبات باكيًا حتى يُصْبح، ويأكل الخَشِنَ من الطعام».

ومن قبله كان داود صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنة، «يعمل سَفائفَ الخُوص بيده، ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعَها؟ ويأكل قُرْصَ الشَّعير من ثمنها»[2].

اللقطة الرابعة: زهد عثمان بن مظعون:

كان ﷺ كما قال أبو نُعيم: «إلى الاستجابة لله سابقًا، وبمعالي الأحوال لاحِقًا، وفي العبادة نَاسِكًا».

ويكفي في علوّ زهده: شهادةُ رسول الله ﷺ له بذلك

فعن أبي النّضر، قال:

لمّا مُرَّ بجنازة عثمان بن مظعون، قال رسول الله ﷺ:

«ذَهَبْتَ ولم تَلَبّس منها بِشَيءٍ»[3].

نعم، ما تلبَّس من الدنيا بشيء! ربّما لبس النَّمِرة قد تخلّلت فَرَقَّعَها بقطعة من فَرْوَة!!

فأين مِثْلُك الآن أبا السّائب؟!

أين مثلك اليوم؟ في زمن الهياكل الفارغة، والمظاهر الكاذبة؟

اللّهمّ استُرْ، واجْعَلْ تَحْتَ سَتْرِك ما تُحبّ.

اللَّقْطَةُ الخامسة: زهد عليّ بن أبي طالب ﷺ:

لقد بلغ من زهده ﷺ ما يثير الدهشة والعجب.

---

(١) الخشكار: رديء الدقيق.

(٢) «صلاح الأمّة»: د. سيد العفّاني (٤/٢٦١).

(٣) أخرجه مالك في «الجنائز» مرسلاً، وقال الزرقاني: وَصَله ابنُ عَبْد البرّ من طريق يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة - رضي الله عنها - .

اقرأ:

(١) خرج يومًا إلى السّوق بسيفه – وهو خليفة – فقال:

«مَنْ يشتري مِني سَيْفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزارًا ما بِعْتُه!!».

أخيَّ:

اقرأ نَصّ كَلاَمه ثانية، وقارن بين حاله، وحال «حِيتان» العصر، الذين انتهبوا ثروات البلاد، وأذلّوا العباد.

اللّهم إنا نشكوهم إليك.

(٢) ورآه بعضهم ذات مرّة وقد رَكِب حِمَارًا وَدَلَّى رِجْلَيْه إلى مَوْضع واحد! ثم قال:

«أنا الذي أهَنْتُ الدُّنيا».

نعم يا سيّدي، لقد أهنتها، فرفع اللّهُ قَدْرك وَذِكْرَك.

ويكفي قَوْلُ النبي ﷺ لك:

«أنْتَ مِني بمنزلةِ هارون مِنْ مُوسى، إلاّ أنه لا نَبي بَعْدي!»[1].

فأيّ شرف بعد هذا؟

رضي الله عنك أبا الحسن.

أيها المسلمون:

هذه لقطات من أحوالهم، ومقتطفات من أقوالهم:

فَتَشَبَّهوا بالكِرام إن لم تكونوا مِثْلَهم
إن التَّشَبُّه بالكِرَام فَلاَحُ

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (٩٨)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٩٣٣).

٤٩- الزُّهْدُ في الْمَالِ والرِّياسة

اعلم - أخي الكريم - أن الزهد في «المال» و «الرياسة» طريق الفلاح والفوز:

عن كعب بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«ما ذِئبان جائعان أُرْسِلا في غَنَم بأَفْسَد لها من حِرْص الْمَرْء على المال والشَّرف لدِينه»[(١)].

وعن جابر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«ما ذِئْبان ضَاريان يأتيان في غَنَمٍ غاب رعاؤها بأفْسَد لها من حُبّ الشَّرف والمال لِدِين المؤمن»[(٢)].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث:

«هذا مثل عظيم جدًّا ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين يأتيان في الغنم وقد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما واكلان الغنم ويفترسان فيها.

ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلاّ قليل. فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقلّ من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا وإمّا أكثر. يشير أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلاّ القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلاّ القليل.

فهذا المثل العظيم يتضمّن غاية التحذير من شرّ الحرص على المال والشرف في الدنيا.

---

(١) صحيح رواه الترمذي (٤/٥٨٨)، وغيره.

(٢) صحيح رواه أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة بنحوه.

فأمّا الحرص على المال: فهو على نوعين:

أحدهما: شدّة محبة المال مع شدّة طلبه من وجوهه المباحة والمبالغة في طلبه والجدّ في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقّة، وقد ورد أن سبب الحديث: أن «عاصم ابن عدي» رضي الله عنه قال:

اشتريتُ أنا وأخي مائةَ سَهْمٍ من سهام خَيْبر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال:

«ما ذِئْبان عَادِيان ظَلاّ في غَنَمٍ أضاعها رَبُّها[1] بأفْسَد من طلب المسلم المال والشَّرف لدينه»[2].

ولو لم يكن في الحرص على المال إلاّ تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة تعدله، وقد كان يمكن صاحبه اكتساب الدرجات العُلى والنعيم المقيم فضيّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه إلاّ ما قُدِّر وقسم ثم لا ينتفع به بل يتركه لغيره ويرتحل عنه ويبقى حسابه عليه ونفعه لغيره - فيجمع لمن لا يحمده ويقدم على من لا يعذره - لكفاه بذلك ذمًا للحرص.

فالحريص يضيّع زمانه الشريف، ويخاطر بنفسه التي لا قيمة تعدلها في الأسفار وركوب الأخطار، لجمع مال ينتفع به غيره كما قيل:

ولا تحسبن الْفَقْر مَنْ فَقَد الغِنى
ولكن فقد الدّين من أَعْظم الفقر

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: «الرزق مقسوم، والحريص محروم. ابن آدم، إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتى تطلب الآخرة؟!».

إذا كنتَ في الدّنيا عن الخير عَاجِزًا
فما أنتَ في يَوْمِ القيامة صانع؟

---

(١) راعيها.

(٢) حسن: قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٥٠): رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن.

كان «عبد الواحد بن زيد» يحلف بالله «لحرص المرء على الدّنيا أخوف عندي من أَعْدى أعدائه»، وكان يقول:

«يا إخوتاه، لا تغبطوا حريصًا على ثروته وسعته في مكسبه، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يُرْدِيه غدًا في المعاد ثم يتكبّر».

وكان يقول:

«الْحِرْصُ حِرْصَان: حِرْصٌ فاجع، وحرص نَافِع، فأمّا النَّافع: فحرص المرء على طاعة الله، وأمّا الحرص الفاجع: فحرص المرء على الدّنيا وهو مشغول معذّب لا يسر ولا يلذ بجمعه لشغله، فلا يفرغ من محبّة الدنيا لآخرته كذلك وغفلته عمّا يدوم ويبقى».

ولبعضهم في هذا المعنى:

يا جامعًا مانعًا والدّهر يَرْمُقه ... مفكّرًا أي باب منه يغلقه

جمعتَ مالاً ففكّر هل جمعتَ له ... يا جامع المال أيّامًا تفرقه

المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك إلا يوم تُنفقه

إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يسألُ في طلب يؤرقه

عاتب أعرابي أخاه على الحرص بقوله:

«يا أخي، أنت طالبٌ ومطلُوب: يَطْلبك مَنْ لا تفوته[١]، وتَطْلب ما قد كُفِيته[٢]. أخي، ألم تر حريصًا محرومًا وزاهدًا مرزوقًا؟!».

ولأبي العتاهية:

تعالى الله يا سَلْمَ بن عمرو ... أذلّ الْحِرْصُ أَعْنَاق الرِّجال

النوع الثاني – من الحرص على المال –:

أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأوّل حتى يطلب المال من الوجوه المحرّمة،

---

(١) يعني الموت.

(٢) يعني الرزق.

ويمنع الحقوق الواجبة؛ فهذا من الشّح المذموم، قال تعالى:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«اتقوا الشّح، فإن الشّح أَهْلَك مَنْ كان قبلكم، حَمَلَهم على أن سَفَكوا دِمَاءَهم واستَحلّوا مَحَارِمَهم»[1].

قالت طائفة من العلماء: «الشُّح: هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها ويمنعها حقوقها».

وحقيقته: أن تتشوّف النّفس إلى ما حرم اللّهُ وَمَنَعَ منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحله الله له من مال أو فَرْج أو غيرهما، فإن الله تعالى أحل لنا الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرّم تناول هذه الأشياء من غير وجوه حلّها، وأباح لنا دماء الكفّار المحاربين وأموالهم، وحرّم علينا ما عدا ذلك من الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرّم علينا أخذ الأموال وسفك الدماء بغير حقّها، فمن اقتصر على ما أبيح له فهو مؤمن، ومن تعدّى ذلك إلى ما منع منه فهو الشُّحُّ المذموم وهو مناف للإيمان.

ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشّح يأمر بالقطيعة والفجور، وبالبخل، **والبخل:** هو إمساك ما في يده، **والشّحّ:** تناول ما ليس له ظلمًا وعدوانًا من مال غيره، حتى قيل: إنّه رأس المعاصي كلّها، وبهذا فسّر ابنُ مسعود ﷺ وغيره من السّلف الشّح والبخل.

ومن ههنا يعلم معنى حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«لا يَجْتَمِعان – في النّار[2]**– : مُسْلِمٌ قَتَل كافرًا ثم سَدَّد المسلمُ وقَارَب.**

ولا يجتمعان في جَوْف عَبْد: غبار في سبيل الله، وَدُخَانُ جَهنّم.

ولا يجتمعان في قَلْب عَبْدٍ: الإيمانُ والشُّحّ»[3].

---

(١) رواه مسلم (١٩٩٦/٤).

(٢) أي: اجتماعًا يضرّ أحدُهما بالآخر.

(٣) رواه الحاكم (٧٢/٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وأقرّه الذهبي.

ومتى وصل الحرص على المال إلى هذه الدرجة، نقص بذلك الدّين والإيمان بلا ريب حتى لا يبقى منه إلاّ القليل.

وأمّا حرص المرء على الشَّرف: فهذا أشد هلاكًا من الحرص على المال. فإن طلب شرف الدنيا والرّفعة فيها والرياسة على الناس والعلوّ في الأرض أضرّ على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشّرف.

والحرص على الشّرف على قسمين:

أحدهما: *طلب الشّرف بالولاية والسلطان والمال*: وهذا خطر جدًّا، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزّها.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وَقَلّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فَيُوَفّق بل يُوكَل إلى نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة ﷺ:

«يا عبدَ الرّحمن، لا تسأل الإمارة فإنّك إن أُعْطيتها عن مَسْألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها»[(١)].

قال بعضُ السّلف: «ما حرص أحدٌ على ولاية فَعَدل فيها».

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«إنكم ستَحْرِصون على الإمارة، وستكون نَدامة[(٢)] يوم القيامة، فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَة، وَبِئْسَتِ الفاطمة»[(٣)].

واعلم أن الحرص على الشّرف يستلزم حرصًا عظيمًا قبل وقوعه في السّعي في أسبابه، بعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظّلم والتكبّر وغير

(١) رواه البخاري (٩/٧٩).

(٢) أي: لمن لم يعمل فيها بما ينبغي. «فتح الباري» (١٣/١٠٧).

(٣) رواه البخاري.

نشئ من المفاسد.

ومن دقيق حُبّ الشّرف: طلب الولايات والحرص عليها، وهو باب غامض لا يعرفه إلاّ العلماء بالله العارفون به المحبّون له، الذين يعادون له من جُهّال خلقه، المزاحمين لربوبيته وإلهيته مع حقارتهم وسقط منزلتهم عند الله وعند خواص عباده العارفين به، كما قال **الحسن** – رحمه الله – فيهم:

«إنهم وإن طَقْطقت بهم البغال، وهَمْلَجَتْ بهم الْبَرَاذِين[1]، فإن ذلّ المعصية في رقابهم، أبى اللّهُ إلاّ أن يَذلّ مَنْ عَصَاه».

وحبُّ الشّرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي وتدبير أمر الناس إذا قصد بذلك مجرّد علو المنزلة على الْخَلْق والتعاظم عليهم وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس، وافتقارهم إليه وذلّهم في طلب حوائجهم منه، فهذا نَفْسُهُ مزاحِمَة لربوبية الله وإلهيته، وربّما تسبب بعض هؤلاء إلى إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه، وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه، ويتعاظم بذلك ويتكبّر به وهذا لا يصلح إلاّ لله وحده لا شريك له كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢].

وفي بعض الآثار: «أن الله – تعالى – يَبْتَلي عَبْده بالبلاء لِيَسْمَع تَضرُّعَه».

فهذه الأمور أصعب وأخطر من مُجرّد الظُّلم، وأدْهَى وأمَرّ من الشّرك، والشرك أعظم الظلم عند الله.

ومن هذا الباب – أيضًا – : أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ويثني عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه، وربّما كان ذلك الفعل في الذّم أقرب منه إلى المدح، وربّما أظهر أمرًا حسنًا في الظّاهر، وأحب المدح عليه وقصد به في الباطن شرًا، وقصد تمويه ذلك وترويجه على الخلق، وهذا يدخل في قوله تعالى:

---

(١) **الهملجة:** حُسْن سير الدابة في سرعة. **والبراذين:** أجود أنواع الخيل.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فإن هذه الآية إنما نزلت فيمن هذه صفاته.

وهذا القصد - أعني طلب المدح من الخلق ومحبّته والعقوبة على تركه - لا يصلح إلاّ لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمّة الهُدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له فإن النّعم كلّها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - شديد العناية بذلك، وكتب مرّة إلى أهل الموسم كتابًا يُقْرأ عليهم وفيه الأمر بالإحسان إليهم وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب:

«ولا تحمدوا على ذلك كلّه إلاّ الله، فإنه لو وَكَلَني إلى نفسي كنتُ كغيري».

فالمحبّون لله غاية مقاصدهم من الخلْق أن يحبّوا الله ويطيعوه ويفردوه بالعبودية والإلهية، فكيف من يزاحمه في شيء من ذلك؟ فهو لا يريد من الخلق جزاء ولا شكورًا، وإنما يرجو ثواب عمله من الله كما قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وقال ﷺ:

«لا تطروني[١] كما أطرت النّصارى ابنَ مريم فإنّما أنا عَبْدُه فقولوا: عَبْد الله ورسوله»[٢].

---

(١) لا تطروني: لا تمدحوني كمدح النصارى حتى غلا بعضهم في عيسى فجعله إلهًا مع الله!!.

(٢) رواه البخاري (١٣/١٥٠، ١٥١).

وكان رسولُ الله ﷺ ينكر على من لا يتأدّب معه في الخطاب بهذا الأدب كما قال:

«لا تقولوا: ما شاء اللّهُ وشاءَ مُحَمّد، بل قولوا: ما شاء اللّهُ ثُمّ شاء مُحَمّد»[1]

وقال لمن قال: ما شاء اللّهُ وَشئتَ:

«جعلتَ للّه ندًّا؟! ما شاءَ اللّهُ وَحْدَه»[2]

فمن هنا: كان خلفاء الرُّسل وأتباعهم من أُمراء العدل وأتباعهم وقضاهم لا يَدْعُون إلى تعظيم نفوسهم البتّة، بل إلى تعظيم الله وَحْده وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلاّ للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

القسم الثاني: طلبُ الشّرف والعلوّ على الناس بالأمور الدينية كالعلم والعمل والزُّهد:

وهذا أفحش من الأوّل: وأقبح وأشدّ فسادًا وخطرًا، فإن العلم والعمل والزّهد إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العُلى، والنعيم المقيم، ويُطْلب بها ما عند الله والقُرْب منه والزُّلْفى لَدَيْه.

قال **سفيانُ الثوري** - رحمه الله -

«إنّما فُضِّل الْعلْم، لأنّه يُتّقَى الله به وإلاّ كان كسائر الأشياء».

فإذا طَلَب بشيءٍ من هذا عَرَض الدّنيا الفاني فهو أيضًا **نوعان:**

أحدهما: أن يطلب به المال؛ فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرّمة[3] وفي هذا الحديث عن النبي ﷺ

«مَنْ تعلّم علْمًا ممّا يُبْتَغى به وَجْهُ الله لا يتعلّمهُ إلاّ لِيُصيبَ به عَرَضًا مِنَ الدُّنيا لم يَجْد عَرْفَ الجنّة يَوْمَ القيامة»[4] يعني: ريحها.

---

(١) أخرجه الدارمي (٢/٢٠٥)، وابن ماجه (١/٦٨٥)، وقال البوصيريُّ: رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢/٢٥٣) بنحوه.

(٣) لعلّه يقصد بالأسباب المحرّمة: فساد النوايا في تحصيل العلم، وإرادة به غير وجه الله.

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححّه الألباني.

وسبب هذا - والله أعلم - أن في الدنيا جنة معجّلة، وهي: معرفة الله، ومحبّته، والأُنس به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، وطاعته، والعلم النافع يدلّ على ذلك، فمن دلّه عِلْمُهُ على دخول هذه الجنّة المعجّلة في الدنيا دخل الجنّة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنّة في الآخرة.

ولهذا كان أشدّ الناس عذابًا في الآخرة: عالم لم ينفعه الله بعلمه، وهو أشدّ الناس حسرة يوم القيامة حيث كان معه آلة يتوصّل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلاّ في التوصّل إلى أخسّ الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع به؛ فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه.

وأقبح من ذلك: من يطلبها باظهار الزّهد فيها فإن ذلك خداع قبيح جدًّا.

وكان **أبو سليمان الدّاراني** - رحمه الله - يعيب على من لبس عباءة وفي قلبه شهوة من شهوات الدنيا تساوي أكثر من قيمة العباءة، ويشير إلى أن إظهار الزهد في الدنيا باللباس الديني إنما يصلح لمن فرغ من التعلّق بها بحيث لا يتعلّق قلبه بها بأكثر من قيمة ما لبسه في الظاهر حتى يستوي ظاهره وباطنه في الفراغ من الدنيا(١).

النوع الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرّياسة على الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلقُ ويخضعوا له ويصرفوا وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم ونحو ذلك، فهذا موعده النار، لأن قصد التكبّر على الْخَلْق محرّم في نفسه، فإذا استَعْمَل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

□ وفي «السُّنن» عن النبي ﷺ:

«مَنْ طَلَب الْعِلْمَ لِيُمَارِي به السُّفَهَاءَ أو يُجَاري به العلماءَ أو يَصْرِف وُجوهُ النّاسِ

---

(١) قال ﷺ " «بَشِّر هذه الأُمَّة بالتيسير والسَّناء، والرِّفْعَة بالدِّين، والتمكين في البلاد، والنَّصر، فَمَنْ عَمِلَ منهم بِعَمَلِ الآخرة للدُّنيا فليس له في الآخرة من نصيب» رواه البيهقيّ، وصحّحه الألباني.

إليه، أدْخَلَه اللّهُ النَار»[1].

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«لا تعلمّوا الْعِلْم لثلاث: لِتُماروا به السُّفَهاء، أو لتجادِلوا به الفقهاء، أو لِتَصْرفوا به وُجُوهَ النّاسِ إليكم. وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله فإنه يَبْقى وَيَفْنَى ما سواه».

- وقال الحسن - رحمه الله -:

«لا يكونن حَظّ أحَدكم من عِلْمه أن يُقال عَالِم!».

ومن هذا القبيل: كراهة السّلف الصّالح الجرأة على الْفُتْيا، والحرص عليها، والمسارعة إليها، والإكثار منها.

- قال علقمة - رحمه الله -: «كانوا يقولون: أجرؤكم على الفُتْيا أقلّكم عِلْمًا».

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

«إن الذي يَفتِي النّاسَ في كُلّ ما يَسْتَفْتُونه لمجنون».

- وعن ابْنِ المنكدر - رحمه الله - قال:

«إن العَالِم بين الله وبين خَلْقِه، فلينظر كَيْف يَدْخُل عليهم».

- وكان ابن سيرين إذا سُئل عن الشَّيء من الحلال والحرام تَغيّر لونُهُ وَتَبدَّل حتى كأنّه ليس بالذي كان!.

- وعن مالك - رحمه الله - أنه كان إذا سُئِل عن المسألة كأنّه واقف بين الجنَّة والنَّار.

- وقال بعض العلماء لبعض المفتين:

«إذا سُئلتَ عَنْ مَسْألةٍ فلا يكن همّك تَخْلِيص السّائل ولكن تخليص نفسك أوّلاً».

وكلام السَّلف في هذا المعنى كثير جدًّا يطول ذكْره واستقصاؤه.

ومن هذا الباب أيضًا: كراهة الدخول على الملوك والدنوّ منهم، وهو الباب الذي

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٢٦٠)، وصححه الألباني. انظر: «صحيح الترغيب» (١٠٥).

يدخل منه علماءُ الدنيا إلى نيل الشرف والرياسات فيها.

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال:

« إنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتي سَيَتَفَقَّهون في الدِّين يقرءون القرآنَ، يقولون: نأتي الأُمَرَاءَ فَنُصيبُ مِنْ دُنياهم وَنَعْتَزّ لهم بِدِينِنا، ولا يكون ذلك، كما لا يُجْتَنَى مِنَ القَتَادِ[1] **إلاّ الشَّوْكِ كَذَلك لا يُجْتَنَى من قُرْبِهم إلاَّ »** قال ابنُ الصباح كأنّه يعني « الخطايا »[2].

ومن أعظم ما يخشى على من يدخل على الملوك الظلمة أن يصدقهم بكذبهم ويعينهم على ظلمهم ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم[3]، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرّياسة وهو حريص عليهما لا يقدم على الإنكار عليهم، بل ربما حَسّن لهم بعض أفعالهم القبيحة تقرّبًا إليهم ليحسن موقفه عندهم ويساعدوه على غرضه.

عن كعب بن عُجْرَة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« ستكونُ أُمَرَاءُ مَنْ دَخَل عليهم، فَأَعَانَهم عَلَى ظُلْمِهم، وصَدَّقَهم بِكَذِبهم، فَلَيْسَ مِني، ولستُ منهُ، وَلَنْ يَرِدَ عليَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لم يدخلْ عَلَيْهم، ولم يُعِنْهُم على ظُلْمِهم، ولم يُصَدِّقْهُم بِكَذِبِهم، فهو مِني، وأنا منه، وَسَيَرِدُ عَليَّ الْحَوْضَ »[4].

وقد كان كثير من السّلف ينهون عن الدخول على الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضًا، وممّن نهى عن ذلك: عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوريّ، وغيرهم من الأئمة.

وقال ابن المبارك – رحمه الله – :

« ليس الآمر النّاهي عندنا مَنْ دخل عليهم فأمرهم ونهاهم، إنّما الآمر النّاهي من اعتزلهم ».

---

(١) القَتَاد: نَباتٌ صُلب، له شَوْك كالإبر من الفصيلة القرنية، ومنه يستخرج أجود الصَّمْغ. وفي المثل: « من دونه خَرْطُ القَتَاد »: يضرب للشيء لا يُنال إلاّ بمشقّة عظيمة. « المعجم الوجيز » (٤٩٠).

(٢) قال المنذري في « الترغيب » (١٨٠): رواه ابن ماجه، ورواته ثقات.

(٣) هذا إذا دخل عليهم مُختارًا، أمّا إذا أُدْخل عليهم فالإنكار بالقلب أضعف الإيمان.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٦١٤)، وصحّحه الألباني.

وسبب هذا ما يخشى من فتنة الدخول عليهم، فإن النّفس قد تخيّل للإنسان إذا كان بعيدًا عنهم أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريبًا مالت النفسُ إليهم لأن محبّة الشّرف كامنة في النفس؛ ولذلك يداهنهم ويلاطفهم وربّما مال إليهم وأحبّهم، ولا سيّما إن لاطفوه وأكرموه وَقَبِلَ ذلك منهم.

ومن هذا الباب أيضًا: كراهة أن يُشْهِر الإنسانُ نَفْسَه للنّاس بالعلم والزُّهد والدّين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات لِيُزَار وتلتمس بركتُهُ ودعاؤه وَتُقَبَّل يَدُه، وهو محبٌّ لذلك ويقيم عليه ويفرح به ويسعى في أسبابه، ومن هذا كان السّلف الصّالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم أيّوب السِّخْتِياني، وإبراهيم النَّخْعي، وسفيان الثوريّ، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل، وداود الطائي وغيرهما من الزُّهّاد والعارفين، وكانوا يذمّون أنفسهم غاية الذّم، ويسترون أعمالهم غاية السَّتْر.

- دخل رجلٌ على «داود الطائي»، فسأله ما جاء به؟ فقال: أُحبّ أن أزورك، فقال:

أما أنْتَ فَقد أَصَبْتَ خَيْرًا حيث زرتَ في الله، ولكن انظر ماذا ينزل بي غدًا إذا قيل لي:

من أنت حتى تُزار؟ من الزُّهّاد أنت؟ لا والله، من العُبّاد أنت؟ لا والله، من الصّالحين أنت؟ لا والله، وعدّد خصال الخير على هذا الوجه، فجعل يوبّخ نفسه ويقول:

«يا داود كنتَ في الشَّبيبة فاسِقًا فلمَّا شِبْتَ صِرتَ مُرائيًا، والمرائي أَشَرّ من الفاسق».

- وكان «محمد بن واسع» يقول:

«لو أنّ للذّنوب رَائِحة ما استطاع أحدٌ أن يجالسني».

- وكان «إبراهيم النّخعيّ» إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطّاه.
- وكان «أويس القرني» وغيره من الزّهاد إذا عرفوا في مكان ارتحلوا عنه.

وهذا باب واسع جدًّا.

وههنا نكتة دقيقة وهي أن الإنسان قد يذمّ نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد

نَبَّه عليه السَّلف الصالح.

وقال مُطَرِّف بن عبد الله – رحمه الله – :

«كَفَى بالنّفس إطْراءً[1] أن تذمّها على الملأ كأنّك تريد بِذَمِّها زِينتها وذلك عند الله سَفَه».

أصْلُ مَحَبَّة الْمَالِ والرِّياسة:

تبين بما ذكرنا: أن حُبَّ المال والرِّياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء حتى لا يبقى منه إلاّ ما شاء الله، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وأَصْلُ محبّة الْمَال والشَّرفَ: حُبُّ الدُّنيا، وأصل حُبّ الدنيا: **اتباع الهوى.**

قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه – رحمه الله – :

«من اتباع الهوى: الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها: حُبّ المال والشرف، وَمِنْ حُبّ المال والشَّرف: اسْتِحْلال الْمَحَارِم».

وهذا كلامٌ حَسَنٌ فإنه إنما عتب على صاحب المال والشّرف: الرغبة في الدنيا، وإنّما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى، لأن الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا وحبّ المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى وتردع من حُبّ الدنيا.

قال اللّهُ تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧- ٤١].

وقد وصف الله – تعالى – أهل النّار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه فقال تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ

(١) **الإطراء**: المدح.

مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ٢٥- ٢٩].

واعلم أن النفس تحبُّ الرِّفعة والعلوّ على أبناء جنسها، ومن هذا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلوّ الدّائم الباقي الذي فيه رضوان الله وَقُرْبه وجواره، ويرغب عن العلوّ الفاني الزّائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبعده عن الله وطرده عنه، فهذا العلوّ الفاني الذي يذمّ، وهو العتوّ والتكبرّ في الأرض بغير الحق.

وأمّا العلوّ الأوّل والحرص عليه فهو محمود.

- قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

- وقال **الحسن** - رحمه الله - :

«إذا رأيتَ الرَّجُلَ ينافسك في الدُّنيا فَنَافِسه في الآخرة».

- وقال **وهيب بن الْوَرْد** - رحمه الله - :

«إن استطعتَ أن لا يَسْبِقَك إلى الله أَحَدٌ فافعل».

ففي درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس وطلب العلو في منازلهما والحرص على ذلك والسَّعي في أسبابه، وأن لا يقنع الإنسان منها بالدون مع قدرته على العلوّ.

وأمّا العلوّ الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غدًا حسرة وندامة وذلّة وهوانًا وصغارًا فهو الذي يشرع الزّهد فيه والإعراض عنه.

وللزهد فيه **أسباب عديدة**:

فمنها: نظر العبد إلى سوء عاقبة الشّرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدّي حقّها في الآخرة.

ومنها: نظر العبد إلى ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرّفعة في الآخرة، فإنه من تواضع لله رفعه.

ومنها: وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ما يعوّض الله عباده

العارفين به، الزّاهدين فيما يفنى من المال والشرف ممّا يعجّله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظّاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف، كما قال **إبراهيم بن أدهم** - رحمه الله - :

«لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسّيوف».

ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل والرياسة الفانية.

قال تعالى:

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠].

موعظة:

قال «حجّاج بن أرطأة»: «قَتَلني حُبُّ الشّرف»، فقال: له سوار:

«لو اتَّقَيْتَ الله شرفت».

وفي هذا المعنى شعر:

ألا إنّما التّقوى هي العِزّ والكرم ... وَحُبّك للدُّنيا هو الذُّلّ والسّقَم

وليس على عَبْد تَقيّ نَقيصة ... إذا حَقّق التقوى وإن حَاكَ أَوْ حجم[1]

وقال صالحُ البَاجِي - رحمه الله - :

«الطاعة إمرة، والمطيع لله أمير مؤمّر على الأمراء، ألا ترى هيبته في صدورهم؟ إن قال قبلوا، وإن أمر أطاعوا» ، ثم يقول:

«يحقّ لِمَنْ أَحْسَن خدمتك، وَمَنَنْتَ عليه بمحبّتك أن تذلّل له الجبابرة حتى يهابوه

(١) الحياكة: الخياطة. والحجامة معروفة.

لهيبته في صدورهم من هَيْبتك في قلبه، وكلّ الخير من عندك بأوليائك».

وكان يزيد العُقيلي يقول:

«مَنْ أراد بعِلْمه وَجْه الله تعالى، أَقْبَلَ اللّهُ عليه بوجهه وأقبل بقلوب العباد عليه، ومن عمل لغير الله، صَرَفَ اللّهُ وجهه، وصَرَفَ قلوبَ العباد عنه».

وقال محمد بن واسع:

«إذا أقبل العبد بقلبه على الله، أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين».

وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شَرَفٌ في الدُّنيا وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه، وطلب شرف الدنيا لا يجامع شرف الآخرة ولا يجتمع معه.

والسّعيدُ من آثر الباقي على الفاني.

وما أحسن ما قال أبو الفتح:

أَمْرانِ مُفْتَرِقانِ لَسْتَ تَراهُما	يَتَشوّفانِ لِخُلْطَةٍ وتَلاقِ
طلب المعاد مع الرّياسة والعُلَى	فَدَعِ الذي يَفْنى لما هو باقِ

إلى هنا انتهى كلامُ الحافظ ابن رجب - رحمه الله - على حديث: «ما ذئبان جائعان أرسلا ...» إلخ، مختصرًا مع إضافات.

«اللّهم دُلّنا على طريق الصّادقين، واجعلْنا من عبادِك الصّالحين».

❁❁❁❁❁

٥٠- الْوَرَعُ

اعلم - أخي المسلم - أن «**الورع**» للقلب كالصّابون للثوب! يزيل أَوْسَاخه، وَيُطهِّر أَدْنَاسه!

ولمكانة الورع من الدين، فالحديث - عنه - يدور حول **خمسة أمور**:

الأوّل: تعريفه.

والثاني: فضله.

والثالث: أقسامه.

والرابع: علاماته.

والخامس: مواقف مؤثّرة من حياة أهل الورع.

والله الموفّق لما يُحِبّ ويرضى.

أوّلا: تعريفُ الْوَرَعِ:

الورع: «**لغة**»: **قال ابنُ منظور**: «الْوَرَعُ: التَّحَرُّجُ، والْوَرِعُ - بِكَسْرِ الرّاء- : الرَّجُلُ التَّقِيُّ الْمُتَحَرِّجُ.

والْوَرَعُ في الأصل: الكفُّ عن الْمَحَارِمِ والتَّحرُّجُ منها، ثم استُعير للكفِّ عن الْمُباح والحلال. وقال الأصْمَعيُّ: الرِّعَةُ: الْهُدَى وَحُسْنُ الْهَيْئَة. يُقال: قوم حَسَنَةٌ رِعَتُهم أي: شأْنُهم وأمْرُهم وَأَدَبُهم، وأصْلُهُ من الْوَرَعِ، وهو الكَفُّ عن القَبيح»ا.هـ[(١)].

و «**اصطلاحًا**»: **قال العلامة المناويُّ** - رحمه الله - :

«قيل: الورعُ: تَرْكُ ما يَرِيُبك، وَنَفْيُ ما يَعِيبُك، والأخذ بالأَوْثَق، وَحَمْلُ

(١) «لسان العرب» (٨/٣٨٨).

النَّفس على الأَشَق.

وقيل: النَّظَرُ في المطعم واللِّباس، وتَرْكُ مَا به بَأْسٌ.

وقيل: تَجَنُّبُ الشُّبهات، ومُرَاقَبَةُ الخَطَرات» ا.هـ[1].

▫ وقال إبراهيمُ بنُ أدهم – رحمه الله تعالى –

«الورع ورعان: ورعُ فرض، وورع حَذَر.

فورَع الفرض: الورع عن معاصي الله تعالى.

وورَع الحذَر: الورع عن الشُّبهات» ا.هـ.

▫ وقال الإمامُ ابْنُ القَيِّم – رحمه الله تعالى –

«الورع: ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة» ا.هـ[2].

▫ وقال الإمام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –

«تمامُ الورع: أن يعلم الإنسانُ خَيْرَ الْخَيْرَيْن، وشرَّ الشرَّين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلاَّ فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرّمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظّلمة ويرى ذلك ورعًا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قَبول شهادة العباد وأخذ علْم العالم لِمَا في صاحبه من بِدْعَة خَفِيَّة، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سَمَاعه من الورع» ا.هـ[3].

قلت: هذا كلام عليه نور، فينبغي على كُلِّ مُسْلم أن يَعَضّ عليه بالنَّواجِذ، خصوصًا في هذا الزمان الذي اختلطت فيه الأمور، وَقَوِيَتْ فيه شوكةُ أهل الأهواء، واستغلظ فيه

---

(١) «التوقيف على مهمّات التعاريف» (٣٣٧).

(٢) «الفوائد» (١١٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥١٢/١٠).

عُودُ التَّعالُم، وانتشرت فيه الفتاوى العَرْجاء، والآراء العمياء.

ثانيا: فَضْلُ الورع:

ورد في فضل «الورع» أحاديث وآثار:

فمن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**كُنْ وَرِعًا تكن أَعْبَدَ النَّاس**»[١].

(٢) وعن حذيفة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ قال:

«**فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ العبادة، وَخَيْرُ دِينِكم الْوَرَعُ**»[٢].

(٣) **قال الإمامُ ابن القيم** - رحمه الله - :

«وقد جمع النبي ﷺ الورع كلّه في كلمة واحدة، فقال:

«**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ ما لا يَعْنيه**»[٣].

فهذا يعمُّ الترك لما لا يعني؛ من الكلام، والنَّظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة شافية في الورع»ا.هـ.

قلت: فالورع بهذا التعريف لا يقتصر على المطعم والمشرب - كما يظن البعض - بل له مظاهر عديدة، منها:

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن.

(٢) صحيح: أخرجه البزار، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٤٢١٤).

(٣) حسن: رواه الترمذي (٢٧١٣)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

- الورع في النظر:

قال داودُ الطّائي - رحمه الله - : «كانوا - يعني : السّلف - يكرهون فُضُول النَّظَر».

وقد كان السّلف - ﷺ - يبالغون في الاحتراز من النّظر: كان في دار «مجاهد» - رحمه الله - عُلِّية قد بُنيتْ، فبقي ثلاثين سنة و لم يَشْعر بها!!»[1].

قلت: وهذا من تعلّق همهم بالآخرة، وشدة تفكيرهم فيها.

- الورع في السمع:

عن نافع، قال: كنتُ مع ابن عمر في طريق، فسمع زمّارة راعٍ، فوضع أصبعيه في أُذُنيه، ثم عَدَل عن الطّريق، ثم قال: يا نافع، أتسمع؟

قلت: لا. فأخرج أصبعيه من أُذنيه، ثم عدل إلى الطريق، ثم قال:

«هكذا رأيتُ رسولَ الله ﷺ صَنَع»[2].

فَنزه - يا أخي - سَمْعَك، واستمع إلى ما صَحَّ عن محمد بن المنكدر:

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا يُنزهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللّهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم بياض المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي»[3].

- الورع في الشّمّ:

عن يونس بن أبي الفرات: أن «عمر بن عبد العزيز» - رحمه الله - أُتي بغنائم مِسْك، فأخذ بأنفه، فقالوا:

يا أمير المؤمنين، تأخذ بأنفك لهذا!!

---

(١) «التبصرة» لابن الجوزي (١/١٦١).

(٢) صحيح أخرجه أحمد، وغيره، وصحّحه الشيخ/ أحمد شاكر.

(٣) «الورع» لابن أبي الدنيا (٧١).

قال: «إنما ينتفع من هذا بريحه، فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين!!!»[(١)].

يا خالق هذا الإنسان «سبحانك».

إلى هذه الدّرجة يا رجال؟!!

بارك اللَّهُ في دِينٍ أدَّبكم، وفي نَبي عَلّمكم.

▫ الورع في البَطن:

قال أبو بكر بن عثمان: سمعتُ «بِشْر بن الحارث» يقول:

«إني لأشتهي شِوَاءً منذ أربعين سَنَة، ما صَفَا لي دِرْهَمُهُ!»[(٢)].

وقال محمد بن عبد الوهاب الفَرّاء: حدّثنا عليٌّ بن عثّام، قال:

«أقام بِشْرُ بْنُ الحارث بعبّادان يشربُ ماء البحر، ولا يشربُ من حيَاض السّلطَان، حتى أضَرَّ بِجَوْفه، ورجع إلى أُخته وَجِعًا، وكان يعملُ المغازلَ وَيَبيعُها، فذاك كَسْبُه»[(٣)].

▫ الوَرعُ في المَشْي:

اعلم - يا أخي - أن خطوات الأقدام تكتب لك أو عليك.

قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

قال **الحافظ ابن كثير** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي آثروها من بعدهم

---

(١) إسناده حسن: انظر: «الورع» لابن أبي الدنيا (٧٥).

(٢) «طبقات الصوفية» (٤٥).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤٧١/١٠).

فنجزيهم على ذلك أيضًا إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. **قال قتادة**: لو كان - ﷻ - مُغْفِلاً شيئًا من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفى الرّياح من هذه الآثار، ولكن أحْصى على ابن آدم أَثَره وعمله كلّه حتى أَحْصَى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فَمَنِ استطاع منكم أن يُكْتب أَثَرُهُ في طاعة الله تعالى فليفعل»ا.هـ[(١)].

□ **الورع في الفَرْج:**

قال سفيان بن عيينة - رحمه الله - :

«لو أن رجلاً لعب بغلام بين أصبعين من أصابع رجله، يريد بذلك الشهوة؛ لكان لواطًا!!»[(٢)].

□ **الورع في اللّسان:**

قال تعالى:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال **الحسنُ البصريُّ** - رحمه الله - وتلا هذه الآية: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووُكّل بك مَلَكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأمّا الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأمّا الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أَقْلِلْ أو أكثر، حتى إذا متّ طُويتْ صَحِيفَتُك، وجُعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى:

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٩٠٠) باختصار.

(٢) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٤).

ثم يقول:

«عَدَلَ والله فيك من جَعَلك حَسِيب نَفْسِك»[١].

حكاية:

ذُكِرَ عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنّه كان يئنّ في مرضه، فَبَلَغه عن طاوس - رحمه الله - أنه قال:

«يكتب الْمَلَكُ كُلَّ شَيء حتى الأنين»، فلم يَئِن أحمد حتّى ماتَ رحمه الله[٢].

- **الورعُ في البيع والشّراء:**

- ذكر **الحافظ أبو نعيم** - رحمه الله - :

«أن أحد أصحاب الأغنام، قال: جاءني «يونس بن عُبيد» بشاة، فقال: بِعْهَا وابْرَأ من أنها تَقْلب المعلف وتنزع الْوَتَد، ولا تبرأ بعد ما تَبيع، ولكن ابرأ وبَيِّن قبل أن يقع البيعُ»[٣].

- وقال الإمام **ابن الجوزيّ** - رحمه الله - :

«جاء «مجمع بن سمعان» إلى السّوق بِشاة يبيعها، فقال: يُخَيَّل إليّ أن في لَبَنِها مُلوحة!!»[٤].

- وقال - رحمه الله - أيضًا:

«كان «يونس بن عُبيد» خزّازًا فجاء رجلٌ يطلب ثوبًا، فقال لغلامه:

انْشُر الرّزمة. وضرب بيده على الرّزمة، وقال:

«صلى الله على مُحمّد»، ثم قال: ارْفَعْهُ، وَأَبَى أن يَبيعه مَخَافَة أن يكون قَدْ مَدَحَه!»[٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٤٦/٤).

(٢) نفس المرجع (٣٤٦/٤).

(٣) «الحلية» (١٨/٣).

(٤) «المنتظم» (١٩٨/٧).

(٥) نفس المرجع (٢٥/٨).

فانظر - أخي الكريم - إلى هذا الورع، وَأَرْسِلْ عَيْنيك بالبكاء على حَالِ تُجّار اليوم.

ومن الآثار:

فالآثار الواردة في فضل «الورع» كثيرة، منها:

(١) قال **سفيانُ الثوريُّ** - رحمه الله - :

«عليك بالورع يُخَفِّفِ اللّهُ حِسَابَك، وَدَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك، وادْفَعِ الشَّكَّ باليقين، يَسْلَمْ لَكَ دِينُك»[1].

(٢) وقال **صالحُ الْمُرِّيُّ** - رحمه الله - :

«كان يُقال: التَورُّعُ في الفِتَنِ كعبادةِ النَّبيين في الرَّخَاء».

(٣) وقال **حبيب بن أبي ثابت** - رحمه الله - :

«لا يُعْجِبَنّكم كَثْرَةُ صَلاةِ امْرِئٍ ولا صيامه، ولكن انْظُروا إلى وَرَعِهِ، فإن كان وَرِعًا مع ما رَزَقه اللّهُ من العِبَادة فهو عَبْدٌ لِلّه حَقًّا»[2].

(٤) وقال **الضّحَاكُ بْنُ عُثمان** - رحمه الله تعالى - :

«أدركتُ النّاسَ وهم يتعلّمون الوَرَعَ، وهم اليومَ يتعلّمون الكلام»[3].

(٥) وقال **محمد بن واسع** - رحمه الله - :

«يكفي من الدُّعاء مع الورع الْيَسيرُ منه»[4].

(٦) وقال **الإمام الغزاليّ** - رحمه الله - :

---

(١) صحيح أخرجه ابن أبي الدنيا (١١٢).

(٢) «الورع» لابن أبي الدنيا (٦٠)، وقال مخرّجه: إسناده حسن.

(٣) «الورع» لابن أبي الدنيا (٥٠)، وقال مخرّجه: إسناده صحيح.

(٤) «الورع» لابن أبي الدنيا (١٢٥)، وقال مخرّجه: إسناده حسن.

«لن يَعْدِمَ الْمُتَورِّع عن الحرام فُتوحًا من الحلال»[1].

(٧) وقال **الإمام الشافعيُّ** - رحمه الله - :

«زينةُ العِلم: الوَرَعُ والحِلْم»[2].

(٨) وجاء رجلٌ إلى «العمري» فقال: عظني. قال: فأخذ حصاة من الأرض فقال:

«زِنَةُ هذه من الورع يَدْخل قَلْبَك خَيْرٌ لَكَ من صلاة أهل الأرض!».

قال زِدْني.

قال: «كما تحبّ أن يكون الله - عَجَّلَ - لك غَدًا فكن له اليوم»[3].

ثالثًا: أقسامُ الْوَرَع:

قسَّم **الرَّاغِبُ الأصفهاني** الورع إلى ثلاث مراتب:

١- **واجب**: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للناس كافة.

٢- **مندوب**: وهو الوقوف عن الشّبهات، وذلك للأواسط.

٣- **فضيلة**: وهو الكفّ عن كثير من المباحات والاقتصار على أقلّ الضَّرُورَات، وذلك للنّبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين.

رابعًا: علاماتُ الورع:

قال الإمام أبو **اللَّيْث السَّمَرْقَنْدي** - رحمه الله - :

علامة الورع أن يَرَى عشرة أشياء فريضة على نفسه:

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢٢٣/١).

(٢) «الآداب الشرعية» (٤٥/٢).

(٣) «المنتظم» (١٢٤/٢).

أوّلها: حفظ اللسان عن الغيبة:

لقوله تعالى:

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢].

والثاني: الاجتناب عن سوء الظن:

لقوله تعالى:

﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولقول النبي ﷺ:

« **إيّاكم والظّن، فإنّه أكْذَب الحديث** ».

والثالث: الاجْتناب عن السُّخْرية:

لقوله تعالى:

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات: ١١].

والرابع: غضّ البصر عن المحارم:

لقوله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠].

والخامس: صِدْقُ اللّسان:

لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، يعني: فاصدقوا.

والسادس: أن يَعْرف نعمة الله على نفسه لكيلا يُعجب بنفسه:

لقوله تعالى:

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

والسابع: أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل:

لقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ [الفرقان: ٦٧]. أي: لم ينفقوا في المعصية و لم يمنعوا من الطاعة. ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي: عدلاً.

والثامن: أن لا يطلب لنفسه العلوّ والكِبْر:

لقوله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

والتاسع: المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها بركوعها وسجودها:

لقوله تعالى:

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والعاشر: الاستقامة على السُّنّة والجماعة:

لقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] »ا.هـ[(١)].

خامسًا: مواقف مؤثرة من حياة أهل الورع:

وهذه مواقف من حياة أهل الورع تثير الدّهشة والاستغراب، لأنها لا تخطر على بال كثير من الناس:

الموقف الأوّل: ورَع النّبي ﷺ:

كان النبي ﷺ - صلواتُ ربي وسلامه عليه - سيِّد أهل الورع، دلّت على ذلك

(١) «تنبيه الغافلين» (٣٥٥).

أقواله وأحواله، فمن ذلك:

أ- عن أبي هريرة ﷺ: أن الحسن بن عليّ - رضي الله عنهما - أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له النبي ﷺ بالفارسية:

«**كِخْ. كِخْ**[1]. **أمَا تعرفُ أنّا لا نأكُلُ الصَّدقة**»[2].

ب- وعنه - ﷺ - عن النبي ﷺ قال:

«**إني لأنقَلِبُ إلى أهْلي فأجِدُ التَّمرةَ سَاقطةً على فِراشي ثم أرْفَعُهَا لآكُلَها، ثم أخْشَى أن تكونَ صَدَقَةً فألقِيها!!**»[3].

الموقف الثاني: ورع الصِّديق ﷺ:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«كان لأبي بكر غلامٌ يُخْرِجُ له الخَرَاج، وكان أبو بكر يأكُل مِنْ خرَاجه، فجاء يَوْمًا بشيء فأكَل منه أبو بكر، فقال له الغلام:

أتدري ما هذا؟

فقال أبو بكر: وما هو؟

قال: كنتُ تكَهَّنْتُ[4] لإنسان في الجاهلية، وما أُحْسِن الكَهَانة[5] إلاّ أني خَدَعْتُهُ، فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكَلْتَ مِنْهُ. فأدْخَل أبو بكر يَدَه فقَاءَ كُلَّ شيءٍ في بَطْنِه![6]»[7].

---

(١) كخ كخ: كلمة زجر للصَّبي.

(٢) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (١٠٩٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

(٤) الكهانة: ادّعاء معرفة الغيب، وهو ضرب من ضروب الشرك.

(٥) أحسن أو لم يُحسن فالأجر في كلتا الحالتين: حرام لورود النّهي.

(٦) وهذا هو الورع، لأنه أكل أوّلاً وهو يظن أنه من خراجه.

(٧) رواه البخاري (٣٨٤٢).

الموقف الثالث: ورَع عليّ بن الفضيل بن عياض:

ضرب عليٌّ بن الفضيل - رحمه الله - الأنموذج الأعلى في «الورع» حتى قال عنه أبوه:

«كانت لنا شاةٌ بالكوفة، أكَلَتْ شيئًا يَسيرًا من عَلَف أمير، فما شَرِبَ لها لَبَنًا بَعْدُ!!»[١].

الموقف الرابع: ورع كَهْمَس:

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - في ترجمته:

«من كبار الثقات، ذكره أحمد بن حنبل فقال: ثقة وزيادة.

وقيل: إن كَهْمَسًا سَقَطَ منه دِينَار، ففتّش، فَلَقِيَهُ، فَلَمْ يَأْخُذْه، وقال: لَعَلّه غيره!!» ا.هـ[٢].

الموقف الخامس: ورع عمر بن الخطاب ﷺ:

روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه أُتِيَ بزيت من الشام - وكان الزيت في الجفان، يعني في القصاع- وعمر يقسمه بين الناس بالأقداح وعنده ابن له، له شعرات، فكلّما أفرغت جفنة مسح بقيتها برأسه، فقال له عمر:

أَرَى شَعْرَك شديد الرّغبة في زيت المسلمين! ثم أخذ بيده فانطلق إلى «الحجّام» فحلق شعره، وقال:

«هذا أهون عليك»[٣].

أخي:

أولـئك الـنَّاسُ إن عُـدُّوا وإن ذُكِرُوا ... وَمَـنْ سِـواهُم فَلَغْـوٌ غَـيْرُ مَعْـدُودِ

الموقف السادس: ورَعُ إبراهيم بن أدهم:

روي عن «إبراهيم بن أدهم» - رحمه الله - أنه استأجر دابة إلى «عمّان» فبينما هو

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/٤٤٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/٣١٧).

(٣) «تنبيه الغافلين» (٣٥٦).

يسير إذ سقط سوطه فنزل عن الدّابة وربطها ومشى - راجلاً - فأخذ السّوط، فقيل له:

لو حَوَّلتَ رأس دَابّتك فأخذتَ السَّوط؟ فقال:

« إنّما استأجرتُها لِتَذْهَب و لم أستَأْجِرْها لِتَرْجع!! »[١].

الموقف السابع: ورع ابن المبارك:

قال الحسن بن عرفة: قال لي «عبد الله بن المبارك»: « استَعَرْتُ قَلَمًا بأرض الشّام، فذهبتُ على أن أرُدَّه، فلما قدمتُ مَرْو؛ نظرتُ فإذا هو معي، فرجعتُ إلى الشام حتى رَددتُه على صاحبه!! »[٢].

وقال الحسن بن الربيع: « لَمّا احْتُضِرَ ابْن المبارك في السَّفر، قال: أشتهي سويقًا، فلم نجده إلاّ عند رجل كان يعمل للسلطان، وكان معنا في السّفينة، فذكرنا ذلك لعبد الله، فقال: دَعُوه. فَمَاتَ و لم يَشْرَبْه!! »[٣].

لِلّه دَرُّك يا إمام! فقد أتعبتَ الوَرِعين مِنْ بَعْدك.

الموقف الثامن: ورع الإمام أحمد:

كان - رحمه الله - مع جانب وَرَعِه في مَطْعَمِه ومَشْرَبه وَمَلْبَسه، من أشدّ الناس تورّعًا عن الفُتْيا مع رسوخ قَدَمِه، وعلوّ شأنه!

قال أحمد بن محمد المروذي:

سألتُ أحمد بن حنبل ما لا أُحصى عن أشياء، فيقول فيها:

« لا أَدْري ».

وقال محمد بن عُبيد اليمامي: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول:

---

(١) نفس المرجع (٣٥٦).

(٢) «السّير» (٨/٣٩٥).

(٣) «السّير» (٨/٤١١).

«ربما مكثتُ في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقد فيها شيئًا!!»(١).

فيا أيُّها السَّاعِي لِيُدْرِكَ شَأْوَه رُوَيْدك عن إدراكِه سَتُقَصِّرُ

أخي المسلم:

هذا هو الورع، وأولئك أهله، كَسَاني اللّهُ وإيّاك حُلَّته في الدنيا، وَلَقَّانا جزاءَه يوم المعاد.



٥١- كِتْمَانُ السِّرِّ

قال بعضُ السَّلف: «قُلوبُ الأَبْرَار، قُبُور الأَسْرَار».

ومن هذا المقول الطيِّب نَظَم ابنُ المعتزّ:

وَمُسْتَوْدِعي سِرًّا تبوَّأتُ كَتْمَهُ
فأَوْدَعْتُه صَدْرِي فَصَارَ لَهُ قَبْرا

وقال آخر:

وَمُسْتَوْدِعي سِرًّا تَضَمَّنْتُ سِرَّهُ
فَأَوْدَعْتُهُ مِنْ مُسْتَقَرِّ الْحَشَى قَبْرَا

وَلكِنَّني أُخْفِيه عَنِّي كَأَنَّني
مِنَ الدَّهْر يَوْمًا ما أَحَطتُ به خُبْرَا

ومـا السِّرُّ فِي قَلْبي كَمَيْتٍ بِحُفْرَةٍ
لأَني أرَى الْمَدْفُونَ يَنْتَظِرُ النَّشْرَا

ولأهمية هذا الْخُلُق في حياة المسلمين، فالحديث على السطور التالية يدور حول **ثلاثة أمور:**

الأول: تعريفُ الكِتْمَان والسِّر.

والثاني: فضله.

والثالث: أنواع الكتمان.

والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أوّلاً: تعريفُ الكِتمان والسِّر:

الكتمان «**لُغَةً**» : مصدرُ قولهم: كَتَمَ يَكْتُمُ، كَتْمًا وَكِتْمَانًا، وهو مأخوذٌ من مادة

« ك ت م » التي تدلُّ على الإخفاء.

وقال الرّاغبُ: « الكِتْمَانُ: سَتْرُ الْحَدِيث، وكِتْمَان الفَضْلِ هو كُفْرَانُ النِّعمة » ا.هـ.

و « **اصطلاحًا** » **قال المناوي:** « الكتمان: هو ستر الحديث »[1].

وقال الكَفَويُّ: « الكتمانُ: الصَّبر في إمساك الضمير »[2].

والسِّرُّ « **لُغَةً** »: اسم لما يسر به الإنسان أي يكتمه، وهو مأخوذ من مادة « س ر ر » التي تدلّ على إخفاء الشيء.

وقال الرَّاغب: « الإسرار خلافُ الإعلان ».

و « **اصطلاحًا** »: **قال الرّاغب:** « السِّرُّ: هو الحديث الْمُكَتَّمُ في النَّفْس ».

تعريف « كِتْمانِ السِّرّ » اصطلاحًا:

قال **الجاحظ**: « ومنها - أي من الأخلاق المحمودة -: كتمان السِّر: وهذا الخُلُق مُرَكَّبٌ من الْوَقَار وأدَاء الأمانة، فإنّ إخْراج السِّر من فضول الكلام، وليس بِوَقُورٍ من تَكَلَّم بالفُضُول.

وأيضًا: فكما أنه من استُودِعَ مَالاً فَأَخْرَجَه إلى غير مُودِعِه فقد خَفَر الأَمَانة، كذلك من استُودِع سِرًّا فأخرَجَه إلى غَيْر صاحبه فقد خفر الأمانة.

وكتمان السِّرِّ محمود من جميع الناس وخاصّة مِمَّن يَصْحَبِ السُّلْطَان، فإن إخْراجَه أسْرَارَه مع أنّه قَبِيحٌ في نَفْسِهِ يُؤدِّي إلى ضَرَرٍ عظيم يَدْخُلُ عليه مِنْ سُلْطَانِه » ا.هـ[3].

هذا تمهيد مهمّ للدخول في هذا الموضوع المهم.

---

(١) « التوقيف » (٢٨٠).

(٢) « الكليات » (٥٦٠).

(٣) « تهذيب الأخلاق » للجاحظ (٢٥).

ثانيا: فَضْلُ كِتمانِ السِّرِّ

(١) مِنْ أقوَى أسْبابِ النَّجاحِ:

قال الإمام أبو الحسن الماوردي - رحمه الله -:

اعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح، وأدوم لأحوال الصلاح.

عن معاذ بن جبل ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«استعِينوا على إنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بالكِتْمَان؛ فإن كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»[1].

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ:

«سِرُّك أسيرُك فإن تكلَّمْتَ به صِرْتَ أسيرَه».

وقال أحدُ الحُكَماء لابنه: «يا بُني، كُنْ جَوادًا بالمال في موضع الحَقِّ، ضَنِينًا[2] بالأسرار عن جميع الخَلْق. فإنَّ أحْمَد جُودِ المرءِ: الإنفاقُ في وَجْه الْبِرِّ، والبُخْلُ بمكتوم السِّرِّ».

وقال بعضُ الأدَباء: «مَنْ كَتَم سِرَّه كان الخيار إليه، ومن أفْشَاه كان الخيار عليه».

وقال بعض الْبُلَغاء: «ما أسَرَّكَ ما كَتَمْتَ سِرَّك».

وقال بعض الْفُصَحَاء: «ما لم تُغَيِّبْهُ الأضَالِعُ فهو مَكْشُوفٌ ضَائِعٌ».

وقال بعضُ الشُّعَراء: - وهو أَنَسُ بْنُ أُسَيْد -:

ولا تُفْشِ سِرَّكَ إلاَّ إليْكَ ... فإنَّ لكلِّ نَصِيحٍ نَصِيحَا

فإني رأيتُ وُشَاةَ الرِّجَال ... لا يَتْرُكُون أدِيمًا صَحِيحَا[3]

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الثلاثة»، وأبو نعيم، وانظر: «صحيح الجامع» (٩٤٣).

(٢) ضنينًا: بخيلاً.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (٣٧٤).

(٢) يعصم من الشرور:

قال **الإمام الماوردي** - رحمه الله - :

«وكم مِنْ إظهار سِرٍّ أَرَاق دَمَ صَاحبه، ومنع من نيل مَطَالبه، ولو كتمه كان من سَطْوته آمِنًا، وفي عواقبه سالمًا، ولنجاح حوائجه راجيًا.

وقال أَنُو شِرْوَان: من حَصَّن سِرَّه فله بتحصينه خَصْلَتان: الظَّفَرُ بِحَاجَته، والسَّلامةُ مِنَ السَّطَوات» ا.هـ[1].

(٣) يُوثِّق صِلَة الإنسان بأخيه حين يحفظ أسْراره:

وهذا أمر محسوس ومشاهد بالتجربة، فالنّفوس جُبِلَتْ على حُبِّ أهل الثّقة، والثّقةُ مَنْ يخشى الله:

قال **الإمام الماوردي** - رحمه الله تعالى - :

«واعلم أن من الأسْرار ما لا يُسْتَغْنى فيه عن مُطالعةِ صَديق مُسَاهم، واستشارة ناصِحِ مُسَالِمٍ. فَلْيَخْتَرْ العاقلُ لِسِرِّه أمينًا إن لم يَجْد إلى كَتْمِهِ سَبيلاً، وَلْيَتَحَرَّ في اختيار من يَأْتَمِنُهُ عليه وَيَسْتَوْدِعُه إِيَّاه».

وَمِنْ صِفاتِ أَمِين السِّر:

أن يكون ذا عَقْلٍ صَادٍّ، وَدِينٍ حَاجِزٍ، وَنُصْحٍ مَبْذُولٍ، وَوُدٍّ مَوْفور، وَكَتُومًا بالطَّبْع. فإن هذه الأمورَ تَمْنَعُ مِنَ الإذَاعةِ، وتوجب حِفْظَ الأمانةِ.

وَلْيَحْذَرْ صاحبُ السِّر أن يُودِع سِرَّه من يَتَطَّلع إليه، وَيُؤْثِرُ الوقوفَ عليه، فإنّ طالِبَ الوديعة خائن:

قال صالح بن عبد القدوس:

لا تُذِعْ سِرًّا إلى طالِبِه ... مِنْك فالطَّالِبُ لِلسِّر مُذِيعْ

(١) نفس المرجع السابق.

وليحذر كثرة المستودعين لسره فإن كثرتهم سبب الإذاعة، وطريق إلى الإشاعة؛ لأمرين:

أحدهما: أن اجتماع هذه الشّروط في العدد الكثير مُعْوِزٌ، ولابُدَّ إذا كَثُروا من أن يكون فيهم من أخَلّ ببعضها.

والثاني: أن كل واحد منهم يَجدُ سَبيلاً إلى نَفْي الإذاعة عن نَفْسه، وإحالة ذلك إلى غيره، فلا يضاف إليه ذَنْبٌ، ولا يَتوجَّه عليه عَتْبٌ.

وقد قال بعضُ الحكماء:

كلّما كَثُرت خُزَّان الأسْرار ازدادت ضَيَاعًا ثم لَوْ سَلِمَ من إذاعتهم لم يَسْلَمْ مِن إذْلالهم واستطالتهم، فإنَّ لِمَن ظَفَر بسِرٍّ مِنْ فَرْطِ الإذْلال وكثرة الاسْتِطالة، ما إن لم يَحْجِزْهُ عنه عَقْلٌ ولم يَكفَّهُ عَنْه، فَضْلٌ، كان أشَدَّ من ذُلِّ الرِّقِّ وَخُضُوع العَبَدْ.

وقد قال بعضُ الحُكَماء:

«من أفْشَى سِرَّه كَثُر عليه المتآمرون».

فإذا اختار - وأرْجُو أن يُوفَّقَ للاختيار- واضْطرَّ إلى استيداع سِرِّه، وَجَب على المُسْتَوْدَعِ له أدَاء الأمانة فيه بالتَّحَفُّظ والتَّناسي له حتى لا يَخْطِر له ببال ولا يدور له في خَلَدٍ. ثم يَرَى ذلك حُرْمةً يَرْعَاها ولا يُدِلُّ إدْلاَل اللِّئام.

وحُكي: أن رَجُلاً أسَرَّ إلى صَدِيقٍ له حَدِيثًا ثم قال:

أفَهِمْتَ؟

قال: بَلْ جَهِلتُ.

قال: أحَفِظْتَ؟

قال: بل نَسِيتُ» ا.هـ[1].

---

(١) نفس المرجع (٣٧٦) باختصار.

(٤) دليل على قهر النفس وترويضها:

فكتمان السِّر دليل على انتصار صاحب السِّر على نفسه، وكبحه لجماحها، وإسلاسه لقيادها. وهذا هو طريق الفلاح.

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩].

(٥) دليل على الإيمان:

فكاتم السِّر، فرَّ من بعض صفات المنافقين، فقد قال النبي ﷺ في الحديث الصّحيح:

« أربَعٌ من كنّ فيه، كانِ مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ، كانت فيه خصْلة من نفاق، حتى يَدَعها: إذا أؤتُمن خان، وإذا حَدّث كَذَب، وإذا عاهد غَدَر، وإذا خَاصَم فَجَر »[1].

فمن الوفاء بالعهد:

الحفاظ على السِّر وكَتْمه، وإلاّ كان غدرًا، ومن حق المسلم على المسلم أن يكتم عنه ما يكون قد وصل إليه من سرّه، خاصة إذا كان قد تعهدّ له بحفظ هذا السِّر وعدم إذاعته.

ومن هنا كان كتمان السّر نوعًا من الوفاء بالعهد، وقد قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

ثالثًا: أنواع الكتمان:

اعلم أن الكتمان نوعان:

الأول: الكتمان المحمود:

وهو ضربٌ من الأمانة، ونوع من الوفاء، وعلامةٌ على الوقار، وهو كتمان سرّ الغير أو النّفس وهو مناط هذه الصّفة وَمَعْقدُها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقد تقدّم فضل ذلك والحث عليه.

الآخر: الكتمان المذموم:

وهو على ضربين:

أ- **كتمان الشهادة:**

وقد ذمّه المولى - تبارك وتعالى - في قوله:

﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال ﷻ - أيضًا - :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ب- **كتمان ما أنزل الله:**

وقد أمر المولى - تبارك وتعالى - حَمَلَةَ العلم ألاّ يَكْتُموا مِمَّا أنزل شيئًا، وتوعّد من يفعل ذلك بذلّ الدنيا وعذاب الآخرة، فقال ﷻ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقد لعنهم الله في آية أخرى، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال **العز بن عبد السلام** - رحمه الله - :

«وكتمان ذلك وسيلة إلى تضييع أحكام الله وما يتعلّق بها من طاعة» ا.هـ[(١)].

وبالجملة: فإفشاء الأسرار من أخلاق الفجار، وطرق الأشرار.

---

(١) «شجرة المعارف والأحوال» للعز بن عبد السلام (٣١٢).

قال **الجاحظ**: «إفشاء السِّر: خُلُق مُركّب من الخَرَق والخيانة، فإنه ليس بِوَقور من لم يَضْبُطْ لِسَانه، ولم يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ ما يُستَسَرُّ به» ا.هـ[(١)].

وقال **السَّفَاريني**: «يحرم على كل مكلّف إفشاء السّر» ا.هـ[(٢)].

وقال **الإمام الغزالي**: «هو مَنهِيٌّ عنه لِما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، هو حَرَام إذا كان فيه إضْرارٌ، وهو من قبيل اللّؤْم إن لم يكن فيه إضْرار» ا.هـ[(٣)].

قلت: وهذا تقسيم جَيِّد، فبعض الذنوب أهون من بعض.

إفشاء السِّر بعد الموت:

قال **ابن بَطّال**: «أكثر العلماء على أنه إذا مات صاحب السِّر فإنه لا يلزم من كتمانه ما كان يلزم في حياته إلاّ أن يكون عليه فيه غضاضة».

وقال الحافظ **ابن حجر**: «الذي يظهر أن الإفشاء بعد الموت ينقسم إلى:

١- ما يحرم إذا كان فيه غضاضة على صاحبه.

٢- ما يكره مُطلقًا.

٣- ما يباح.

٤- ما يستحب ذِكْرُه- وإن كرهه صَاحِبُ السِّر كأن يكون فيه تزكية أو منقبة أو نحو ذلك» ا.هـ[(٤)].

ومن الأدلة على ما سبق:

(١) عن المعتمر بن سليمان عن أبيه، قال:

---

(١) «تهذيب الأخلاق» (٣٠).

(٢) «غذاء الألباب» (١/١١٥).

(٣) «الإحياء» (٣/١٣٢).

(٤) «فتح الباري» (١١/٨٥).

سمعتُ أنس بن مالك ﷺ قال:

«أسَرَّ إليَّ النبي ﷺ سِرًّا فما أخبرتُ به أحَدًا بعده، ولقد سألتني أُمُّ سُلَيْم فما أخبرتُها به»[1].

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله - :

«قال بعضُ العلماء: كأنّ هذا السِّر كان يَخْتص بنساء النَّبي ﷺ، وإلاّ فلو كان من العلم ما وَسِع أنَسًا كِتْمَانه»ا.هـ[2].

(٢) وعن أبي رافع ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ غسَّل مُسْلمًا فكَتَم عَلَيه غَفَر له اللّهُ أرْبَعين مَرّة[3]، وَمَنْ حَفَر له فأجَنَّه أجْرى عليه كأجرِ مَسْكَن أسْكَنه إيَاه إلى يَوْم القيامة، وَمَنْ كَفَّنه كَسَاهُ اللّهُ يوم القيامة مِنْ سُنْدُس وإستبرق الجنة»[4].

(٣) وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

كانت أزْوَاج النّبي ﷺ عِنْدَه، لم يغادْر منْهُنّ واحدة فأقْبَلت فاطمةُ تَمْشِي، ما تُخْطِئُ مِشْيَتُها مَن مِشْيَةِ رسولِ الله ﷺ شيئًا، فلمّا رآها رَحَّب بها، فقال:

«**مَرْحَبًا بابْنَتِي**».

ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله. ثم سَارَّها فَبكت بكاءً شديدًا، فلمّا رأى جَزَعَها سَارَّها الثانية فَضَحَكَت، فقلتُ لها:

---

(١) رواه البخاري (٦٢٨٩).

(٢) «فتح الباري» (٨٥/١١).

(٣) وفي رواية: «أربعين كبيرة» رواه الطبراني في «الكبير» وقال الحافظ في «الدراية»: إسناده قويّ.

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم (٣٥٤/١)، والبيهقي (٣٩٥/٣)، وصححه الحاكم والذهبي والألباني، وانظر: «أحكام الجنائز» (٥١).

خَصَّكِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ بين نسائه بالسِّرَار، ثُمّ أنْتِ تَبْكِين، فلمّا قامَ رسولُ الله ﷺ سألتُها:

ما قال لَكِ رسولُ الله ﷺ؟

قالت: ما كنتُ أُفْشِي على رسول الله ﷺ سِرَّهُ.

فلما تُوفِّي رسولُ الله ﷺ قلتُ: عَزَمْتُ عليك بِمَا لي عَلَيكِ مِن الحقِّ لَمَا حَدَّثْتني ما قال لكِ رسولُ الله ﷺ. فقالت:

أمَّا الآن فَنَعم. أمَّا حين سَارَّني في المرّة الأُولى فأخبرني:

« **أن جبريَل كان يُعَارِضُهُ القرآنَ في كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْن، وإنّه عَارَضَه الآن مَرَّتَيْن وإني لا أُرَى[1] الأَجَلَ إلا قَدِ اقترب، فاتّقِي الله واصْبِري، فإنّه نِعْمَ السَّلَفُ أنالكِ** ».

قالت: فبكيتُ بكائي الذي رأيتِ، فلمّا رأى جَزَعي سارَّني الثانية فقال:

« **يا فاطمةُ: أمَا تَرضَيْن أن تكوني سَيّدة نساءِ المؤمنين – أو سيِّدةَ نساءِ هَذه الأُمّة** ».

قالت: فضحِكْتُ ضَحِكِي الذي رأيتِ »[2].

من هذه النصوص يتبين أن إفشاء السِّر في حال الحياة وبعد الممات لا يجوز إلاّ إذا ترتّب على الكتمان إهْدار حَقّ، أو إقرار ظُلْم، أو هجوم عَدوّ، أو فوات مَصْلحة شرعية، والعاقل – كما قال ابن تيمية – رحمه الله – :

« من يَعْرِف خَيْر الخَيْرَيْن وشرّ الشرَّيْن » وعلى الله قَصْدُ السبيل.

إفشاء السِّر لمصلحة:

قال الإمام **العز بن عبد السّلام** – رحمه الله – :

« الستر على الناس شيمة الأولياء – وَيُؤْخذ مِنْ كَلاَمه – أنّه قد يجوز الإفشاء إذا

---

(١) لا أُرى: لا أظن.

(٢) رواه البخاري (٣٧١٥، ٣٧١٦)، ومسلم (٢٤٥٠) واللفظ له.

كان في ذلك مصلحة[1]، أو دفع ضَرَر، واستَدلّ على ذلك بما ذَكَره القرآنُ الكريم من إفْشاء يوسف - عليه السلام - بِسِرِّ التي راودته عن نفسه، وَسِرِّ النّسْوة اللاّتي قطعن أيديهنّ. قال العزُّ - رحمه الله - :

وإنَّما قال يوسفُ عليه السلام:

﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف: ٢٦]. ليدفع عن نفسه ما تَعرَّض له - أو ما يمكن أن يَتعرّض له - من قَتْل أو عقوبة، وكذلك قوله:

﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٥٠]، ليدفع التُّهمة عن نفسه، فإن الْمَلِكَ لو اتّهَمه لم يُوَلِّه، و لم يُحْمَلْ على إحْسَانِ الْوِلاَية» ا.هـ[2].

هذا، ومن إفشاء السِّر المذموم - غير ما سبق - :

- **إفشاء ما يدور بين الرّجل وزوجته:**

فعن أبي سعيد الخدْريّ رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إن مِنْ أعْظَم الأمانة عِنْد الله يَوْمَ القيامة: الرّجلَ يُفْضي إلى امْرأته وتُفْضِي إليه ثم يَنْشُر سِرَّها**». وفي رواية: «**مِنْ أشَرِّ النّاس**»[3].

- **إفشاء خطط الحروب للعدوّ:**

وهذا من أعظم الذنوب لما يترتب عليه من فساد عريض وإذلال للمسلمين.

وبهذا القدر أكتفي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

۞۞۞۞۞

---

(١) شرعية لا ذاتية.

(٢) «شجرة المعارف والأحوال» (٣٨٩، ٣٩٠) بتصرّف.

(٣) رواه مسلم (١٤١٧).

٥٢- الصَّمْتُ

اعلم - أخي الكريم - أن الكلام تُرْجُمَانٌ يُعَبِّرُ عن مُسْتَوْدَعَات الضَّمَائر، وَيُخبِرُ بِمَكْنُونَاتِ السَّرَائِر، لا يُمكنُ اسْتِرْجَاعُ بَوادرِه، ولا يُقْدَرُ على رَدِّ شَوَارِدِهِ. فَحَقٌّ على العاقلِ أن يَحْتَرِزَ من زَلَلِه بالإمْسَاكِ عنه أو بالإقْلال منْه.

مَــنْ لَــزِم الصَّــمْتَ اكْتَسَــى هَيْـبَةً ... تُخْفِــي عــلى النَّــاس مَسَــاوِيه

لِسَــانُ مَــنْ يَعْقِــلُ في قَلْـبِه ... وَقَلْــبُ مَــنْ يَجْهَــلُ في فِــيه

ولأهمية هذا الْخُلُق «خُلُق الصَّمْت» فالحديث على السطور التالية يدور حول خمسة أمور:

الأول: تعريف الصّمت.

والثاني: فضله.

والثالث: شروط الكلام.

والرابع: آدابه.

والخامس: جهاد الصالحين لِلّسان.

أولاً: تعريفُ الصَّمْت:

الصَّمْتُ «لُغَةً»: مَصْدَرُ قَوْلِهم: صَمَتَ يَصْمُتُ إذا سَكَتَ، وهو مأخوذٌ مِنْ مادَّةِ (ص م ت) التي تدلّ على إبْهَامٍ وإغْلاَقٍ، يُقال مِنْ ذَلِك صَمَتَ الرَّجُلُ وأَصْمَتَ إذا سَكَت.

و «**اصطلاحًا**»: **قال الكَفَوِيُّ:**

«الصَّمْتُ: إمساكٌ عن قول الباطل دون الحق» ا.هــ[1].

---

(١) «الكليات» (٥٠٧).

الفرقُ بين السُّكُوت والصَّمْت:

الفرق بينهما من وجوه:

(١) أن السكوت هو ترك التكلّم مع القدرة عليه، وبهذا القيد الأخير يفارق الصَّمت؛ فإن القُدْرة على التكلّم غَيْرُ مُعْتَبرة فيه.

(٢) كما أن الصَّمتَ يُرَاعي فيه الطّولُ النِّسْبي، فَمَنْ ضَمَّ شَفَتَيْه آنًا يكون ساكتًا ولا يكون صَامتًا إلاّ إذا طالت مُدّةُ الضّمِّ.

(٣) السُّكوتُ: إمْسَاكٌ عن الكلام حَقًّا كان أو باطلاً، أمّا الصَّمتُ فهو إمْسَاكٌ عن قول الباطل دون الْحَقِّ[1].

ثانيا: فَضْلُ الصَّمْت:

علم أن فضل الصمت عظيم، فهو:

(١) طريقُ النَّجاة:

□ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **مَنْ صَمَتَ نَجَا** »[2].

□ وعن عُقبة بن عامر ﷺ قال: قلتُ: يا رسول الله، ما النجاة؟

قال: « **أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَك وَلْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خَطِيئَتك** »[3].

□ وعن ابن مسعود ﷺ أنه كان على « الصَّفا » يُلَبي ويقول:

« يا لِسَان، قُلْ خَيْرًا تَغْنَم، واسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَم مِنْ قَبْل أن تَنْدمَ ».

---

(١) « نضرة النعيم » (٢٦٣٤/٧).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي، والطبراني، وانظر: « الصحيحة » (٥٣٦).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي، وانظر: « الصحيحة » (٨٩٠).

فيقل له: أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟

فقال: لا، بل سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إن أكثر خطايا ابْنِ آدم في لسانه»[١].

□ وللشافعيّ - رحمه الله -:

احْفَظْ لِسَانَكَ أيُّها الإنسان لا يَلْدَغَنَّكَ إنَّه ثُعبانُ
كم في المقابِرِ من قتيلِ لِسَانِهِ كانتْ تَهابُ لِقَاءَه الأَقْرَانُ

(٢) دليل على الإيمان:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ كان يؤمن باللهِ واليومِ الآخر: فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

(٣) وقاية من النار:

فعن معاذ بن جبل ﷺ قال:

كنتُ مع النبي ﷺ في سَفَر، فأصبحتُ يَوْمًا قريبًا منه ونحن نَسير، فقلتُ:

يا رسول الله، أخبِرْني بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجنَّة، وَيُبَاعِدني من النّار؟

قال: «لقد سأَلتَني عن عَظِيم، وإنّه لَيَسيرٌ عَلى مَنْ يَسَّره اللّهُ عليه:

تَعْبُدُ الله ولا تشركُ به شيئًا، وتقيمُ الصّلاة، وتؤتِيَ الزكاةَ، وتصومُ رمَضان، وتَحجُّ البيتَ» ثم قال:

«ألاَ أدلُّك على أبوب الْخَيْر: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَة كما يُطْفِئُ الْمَاءُ النّار، وَصَلاةُ الرَّجل مِنْ جَوْف اللَّيْل». ثم تلا:

---

(١) حسن: رواه الطبراني، وأبو الشيخ في «الثواب»، والبيهقي، وانظر: «الصحيحة» (٥٣٤).

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

ثمَّ قال:

«ألا أخبرك برأسِ الأمْرِ كُلِّه، وَعَمُودِه، وَذِرْوَةِ سَنَامِه؟».

قلتُ: بلى يا رسول الله.

قال: «رأسُ الأمْرِ الإسْلام، وعمودُهُ الصَّلاة، وذِرْوَةُ سَنامِه الْجِهَاد».

ثم قال:

«ألا أخبركَ بِمَلاكِ ذَلك كُلِّه».

قلتُ: بلى، يا نَبي الله. فأخذ بلسانه. وقال:

«كُفَّ عليك هذا».

قلتُ: يا نبي الله! وإنَّا لَمُؤَاخَذُون بما نَتَكَلَّمُ به؟

قال: «ثَكِلَتْكَ[1] أُمُّك يا مُعَاذ، وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّار على وجوههم أو على مَناخِرِهم إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم»[2].

(٤) طريقٌ إلى الجنَّة:

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ يَضْمَن لي ما بين لَحْيَيْه[3] وما بين رِجْلَيْه أَضْمَن له الجنَّةَ»[4].

قال الحافظُ ابْنُ حَجَر – رحمه الله –:

«الضمان: بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه هو أداء الحق الذي

---

(١) ثكلتك: فقدتك أمك بهلاكك، وهي لغة عند العرب لا يقصد بها الدعاء بالشر.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٣/٢٩، ٣٠).

(٣) لَحْيَيْه: هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان وما يتأتى به النطق.

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٤).

عليه، فالمعنى: من أدّى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصّمت عمّا لا يعنيه وأدّى الحق الذي على فَرْجِه من وضعه في الحلال وكفّه عن الحرام «**أضْمن له الجنّة**».

وقال ابْنُ بَطّال: دَلّ الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدّنيا لسانُه وفَرْجه، فَمَن وُقِيَ شرّهما وُقِى أعظم الشّر»ا.هـ[1].

ثالثاً: شروط الكلام:

فإن اضُّطر للكلام «فاعلم أن للكلام شُروطًا لا يَسْلم المتكلّم من الزَّلل إلاّ بها، ولا يَعْرَى من النّقص إلاّ بعد أن يستوفيها. وهي **أربعة:**

الشّرطُ الأول:

أن يكون الكلام لداعٍ يدعو إليه، إمّا في اجْتلاب نَفْع، أَوْ دَفْع ضَرَر. ذلك أنّ ما لا دَاعِي له هَذَيانٌ، وما لا سَبَبَ له هُجْرٌ، ومَنْ سَامَحَ نَفْسَه في الكلام إذا عَنَّ، ولَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيه، وإصابة مَعَانيه، كان قَوْلُهُ مَرْذُولاً، ورأْيُهُ مَعْلُولاً.

الشّرطُ الثاني:

أن يأتِي به في مَوْضعه، ويَتَوخَّى به إصابةَ فُرْصَته؛ لأنّ الكلامَ في غير حِينه لا يقعُ مَوْقِعَ الانْتفاع به، وما لا يَنْفَعُ مِنَ الكلام فقد تقدّم القولُ بِأنّه هَذَيان وهُجْر، فإن قَدَّم ما يقتضِي التأخير كان عَجَلَةً وخُرْقًا، وإن أخَّرَ ما يقتضي التّقديم كان تَوَانيا وَعَجْزًا، لأنّ لكلِّ مقامٍ قَوْلاً، وفي كلِّ زَمَانٍ عَمَلاً.

الشّرط الثالث:

أن يقتصر منه على قَدْر حاجته، فإن الكلام إن لم يَنْحَصر بالحاجة، ولم يُقَدَّر بالكفاية، لم يكن لِحَدِّه غاية، ولا لِقَدْره نهاية، وما لم يكن من الكلام محصورًا كان إمَّا حَصَرًا إن قَصُرَ، أو هَذرًا إن كَثُر.

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣١٦).

الشَّرط الرابع:

اختيارُ اللَّفظ الذي يتكلَّم به، لأن اللّسان عنوان الإنسان، يُتَرْجم عن مَجْهُوله، ويُبَرْهِن عن مَحْصُوله، فيَلْزَمُ أن يكون بِتَهْذيبِ ألفاظِه حَرِيًّا وبتقويم لِسَانه مَلِيًّا»[1].

وإليك أدب الكلام

قال الإمام أبو الحسن الماوَرْديّ - رحمه الله تعالى - :

«اعلم أن للكلام آدابًا إن أغْفَلَها المتكلّمُ أذهب رَوْنَقَ كَلاَمه، وَطَمَسَ بَهْجَةَ بيانه، ولَها الناسُ عن مَحَاسنِ فَضْله، بِمَسَاوئ أَدَبِه، فَعَدَلُوا عن مَنَاقِبه، بِذِكْرِ مَثَالبه».

فَمِنْ آدابه: أن لا يَتَجَاوزَ في مَدْحٍ ولا يُسْرِفَ في ذَمٍّ وإن كانت النزاهةُ عن الذّمِّ كرمًا والتجاوزُ في المدح مَلَقًا يصْدُرُ عَنْ مَهَانةٍ. والسَّرَفُ في الذَّمِّ انتقامٌ يَصْدُرُ عن شَرٍّ، وكلاهما شَيْنٌ وإن سَلِمَ مِنَ الكذب.

حُكي عن الأحنف بن قيس أنه قال:

«سَهِرتُ ليلتي أُفكِّر في كلمة أُرْضي بها سُلطاني ولا أُسْخط بها ربي فما وجدتُّها!»

وقال ابن مسعود:

«إن الرّجل ليدخل على السُّلطان ومعه دينُه، فيخرجُ وما معه دينه!».

قيل: وكيف ذلك؟

قال: «يُرْضيه بما يُسْخِط الله ﷻ».

ومن آدابه:

أن لا تبعثَه الرَّغْبةُ والرَّهْبةُ على الاسْتِرْسَال في وَعْدٍ أو وعيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُما ولا يَقْدرُ على الوفاء بهما.

فإنَّ مَنْ أَطْلَقَ بهما لسَانَهُ وأَرْسَل فيهما عَنَانَهُ، ولم يَسْتَثْقِلْ من القول ما يَسْتَثْقِلُهُ من العمل، صارَ وَعْدُه نَكْثًا وَوَعِيدُه عَجزًا.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٣٣٨- ٣٤٣) باختصار شديد.

حكاية:

وَحُكِي أن «سليمان بن داود» - عليهما السلامُ - مرّ بعصفور يدور حول عُصفورة فقال لأصحابه:

هل تدرون ما يقول لها؟

قالوا: لا يا نبي الله.

قال: إنّه يَخْطُبُها لِنَفْسِه ويقول لها: زَوِّجيني نَفْسَك أُسْكِنُك أيَّ غُرَف دِمَشْقَ شِئت!.

قال سليمانُ: كَذَب العصفورُ فإن غُرَف دمشقَ مَبنيةٌ بالصُّخُور لا يَقْدِرُ أن يُسْكِنَها هُنَاك، ولكنْ كُلُّ خاطِبٍ كاذِب.

ومن آدابه:

إن قال قولاً حققه بفعله، وإذا تكلّم بكلامٍ صَدَّقَهُ بعمله، فإن إرْسال القولِ اختيار، والعمل به اضطرار. ولئن لم يفعل ما لم يقل أجملُ من أن يقول ما لم يفعل.

ومن آدابه:

أن يراعي مَخَارج كلامه بِحَسَب مقاصده وأغراضه، فإن كان ترغيبًا قَرَنَه باللِّين واللُّطف، وإن كان تَرْهيبًا خَلَطه بالخشونة والعنف، فإنّ لين اللّفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروجٌ عن موضعِهما وتعطيلٌ للمقصود بهما، فيصير الكلامُ لَغْوًا والغرضُ المقصود لَهْوًا.

وقد قال **أبو الأسْوَد الدُّؤَلِيُّ** لابْنِه:

- يا بُني إن كنتَ في قَوْمٍ فلا تتكلّم بكلامِ مَنَ هو فَوْقَك فَيَمْقُتوك، ولا بكلام من هو دُونَك فَيَزْدَرُوك.

ومن آدابه:

أن لا يرفع بكلامه صوتًا مُستنكرًا ولا يَنزعجَ له انزعاجًا مُستهجَنًا، ولْيكُفَّ عن حركة تكون طَيْشًا وعن حركة تكون عِيًّا، فإن نقصَ الطَّيْشِ أكثرُ مِنْ فَضْل البلاغة.

ومن آدابه:

أن يَتحاشَى هَجرَ القول وَمُستَقْبَحَ الكلام، ولْيَعْدِلْ إلى الكنايةِ عمَّا يُستَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُستَهْجَنُ فَصِيحُهُ؛ لِيَبْلُغَ الغَرَضَ وَلِسَانُهُ نزهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ.

وقد قال **محمد بن عليّ** في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال: كانوا إذا ذَكَرُوا الْفُرُوجَ كَنَّوْا عنها.

وكما أنّه يَصُونُ لِسَانَهُ عن ذلك فهكذا يصونُ عَنْهُ سَمْعَهُ، فلا يَسْمَعُ خَنَاءً ولا يُصْغِي إلى فُحْش فإن سَمَاعَ الفُحْشِ داعٍ إلى إظْهَارِه، وذريعةٌ إلى إنْكَاره.

وإذا وَجَدَ عن الْفُحْشِ مَعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وكان إعراضُهُ أَحَدَ النَّكِيرَيْن، كما أنّ سَمَاعَهُ أحدُ الْبَاعِثَيْن.

ومن آدابه:

أن يَجتنب أَمْثَال العامّة الغوغاء ويتخصَّص بأمثال العلماء الأُدباء فإن لكلِّ صِنْفٍ من النّاس أمْثَالاً تُشَاكِلُهُم، فلا تَجدُ لِسَاقطٍ إلاّ مَثَلاً سَاقطًا وَتَشْبيهًا مُستَقْبَحًا، وللأمثال من الكلام موقعٌ في الأَسْمَاعِ وتأثيرٌ في القلوب لا يكاد الكلام الْمُرْسَلُ يَبْلغ مَبْلَغَها، ولا يُؤَثِّر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحةٌ والشواهَد بها واضحةٌ، والنفوسَ بها وَامِقَةٌ، والقلوبَ بها واثقةٌ، والعقولَ لها مُوَافِقَةٌ، فلذلك ضرب اللّهُ الأَمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رُسُلِه، وأَوْضَح بها الحُجَّة على خَلْقِه؛ لأنها في العقول مَعْقُولة، وفي القلوب مَقْبُولة»[1].

(١) «أدب الدنيا والدين» (٣٤٥- ٣٥٠).

خامسًا: جهادُ الصَّالحين لِلِّسَان :

هذا، ولَمَّا علم الصَّالحون خطورة اللسان، وما يترتب على ما يَخْرُجُ منه من ثواب أو عقاب، جاهدوا ألسنتهم جهاد الأبرار:

- فهذا «بِشْرُ بْنُ الحارث»[(١)] - رحمه الله - قال عنه إبراهيمُ الحربي:

«ما أخْرَجَتْ بغدادُ أَتَمَّ عَقْلاً من بِشْر، ولا أحفظَ للسانه، كان في كُلِّ شَعْرة منه عَقْل، وَطِئَ النَّاسُ عَقِبه خمسين سنة، ما عُرِف له غيبةٌ لمسلمٍ، ما رأيت أَفْضَلَ منه»[(٢)].

- وهذا «عبد الله بن وهب» الإمام العَلَم - شيخ الإسلام - قال عنه حَرْمَلة:

«سمعتُ ابن وهب يقول: نَذَرتُ أني كُلّما اغتبتُ إنسانًا أن أصوم يومًا، فأجهدني، فكنتُ أغتابُ وأصوم، فنويتُ أني كُلّما اغتبتُ إنسانًا أن أتصدَّق بِدِرْهَم، فَمِنْ حُبِّ الدَّراهم تركتُ الغِيبة!».

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - مُعَلِّقًا - :

«وهكذا والله كان الْعُلَمَاءُ، وهذا هو ثَمَرَةُ الْعِلْمِ النَّافع» ا.هـ[(٣)].

- وهذا «عبدُ الله بن المبارك» - رحمه الله - يحكي - لنا - جهادَه لنفسه، ومحاسبته إيَّاها، فيقول:

جَرَّبْـتُ نَفْسِـي فمـا وجـدتُ لهـا ... مِـن بَعْـد تَقْـوى الإلـه كـالأدب

في كُـلِّ حالاتهـا وإن كَرِهَـتْ ... أَفْضَـلَ مِـن صَمْتِها عـن الكَـذِب

أو غِيبَـةِ النـاس إنَّ غَيْبَتهم ... حَـرَّمَها ذُو الْجَـلال في الكُتُـب

قلـتُ لهـا طَائِعًـا وأُكْـرِهُهَا ... الحِلْـمُ والعِلـمُ زَيْـنُ ذي الحَسَـب

إن كـان مِـن فِضَّـةٍ كلامُـكِ يـا ... نَفْـسُ فـإنَّ السُّكُوتَ مِـنْ ذَهَـب

---

(١) هو «بشر بن الحارث»، الإمام العالم، المحدّث، الزاهد، تُوفّي سنة (٢٢٧هـ).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٤٧٢).

(٣) نفس المرجع السابق (٩/٢٢٨).

وكان يقول:

اغْتَنِمْ رَكْعَتَيْن زُلْفَى إلى الله إذا كُنتَ فَارِغًا مُسْتَرِيحا
وإذا ما هممتَ بالنُّطْق بالباطل فاجْعَلْ مكَانَه تَسْبِيحا
فاغتنامُ السُّكُوتِ أفضلُ مِنْ خَوْضٍ وإن كنتَ بالكلام فَصِيحا

وقال حبيب الجلاّب: سألتُ ابن المبارك: ما خيرُ ما أُعطى الإنسان؟

قال: عزيزة عقل.

قلتُ: فإن لم يكن؟

قال: حُسْنُ أدب.

قلتُ: فإن لم يكن؟

قال: أخٌ شفيق يستشيره.

قلتُ: فإن لم يكن؟

قال: صَمْتٌ طويل.

قلت: فإن لم يكن؟

قال: مَوتٌ عاجل! [1].

□ وهذا «**عبدُ الله بن عَوْن**» - عالم البصرة - رحمه الله - قال عنه ابن المبارك:

قيل لابن عون: ألا تتكلّم فَتُؤْجَر؟

فقال: أما يَرْضي المتكلّمُ بالكفاف؟!

وروى مِسْعَر عن ابْن عَوْن، قال:

«ذِكْرُ النّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ الله دَوَاءٌ».

---

(١) نفس المرجع السابق (٨/٣٩٧).

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - مُعلِّقًا - :

«**قلت**: إي والله، فالعجب منّا ومن جهلنا كيف ندعُ الدواء ونقتحمُ الداء؟!

قال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٩]. ولكن لا يتهيّأ ذلك إلا بتوفيق الله. ومن أدْمَن الدُّعَاء ولازَمَ قَرْع الباب فُتِحَ له.

وقد كان ابْنُ عون قد أُوتِي حِلْمًا وعِلْمًا، ونَفْسُه زكيّة تُعين على التقوى، فَطُوبى له» ا.هـ[(١)].

- وهذا «**عبد الله بن أبي زكريا**» - الإمام، القدوة الرّباني - قال عنه يمان بن عديّ:

«كان عبد الله بن أبي زكريا عَابِدَ أَهْلِ الشّام، وكان يقول: ما عالجتُ من العبادة شيئًا أشدّ من السّكوت!»[(٢)].

- وهذا «**مُورِّق العِجْليّ**» - الإمام العابد - قال عنه مُعَلّى بن زياد:

قال مورّق العجليّ: «تعلمتُ الصَّمْتَ في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قطُّ إذا غضبتُ أندمُ عَلَيْه إذا زال غضبي!»[(٣)].

قلت: هذا دليل على خبيئةٍ حَسَنة، وإيمان عميق.

قال خَيْرُ النَّسَّاج: «متى أساءت الجوارحُ الأدبَ فهو من غَفْلة الْقَلْبِ وظُلْمَة السِّرِّ».

- وكان «**أبو بكر الصّديق**» ﷺ يَضَعُ حَصَاة في فِيه، يَمْنَعُ بها نَفْسَه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»[(٤)].

---

(١) «السير» (٦/٣٦٩).

(٢) المرجع السابق (٥/٢٨٦).

(٣) المرجع السابق (٤/٣٥٤).

(٤) «الإحياء» (٣/١٢٠).

- وكان ابن مسعود ﷺ يقول:

«والله الذي لا إله إلا هو ما شيءٌ أحْوجَ إلى طُول سِجْنٍ من اللّسان».

- وكان «طاوسٌ» – رحمه الله – يتعذر من طول السُّكوت ويقول:

«إني جربتُ لساني فوجدتُه لئيمًا»[1].

- وكان «عطاءُ بْنُ أبي رَبَاح» – رحمه الله – يقول:

«إن مَنْ كان قبلكم كانوا يكرهون فضولَ الكلام، وكانوا يَعُدُّون فُضُولَ الكلام ما عدا كتابَ الله أن تقرأهُ، أو تأمُرَ بمعروف، أو تَنْهى عن مُنكَرٍ، أو تنطقَ بحاجتك في معيشتك التي لابُدَّ لَكَ منها، أتُنْكرون: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، و ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، و ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. أمَا يَسْتَحي أحدُكم أن لو نُشرَتْ عليه صَحيفَتُهُ التي أمْلَى صَدْرَ نَهارِهِ، كان أكثرُ ما فيها ليس من أمْرِ دِينه ولا دُنياه!»[2].

حكمة:

الزَم الصَّمْتَ تُعَدُّ في عَقْلك فاضِلاً، وفي خُلُقك عاقلاً، وفي قَدْرك حكيمًا، وفي غَضبك حَليمًا، وإيّاك وفضول الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بطن.

حكمة:

كلامُ الْمَرْء بيان فضله، وتُرْجُمان عَقْله، فاقتصر منه على القليل، واختصر منه على نجح، وإيّاك وما تسخط به سُلْطانك، وتغضب به إخوانك.

حكمة:

مَنْ لزم شأنه، وَحَفِظ لِسَانه، وأعْرض عمَّا لا يَعْنيه، وكفّ عن عِرْضِ أخيه، دامت سلامتُهُ، وقلّت ندامتُهُ.

---

(١) «الصمت» لابن أبي الدنيا (٢٤٨).

(٢) «الصمت» لابن أبي الدنيا (٢٤٠).

أخي:

الصمتُ أَفْضَل ثمرة العقل، وزين العلم، وعون الحِلْم، فالْزَمْهُ يُلْزِمك السّلامة، واصْحَبْه تصحبك الكرامة.

أخي:

إنّما الْعَاقِلُ مَنْ ... أَلْجَمَ فَاهُ بلِجام

لُذْ(١) بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ ... لَكَ مِنْ دَاءِ الكَلام

أخي:

عَوِّدْ لِسَانَكَ قِلَّةَ اللَّفْظِ ... واحْفَظْ كَلامَكَ أَيّما حِفْظِ

إِيَّاكَ أن تَعِظَ الرِّجَالَ وقد ... أصبحتَ مُحْتَاجًا إلى الْوَعْظِ

أخي:

ولا يعينك على «الصَّمْت» إلاّ استعانتك بربِّك، وذكر عيوب نفسك، وتذكّر يوم تنشر صحيفة عملك.

«اللّهم أعنّا على ذِكْرِك، وَشُكْرِك، وَحُسْنِ عبادتك».

۞۞۞۞۞

---

(١) لُذْ: الجأ وتَحَصَّنْ.

٥٣- حِفْظُ اللِّسَان

اعلم - أخي المسلم - «أنّ اللسانَ من نِعَم اللّه العظيمة، ولطائف صُنْعه الغَريبة. فإنّه صَغيرٌ جِرْمُه[١]، عظيمٌ طاعَتُهُ وَجُرْمُهُ، إذ لا يَسْتَبين الكُفْرُ والإيمانُ إلاّ بشهادة اللِّسَان، وهما غاية الطّاعة والعصيان. وأعْصَى الأعضاءِ على الإنسان اللِّسانُ، فإنّه لا تَعَبَ في إطلاقه، ولا مُؤْنَةَ في تحريكه. وقد تساهل الخَلْقُ في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحَذَرِ مِنْ مَصَائده وَحَبائِله. وإنّه أعظُم آلةِ للشيطان في استغواءِ الإنسان.

واللّسان رَحْبُ المَيْدان، ليس له مَرَدٌّ، ولا لمجاله مُنتهى وَحَدٌّ. له في الخير مجالٌ رَحْبٌ، وله في الشّر ذَيْلٌ سُحِبَ، فَمَنْ أَطْلَق عَذَبَةَ اللِّسان[٢]، وأهمله مُرْخِيَّ العِنَان[٣]، سَلَكَ به الشيطانُ في كلِّ مَيْدان، وساقه إلى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، إلى أن يَضْطَرَّهُ إلى البوار، ولا يَكُبُّ النّاسَ في النّار على مناخرهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم، ولا يَنْجو من شَرِّ اللسان إلاّ من قَيّده بلجام الشّرع، فلا يُطْلِقُهُ إلاّ فيما يَنْفَعُهُ في الدُّنيا والآخرة، ويكُفُّهُ عن كلّ ما يُخْشَى غائلتُهُ في عَاجِله وآجله»[٤].

هذا، وإذا كان «اللّسان» أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان **كما قال الإمام الغزاليُّ** - رحمه الله - فالحديث - هنا - يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: تعريف اللسان.

والثاني: آفاته.

والثالث: وجوبُ حِفْظِه.

والرابع: فوائده.

---

(١) الجِرْمُ: الجَسَد. انظر: «المعجم الوجيز» (١٠٢).

(٢) عَذَبَة اللسان: طرفه.

(٣) العِنَان: سَيْر اللّجام الذي تُمْسك به الدّابة.

(٤) «الإحياء» (١٥٧/٣).

أولاً: تعريفُ اللِّسان:

اللسان في «اللُّغة»: هو جارحة الكلام.

ثانيا: آفاته:

اعلم أن الحديث عن آفات اللسان شيء يَصْعُب حَصْرُه، ويطول استقصاؤه، وقد حصر **الإمامُ الغزاليّ** – رحمه الله – آفات اللسان في «عشرين آفة»، ونحن نذكر مُختَصر ما ذَكَره – مع إضافاتٍ – ونزيد.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك:

قال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إسْلام الْمَرْء تركُه ما لا يَعْنيه**»[١].

قال الحافظ **ابن رجب** – رحمه الله –:

«وهذا الحديث يدلّ على أن تَرْك ما لا يعنى المرء من حُسْن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه، وفعل ما يعنيه كلّه فقد كمل حُسْن إسلامه» ا.هـ[٢].

وَحَدُّ الكَلام فيما لا يَعْنيك:

أن تتكلّم بكلامٍ لو سكتَّ عنه لم تأثم و لم تستضرّ به في حال ولا مال.

وسببه الباعث عليه:

الحرصُ على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودّد، أو تزجية الأوقات بحكاياتِ أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله:

أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كلّ كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شَبَكَة يقدر أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٧١٣)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١٢٦).

الآفةُ الثانية: فضول الكلام:

وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإن من يعنيه أمرٌ يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره.

ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين، فالثانية فضول - أي فضل عن الحاجة - وهو أيضًا مذموم - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

قال بعضُ الصحابة:

«إن الرّجل ليكلمني بالكلام لَجَوابه أشهى إليّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً».

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى. قال الله ﷻ:

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال الحسن: يا ابن آدم، بُسطَت لك صحيفة، وَوُكِّل بها مَلَكان كريمان يكتبان أعمالك فاعْمَلْ ما شئتَ وأكثِر أو أَقِلّ.

ورأى أبو الدرداء ﷺ امرأة سليطة، فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيرًا لها.

وقال **إبراهيم:** يهلك الناس خلتان: فضولُ المال، وفضول الكلام.

وقال **أحدُ الحُكَماء:** ست خصال يعرف بهن الجاهل:

أحدها: الغضب في غير شيء.

والثاني: الكلام في غير نفع.

والثالث: العطية في غير موضع.

والرابع: إفشاء السّر عند كلّ أحد.

والخامس: الثقة بكل إنسان.

والسادس: أن لا يعرف صديقه من عدوّه(١).

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفُسّاق، وتنعّم الأغنياء، وتجبّر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام.

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلاّ بالاقتصار على ما يعنى من مهمّات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث: قال رسولُ الله ﷺ:

«إن الرجلَ ليتكلّم بالكلمة من سَخَط الله ما يظن أن تَبْلُغ به ما بلغت فيكتب اللّهُ عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»(٢).

وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديثُ بلال بن الحارث.

وقال النبي ﷺ:

«إنّ الرجلَ ليتكلّمُ بالكلمة يُضحِك بها جُلَسَاءه يَهْوِي بها أبْعد من الثُّريّا»(٣).

وقال **سلمان:** «أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم كلامًا في معصية الله».

ويدخل فيه أيضًا: الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل الخوض فيه خوض في الباطل.

الآفة الرابعة: المِرَاءُ والجِدَال:

وذلك مَنْهيٌّ عنه. قال ﷺ:

---

(١) «تنبيه الغافلين» (١٥٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣١٩/٤)، وابن ماجه (٣٩٦٩/٢)، وغيرهما.

(٣) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن.

«أنا زعيمُ بيتٍ في رَبَضِ الجنّة، لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وإن كان مُحقًّا، وبيت في وَسط الجنة لمن تَرَكَ الكَذِبَ وإن كان مازِحًا، وبيت في أعْلى الجنّة لِمَنْ حَسُن خُلُقه»[1].

وقال ﷺ :

«ما ضَلَّ قَوْمٌ بَعد هُدى كانوا عليه إلاّ أوتوا الجَدَل»[2].

وقال **مسلم بن يسار**: إيّاكم والمِرَاء فإنه ساعة جَهْل العالِم، وعندها يبتغي الشيطانُ زَلّته.

وقال **بلال بن سعد**: إذا رأيتَ الرَّجُلَ لَجُوجًا مُعْجَبًا برأيه فقد تَمّت خَسَارته.

وَحَدُّ المِرَاء:

هو كل اعتراض على كلام الغير، بإظهار خلل فيه؛ إمّا في اللفظ، وإمّا في المعنى، وإمّا في قصم المتكلّم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض.

فكل كلام سمِعْته فإن كان حقًّا فَصَدِّق به، وإن كان باطلاً أو كذبًا و لم يكن متعلّقًا بأمور الدِّين فاسكت عنه.

وأما المجادَلَة:

فعبارة عن قَصْد إفْحَام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه.

والباعث على هذا: الترفّع بإظهار العلم والفضل، والتَهَجُّم على الغير بإظهار نَقْصه.

وأما علاجه:

فهو بأن يكسر الكِبْر الباعث له على إظهار فَضْله، وصفة السَّبُعِيّة الباعثة له على تنقيص غيره.

---

(١) حسن : رواه أبو داود، وغيره، وانظر: «الصحيحة» (٢٧٣).

(٢) حسن : رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٥٦٣٣).

الآفة الخامسة: الخصومة:

والخصومة: لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضًا.

والمراد لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق. فقد قالت عائشة - رضي الله عنها- :

قال رسول الله ﷺ :

« **إن أبغَض الرِّجَال إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ** »[١].

والأَلَد: هو شديد اللّدد كثير الخصومة.

والخَصِمُ: الذي يخصم أقرانه ويحاجّهم بالباطل ولا يقبل الحق[٢].

وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأمّا من له حَقٌّ فالأَوْلى أن يَصْدِف عن الخُصومة مهما أمكن لأنّها توغر الصَّدر، وتهيّج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العِرْض[٣].

وبالجملة: فالخصومة مبدأ كل شرّ.

الآفة السادسة: التّقَعُّر في الكلام:

وذلك يكون بالتشدّق وتكلّف السّجع والفصاحة. وكل ذلك من التصنّع المذموم ومن التكلّف الممقوت.

- قال ﷺ : « **إن أبغضكم إليّ وأبعدَكم مِني مَجْلِسًا: الثرثارون، المتفَيْهقون، المتشدّقون في الكلام** »[٤].
- وقال ﷺ : « **شِرارُ أُمّتي الذين غُذُّوا بالنَّعيم، يأكلون ألوانَ الطعام، ويَلْبَسون ألوانَ**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٥/٢٦٦٨).

(٢) « جامع الأصول » لابن الأثير (٢/٧٥٢).

(٣) « مختصر منهاج القاصدين » (٢١٧).

(٤) **حسن**: رواه أحمد، والترمذي، وقال: حديث حسن.

الثياب، ويتشدّقون في الكلام»[١].

□ وقال ﷺ: «**ألا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعون** - ثلاث مرات - »[٢].

والتنطّع هو: التعمّق والاستقصاء.

ويدخل فيه: كلُّ سجع متكلّف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة.

ولا يدخل فيه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به، فأمّا المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السّجع والتشدّق والاشتغال به من التكلّف المذموم، ولا باعث عليه إلاّ الرّياء، وإظهار الفصاحة والتميّز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

الآفة السابعة: الْفُحْش، والسَّبّ، وبذاءة اللِّسان:

وهو مذموم ومنهيٌّ عنه، ومصدره الخُبث واللؤم.

قال ﷺ:

«**لَيْسَ المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللَّعَّان، ولا الفَاحِش، ولا البذيء**»[٣].

وقال **إبراهيمُ بْنُ مَيْسرة**:

«يقال: يُؤتى بالفاحش المتفحّش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب».

وقال **الأحنف بن قيس**:

«ألا أخبركم بأَدْوَإِ الدّاء: اللسان البذيء، والخُلُق الدَّنيء».

فهذه مَذمَّة الْفُحْش.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٩٣/٤)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٨/٢٢)، وانظر: «الصحيحة» (٧٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥٥/٤).

(٣) حسن: أخرجه الترمذيّ، وقال: حسن غريب، وغيره.

فأمّا حَدّه وَحَقِيقته:

فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلّق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يكنون عنها، ويدلّون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلّق بها.

قال ابن عباس:

« إنه الله حيِيّ كريم يعفو ويكنو، كنى باللّمس عن الجماع ». وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشّتم و التعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض.

والباعث على الفحش:

إمّا قصد الإيذاء، وإمّا الاعتياد الحاصل من مخالطة الفسّاق، وأهل الخُبث واللؤم ومن عادالهم السّب.

قال ﷺ :

« **سِبَابُ الْمُؤْمنِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُه كُفْر** »[1].

قلت: وأقبح أنواع السّب : سبّ الله - تعالى - أو سبّ دينه، أو سب أنبيائه ورسله، وهذا كفر بالإجماع.

ويلي ذلك: سب الصّحابة - ﷺ - قال **الإمامُ النووي** - رحمه الله - :

« واعلم أن سبّ الصحابة - ﷺ - حرام من فواحش المحرّمات، سواء من لابس الفتن منهم، وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب مُتَأَوّلون »ا.هـ[2].

ويلي ذلك: سَبّ من دونهم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) « صحيح مسلم بشرح النووي » (١٦/٩٣).

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«الْمُسْتَبّان ما قالا فَعَلَى المبتدئ منهما ما لم يَعْتَدِ المظلوم»[(١)].

ومعنى الحديث: «أن المتشاتِمَيْن اللَّذَيْن يَسُبّ كُلّ منهما الآخر يكون إثمهما على الذي ابتدأ بالشّتم ما لم يتعدَّ المظلوم الحدّ بأن سبّه أكثر وأفحش منه. أمّا إذا اعتدى كان إثم ما اعتدى عليه والباقي على البادي.

والحاصل: إذا سبّ كل واحد الآخر فإثم ما قالا على الذي بدأ بالسَّب وهذا إذا لم يعتد ويتجاوز المظلوم الحد. والله أعلم»[(٢)].

الآفة الثامنة: اللّعْن:

إمّا لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم.

- وقال ﷺ : **«لا تَلاعَنوا بِلَعْنَة اللّهِ ولا بِغَضَبِه ولا بِجَهَنّم»**[(٣)].
- وقال عمران بن حُصين: بينَما رسول الله ﷺ في بعض أسْفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقةٍ لها فَضَجرت منها فَلَعَنَتْها، فقال ﷺ :

«خُذُوا ما عَلَيْها وأعروها فإنها ملعونة»، قالت:

فكأني أَنْظُر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرّض لها أَحَدٌ[(٤)].

واللّعن عبارة عن الطّرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلاّ على ما اتصف بصفة تبعده من الله ﷻ وهو الكفر والظّلم، بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع، فإن في اللعنة خطرًا لأنه حكم على الله ﷻ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٧٤).

(٢) «عون المعبود» (١٣/٢٣٧).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي وأبو داود، وانظر: «الصحيحة» (٨٩٠).

(٤) رواه مسلم.

بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسولُ الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية لِلَّعْن ثلاثة:

الكفر، والبدعة، والفسق. وللعن في كل واحدة **ثلاث مراتب:**

الأولى: اللّعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين والمبتدعين[١] والفسقة.

الثانية: اللّعن بأوصاف أخصّ منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس، أو على الزّناة والظلمة وآكلي الرّبا، وكل ذلك جائز.

الثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه: أن كل شخص ثبتت لعنته شرعًا فتجوز لعنتُه، كقولك: فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر، وَعُرِف ذلك شرعًا.

وأمّا شخص بِعَيْنه في زماننا كقولك: زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر فإنه ربّما يسلم فيموت مُقرًّا عند الله، فكيف يحكم بكونه ملعونًا؟ فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلّب في الأحوال إلاّ من أعلم به رسولُ الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عَيَّن أقوامًا باللّعن[٢].

وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمّه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، فإن كان لم يجز.

وعلى الجملة: ففي لعن الأشخاص خَطَرٌ فَلْيُجْتَنَب.

---

(١) المراد – هنا – : مَنِ ابْتُلوا بِبِدْعَة مُكَفِّرة أوْ مُفَسِّقة.

(٢) كقوله ﷺ : «اللّهم الْعَنْ رِعْلاً وذكوان... » رواه مسلم (١٩٥٣/٤).

الآفة التاسعة: الغناء والشِّعْر الْمحَرَّم:

أمَّا الغناء: فالأدلة على تحريمه كثيرة[(١)]، منها:

(١) قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

ولهو الحديث في الآية هو «الغناء» كما صحّ ذلك عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) وعن عِمْران بْنِ حُصَين ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«يكون في أُمَّتي قَذْفٌ، وَمَسْخٌ، وَخَسْفٌ».

قيل: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال:

«إذا ظَهَرتْ الْمَعَازِفُ، وكَثُرت القيان، وَشُرِبتْ الخمور»[(٢)].

والقِيَان: جمع «القَيْنة»، وهي الْمُغَنية من الإماء.

(٣) وعن أُمّ علقمة - مولاة عائشة - : أن بنات أخي عائشة - رضي الله عنها - خُفِضْن[(٣)]، فأَلِمْنَ ذلك، فقيل لعائشة:

يا أُمّ المؤمنين، ألا ندعو لهنَّ من يلهيهنّ؟

قالت: بَلَى، قالت: فأرسلت إلى فلان الْمُغَنِّي، فأتاهم، فمرّتْ به عائشةُ - رضي الله

---

(١) وضع بعضُ العلماء المعاصرين للغناء «المباح» شروطًا - لا يَحِلّ إلاّ بها - منها:

١- أن يكون كلامُهُ حَسَنًا لا يدعو إلى معصية.

٢- أن يكون خاليًا من المعازف.

٣- أن يكون خاليًا من الاختلاط والعُري.

٤- أن لا يُؤدِّي بتكسّرٍ وخضوع في الصَّوْت.

٥- أن لا يُلْهي عن واجب.

وهذه الشروط كما ترى غير متوفّرة في غناء اليوم.

(٢) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٢٢١٣)، وغيره وانظر: «تحريم آلات الطرب» للألباني (٦٣).

(٣) **الخفاض:** الختان.

عنها - في البيت، فرأَتْهُ يَتغَنَّى، ويُحرِّك رأسه طَرَبًا، وكان ذا شَعْرٍ كثير، فقالت عائشة - رضي الله عنها -:

«أُفٍّ! شيطان، أخْرِجوه، أخْرِجوه».

فَأَخْرَجوه[1].

وأمّا الشِّعْر: فكلامٌ حَسَنُه حَسَن، وقَبيحه قَبيح. **قال الشيخ/ سعيد القحطاني**[2]:

الشِّعر **نوعان:**

الأوّل: ما فيه مدح للإسلام والمسلمين، ونصرة للحق وأهله، فهذا لا بأس به.

النوع الثاني: ما فيه مدح قوم بباطل، أو ذم قوم بباطل، أو قول زور وبهتان، فهذا النوع محرّم ومن أعظم آفات اللسان.

قال تعالى:

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧].

الآفة العاشرة: المزَاح:

وأصله مذموم منهيٌّ عنه إلاّ قَدْرًا يَسِيرًا يُسْتَثْنى منه إذا كان صدقًا.

فإن النبي ﷺ كان يَمْزَحُ ولا يقول إلاّ حَقًّا.

قال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له «أبو عمير» وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول:

---

(١) حسن: أخرجه البيهقيّ (١٠/٢٢٣، ٢٢٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٤٧)، وحسّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٩٤٥).

(٢) «آفات اللسان» (١٥١).

«يا أبا عُمَيْر، ما فعل النّغير؟»[1].

لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور.

فهذه مطايبات يباح مثلها على النّدور لا على الدوام، والمواظبة عليها هزل مذموم، وسبب للضّحك المميت للقلب.

الآفة الحادية عشرة: السُّخْرية والاسْتِهزاء:

وهذا محرّم مهما كان مؤذيًا كما قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة.

قالت عائشة - رضي الله عنها - : حاكيتُ إنسانًا فقال لي النبي ﷺ:

«والله ما أُحِبّ أني حاكيتُ إنسانًا ولي كَذَا وكذا»[2].

وهذا إنما يحرم في حَقّ من يَتأذّى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربّما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح - وقد سبق ما يذمّ منه وما يمدح.

الآفة الثانية عشرة: إفشاءُ السِّر:

وهو منهيٌّ عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء.

قال النبي ﷺ:

«إذا حَدّث الرّجلُ بِحَدِيثٍ ثم الْتَفَتَ فهي أَمَانة»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٩)، والترمذي (٣/١٩٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذيّ وصحّحه.

(٣) حسن: أخرجه أبو داود والترمذي وحسّنه، وهو كما قال. وانظر: «الصحيحة» (١٠٩٠).

وقال الحسن: « إن من الخيانة أن تُحدِّث بِسِرِّ أخيك ».

وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

الآفة الثالثة عشرة: الْوَعْدُ الكاذب:

فإن اللسان سبّاق إلى الوعد، ثم النّفْس ربّمَا لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفًا، وذلك من أَمَارات النِّفاق.

- قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة: ١].
- وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل - عليه السلام - في كتابه العزيز فقال:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ ﴾ [مريم ٥٤].

- ولّما حضرت عبد الله بن عمر الوفاةُ، قال:

« إنّه كان خَطَب إليّ ابنتِي رجلٌ من قريش، وقد كان إليه مني شبه وَعْد، فوالله لا أَلْقى الله بثلث النّفاق، أشهدكم أني قد زَوّجته ابنتِي! ».

- وكان ابن مسعود لا يعد وعدًا إلاّ ويقول: « إن شاء الله » وهو الأَوْلى. ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلابدّ من الوفاء إلاّ أن يتعذّر، فإن كان عند الوعد على أن لا يفي فهذا هو النّفاق. وقال أبو هريرة:

قال النبي ﷺ:

« ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام، وصلّى، وزعم أنه مسلم: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَد أَخْلَف، وإذا ائْتُمِنَ خان »[1].

وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عُذْر، فأمّا من عزم على الوفاء فعنّ له عذرٌ منعه الوفاء لم يكن منافقًا وإن جرى عليه ما هو صورة النّفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضًا كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورًا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

من غير ضرورة حاجزة.

الآفة الرابعة عشرة: الكَذِب في القَوْل واليمين:

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

- قال **الحسن**: «كان يقال: إن من النفاق: اختلاف السّر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بُنِيَ عليه النفاق: الكذب».

- وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ:

«لا يزال العبدُ يكذب، ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابًا»[١].

- وقال ﷺ: «**ثلاثة لا يكلّمهم اللّهُ ولا يَنْظُر إليهم ولا يزكيهم ولهم عَذَابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، وَمَلِكٌ كذّاب، وعائلٌ مُسْتكبر**»[٢].

- وقال عبد الله بن عامر: جاء رسولُ الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير، فَذَهَبْتُ لألْعَب فقالت أُمِّي:

يا عبدَ الله، تعالَ حتى أعطيك، فقال النبي ﷺ:

«**وما أردتِ أن تعطيه**».

قالت: تمرًا.

فقال: «**أمَا إنّكِ لو لم تَفْعلي لَكُتِبَتْ عليك كَذِبة**»[٣].

هذا، ومن أقبح الكذب:

الكذب على الله تعالى، ثم الكذب على رسله، ثم الكذب على المؤمنين.

والآيات والأحاديث والآثار في هذا المقام أكثر من أن تحصى[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٤/٢٠١٣).

(٢) رواه مسلم (١/١٠٢).

(٣) **حسن**: رواه أبو داود، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (١٣١٩).

(٤) ذكرنا كثيرًا منها في خُلُق «الصِّدْق».

- بيان ما رُخّص فيه من الكذب:

اعلم أن الكذب ليس حرامًا لِعَيْنه بل لِمَا فيه من الضّرر على المخاطَب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المُخْبَرَ الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلّق به ضرر غيره، وَرُبَّ جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونًا فيه، وربّما كان واجبًا.

قال **ميمون بن مهران**:

« الكذب في بعض المواطن خير من الصّدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسِّيف ليقتله فدخل دارًا فانتهى إليك، فقال:

أرأيت فلانًا؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به، وهذا كذب واجب.

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصّل إليه بالصّدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصّل إليه بالكذب دون الصّدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصّدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمالة قلب المجني عليه إلاّ بكذب.

فالكذب مباح، إلاّ أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حدّ الضرورة، فيكون الكذب حرامًا في الأصل إلاّ لضرورة.

والذي يدلّ على الاستثناء ما ثبت عن أُم كلثوم قالت:

ما سمعت رسولَ الله ﷺ يُرخِّص في شيء من الكذب إلاّ في ثلاث:

يُحَدِّث امْرَأته والمرأة تُحَدِّث زوجها[1].

وقالت أيضًا: قال رسولُ الله ﷺ:

«ليس بكذّاب من أَصْلح بين اثنين فقال خيرًا أو نمى خيرًا»[2].

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره، أمّا ماله: فمثل ما يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك.

وأمّا عرض غيره: فبأن يسأله عن سرِّ أخيه فله أن ينكره.

□ **بيانُ الحَذَر من الكَذِب بالمعاريض**[3]:

قد نُقل عن السّلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب.

قال **عمرُ** ﷺ: «أما في المعاريض ما يكفى الرّجل عن الكذب؟.

ورُوي ذلك عن ابن عباس وغيره، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأمّا إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح -جميعًا، ولكن التعريض أهون.

ومثال التعريض: ما رُوى أن إبراهيم النخعي كان إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدّار. قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد ولا تقولي له: ليس ههنا كيلا يكون كذبًا.

وكان الشَّعْبي إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه، خَطّ دائرة، وقال للجارية:

ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا.

وهذا كلّه في موضع الحاجة، فأمّا في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب

(١) رواه مسلم (١٠١/٢٦٠٥).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) المعاريض: من التعريض بالقول وهو خلاف التَّصْريح، وهو التَّوْرية بالشَّيء بشيء آخر.

وإن لم يكن اللّفظ كذبًا، فهو مكروه على الجملة.

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة:

وقد ورد في القرآن النّهي عنها، وشبّه صاحبها بآكل الميتة. قال تعالى:

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾ [الحجرات: ١٢].

□ وعن أبي برزة الأسلميّ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«يا معشرَ مَنْ آمن بِلِسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عَوْرَاتهم، فإنّه من تتبّع عَوْرَة أخيه تتبّع اللّهُ عَوْرته، ومن تتبع اللّهُ عَوْرته يفضحه ولو في جَوْف بيته»[1].

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بَلَغَه، سواء كان نَقْصًا في بدنه، كالعَمَش، والحَوَل، والقرع، ونحو ذلك.

أو في نَسَبِه، كقولك: أبوه نبطيّ، أو هنديّ، أو فاسق، ونحو ذلك.

أو في خُلُقه، كقولك: هو سيّئ الخلق، بخيل، ونحو ذلك.

أو في ثَوْبه، كقولك: هو طويل الذّيل، واسع الكُم، وسخ الثياب.

والدليل على ذلك: أن النبي ﷺ سُئل عن الغيبة، فقال:

«ذِكْرُك أخَاك بما يَكْره».

قال أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟

قال: **«إن كان فيه ما تقول فقد اغْتَبْتَه، وإن لم يكن فيه ما تَقُول فَقَد بَهَتّه»**[2].

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/٤٢٠)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وغيرهما.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/٣٨٤)، ومسلم (٢٥٨٩)، وغيرهما.

واعلم:

أن كل ما يفهم منه مقصود الذّم، فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة، والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللّسانين.

وأقبح أنواع الغيبة:

غيبة المتزهّدين المرائين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذّل في طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلّة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذمّ المذكور ومدح أنفسهم.

وربّما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلي بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده.

واعلم:

أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلّص من إثم سماعها إلاّ أن يُنكر بِلسانه، فإن خاف فبقَلْبه، وإن قَدَر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، لَزِمَه ذلك.

◻ الأسباب الباعثة على الغيبة:

الأسباب الباعثة على الغيبة كثيرة:

منها: تشفي الغيظ: بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلّما هاج غضبه تشفّى بغيبة صاحبه.

السبب الثاني: موافقة الأقْرَان وَمُجَاملة الرُّفَقَاء: فإنهم إذا كانوا يتفكّهون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حُسْن المعاشرة!

الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره: فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، وغرضه رفع نفسه، وكذلك الحسد في ثناء على شخص، فيقدح فيه بقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل: فيذكر غيره بما يضحك الناس به، وقد تقدم الوعيد على ذلك.

علاج الغيبة:

أمّا علاج الغيبة: فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرّض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يُطْلِقْ لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكّر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحيي أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:

فإن عِبْتَ قَوْمًا بالّذي فيك مثله ... فكيف يعيب النّاس من هو أعور

وإن عِبْتَ قومًا بالذي ليس فيهم ... فذلك عند اللّهِ والنّاس أكبر

وإن ظنّ أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه.

الأعذار المرخّصة في الغيبة:

اعلم أن المرخّص في ذكر مساوئ الغير: غرض صحيح في الشَّرع، لا يمكن التوصّل إليه إلاّ به، وذلك يدفع إثم الغيبة، وهو أمور:

أحدها: التظَلُّم: فإن للمظلوم أن يذكر الظالم بما فيه إلى مَنْ يَردّ إليه حقّه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، وردّ الظالم إلى منهاج الصّلاح.

الثالث: الاستفتاء: مثل أن يقول للمفتي: ظلمني فلان.

الرابع: تحذير المسلمين: مثل التحذير من الفسقة، والمبتدعة، واللصوص، والمجرمين، ونحو ذلك.

وكذلك المستشار في التَّزْويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قَصْد النُّصْح

مستشير، لا على قَصْد الوقيعة، إذا عَلِمَ أنه لا ينزجر إلاّ بالتّصريح.

الخامس: أن يكون معروفًا بِلَقَب: كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يذكره به، وإذا وجد عن ذلك معدلاً كان أَوْلى.

كفارة الغيبة:

اعلم أن المغتاب قد جَنَى **جنايتين:**

إحداهما: على حق الله تعالى، إذا فعل ما نهاه عنه، فكفّارة ذلك: التوبة والندم.

والجناية الثانية: على محارم المخلوق: فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحلّه، وأظهر له الندم على فعله.

قال ﷺ:

«مَنْ كانت عنده مَظْلَمة لأخيه، مِنْ مالٍ أو عِرْض، فليأته فليستحلّها منه قبل أن يُؤخذ وليس عنده دِرْهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أُخذ من حَسَناته فأُعْطيها هذا، وإلاّ أُخِذَ من سيئات هذا فأُلْقي عليه»[1].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له لئلاّ يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

وقال **مجاهد**: كفّارة أَكْلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات.

الآفة السادسة عشرة: النَّميمة:

قال ﷺ: «**لا يدخل الجنّة قتّات**»[2]. وهو النّمام.

واعلم: أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان - على سبيل

---

(١) رواه أحمد (٢/٤٣٥، ٥٠٦)، والبخاري (٢٤٤٩)، وغيرهما.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٥/٣٩٧، ٤٠٤)، والبخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)، وغيرهم.

الإفساد - وليست مخصوصة بهذا، بل حدّها: كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره، فهو نميمة.

وكلّ من نُقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل في حقّك كذا، ونحو ذلك، فعليه **ستة أشياء**:

الأول: أن لا يُصدّق الناقل، لأن النّمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حُكي له على التجسّس والبحث، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النّمام عنه، فلا يحكي نميمته.

حكاية:

قال حَمَّادُ بْنُ سَلَمة: باع رَجُلٌ عَبْدًا وقال للمشتري: ما فيه عَيْبٌ إلاّ النميمة، قال: رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أيّامًا ثم قال لزوجة مولاه:

إن سيّدي لا يُحبّك وهو يريد أن يَتَسرَّي عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أَسْحَره عليها فَيُحبّك، ثم قال للزوج:

إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك! فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين!».

قلت: وإذا كانت النميمة بين شخصين مُحرّمة، فهي بين مَلِكَيْن أو رَئيسَيْن أشَدُّ تَحْرِيمًا لِمَا قَدْ يترتّب عليها من إزهاق آلاف الأرواح، وإنفاق ملايين الأموال.

الآفة السابعة عشرة: كلام ذِي اللِّسَانين:

كلامُ ذي اللسانين: الذي يتردّد بين المتعاديين ويكلّم كل واحد منهما بكلام يوافقه، أو يعده أن ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمّه عند الآخر.

قال ﷺ: « **إن شرّ النّاس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بِوَجْه وهؤلاء بِوَجْه** »(١).

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأمّا إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز.

قال **أبو الدرداء** ﷺ: « إنا لنكشّر(٢) في وجوه أقوام، وإن قلوبَنا لتلعنهم ».

ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يَجُزْله(٣).

الآفة الثامنة عشرة: الْمَدْح:

والمدح يدخله **سِتُّ آفات**: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

□ **فأما المادح**:

فالأولى: أنّه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب.

والثانية: أنه يدخله الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحبّ، وقد لا يكون مُضمرًا له.

والثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه. ثبت أن رجلاً مَدَح رجلاً عند النبي ﷺ فقال له ﷺ:

« **وَيْحَك قَطَعت عُنُقَ صَاحِبك لو سَمِعَها ما أفْلَح** »، ثم قال:

« **إن كان أحدُكم لابدّ مادحًا أخاه فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فُلانًا ولا أُزَكّي على الله أحدًا حَسِيبُهُ اللّهُ إن كان يَرَى أنه كذلك** »(٤).

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز.

---

(١) أخرجه مالك (٧٥٦/٢)، وأحمد (٣٣٦/٢)، والبخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٠١١).

(٢) التكشير: التَبسُّم.

(٣) « مختصر منهاج القاصدين » (٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٦١٦٢)، ومسلم (٦٥/٣٠٠).

قال **الحسن**: «من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يُعصى الله تعالى في أرضه».

والظّالم الفاسق ينبغي أن يذم لِيَغْتَمّ ولا يُمدح ليفرح.

وأمّا الممدوح فيضرّه من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه - غالبًا - كبرًا وإعجابًا، وهما مُهلكان.

الثاني: أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قَلّ تَشَمّره، وإنما يتشمّر للعمل من يرى نَفْسَه مُقصّرًا، فأمّا إذا انطلقت الألسنةُ بالثّناء عليه ظنّ أنه قد أدْرك.

- **بيان ما على الممدوح:**

على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعُجْب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلاّ بأن يعرف نفسه ويتأمّل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكفّ المادح عن مدحه، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح.

قال ﷺ: «**احثُوا في وجه المدّاحين التراب**»[1].

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ:

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلّق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدّين فلا يَقْدِر على تقويم اللّفظ في أمور الدين إلاّ العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يَخْلُ كلامه عن الزّلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله، **مثاله**:

ما قال حذيفة: قال النبي ﷺ:

«**لا يَقلْ أحدُكم ما شاء اللّهُ وشئت، ولكن لِيَقُلْ: ما شاء الله ثم شئت**»[2]. وذلك

---

(١) رواه مسلم (٦٩/٣٠٠٢).

(٢) صحيح رواه أحمد (١/٢١٤- ٢٢٤- ٢٨٣- ٣٤٧)، وانظر: «الصحيحة» (١٣٧).

لأن في العطف المطلق تشريكًا وتسوية وهو على خلاف الاحترام.

وكان إبراهيم[١] يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك.

وعن ابن عباس، قال: إن أحدَكم لَيُشْرِك حتى يشرك بِكَلْبه، فيقول:

لولاه لسُرقنا الليلة[٢]!

الآفة العشرون: سؤال العوام عن صِفات الله تعالى وعن كلامه:

ومن حقّهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلاّ أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب. والعامّي يفرح بالخوض في العلم، إذْ الشيطان يخيِّل إليه أنّه من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبّب إليه ذلك حتى يتكلّم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري.

وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث، وسؤالهم عن غير ما يتعلّق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله ﷻ ويتعرضون لخطر الكفر.

الآفة الحادية والعشرون: الحلف على ملة غير الإسلام:

وهذه آفة عظيمة. قال ﷺ: «**مَنْ حَلف على مِلّة غَيْر الإسلام كاذبًا فهو كما قال...**»[٣].

الآفة الثانية والعشرون: تسويد الفاسق:

وهذا مرض ازداد انتشارُه، وعَظُم خَطَرُه في هذا الزمان، والدّافع إليه:

ضعفُ الإيمان، وسوءُ الظن بالله تعالى.

---

(١) النخعي – رحمه الله –.

(٢) والصّواب أن يقول: لولا أن سخّر اللّهُ – تعالى – لنا الكلبَ لسُرقنا الليلة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وقد ورد النّهي عنه، فعن بريدة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **لا تقولوا للمنافق سيِّد، فإنّه إن يَكُ سَيِّدًا فقد أسخطتم ربَّكم ﷻ** »[1].

الآفة الثالثة والعشرون: هَتْكُ الإنسان سِتْرِ نَفْسه:

كما يفعل فسّاق هذا الزمان.

وقد ورد النّهي عن ذلك.

قال ﷺ: « **كُلّ أُمَّتي معافى إلاّ المجاهرين، وإن من المجانة[2] أن يعمل الرجلُ باللّيل عَمَلاً[3]، ثم يُصْبح وقد سَتَره الله فيقول: يا فلان عملتُ البارِحَة كذا وكذا، وقد باتَ يَستره ربُّهُ ويُصْبح يكشف سِتْرَ الله عنه** »[4].

فهو بهذا الخُلُق الذّميم قد عرّض نفسه لعذاب ربّه، وأبعد نفسه عن مغفرته.

الآفة الرابعة والعشرون: قولُ الرّجُل: هَلَك النّاس:

وهذه موبقة عظيمة، يقع فيها كثيرٌ من الناس وهم لا يشعرون بخطورها:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **إذا قال الرّجُل هَلَكَ النّاسُ فهو أهلكهم** »[5].

ومعنى الحديث: فهو أشدّهم هلاكًا، وقد اتفق العلماءُ على أن هذا الذّم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم.

---

(١) **صحيح:** رواه أبو داود (٤/٢٩٥)، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦/١٧٠).

(٢) في « صحيح مسلم » : « **وإن من الإجهار** ».

(٣) أي: عملاً سيّئا.

(٤) رواه البخاري (٧/٨٩)، ومسلم (٤/٢٢٩١).

(٥) رواه مسلم (٢٦٢٣).

أمّا من قال ذلك تحزّنًا لما يرى في نفسه وفي الناس من النّقص في أمر الدّين فلا بأس عليه[١].

الآفة الخامسة والعشرون: اللَّو وعَدَم تَفْويض الأَقْدار للّهِ تعالى:

قال ﷺ:

«**المؤمن القويّ خَيْرٌ من المؤمن الضَعيف، وفي كلٍّ خير، احْرِصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجَز، وإن أصابك شَيءٌ فلا تَقُلْ:**

لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قُلْ: قَدَّر اللّهُ وما شاء فعل، فإن لو تفتح عَمَلَ الشيطان»[٢].

قال **الإمام النووي** – رحمه الله –:

«الظّاهر: أن النّهي إنّما هو عن إطلاق ذلك فيما لا فائدة فيه، فيكون نهي تنزيه لا تحريم. فأمّا من قاله تأسّفًا على ما فات من طاعة الله تعالى، أو ما هو متعذّر عليه من ذلك، ونحو هذا، فلا بأس به، وعليه يحمل أكثر الاستعمال الموجود في الأحاديث. والله أعلم» ا.هـ.

أخي الكريم:

هذه بعض آفاتِ اللّسان، فكن منها على حذر، واستعن بالله ولا تعجز.

ثالثًا: وجوب حفظ اللسان:

وبعد أن بان لك من آفات اللسان ما يُوجب مَقْت الله وَعَذابه، فيجب على المسلم أن يَنْتَقِي من ألفاظِه ما يُعْلي بها دَرَجَتَه، ويُبيض بها صَحِيفته.

وحفظ اللسان عن السوء واجب بالكتاب والسّنة:

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/١٧٥) باختصار.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

- قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

- وقال ﷺ : لعُقْبة بن عامر: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ»[١].

والأحاديث في هذا المقام - أيضًا - كثيرة.

قال **الإمام النووي** - رحمه الله تعالى - :

«اعلم أنه ينبغي لكل مكلّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلاّ كلامًا تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسُّنَّة الإمساك عنه؛ لأنه قد يَنْجرّ الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسّلامة لا يعدلُها شيء» ا.هـ[٢].

رابعًا: فوائد اللسان:

اعلم أن لِلّسَان فوائد لا تُحْصى، فهو - غير فوائده البدنية التي لا تستقيم الحياة إلاّ بها - وسيلة - هامّة - لتحصيل أكبر قدر من الثواب عن طريق:

- قولِ المعروف.
- تلاوةِ القرآن.
- الأمرِ بالمعروف والنّهيِ عن المنكر.
- ذكرِ الله.
- الدعوةِ إلى الله.
- نصحِ المسلم.
- الدّلالَةِ على الخير.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وقد تقدّم بتمامه.

(٢) «الأذكار» (٢٨٤).

- الدّعَاء.
- تأدية الصلاة.

وغير ذلك من الفوائد التي تزداد بها الحسنات، وتُغفر بها السيئات.

فكن – أخا الإسلام – مِمَّن تكلّم فغَنِم، وسَكَتَ فسَلِم، وفقني اللّهُ – تعالى – وإيّاك لما يُحب ويرضى.

۞۞۞۞۞

٥٤- الأَمَرُ بالْمَعْرُوفِ والنّهْي عن المنكر

عندما يَرَى الْمُسْلِمُ - اليومَ - الرَّذَائِلَ تَرْكُضُ في تَبَجّح وَخُيَلاء، بينما تمشي الفضائلُ بين الناس على استحياء! يتساءل:

ما سبب هذا الحال المعكوس، والوضع المنكوس؟!

والجواب:

سَبَبُهُ: إهْمَالُ فريضة الأَمْر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

عن حزم بن أبي حزم، قال:

سمعتُ أسماء بن عبيد[(١)] يقول:

«أدركنا أقوامًا فجالسناهم، فنفعَنَا اللّهُ بمجالستهم في دِيننا ومعايشنا، فأَصْبَحْنَا اليوم بين ظهراني قوم نجالِسُهم فَيُنْسونا ما سَمِعْنا من أولئك!»[(٢)].

قلت: هذا قاله في زمنه، فكيف لو رأى حال أهل زماننا وهم يأمرون بالمنكر، وَيَنْهَوْن عن المعروف، ويسخرون من الذين آمنوا؟!

ولمكانة هذا «الخُلُق» من الدِّين، ولأهميّته في حياة المسلمين، فالحديث على السطور القادمة يدور حول **ستة أمور:**

الأوّل: تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثاني: منزلته.

والثالث: وجوبه، وفضيلته، والمذمَّة في إهماله وإضاعته.

---

(١) ثقة من السادة، أخرج له البخاريّ في «الأدب المفرد»، ومسلم والنسائي، تُوفّي سنة ١٤١هـ. انظر: «التهذيب» (٢٦٩/١).

(٢) «الإشراف في منازل الأشراف» لابن أبي الدنيا (١١٦).

والرابع: مراتبه.

والخامس: صفات الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

والسادس: ثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أوَّلاً: تعريفُ الأَمْر بالمعروف والنّهي عن المنكر:

المعروف «**لغة**»: هو ما تعرفه النّفسُ من الخير وتطمئنُّ إليه.

و «**اصْطِلاحًا**»: اسْمٌ جامِعٌ لكلِّ ما عُرف من طاعة الله والتقرّب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما نَدَب إليه الشّرعُ، ونَهَى عنه من الْمُحَسِّنات والْمُقَبِّحات.

والمنكر «**لغة**»: النُّكْر والنَّكراء: الدَّهَاء والفِطْنَة. والإنكار: الجُحود.

والنَّكِرةَ: إنكارُك الشيء، وهو نقيضُ المعرفة.

و «**اصْطِلاحًا**»: كُلُّ ما قَبَّحَه الشَّرْعُ وحَرَّمه ونَهَى عنه[1].

□ **الأمرُ بالمعروف والنّهي عن المنكر اصْطِلاحًا:**

قال الْجُرْجَاني: «الأمرُ بالمعروف: هو الإرشَادُ إلى الْمَرَاشِد الْمُنجِّية.

والنّهيُ عن المنكر: الزَّجْرُ عَمّا لا يُلائِمُ في الشّريعة.

وقيل: الأمر بالمعروف: الإشارة إلى ما يُرضي الله تعالى من أقوال العبد وأفعاله.

والنّهي عن المنكر: تَقْبيحُ ما تُنَفِّر عنه الشريعةُ والعِفّةُ، وهو ما لا يجوز في شرع الله تعالى» ا.هـ.

ثانيا: مَنزِلَةُ الأَمْرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر:

قال **الإمامُ النووي** - رحمه الله - :

«اعلم أن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بابٌ عظيمٌ به قِوَامُ الأَمْرِ وَمِلاَكُهُ، وإذا

---

(١) «لسان العرب» (٥/٢٣٣).

كَثُر الخَبَثُ عَمَّ العقابُ الصَّالِحَ والطَّالِحَ، وإذا لم يأخذوا على يَدِ الظَّالم أوشك أن يَعُمَّهم اللَّهُ تعالى بعقابه:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

فينبغي لطالب الآخرة، والسَّاعي في تحصيل رضا الله -ﷻ- أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نَفْعَه عظيمٌ لا سيّما وقد ذَهَب معظَمُهُ»ا.هـ[(١)].

وقال **الإمامُ الغزاليّ** - رحمه الله -:

«إنّ الأمَر بالمعروف والنّهيَ عن المنكر هو القُطْبُ الأَعْظَم في الدِّين، وهو المهمُّ الذي ابتعث اللّهُ له النبيِّن أجمعين، ولو طُوِيَ بِسَاطُهُ، وَأُهْمِلَ عِلْمُهُ لتَعطَّلَت النُّبوَّةُ، واضْمَحَلَّتِ الدِّيانة، وَعَمَّتِ الفَتْرَةُ[(٢)]، وفَشَتِ الضَّلالة، وشاعتِ الْجَهَالة، واستَشْرى الفَسَادُ، واتّسَعَ الخَرْقُ، وَخرِبَتِ البلادُ، وهَلَك العبادُ، و لم يَشْعروا بالهلاك إلاّ يوم التّنَاد، وقد كان الذي خِفْنَا، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد انْدَرَسَ من هذا القُطْب عملُهُ وعِلْمُهُ، وانْمَحَق بالكليَّة حقيقتُهُ ورسْمُهُ، فاستولت على القلوب مداهنةُ الخَلْقِ، وانْمَحَتْ عَنْها مُرَاقَبةُ الخَالِق، واستَرْسَل النّاسُ في اتّباعِ الهوى والشهواتِ استِرْسَال البهائم، وعزَّ[(٣)] على بِسَاطِ الأرض مؤمنٌ صادقٌ لا تأخذُهُ في الله لومةُ لائم، فَمَنْ سَعَى في تَلاَفِي هذه الفَتْرة، وسَدَّ هذه الثُّلْمَة إمّا مُتكَفِّلاً بِعَمِلها أو مُتَقلِّدًا لتفنيدها مُجدِّدًا لهذه السُّنّة الدَّائرة نَاهضًا بأعبائها وَمُتَشَمِّرًا في إحيائها كان مُستَأْثِرًا مِنْ بينِ الخَلْق بإحياء سُنَّة أَفْضَى الزمانُ إلى إماتَتِها، وَمُستَبِدًّا بِقُرْبَةٍ تتضاءلُ دَرَجاتُ القُرْبِ دون ذِرْوَهَا»ا.هـ[(٤)].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/٢٣).

(٢) الفَتْرة: هي السّكون بعد الحِدَّة، والهدوء بعد الشِّدة.

(٣) عزّ: قلّ.

(٤) «الإحياء» (٢/٤٥٥).

ثالثاً: وجوبُ الأمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر، وَفَضِيلَتُهُ، والمذمةُ في إهْمَالِه وإِضَاعَتِه:

يدلّ على ذلك - بعد إجماع الأمّة - الآياتُ والأخبارُ والآثار.

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ففي الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن ﴾ أمرٌ، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفَلاَحَ منوط به، إذ حصر وقال: ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أُمّة سقط الفرضُ عن الآخرين، إذ لم يقل: كونوا كلّكم آمرين بالمعروف بل قال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، فإذًا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرجُ عن الآخرين، واختصّ الفَلاَحَ بالقائمين به المباشرين.

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [التوبة: ٧١].

فقد نَعَتَ المؤمنين بأنّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمْرَ بالمعروف والنّهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

(٣) وقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وهذا غاية التشديد إذ علّل استحقاقهم للّعنة بتركهم النّهي عن المنكر.

(٤) وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذا يدلّ على فضيلة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إذ بيّن أنّهم كانوا به خير أمّة أخرجت للناس.

(٥) وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فبيَّن أنّهم استفادوا النجاة بالنّهي عن السوء، ويدلّ ذلك على الوجوب أيضًا.

ومن الأخبار:

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: «يا أيّها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«**إذا رأى النّاسُ المنكرَ فَلَمْ يُغَيِّروه أَوْشَكَ أن يَعُمّهم اللّهُ بِعِقَاب**»[(١)].

(٢) وقال ﷺ : «**إيّاكم والجلوسُ في الطُّرقات**».

قالوا: ما لنا بُدّ إنما هي مجالسنا نتحدّث فيها. قال:

«**فإذا أبيتُم إلاّ ذلك فأعْطوا الطّريقَ حَقَّها**».

قالوا: وما حقّ الطريق؟

قال: «**غَضّ البصر، وكَفّ الأذى، ورَدّ السّلام، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر**»[(٢)].

(٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال:

«**مَا مِنْ نَبي بَعَثه اللّهُ في أُمَّة قَبْلي، إلاّ كان له من أُمّته حواريّون[(٣)] وأصحابٌ، يأخذون بِسُنَّتِه، ويَقْتَدون بأمْره، ثم إنّها يَخْلُفُ مِنْ بَعْدهم خُلوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فَمَنْ جَاهَدَهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بِلِسَانه فهو مؤمن، وَمَنْ جَاهَدَهم**

---

(١) صحيح: أخرجه أصحاب السُّنن، وانظر: «الصحيحة (١٦٧١).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

(٣) الحواريّ: هو الناصر للرَّجُل، والمختصّ به، والمعين، والمصافي.

بِقَلْبِه فهو مؤمن، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حَبَّةُ خردل»[1].

ومن الآثار:

(١) قال **أبو الدرداء** ﷺ:

«لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليسلّطن اللّهُ عليكم سُلْطانًا ظالمًا لا يجلّ كبيركم، ولا يَرْحَم صغيركم، ويدعو عليه خيارُكم، فلا يُسْتجاب لهم، وتَسْتَنْصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم !».

(٢) وقال **حُذَيْفة** ﷺ:

« يأتي على الناس زمانٌ لأن تكون فيهم جِيفَةُ حِمَار أحبّ إليهم من مؤمن يَأْمُرهم ويناهم».

(٣) وقال **بلال بن سعد**: «إن المعصية إذا أُخفيت لم تضرّ إلاّ صاحبها، فإذا أُعلنت و لم تُغيّر أضرّت بالعامّة».

رابعًا: مَرَاتب تغيير المنكر:

عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« مَنْ رَأى منكم مُنكرًا فَلْيُغَيِّرهُ بيده، فإن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانه، فإن لم يستطع فَبِقَلْبِه، وذلك أضْعَفُ الإيمان»[2].

بيَّن الحديثُ الشريف مراتب تغيير المنكر، فحصرها في **ثلاث:**

أ- التغيير باليد.

ب- التغيير باللسان.

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

(٢) رواه مسلم.

جـ- التغيير بالقلب.

وإذ تتعدد الوسائل وتتدرّج من: الصَّعْب إلى الأصعب، ومن السّهل إلى الأسهل: فإن ذلك يعني اشتراك الأمّة كلّها في مسئولية التغيير. كلٌّ حسب قدرته وكفاءته.

يقول **الإمام الغزاليّ** - رحمه الله - في بيان هذه المراتب:

« المعاصي المنكرة ثلاثة:

١- **معصية ذَهَبَتْ**: كخمر شُرب، وسرقة تمّت، وإنكارها هو: إقامة الحدّ، وذلك للولاة، لا للأفراد.

٢- **ومعصية مباشرة ترتكب**: كشرب خمر. فالواجب على كل فرد منعه، ما لم يُؤدّ إلى فتنة، أو معصية أشدّ منها.

٣- **ومعصية مُتَرَقَّبة**: كمن يُهيّئ مجلسًا ليشرب فيه الخمر، فالواجب النّصح دون تعنيف أو ضرب، ولوليّ الأمر منعه إن تأكّد انعقاد المجلس»ا.هـ.

خامسًا: صفات الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر:

مِنَ الصِّفات التي ينبغي للآمِر بالمعروف والنّاهي عن المنكر أن يتَّصِف بها:

الصِّفة الأولى: العلم:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وبالعلم: يستطيع المسلم وضع الأمر بالمعروف في موضعه، والنّهي عن المنكر في موضعه، بمعنى: متى يأمر، وكيف؟ ومتى ينهى، وكيف؟

فليس كُلّ ما قُرئ يُقال، ولا كلّ ما يقال قد آن أوانه.

روى الإمام ابن القَيِّم - رحمه الله - عن شيخه « ابن تيمية » - رحمه الله - أنه قال:

« مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم

من كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلت له: إنما حرّم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله والصّلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذّريّة، وأخذ الأموال منهم»[1].

الصِّفة الثانية: الرِّفق:

- قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- وقال ﷺ:

«ما كان الرِّفْقُ في شيء إلاّ زَانَه، ولا كان العنفُ في شيءٍ إلاّ شانه»[2].

- وقال ﷺ:

«مَنْ يُحرَم الرِّفْق يُحرَم الخير»[3].

- وقال **سفيانُ الثوريّ** - رحمه الله تعالى - :

لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلاّ من كان فيه **ثلاث خلال:**

الأولى: رَفيقٌ بما يأمُر، رفيق بما يَنْهى.

الثانية: عَدْل بما يأمر، عدل بما ينهى.

الثالثة: عَالِم بما يأمُر، عالم بما يَنْهى.

ويدل على وجوب الرّفق: ما استدلّ به الخليفةُ المأمون إذ وعظه واعظ وعنّف له في القول، فقال:

يا رجل، ارْفُق فقد بَعَثَ اللّهُ مَنْ هو خَيْرٌ منك إلى من هو شَرّ مني وأمره بالرِّفق،

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣).

(٢) رواه مسلم (٤٠٦/١٦)، وغيره.

(٣) رواه البخاري (٢٨٠/١٢)، ومسلم (١٤٦/١٦).

فقال تعالى:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

فليكن اقتداء المحتَسِب في الرّفق بالأنبياء - صلوات الله عليهم - :

فقد روى أبو أُمامة: أن غلامًا شابًّا أَتَى النبي ﷺ فقال:

يا نبي الله، تأذن لي في الزّنا؟

فصاح الناسُ به، فقال النبي ﷺ:

« **قرّبوه، ادْنُ** ».

فَدَنَا حتى جلس بين يَدَيْه فقال النبي ﷺ:

« **أتحبّه لأُمّك؟** ».

فقال: لا، جعلني الله فداك.

قال: « **كذلك النّاسُ لا يُحبّونه لأُمّهاتهم، أتُحبّه لابْنتِك؟** ».

قال: لا، جعلني الله فداك.

قال: « **كذلكِ النّاسُ لا يُحبّونه لبناتِهم، أتُحبُّه لأُختِك؟** ».

وزاد ابنُ عوف حتى ذكر العمّة والخالة، وهو يقول في كلّ واحد:

لا، جعلني اللّهُ فِداك، وهو ﷺ يقول:

« **كذلك النّاسُ لا يُحبّونه** ».

فوضع رسولُ الله ﷺ يده على صدره، وقال:

« **اللّهمّ طَهِرْ قَلْبَهُ، واغفِرْ ذَنْبه، وحَصِّن فَرْجَه** »، فلم يكن شيء أبغض إليه منه - يعني من الزّنا - [١].

كما يدلّ على أهمية الرِّفق هذا الموقف:

---

(١) صحيح: رواه أحمد.

قال حمّاد بن سلمة: إن «صِلَةَ بْن أَشْيم»[١] مرّ عليه رجلٌ قد أَسْبَل إِزَارَهُ، فَهَمَّ أصحابه أن يأخذوه بشدّة فقال:

دعوني أنا أكفيكم، فقال:

يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة. قال:

وما حاجتك يا عم؟

قال: أُحب أن ترفع إزارَك.

فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره، فقال لأصحابه:

لو أخذتموه بشدّة لقال: لا ولا كرامة وشَتَمَكم.

الصفة الثالثة: الصبر:

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمّل: ١٠].

وقال لقمان لابنه:

﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

الصِّفة الرابعة: التواضع:

فالدعوة لن تَجِدَ لَهَا مَوْقِعًا، إلا إذا كان صاحبُها متواضعًا.

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«كان رَجُلان في بني إسرائيل مُتَواخِيان، وكان أَحَدُهما مُذْنِبًا، والآخر مُجْتهدًا في العبادة، وكان لا يزال المجتهدُ يَرَى الآخرَ على الذّنب، فيقول: أَقْصِرْ، فوجده يومًا على

---

(١) من التابعين.

ذَنْب، فقال له، أقْصِرْ، فقال: خَلّني وَرَبي، أَبعَثْتَ عليَّ رَقيبًا؟! فقال: والله لا يَغْفِرُ اللّهُ لك، أوْ لا يُدْخِلُك اللّهُ الجنة، فَقَبض رُوحَهمَا، فاجْتَمَعا عند رَبِّ العالمين، فقال لهذا المجتهد: أَكُنْتَ بي عالِمًا؟ أوَ كُنْتَ على ما في يدي قَادِرًا؟!

وقال للمُذْنِب: اذْهَبْ فادْخُل الجَنَّة بِرَحْمَتي، وقال للآخر: اذْهَبوا به إلى النّار»[1].

فانظر - أخي الكريم - إلى شؤم العُجْب، كيف أَرْدَى صَاحِبه وأَخْزَاه، وجعل النّار مثواه!

ألا ما أصدق الإمام **ابن عطاء الله السكندري** - رحمه الله - حين قال:

«ذَنْبٌ تذلّ به لَدَيْه، أحبّ من طاعة تدلّ بها عليه».

«إنّك إن تَبيت نائمًا[2] و تُصْبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتُصْبح مُعجبًا، فإن المُعْجَب لا يَصعد له عمل».

«ومن يدري لعلّ الله - تعالى - أسقاه بهذا الذّنب دواءً استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر».

الصِّفَةُ الخامِسة: النَّظر إلى المصالح والمفاسد:

قال الإمام **ابنُ قدامة** - رحمه الله -:

«ويشترط كَوْن المُنكر قادِرًا على الإنكار، فأمّا العاجز، فليس عليه إنكار إلاّ بِقَلْبه ولا يقف سقوط الوجوب على العَجْز الحسِّي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز».

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى **أربعة أحوال**:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣٢٣/٢)، وأبو داود (٤٩٠١)، وغيرهما.

(٢) يعني إلى الفجر.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنّه إن تكلّم ضُرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الحالة الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه يخاف مكروهًا، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الحالة الرابعة: أن يعلم أنه يُصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنّه يُضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مُسْتحبًّا لقوله ﷺ:

«أَفْضَلُ الجِهاد كلمةُ حَقٍّ عند سُلْطانٍ جائر»[1] ا.هـ[2].

سادسًا: ثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اعلم: أن للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ثمرات، منها:

(١) نيلُ الخيرية:

قال تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٢) نيلُ الفلاح:

قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (١١٠٠).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (١٦٥، ١٦٦). تنبيه: هناك صفات أخرى هامة مثل: الإخلاص، والزهد، والحلم.

(٣) نيل الصلاح، وقبول الأعمال:

قال تعالى:

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٥].

(٤) النجاة من السوء:

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

(٥) النجاة من الطرد من رحمة الله:

قال تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

(٦) الاتصاف بالإيمان:

قال تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ ﴾ [التوبة: ٧١].

(٧) نيل الأجر العظيم:

قال تعالى:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

(٨) النجاة من العذاب:

قال ﷺ:

« إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمّهم الله بعذاب »(١).

(٩) من أسباب دخول الجنة:

قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

جاء أعرابي فقال:

---

(١) حسن: وقد تقدّم قريبًا.

يا نبي الله، عَلّمني عَمَلاً يدخلُني الجنّة؟

قال: «**لئن كنتَ أَقْصَرْتَ الخُطْبة لقد أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَة، أَعْتِقِ النَّسَمَة، وَفُكَّ الرَّقبة**».

قال: أَوَلَيْسَتَا بواحد؟

قال: «**لا، إن عِتْقَ النَّسَمة أن تَفَرَّدَ بِعتقِها، وَفَكَّ الرَّقَبةِ أن تُعين في عِتْقها، والْمِنْحَةُ الوَكُوفُ، والْفَيْءِ على ذي الرَّحم**[1] **الظَّالم، فإن لم تُطِقْ ذلك فأَطْعِم الجَائِع، واسْقِ الظَّمآنَ، وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عَنِ المنكر، فإن لم تُطِقْ ذلك فكفّ لِسَانَك إلاّ من خَيْر**»[2].

(١٠) إرغام أنف المنافقين:

قال سفيان - رحمه الله تعالى - :

«إذا أمرتَ بالمعروف: شدَدتَ ظَهْر المؤمن، وإذا نَهَيْتَ عن المنكر: أَرْغَمْتَ أَنْفَ المنافق»[3].

(١١) اتساع رُقعة الفضائل، وانْحِسَار ظلّ الرَّذائل:

وهذا واضح ومُشاهد، فكم تسبب الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر في الإجهاز على رذائل فماتت في مَهْدها، وكم تسبب تركه في اتساع دائرة الرذيلة واستغلاظ عودها.

فيا أخا الإسلام:

مُرْ بالمعروف.

وانْه عن المنكر.

---

(١) الفيء على ذي الرحم: الرجوع عليهم بما ردّ الله تعالى عليك من أموال.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٢٩٩/٤)، وغيره.

(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (٥٨).

واصبرْ على ما أصابك.

واعلم: أن الأمر بالمعروف لن يُؤخِّر رِزْقًا، ولن يُقرِّب أَجَلاً.

وفقني اللّهُ - تعالى - وإيّاك.



٥٥- النَّصِيحَةُ

قال **الفُضَيْلُ بْنُ عياض** - رحمه الله - : «ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصَّلاة والصّيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأَنْفُس، وسلامة الصّدور، والنُّصْح للأُمّة!».

كلمات، يسيرات، مباركات، توضّح بِجَلاَءٍ مكانة «**النّصيحة**» من الدِّين.

فَمَا مَعْنَى النّصِيحة؟

وما مكانتها؟

ولمن تكون؟

وما هي الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها النّاصح؟

هذا ما سوف نُفَصِّلُه - إن شاء الله تعالى - على السّطور التالية.

أوّلاً: معنى النّصيحة:

النصيحة «**لغة**»: قال **ابن منظور**: نَصَحَ الشَّيءُ: خَلَصَ، والنَّاصِحُ الخالصُ من العَمَل وغيره.

والنُّصح: الإخلاص والصّدق في المشورة والعمل.

وقال **ابن الأثير**: النَّصِيحة: كلمةٌ يُعَبَّرُ بها عن جُمْلَةٍ، هي إرادةُ الْخَيْرِ للمَنْصُوحِ له.

و «**اصطلاحًا**»: كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلاً، وتشمل النّصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامّتهم.

وقال **الجرجاني**: هي الدعاءُ إلى ما فيه الصّلاح، والنّهي عمّا فيه الفساد[1].

وقال في «الذّريعة»: «النُّصح: إخلاص المحبّة للغير بإظهار ما فيه صلاحه» ا.هـ.

---

(١) «التعريفات» (٣٦٠).

هذا، **وأوّل النُّصح**: أن ينصح الإنسان نفسه، فمن غشّها فقلّما ينصح غيره.

قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال **الآجُرِّيُّ** – رحمه الله – :

«لا يكون ناصحًا لِلّه ولرسولِهِ ولأئمّة المسلمين وعامّتهم إلاّ من بدأ بالنّصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه لِيَعْرِفَ ما به يَجِبُ عَلَيْه، ويعلم عداوة الشيطان له، وكيف الحذر منه، ويعلم قَبيح ما تميلُ إليه النّفْسُ حتى يُخَالِفَها بِعِلْمٍ» ا.هـ[1].

ثانيا: مكانة النّصيحة:

يكفي «النّصيحة» علوًّا أنها صفة من صفات الأنبياء والمرسلين..

- فهذا شيخ الأنبياء **نوح** عليه السلام يقول لقومه – كما حكى القرآن – :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

- وهذا **هود** عليه السلام يقول لقومه – كما ذكر القرآن – :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨].

- وهذا **صالح** عليه السلام يقول لقومه – كما في القرآن – :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩].

- وهذا **شعيب** عليه السلام يقول كما حكى الكتابُ العزيز:

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» للفيروز آبادي (٥/٦٧).

- وهذا نَبينا - صلوات ربي وسلامُه عليه - ينصح أصحابه في مواقف عديدة، ومواطن كثيرة - يصعب حصرها - نذكر منها:

(١) عن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ مَثَلي ومَثَلَ مَا بَعَثَني اللّهُ به كمثلِ رَجُلٍ أَتى قَوْمَه فقال: يا قومِ، إني رأيتُ الْجَيْشَ**[١] **بِعَيْني، وإني أَنَا النّذيرُ العُرْيَان**[٢]**، فالنجَّاءَ**[٣]**، فأطاعه طائفةٌ مِنْ قومه فأَدْلَجُوا**[٤] **فانْطَلَقوا على مُهْلَتِهم، وكَذَّبت طائفةٌ منهم فأصبحوا مكانَهم، فَصَبَّحَهم الجيشُ فأهْلَكَهم واجْتَاحَهم**[٥]**، فَذَلِك مَثَلُ مَنْ أطاعَني واتَّبع ما جِئْتُ به، ومَثَلُ مَنْ عَصَاني وكَذَّبَ ما جئتُ به من الحق**»[٦].

(٢) وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

«إن عَبْد الله هَلَكَ[٧] وتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ (أو قال: سَبْعَ) فتزوَّجت امرأةً ثيبًا. فقال لي رسولُ الله ﷺ:

«**يا جَابِرُ، تَزَوَّجْتَ؟**».

قال: قلتُ: نعم.

قال: «**فَبِكْرٌ أم ثَيِّبٌ؟**».

---

(١) أي: جيش العدوّ.

(٢) أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم. وأكثر ما يفعل هذا طليعة القوم ورقيبهم.

(٣) **النّجاء**: اطلبوا النجاة.

(٤) **أدلجوا**: ساروا من أوّل الليل.

(٥) **احتاجهم**: استأصلهم.

(٦) رواه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

(٧) هو: عبد الله بن عمرو بن حرام، والدجابر، استُشهد في «أُحُد»، وأخبر النبي ﷺ في حديث «صحيح» أنه كَلّم الله كِفَاحًا - يعني بغير حِجاب- !!.

قال: قلت: بل ثَيِّبٌ يا رسول الله!

قال: «**فَهَلاَّ جَارِيةً تُلاَعِبها وتُلاَعِبُك**» (أو قال: «**تُضَاحِكُها وتَضَاحِكُك؟**»).

قال: قلتُ له: إن عبد الله هَلَك، وترك تِسْعَ بنات (أو سَبْعَ) وإني كَرِهتُ أن آتِيَهُنّ أو أَجيئهُنَّ بِمِثْلِهنّ. فأحببتُ أن أَجِيء بامرأةٍ تقوم عليهنّ وَتُصْلِحُهُنّ.

قال: «**فَبَارَكَ اللّهُ لَكَ**». أو قال لي خيرًا»[١].

وقد أَوْصَى بالنّصيحة، وبيَّن أهميتها في أحاديث كثيرة، منها:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**لِلْمُؤْمن على المؤمن ستُّ خِصَال:**

يَعُوده إذا مَرِضَ، وَيَشْهَدُهُ إذا مَاتَ، وَيُجيبُهُ إذا دَعَاه، وَيُسَلِّم عليه إذا لَقِيَهُ، وَيُشَمِّتُهُ إذا عَطَسَ، ويَنْصَحُ له إذَا غَابَ أَوْ شَهِد»[٢].

٢- وعن ابن عمر، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إذا نَصَحَ العبدُ لِسَيِّده، وأَحْسَنَ عِبادةَ الله، فَلَهُ أَجْرُه مَرَّتَيْن**»[٣].

٣- وعن يزيد بن حكيم ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**دَعُوا النّاسَ يَرْزُق اللّهُ بَعْضَهم مِنْ بَعْضٍ، وإذا اسْتَشَار أَحَدُكم أخاه فَلْيَنْصَحْهُ**»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٨٠)، ومسلم (٧١٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٧٣٧)، وصحّحه الشيخ الألباني.

(٣) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٦٤٤) واللّفظ له.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (ص١٨٥)، وانظر: «جامع المسانيد» (٩٨٦١).

٤- وعن معقل بن يسار ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيه اللّهُ رَعِيَّةً فلمْ يَحُطْهَا بِنُصْحِه لم يَجِدْ رَائِحةَ الجنَّة**»[1].

قلت: هذا وعيد عظيم، وتهديد شَدِيد، فَمَنْ يَغْفَل عن رَعِيَّته بعد سماعه لهذا الحديث؟!

والرّاعي - هنا - : كُلّ مسئول:

الحاكم عن بَلَده.

والوالد عَنْ زوجه وأولاده.

والمدير عن إدارته.

وكلٌ عن موقعه.

ثالثاً: لمن تكون النَّصِيحة؟

أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في الحديث التالي:

عن تَمِيمٍ الدَّاريّ ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«**الدِّين النّصِيحة**» - ثلاثًا - .

قلنا: لمن يا رسول الله؟

قال: «**لِلّهِ - عَجَلّ - ولكتابِه، ولِرَسُوله ﷺ، ولأئمَّة المسلِمين، وعامَّتِهم**»[2].

وعن مكانة هذا الحديث:

قال الحافظ **أبو نُعيم** - رحمه الله - :

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

(٢) رواه مسلم (٥٥/٩٥).

« هذا الحديث له شأن عظيم »ا.هـ[(١)].

وقال الإمام **النووي** – رحمه الله – :

قالوا: مدار الدِّين أربعة أحاديث، وأنا أقول: بل مدارُهُ على حديث: « الدِّين النَّصيحة » [(٢)].

وعن شرحه:

قال الإمام **أبو عمرو بن الصَّلاح** – رحمه الله – :

« النَّصيحة: كلمة جامعة تتضمّن قيام النَّاصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلاً:

فالنّصيحة لله تعالى:

توحيده، ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عمّا يضادها ويخالفها، وتجنب معاصيه، والقيام بطاعته، ومحابِّه بوصف الإخلاص، والحبّ فيه، والبغض فيه، وجهاد من كفر به تعالى وما ضاهى ذلك، والدعاء إلى ذلك والحثّ عليه.

والنَّصيحةُ لِكِتَابه:

الإيمان به، وتعظيمه، وتنزيهه، وتلاوته حق تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتَفَهّم عُلومه وأمثاله، وتدبّر آياته والدّعاء إليه، وذَبّ تحريف الغالين وطعن الْمُلْحدين عنه.

والنّصيحة لرسوله ﷺ :

قريب من ذلك: الإيمان به، وبما جاء به، وتوقيره وتبجيله، والتمسّك بطاعته، وإحياء سُنّته، وفهم علومه ونشرها، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، والتخلّق بأخلاقه، والتأدّب بآدابه، ومحبّة آله وصحبه ونحو ذلك.

---

(١) « جامع العلوم والحكم » للحافظ ابن رجب (٨٦).

(٢) « بصائر ذوي التمييز » (٥/٦٤).

والنّصيحة لأئمّة المسلمين:

معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه وتذكيرهم به، وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق، وحثّ الأغيار على ذلك.

والنّصِيحة لعامّة المسلمين:

إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وسدّ خلاّتهم، ونصرتهم على أعدائهم، والذّب عنهم، ومجانبة الغشّ، والحسد لهم، وأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه وما شابه ذلك» اهـ[(١)].

ومن أنواع النّصح لله تعالى وكتابه ورسوله - وهو ما يختصّ به العلماء:

ردّ الأهواء المضلّة بالكتاب والسّنة على مُوردِها، وبيان دلالتها على ما يخالف الأهواء كلّها، وكذلك ردّ الأقوال الضعيفة من زلاّت العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسّنة على ردّها.

ومن أعظم أنواع النّصح: أن ينصح لمن استشاره في أمره - كما تقدّم في الحديث - .

وفي بعض الأحاديث:

« **إن مِنْ حَقّ المسلم على المسلم: أن يَنْصَحَ له إذا غاب** »[(٢)].

ومعنى ذلك: أنه إذا ذُكِر في غيبته بالسّوء أن يَنْصُرَه ويَرَدّ عَنْه، وإذا رأى من يريد أذاه في غيبته كَفّهُ عن ذلك، فإن النّصح في الغيب يدلّ على صدق الناصح، فإنه قد يُظْهر النُّصح في حضوره تَمَلُّقًا، ويغشّه في غيبته.

رابعًا، الآدابُ التي ينبغي أن يَتَحلّى بها النّاصح:

إذا أراد المسلمُ نُصح أخيه، فينبغي له أن يَتّصِفَ بِصِفَاتٍ، منها:

---

(١) « جامع العلوم » (٩٠،٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٧٣٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

١) الرِّفق:

قال **عبد العزيز بن أبي روّاد** - رحمه الله - :

« كان من كان قبلكم إذا رأى الرجلُ من أخيه شيئًا، يَأْمُره في رِفْقٍ فَيُؤْجَر في أَمْرِهِ وَنَهْيِه ».

وللمزيد عن أهمية « الرِّفق » وفضله: راجع خُلُق « **الرّفق** » فهناك مزيد بيان.

٢) الصّدق في النَّصِيحة:

لأن الغش في « النصحية » صفة من صفات إبليس! قال تعالى:

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢].

(٣) النُّصْحُ في السِّرِّ:

لأن النّصيحة لَنْ تَجِدَ لها مَوْقِعًا في قَلْب المنصوح إلاّ بهذا الأدب.

وقد كان السَّلف إذا أرادوا نصيحة أَحَدٍ وَعظوه سِرًّا:

- قال **الفُضَيْلُ** - رحمه الله - :

« المؤمن يَستُر وَيَنْصَح، والفاجر يَهْتِك ويعيِّر ».

- وسُئل **ابن عباس** - رضي الله عنهما - عن أمر السّلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقال:

« إن كُنْتَ فاعلاً ولابدَّ فَفِيمَا بينَك وَبينَه ».

- وقال الحافظ **ابن رجب** - رحمه الله - :

« شتّان بين من قَصْدُه النّصيحة، وبين مَنْ قَصْده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى إلاّ على من ليس من ذوي العقول الصّحيحة »[1].

(١) « الفرق بين النصيحة والتعيير » للحافظ ابن رجب (٤١).

وقال - رحمه الله - أيضًا:

«إن النّاصح ليس له غَرَضٌ في إشاعة عيوب من يَنْصَحُ له، وإنّما غرضُه إزالةُ المفسدة التي وقع فيها، ولذلك فإنه ينبغي أن تكون سرًّا فيما بين الآمر والمأمور.

وأمّا الإشاعة وإظهار العيوب فهو ممّا حرّمه اللّهُ ورسولُه، ومن حُبّ إشاعة الفاحشة في المؤمنين!»[(١)].

قلت: هذا كلام يُكتب بماء الذّهب، فما أحوجنا إليه - في هذا الزمان - الذي حاول كُلٌّ منا نَشْر غسيل أخيه، وكشف عورته، مستخدمًا في ذلك: كُلّ خُلُق دَنيء، وكلّ حِيلة خبيثة، وكل عمل خسيس!

□ وقال **مِسْعَرُ بْنُ كِدَام** - رحمه الله - :

«رَحِم اللّهُ مَنْ أهدى إليّ عيوبي في سِرٍّ بيني وبينه، فإن النّصيحة في الملأ تَقْرِيعٌ»[(٢)].

□ وقال **الشافعيُّ** - رحمه الله - :

تَعَهَّدْني بِنُصْحِكَ في انْفِرَادِي ... وَجَنِّبْني النَّصِيحَةَ في الْجَمَاعَهْ

فَإنَّ النُّصْحَ بين النّاس نَوعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

فَإن خَالَفْتَني وَعَصَيْتَ قَوْلي ... فَلا تَغْضَبْ إذا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ[(٣)]

وفي المقابل: على المَنْصُوح السَّمْع والطاعة - إذا كانت النّصِيحةُ صَحِيحَة - ومعاملة النّاصح بالإكرام والاحترام.

قال الحافظ **ابن رجب** - رحمه الله - :

«من عُرِف منه أنه أراد بِرَدِّه على العلماء النّصيحة لِلّه ورسوله، فإنه يجب أن يُعامَل بالإكرام والاحترام والتعظيم كسائر أئمّة المسلمين الذين كان يُرَدُّ على المخطئ منهم.

---

(١) نفس المرجع (٣٩) بتصرّف.

(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/٢٩٠).

(٣) «ديوان الشافعي» (٨٥).

ومن عُرِف أنه أراد بِرَدِّه عليهم التَّنْقِيص والذَّمّ وإظهار العَيْب، فإنه يستحق أن يُقابل بالعقوبة لِيرتدع هو ونظراؤه عن هذه الرّذائل المحرّمة» ا.هـ[1].

(٤) الإخلاص:

لأنّ ما خَرَج من القلبِ، وَصَل إلى القَلْب، وما خَرجَ من اللّسان لا يتجاوز الآذان.

(٥) العلم:

وذلك حتى تقع نصيحته في موضعها، فكم جرّ الجهل على الأمّة من ويلات، وطامات، وخزعبلات.

هذا، وعلى الله قصد السبيل.

✡✡✡✡✡

---

(١) «الفرق بين النصيحة والتعيير» (٣٦) بتصرّف يسير.

٥٦- الرَّحْمَةُ

قال **الفَيْروزآبادِيُّ** - رحمه الله تعالى - :

«الرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بين اللهِ وَبين عِبَاده، وبها أَرْسَل إليهم رُسُلَهُ، وأنزل عليهم كُتُبَهُ، وبها هَدَاهم، وبها أَسْكَنَهم دَارَ ثَوَابه، وبها رَزَقَهم وعافَاهم» ا.هــ(١).

ولأهمية هذا الخُلق، فالحديث على السطور التالية، يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف الرّحمة.

الثاني: الحَثُّ عليها.

الثالث: من مظاهر رحمة الله تعالى.

الرابع: الرَّحْمةُ في حياة رسوله ﷺ .

الخامس: الرَّحْمةُ في حياة المؤمنين.

وأسأل الله - تعالى - التوفيق لما يُحبّ ويرضى.

أوّلاً: تعريفُ الرَّحمة:

الرحمة «**لُغَةً**» تدور مادة (ر ح م) حول معنى الرِّقة والعَطْف والرأفة. وقال الجوهريُّ: «الرحمةُ: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّف. والمرحمة مثله، وقد رحِمْتُهُ وترحَّمْتُ عليه، وتَرَاحم القومِ: رَحِم بعضُهُم بعضًا.. ورجلٌ مرحومٌ، وَمُرَحَّمٌ، شُدِّدَ لِلْمُبالغة، والرُّحْم بالضَّمَّة: الرَّحْمَةُ. قال تعالى:

﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١].

والرحمة: المغفرة» ا.هــ(٢).

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/٥٥).

(٢) «الصّحاح» للجوهري (٥/١٩٢٩) رحم.

و «اصطلاحًا»: قال الْجُرْجَاني: «هي إرادَةُ إيصَالِ الخَيْر»ا.هـ.

ثانيا: الحَثُّ على الرَّحْمة:

ولمكانة الرحمة: جاءت آياتُ القرآن، وسُنَّةُ خير الأنام ﷺ تحثّ عليها:

فمن القرآن:

(١) قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(٢) وقال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

(٣) وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح: ٢٩].

(٤) وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧].

ومن السُّنَّة المطهرة:

(١) عن عبد الله بن عمرو بن ا لعاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«الرّاحِمون يَرْحَمُهُم الرّحمنُ، ارْحَمُوا أهل الأرض، يَرْحَمُكُم مَنْ في السّماء»[1].

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول:

---

(١) صحيح بشواهده: رواه أبو داود (٤٩٤١) واللفظ له، والترمذي (١٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

«لا تُنزعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقيٍّ»[١].

قال **الطِّيبي** - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«لأن الرّحمة في الخلق رقّة القلب، والرِّقّةُ في الْقَلْب علامة الإيمان، فمن لا رِقّة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شَقِيّ، فَمَنْ لا يُرْزَق الرِّقة شقَى»ا.هـ[٢].

(٣) وعن أبي هريرة - أيضًا - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ**»[٣].

قال الحافظ **ابْن حَجَر** - رحمه الله - تعليقًا على هذا الحديث:

«قال ابْنُ بطّال: فيه الحَضُّ على استعمالِ الرَّحْمةِ لجميع الخَلْق، فيدخل المؤمن والكافر[٤] والبهائم المملوك منها وغيرُ المملوك، ويدخل في الرحمة:

التّعَاهُدُ بالإطْعَام، والسَّعْيُ، والتَّخْفيف في الحَمْل، وتَرْكُ التَّعَدِّي بالضّرب» ا.هـ[٥].

(٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**لن تُؤْمِنوا حتى تَرَاحَمُوا**».

قالوا: كُلُّنا رَحيمٌ يا رسول الله.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١٩٢٣)، وأبو داود (٤٩٤٢).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٣٣٩/٥).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨)، و «مَنْ» هنا شرطيّة.

(٤) إلاّ في الحالات التي أُمِرنا فيها بمقاتلته والقصاص منه وتأديبه.

(٥) «فتح الباري» (٤٤٧/١٠).

قال: «إنّه ليس بِرَحْمَةِ أحدِكم صَاحِبَهُ، ولكنّها رَحْمَةُ النّاس، رَحْمَةُ العَامّة»[(١)].

(٥) وقال رسولُ الله ﷺ:

«خابَ عَبْدٌ وَخسِر، لم يجعلِ اللّهُ تعالى في قَلْبه رَحْمَةً لِلبشَر»[(٢)].

ثالثًا: مِنْ مظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تعالى:

اعلم: أننا لا نستطيعُ حَصْرَ مظاهر رحمة الله تعالى.

- قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال الحسن: «وَسِعَتْ في الدنيا البَرَّ والفاجرَ، وهي يوم القيامة للذين اتَّقَوْا خاصَّة»[(٣)].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

- وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«لَمَّا خَلَقَ اللّهُ الخَلْقَ كَتَب في كتابه فهو عنده فوْقَ الْعَرْشِ: إن رَحْمَتي تَغْلِبُ غضَبي»[(٤)].

- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

قَدِمَ على النّبي ﷺ سَبْيٌ فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلِبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إذا وَجَدتْ صَبيا في السَّبي أخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْه بِبطْنِها وأَرْضَعَتْهُ.

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (١٠/٤٥٣): أخرجه الطبراني، ورجاله ثقات.

(٢) حسن: أخرجه أبو نعيم، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٢٠٥).

(٣) «تفسير الطبري» (٦/٨١).

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١)، واللفظ له.

فقال لنا النّبي ﷺ:

« أَتُرَوْنَ هذه طارحةً وَلَدها في النّار؟ » .

قلنا: لا، وهي تَقْدِرُ على أن لا تَطْرَحَهُ.

فقال: « لَلّهُ أرْحَمُ بعبادِه من هذه بِوَلَدِها »[1].

- وعن سلمانَ الفارسيِّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« إنّ الله خَلَق يَوْمَ خَلَق السموات والأرض مائةَ رَحْمَة، كُلُّ رَحْمَة طِبَاقَ ما بينَ السَّمَاء والأرض، فَجَعَل منها في الأرْضِ رَحْمَةً، فبها تَعْطِفُ الوالدةُ على وَلَدِها، والوحشُ والطَّيْرُ بَعْضُهَا على بَعْضٍ، فإذا كانَ يَوْمَ القِيامة أكْمَلَها بهذه الرَّحْمَة »[2].

هذه بعض الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، الدّالة على سعة رحمة الله تعالى، وعظيم فضله.

ومن مظاهر رحمته تعالى:

(١) نعمة الإيجاد والإمْداد:

فَمِنْ أجَلِّ نِعَم الله - تعالى - على المخلوقات: أنّه خَلَق وَرَزَق.

قال ابْنُ عطاء الله السكندريّ - رحمه الله - :

« نِعْمَتانِ ما خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُما، ولابُدَّ لكلِّ مُكَوَّنٍ منهما: نِعْمَةُ الإيجاد، ونعمةُ الإمْداد » .

وقال: « أنْعَم عَلَيْك أوَّلاً بالإيجاد، وثانيا بِتَوَالِي الإمْدَاد »[3].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٣).

(٣) « الحكم العطائية » (٢١).

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

حكاية:

كان أبو الحسن البصري النّحوي يأكل يومًا مع بعض أصحابه طعامًا فجاءه قطٌّ، فرَموا له شيئًا فأخذه وذَهَب سريعًا، ثم أَقْبل فرَموا له شيئًا أيضًا، فانطلق به سريعًا ثم جاء، فرَموا له شيئًا أيضًا، فعلموا أنه لا يأكل هذا كله فتَبِعوه فإذا هو يذهب إلى قِطٍّ آخر أعْمى في سطح هناك، فتعجبّوا من ذلك، فقال الشيخُ:

« يا سبحان الله! هذا حيوانٌ بَهِمٌ قد ساق اللّهُ إليه رزقه على يد غيره، أفلا يرزقني وأنا عَبْدُه وأعْبده! »[1].

وهذه الحكاية لا تَنْفِي الأسباب، ولكنها تدعو إلى الثّقة في الله عند انقطاع الأسباب.

(٢) نعمة الهداية والإرشاد:

وهذه - أيضًا - من أعظم النّعم، ولولاها لكان الناس كالبهائم السائمة.

فسبحان الذي خلَق فسوَّى، وقَدَّر فَهَدى.

قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

رأى بعضُ السَّلف قَومًا يبكون على ميِّت لهم، ولمّا ازداد بكاؤهم، قال:

«عجبتُ لقوم يبكون على من مات بَدَنُهُ، ولا يبكون على من مَات قَلْبُهُ وهو أشَدّ! ».

(٣) نعمة إمْهَال العُصَاة:

وهذه - أيضًا - من أجل نعم الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٦/٦٠٠).

وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

(٤) نعمة قبول التوبة:

وهذه - أيضًا - من سعة رحمته، وعظيم فضله، وها هو - تبارك وتعالى - يفتح باب الأمل للعاصين، فيقول:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ ﴾ [الرعد: ٦].

ويقول سبحانه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩].

فأين إلى غيره يهرب الخلائق؟

وأين عن بابه يلتجئ العاصون؟

يا رب ...

ما زلتُ أُعْرَفُ بالإساءة دائمًا	**ويكون منك العفو والغفران**
ولم تنقصني إن أسأتُ وَزِدْتَني	**حتى كأن إساءتي إحْسَان!**
تُولي الجميل على القبيح تكرُّمًا	**أنتَ الإلهُ الْمُنْعم المنّان**

(٥) رحمته تعالى بهذه الأمّة:

وهذا واضح في يُسْر التشريع، وتخفيف الأحكام، ومراعاة الظروف والأحوال، والدعوة إلى العفو والصّفح.

والحديث عن هذا اليسر يطول استقصاؤه، ويكفي أن نشير هنا إلى بعض الآيات الواردة في هذا الشأن.

- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ

خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١٧٨، ١٧٩].

قال **قتادة:**

«رحم اللّهُ هذه الأمّة وأطعمهم الدِّية ولم تحل لأحد قَبْلهم، فكان أهْلُ التوراة إنّما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش[1]، وكان أهل الإنجيل إنّما هو عفو أُمِرُوا به وجعل هذه الأمة القصاص والعفو والأرش»[2].

- وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وبالجملة: فالشريعة كلّها رحمة.

قال الشيخ/ **عبد الرحمن بن ناصر السَّعْديّ** – رحمه الله – :

«إنّ الشّريعة كلّها مَبْنية على الرّحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء الحقوق سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلّفْ نَفْسًا إلاّ وسعها، وإن تدبَّرْتَ ما شَرَعه اللّهُ – ﷻ – في المعاملات، والحقوق الزوجية، وحقوق الوالدين والأقربين، والجيران، وسائر ما شرع وجدت ذلك كله مَبْنيا على الرحمة، ثم قال:

لقد وَسعَتْ هذه الشّريعةُ بِرَحْمَتها وعَدْلها العدوّ والصَّديق، ولقد لَجَأَ إلى حِصْنِها الحصين الْمُوفَّقون من الخلق»ا.هـ[3].

رابعًا: الرّحْمَة في حياة النّبي ﷺ:

لمّا أراد اللّهُ – تعالى – أن يمتنّ على العالم برَجُلٍ يمسح آلامه ويخفّف أحزانه، ويجدّد آماله ويرثى لخطاياه، ويستميت في هدايته، أرسل محمّدًا ﷺ وَسَكَب في قَلْبه من العلم

---

(١) الأرش: من الجراحات ليس له قدر معلوم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٢١٠).

(٣) «الرياض النضرة والحدائق النيرة الزّاهرة في العقائد والفنون المتنوّعة الفاخرة» (٦١ – ٦٥) بتصرّف.

والحِلْم، وفي خُلُقه من الإيناس والبرّ، وفي طَبْعه من السّهولة والرِّقة، وفي يده من السّخاوة والنّدى، ما جعله أزكى عباد الله، وأوْسَعهم عاطفة، وأرحبهم صَدْرًا[١].

وهذه بعضُ الآيات والأحاديث الدّالة على عَظِيم خُلُقِه، الكاشفة عن طِيبِ مَعْدَنِه:

(١) قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(٢) وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

(٣) وعن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال:

كان رسولُ الله ﷺ يُسمِّي لنا نَفْسَه أَسْمَاءً، فقال:

«أنا مُحَمّدٌ، وأَحْمَدُ، والْمُقَفّي[٢]، والحاشِرُ[٣]، ونَبي التَّوْبةِ، ونَبي الرَّحْمَةِ»[٤].

(٤) وعن أُبي بن كعب ﷺ أنه قال:

إنَّ أبا هُريرة كان حَريصًا على أن يسأل رَسُولَ الله ﷺ عن أشياءَ لا يسألُهُ عنها غَيْرُهُ، فقال:

يا رسولَ الله، ما أوَّلُ ما رأيتَ في أَمْرِ النُّبوَّة؟

فاستْوى رسولُ الله ﷺ جَالِسًا، وقال:

«لقد سألتَ أبَا هُريرة، إني لَفِي صحراءَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وأَشْهُرٍ وإذا بِكلام فَوْق رَأْسِي، وإذا رَجُلٌ يقول لِرَجُلٍ:

أَهُوَ هُوَ؟

قال: نَعَم:

---

(١) «خلق المسلم» للغزالي (٢٥٣).

(٢) المقفيّ: المتبع للأنبياء.

(٣) الحاشر: أي الذي يُحشر الناسُ خلفه وعلى ملّته دون مِلّة غيره.

(٤) رواه مسلم (٢٣٥٥).

فاسْتَقْبَلاني بوجُوه لَمْ أَرَها لِخَلْقٍ قَطُّ، وَأَرْوَاحٍ لَم أَجِدْها مِنْ خَلْقٍ قطُّ، وثياب لم أَرَها على أَحَد قَطُّ، فَأَقْبَلا إليَّ يَمْشِيانِ حتى أَخَذَ كُلٌّ واحدٍ منهما بَعَضُدي لا أجِدُ لأحدهما مَسًّا فقال أحدُهُما لِصَاحِبِه:

أَضْجِعْهُ. فأَضْجَعَاني بلا قَصْرٍ ولا هَصْرٍ[1]. وقال أحدُهما لصاحبه:

افْلِقْ صَدْرَه، فَهَوَى أحَدُهما إلى صَدْري فَفَلَقَها، فِيما أرَى بلا دَمٍ ولا وَجَعٍ، فقال له:

أَخْرِجِ الغِلَّ والْحَسَدَ.

فأخرج شيئًا كَهَيْئَةِ العَلَقَةِ، ثُمّ نَبَذها فَطَرَحها، فقال له:

أَدْخِلِ الرَّأفَةَ والرَّحْمَةَ، فإذا مِثْلُ الذّي أَخْرَجَ يُشْبهُ الفِضَّة، ثُمّ هَزَّ إبْهامَ رِجْلِي الْيُمْنَى فقال:

اغْدُ واَسْلَمْ، فَرَجَعْتُ بِها أَغْدوُ رِقَّةً على الصَّغِيرِ وَرَحْمَةً لِلْكَبِير»[2].

أخي المسلم:

وبعد هذه الآيات والأحاديث الدَّالة على عُلوّ خُلُقه، وَطِيب مَعْدنه - صلواتُ رَبي وسَلاَمُه عليه - ننتقل إلى ذِكْر الجانب العملي في حياته ﷺ:

أولاً: رحمته ﷺ بأهله وذويه:

□ عن أبي هريرة ﷺ قال:

قَبَّلَ رَسولُ اللهِ ﷺ الحسنَ بْنَ عليّ وعنده الأَقْرَعُ بْنُ حابس التَّميميُّ جالسًا، فقال الأَقْرَعُ:

إن لي عَشَرةً مِنَ الولد ما قَبَّلْتُ مِنهم أَحَدًا، فَنَظر إليه رسولُ الله ﷺ ثم قال:

«مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[3].

---

(١) بلا قصر ولا هصر: أي بلا عنف ولا ضغط.

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٢/٨): رواه عبد الله - يعني: ابن الإمام أحمد - : ورجاله ثقات.

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٧) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٨).

□ وعن أبي قتادة ﷺ قال:

« خَرَجَ علينا النبي ﷺ وأُمَامةُ بنْتُ أبي العاص على عَاتِقه فَصَلَّى، فإذا رَكَعَ وَضَعَهَا، وإذا رَفَع رَفَعَها »[1].

□ وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت للنبي ﷺ :

هل أتَى عَلَيْك يَوْمٌ أشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُد؟

قال: « **لقد لقيتُ من قَوْمِك ما لقيتُ، وكان أشَدُّ ما لَقِيتُ منهم يَوْمَ العَقَبة، إذ عَرَضتُ نفسي على ابْن عَبْد يَا لِيلْ بن عَبْدِ كُلال، فلم يُجْبني إلى ما أردتُ فانْطَلَقْتُ وأنا مهموم على وَجْهي، فلم أسْتَفِقْ إلاّ وأنا بِقَرْن الثّعالب فرفعتُ رأْسي فإذا أنا بسَحَابة قد أظَلّتْني فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنّ الله قد سَمِع قَوْلَ قومِك لك وما رَدُّوا به عَلَيك، وقد بعثَ اللّهُ إلَيْك مَلَكَ الجِبَالِ لتأمُرَهُ بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال فَسَلَّم عَلَيَّ ثم قال: يا مُحَمّد، فقال: ذَلِك فيما شِئْتَ، إن شِئْتَ أن أُطْبِقَ عليهمُ الأَخْشَبين[2]** »، فقال النبي ﷺ :

« **بل أرْجو أن يُخْرِجَ اللّهُ من أصْلاَبِهِم من يَعْبُدُ الله لا يشركُ به شيئًا** »[3].

ثانيا: رحمته بالأطفال:

رأينا فيما سبق جانبًا من رحمته ﷺ مع الحسن وأمامة بنت العاص، وهذا لون آخر من رحمته ﷺ بجميع الأطفال.

□ عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ وَضَع صَبيا في حِجْرِه يُحنّكه، فَبَالَ عليه، فَدَعا بِمَاءٍ فَأَتْبَعه[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٦)، ومسلم (٥٤٣).

(٢) جَبَلا مكّة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله.

(٣) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، واللفظ للبخاري.

(٤) رواه البخاري.

□ وعن أنس ﷺ قال:

ما رأيتُ أحدًا كان أَرْحَم بالعِيال مِنْ رسول الله ﷺ.

□ وعنه - أيضًا - ﷺ قال:

كان رسولُ الله ﷺ أَحْسَن النّاس خُلُقًا، وكان لي أخٌ يقال له أبو عمير - قال: أحسبه كان فطيمًا[١] - قال:

فكان إذا جاء رسولُ الله ﷺ فرآه قال:

« **يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغير؟**[٢] » نغرٌ كان يلعب به، فربّما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالْبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلْفه فيُصَلِّي بنا[٣].

فانظر - **أخي الكريم** - إلى هذا التَّواضُع الممزوج بالرَّحْمة، والدّال على لِين جانبه، وخفض جناحه، وعظيم رأفته - صلوات ربي وسلامه عليه...

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله - :

« رخّص فيه للصّبي إمساك الطَّير لِيَلْتهي به، وأمّا تمكينه من تعذيبه، ولا سيّما حتى يموت، فَلَم يُبَحْ قَطُّ »ا.هـ.

ثالثًا: رحمته بالمسلمين:

أشار القرآنُ الكريم - في آيات عديدة - إلى رحمة النبي ﷺ بالمؤمنين.

من هذه الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) **فطيم**: بمعنى مفطوم، أي انتهى إرضاعه.

(٢) **النّغير**: طائر يشبه العصفور.

(٣) رواه البخاري.

قال **الحسنُ البصريّ** – رحمه الله تعالى – : «هذا خُلُق محمّد ﷺ بَعَثه اللّهُ به».

وقال الإمام **الفخر** رحمه الله – تعالى – في تفسيره لهذه الآية: «اعلم أن هذه الآية دلَّت على أن رحمة الله تعالى هي المؤثرة في صيرورة محمّد ﷺ رحيمًا بالأُمَّة. فإذا تأملت حقيقة هذه الآية عرفت دلالتها على أنه لا رحمة إلاّ لله سبحانه» ا.هـ[1].

(٢) وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال **صاحبُ الظلال** – رحمه الله – في ظلال هذه الآية:

«حريص عليكم لا يلقي بكم في المهالك ولا يدفع بكم إلى المهاوي، فإذا هو كلفكم الجهاد، وركوب الصّعاب فما ذلك من هوان بكم عليه ولا بقسوة في قلبه وغلظة، إنما هي الرحمة في صورة من صورها. الرحمة بكم من الذّل والهوان، والرحمة بكم من الذّنب والخطيئة، والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حَمْل الدعوة وحظّ رضوان الله، والجنة التي وعد المتقون»ا.هـ[2].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

قال **صاحبُ الظلال** – رحمه الله – :

«فهو اللّين والتواضع والرفق في صورة حِسِّية مجسّمة، صورة خفض الجناح، كما يخفض الطائر جناحه حين يهم بالهبوط. وكذلك كان رسول الله ﷺ مع المؤمنين طوال حياته، فقد كان خُلُقُه القرآن، وكان هو الترجمة الحيّة الكاملة للقرآن الكريم»ا.هـ[3].

هذه بعضُ آيات الكتاب العزيز الدّالة على رحمة النّبي ﷺ بالمؤمنين...

وعلى أرض الواقع، نجده ﷺ ترجمة حيّة لما وصفه اللّهُ تعالى به، وحثّه عليه.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥٢٧/٨).

(٢) «الظلال» (١٧٤٣/٣).

(٣) نفس المصدر (٢٦٢٠/٥).

اقرأ:

- عن أنس، قال:

دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حَبْلٌ مَمْدود بين السّاريتين، فقال:

«ما هذا الحَبْلُ؟».

قالوا: هذا حَبْلٌ لِزَيْنَب، فإذا فَترت[1] تعلقّت.

فقال النبي ﷺ: **«لا، حُلّوه، لِيُصلِّ أحدُكم نَشَاطه، فإذا فَتر فَلْيَقْعُد»**[2].

- وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

كان رسولُ الله ﷺ في سَفَر، فرأى رَجُلاً قد اجتمع الناسُ عليه، وقد ظُلِّل، فقال:

«ما له؟».

قالوا: رَجُلٌ صائم.

فقال رسول الله ﷺ: **«ليس من البِرِّ أن تَصوموا في السَّفر»**[3].

رابعًا: رحمته ﷺ بأعدائه:

يدلّ على ذلك مواقف عديدة، منها:

- عفوه ﷺ عن المشركين لمّا فتح مكة.
- نَهيْه عن التعرّض للمسالمين أثناء الحروب.
- تحذيره ﷺ من ظلم أهل الذّمة.
- حضّه ﷺ على حُسْن معاملة الأسرى، وغير ذلك من المواقف التي لا تحصى.

---

(١) أي: كسلت، وضعفت عن القيام.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم وأحمد.

خامسًا: رحمته ﷺ بالحيوان:

يدل على هذه الرحمة أحاديث كثيرة، منها:

(١) عن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**إن الله كَتَب الإحسان على كُلّ شيء، فإذا قَتلتم فأَحْسِنوا القِتْلة، وإذا ذَبَحْتُم فأحسنوا الذِّبح، وَلْيُحِدَّ أحدُكم شَفْرَته، وَلْيُرِحْ ذَبيحته**»[1].

(٢) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

كُنّا مع رسولِ الله ﷺ في سَفَر، فانْطَلق لحاجَته فرأينا حُمَّرَةً[2] معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيْها فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تُفَرِّشُ[3]، فجاء النبي ﷺ فقال:

«**مَنْ فَجَع هذه بِوَلَدها؟ رُدُّوا وَلَدَها إِلَيْهَا**».

ورأى قرية نَمْلٍ قد حَرَّقْنَاها، فقال:

«**مَنْ حَرَّق هذه؟**».

قلنا: نحن.

قال: «**إنّه لا يَنْبَغي أن يُعَذّب بالنّار إلاّ رَبُّ النار**»[4].

فانظر - **أخي المسلم** - إلى هذه الرّحمة التي طالت الطَّيْر في عُشّه، والنَّمْل في جُحْره!

وُلِـدَتْ بمولِـدك المكـارمُ والـنّدى	**والحِلْـم عـند الغَـيْظ والإحسـان**
والـرِّفق والصّـفح الجميل عن الأذى	**والعــزّة الشـمَّاء والغُفـران**

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٢) **الحمرّة**: طائر صغير يشبه العصفور.

(٣) **تفرِّش**: هو أن تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٥٢٦٨).

فأقمــتَ للْخُلــق الكــريم مَــنارةً — وسَــمَا بعــذب حديــثك التــبيان
فصــل الخطــاب لقــد ملكــت زمامه — ونــشرت مــا لم يســتطعه لســان
وأتيــتَ بالتوحــيد صِــرْفًا خالِصًــا — لِلّــه لم يشــركْ بــه إنســان

خامسًا: الرحمة في حياة المسلمين:

يكفي في الحديث عن هذه الرحمة قوله تعالى:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذه الرحمة تشمل:

- رحمة المسلم بنفسه.
- رحمة المسلم بأهله.
- رحمة المسلم بالوالدين.
- رحمة المسلم بجاره.
- رحمة المسلم برَحِمِه العامّة والخاصة.
- رحمة المسلم باليتيم.
- رحمة المسلم بالخَدَم.
- رحمة المسلم بالمرضى وذوي العاهات.

وتمتد هذه الرحمة لتشمل الحيوان الأعجم!

وقد شرحنا هذه الخصال في مواضع من هذا الكتاب فانظرها.

ويكفي أن أشير - هنا - إلى موقف «واحد»، تَجَلَّت فيه رحمةُ المسلم في أسمى صورها.

أتسمعون عن الإمام/ أبي إسحاق أحمد بن إسحاق؟

إنه شيخ الإمام البخاري.

قال الإمام **الذهبي** - رحمه الله - في ترجمته لحياته:

« الإمام، الزّاهد، العابد، المجاهد، فارس الإسلام، أبو إسحاق: من أهل سُرْماري، من قُرى بخارى. كان أحدَ الثّقات، وبشجاعته يُضرب المثلُ.

قال ولدُه: دخلتُ على أبي يَوْمًا، وهو يأكل وحَدْه، فرأيتُ في مائدته عُصْفورًا يأكل معه، فلمّا رآني طار!! » ا.هـ[1].

وبهذا النبأ الذي يُكتب بماء الذّهب، أختم الحديث - هنا- وعلى الله قصد السبيل.

۞۞۞۞۞

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣٧/١٣).

٥٧- الرِّفْق

اعلم: أن الرِّفق زينةُ الأعمال وبهاؤها، وسرُّ جودتِها وجمالها.

وهو: خُلُق الأنبياء والصّالحين، وصِفة من صفات اللهِ رَبّ العالمين.

فما هو الرّفق؟

وما حقيقته؟

وما هي مكانته؟

وما هي مظاهره؟

هذا ما سوف نتناوله بالشرح على السطور القادمة.

أوّلاً: تعريف الرِّفق:

الرّفق «**لُغَةً**»: قال **ابن فارس**: «الرّاءُ والْفَاءُ والقاف أَصْلٌ وَاحِد يَدُلُّ على موافقة ومُقَاربة بلا عُنْف، فالرِّفْقُ خِلاَفُ العُنْفِ».

و «**اصطلاحًا**»: هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسْهل، وهو ضدُّ العُنْف[1].

ثانيا: حقيقة الرِّفق:

قال الأمامُ **الغزاليُّ** - رحمه الله تعالى - :

«اعلم أن الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدَّة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرّفق واللّين نتيجة حُسْن الخُلُق والسّلامة، وقد يكون سبب الحدّة الغضبُ، وقد يكون سببها: شدّة الحرص واستيلاؤه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت، فالرفق في

(١) «دليل الفالحين» لابن علاّن (٨٩/٣).

الأمور ثمرةٌ لا يثمرها إلا حُسْن الخُلُق، ولا يُحَسَّن الخُلُق إلاّ بضبط قوّة الغَضب وقوّة الشهوة، وحفظِهما على حَدّ الاعتدال.

ولأجل هذا أثْنى رسولُ الله ﷺ على الرِّفق وبالغ فيه.

قال **سفيان الثوريّ** - رحمه الله - لأصحابه:

تَدْرون ما الرِّفْقُ؟

قالوا: قُلْ يا أبا محمد.

قال: «أن تَضَع الأمورَ في مواضعها: الشِّدّةُ في موضعها، واللِّينُ في موضعه، والسَّيفُ في موضعه، والسَّوْطُ في مَوْضعه».

وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين، والفظاظة بالرفق، كما قيل:

وَوَضْـــعُ النَّدَى في مَوْضع السَّيْف بالْعُلا
مُضِـــرٌّ كَوَضْـــعِ السَّيْفِ في موضع النَّدَى

فالمحمود وَسَطٌ بين العُنف واللّين كما في سائر الأخلاق، ولكن لمّا كانت الطّباع إلى العُنف والحِدّة أمْيَلَ كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرِّفق أكثر، فلذلك كَثُر ثَناءُ الشّرع على جانب الرِّفق دون العنف» ا.هـ[(١)].

ثالثًا: مكانة الرفق:

اعلم: أن الرّفق له مكانة - عظيمة - في دين الله - تعالى - لذا جاءت الأحاديث تحضّ عليه.

(١) عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) «الإحياء» (١٨٤/٣).

«**إنَّ الرِّفْقَ لا يكون في شيء إلاّ زَانه، ولا يُنزعُ من شَيءٍ إلاّ شانه**»[١].

(٢) وعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«**مَنْ أُعطِي حَظَّهُ من الرِّفق فقد أُعْطِي حَظَّه من الخير، ومن حُرِمَ حَظَّه من الرّفق حُرِم حظَّه من الْخَيْر**»[٢].

(٣) وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لها:

«**يا عائشةُ أَرْفِقي فإنَّ الله إذا أراد بأَهْلِ بيتٍ خَيْرًا دَلَّهم على باب الرِّفْق**».

وفي رواية:

«**إذا أرادَ الله بأَهْلِ بيتٍ خيرًا أَدْخَل عليهم الرِّفْقَ**»[٣].

(٤) وعنها - رضي الله عنها - أن يهودَ أَتَوْا النّبي ﷺ ، فقالوا:

السَّامُ عليكم[٤].

فقالت عائشة: عليكم ولعنكم اللّهُ وغَضِبَ عليكم.

قال: «**مَهْلاً يا عائشةُ، عليك بالرِّفْق، وإيَّاكِ والعُنْفَ والْفُحْش**».

قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟

قال: «**أوَ لَم تَسْمَعي ما قُلْتُ، رَدَدْتُ عليهِمْ فَيُسْتَجابُ لي فِيهم ولا يُسْتَجابُ لَهُم فِيَّ**»[٥].

هذه بعض الأحاديث الدّالة على فضيلة «الرّفق»، وسيأتي بعد قليل المزيد.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه الترمذيُّ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٦/١٠٤)، وغيره، وانظر: «الصحيحة» (٥٢٣).

(٤) دعاء بالهلاك والموت.

(٥) رواه البخاري (٦٠٣٠).

رابعًا: مِنْ مَظَاهر الرِّفق:

اعلم: أن الرفق له مجالاته المتعددة، ومظاهره المتنوّعة، ومن مظاهره:

(١) الرِّفق في الدعوة إلى الله تعالى:

وهذا النوع، يشرح اللَّهُ به الصّدور، ويثمر إقبالاً جماهيريًّا واسعًا على الإسلام.

لذا قال تعالى لموسى وهارون - عليهما السّلام - :

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٢- ٤٤].

قال الإمام **ابن كثير** - رحمه الله تعالى - :

«هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتوّ والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلاّ بالملاطفة واللّين، كما قال **يزيد** الرقاشي عند قوله:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾:

يا مَنْ يَتحبَّب إلى مَنْ يُعاديه فكيف بِمَنْ يَتولاّه ويُناديه؟

وقال **وهب بن مُنَبّه**: «قولا له إني إلى العفو أقرب مني إلى الغضب والعقوبة».

والحاصل من أقوالهم: أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع»ا.هـ[1].

حكاية:

قال إبراهيم بن عبد الله الزَّبيبي: سمعتُ نصر بن عليّ يقول:

دخلتُ على المتوكّل، فإذا هو يمدح الرّفق، فأكثر، فقلتُ:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٢٤٦).

يا أمير المؤمنين، أنشدني الأَصمعيُّ:

لَمْ أر مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينهِ	أَخْرجَ لِلْعَذْرَاء مِنْ خِدْرِها
مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ	يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِها

فقال: يا غلام ، الدّواة والقرطاس، فكتبهما[1].

(٢) رفق الولاة والحكام:

«من الواجب على الولاة والحكّام أن يرفقوا بالرّعيّة، ولا يشقّوا عليهم، فالرفق بهم حكمة رفيعة في السياسة، والعنف يورث الكراهية والتذمّر والضّجر، والخرج عن الطاعة، وفساد أمر الجماعة»[2].

لذلك حذّر النبي ﷺ ولاة الأمور من مغبّة القسوة والفظاظة.

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا:

«اللّهُمّ مَنْ وَلى من أَمْر أُمَّتي شيئًا فَشَقّ عليهم فاشْقُقْ عَلَيْه، وَمَنْ وَلِيَ من أَمْر أُمَّتي شيئًا فَرَفَق بِهم فَارْفُقْ به».

ودعاء الرسول ﷺ هذا مستجاب، وهو تأكيد لسنّة الله في عباده القاضية بأن الجزاء من جنس العمل.

بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أن جماعة من رَعيّته اشتكوا من عُمّاله فأمرهم أن يُوافوه، فلمّا أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيُّها النّاس، أيَّتها الرّعيةُ: إن لنا عليكم حَقًّا: النصيحةُ بالغَيْب، والمعاونة على الخير.

أيتها الرُّعاة: إن لِلرَّعيّة عليكم حَقًّا فاعلموا أنه لا شيءَ أحبُّ إلى الله ولا أعزّ من

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/١٣٤).

(٢) «الأخلاق الإسلامية» لعبد الرحمن حسن حبنكة (٢/٣٥٥).

حِلْمِ إمَامٍ وَرِفْقِهِ، ليس جَهْلٌ أبغَضَ إلى الله ولا أَغَمَّ من جَهْلِ إمام وَخَرَقِه، واعلموا أنّه مَن يأخذ بالعافية فِيمَنْ بين ظَهْرَيْه يُرْزَق العافيةَ مِمَّن هو دُونَهُ»[1].

(٣) الرِّفق في التّعبُّد:

الإسلام دين اليسر والرفق، لا يمكن أن تلمس معه حرجًا أو مشقة في أي جانب من جوانبه، عقيدة وشريعة، عبادات، ومعاملات.

- قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].
- وعن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ هذا الدِّين مَتين فأَوْغِلوا فيه بِرِفْق**»[2].

قال العلامة **المناوي** – في شرح هذا الحديث – :

«قوله ﷺ: «**إن هذا الدِّين متين**» أي: صَلْب «**فأوغلوا**» أي: سيروا «**فيه برفق**» من غير تكلّف، ولا تحملوا على أنفسكم ما لا تطيقونه فتعجزوا وتتركوا العمل، والإيغال كما في «النهاية»: السّير الشديد، والوغول: الدخول في الشيء»ا.هـ.

وقد كان النبي ﷺ في ذات نفسه قُدْوة الخَلْق في ذلك:

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

«ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أَمْرَيْن إلاّ أَخَذَ أَيْسَرَهما ما لم يكن إثْمًا، فإن كان إثْمًا كان أَبْعَدَ النّاس منه»[3].

قال الحافظ **ابن حجر** – رحمه الله تعالى – في شرحه لهذا الحديث:

---

(١) «الإحياء» (١٨٩/٣).

(٢) صحيح رواه الإمام أحمد.

(٣) جزء من حديث: رواه البخاري.

« .... يؤخذ من ذلك النَّدْب إلى الأخذ بالرُّخَص ما لم يظهر الخطأ »ا.هـ[١].

وكان ﷺ يَزْجُر أصْحَابه إذا كَلّف أحَدهم نَفْسه فوق قُدْرتها.

ففي مسند الإمام أحمد: أن النبي ﷺ دخل المسجد وأبو إسرائيل يُصلّي، فقيل للنبي ﷺ:

هو ذا يا رسول الله، لا يقعد، ولا يكلّم الناس، ولا يستظلّ، وهو يريد الصِّيام[٢]!

فقال النبي ﷺ:

« لِيَقْعُد، وَلْيُكَلِّم النَاس، وَلْيَستَظِلّ، وَلْيَصُم »[٣].

(٤) الرِّفق بالضعفاء والمرضى:

كان النبي ﷺ أرفق الناس بالشيوخ وذوي السّن وأصحاب المكانة. رحيمًا بالضعفاء، رفيقًا بالمرضى يبرّهم ويعودهم، ويشفق عليهم ويرقّ لحالهم.

عن سَهْل بن حَنيف رضي الله عنه قال:

« كان رسولُ الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم »[٤].

قال العلاّمة المناوي - رحمه الله - :

« كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم » تلطّفًا بهم وإيناسًا لهم « ويعود مرضاهم » ويدنو من المريض ويجلس عند رأسه ويسأله كيف حاله « ويشهد جنائزهم » أي: يحضرها للصلاة عليها »ا.هـ[٥].

---

(١) « فتح الباري » (٣٨٥/٧).

(٢) وكان قد نَذَر ذلك!!

(٣) **صحيح**: رواه أحمد، وغيره.

(٤) **صحيح**: رواه الطبراني في « الكبير ».

(٥) « فيض القدير » (١٩٢/٥).

(٥) الرّفق في التعليم:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قام أعرابي فَبَال في المسجد، فتناوله النّاس، فقال لهم النبي ﷺ :

« دَعُوه وهريقوا على بَوْلِه سَجْلاً من ماء أو ذَنُوبًا من ماء فإنما بُعِثْتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا مُعَسِّرين »[1].

قال **الكرماني**: « فيه الرّفق بالأعرابي مع صيانة المسجد من زيادة النجاسة لو هُيِّج الأعرابي » ا.هـ.

صلّى عليك الله يا رسول الله:

الْبَدْرُ دونك في حُسْنٍ وفي شَرف والبحر دونك في خَيرٍ وفي كَرَم

أخوك عيسى دَعَا ميتًا فقام له وأنتَ أحْيَيْتَ أجْيالاً من العَدَم

(٦) الرِّفق بالنساء:

والحديث عن رفق الإسلام بالنساء يطول استقصاؤه، ولكن يكفي أن نشير - هنا - إلى آية وحديث شريف.

أمّا الآية:

فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

قال صاحبُ « **التفسير الواضح** » - في تفسير هذه الآية:

« .... ويا أيها المؤمنون، عاشروا نساءكم بالمعروف، وخالطوهن بما تألفه الطباع

---

(١) رواه البخاري.

السليمة ولا ينكره الشرع ولا العُرف من غير تضييق في النفقة ولا إسراف.

وفي كلمة المعاشرة معنى المشاركة والمساواة أي كُلٌّ يعاشر صديقه من جانبه بالمعروف مُعرضًا عن الهفوات، جالبًا السّرور، معينًا على الشدائد، حافظًا للود »ا.هـ[1].

وأمّا الحديث:

فعن أنس بن مالك ﷺ قال:

كان رسولُ الله ﷺ في مَسيرٍ له فَحَدَ الحَادِي. فقال رسولُ الله ﷺ :

« **أرْفُقْ يا أنْجَشَة وَيْحَكَ بالقَوَارِير** »[2].

وفي رواية عنه ﷺ قال:

كانت أم سُليم مع النبي ﷺ وهن يسوق بهنَّ سواق، فقال نبي الله ﷺ :

« **أي أَنْجَشه رُويدًا سَوْقَك بالقوارير** »[3].

قال الإمامُ **النووي** – رحمه الله – :

« قوله ﷺ : « **أي أَنْجَشه رُويدًا سَوْقَك بالقوارير** » بمعنى ضعفةِ النساء، و « **رويدا** » معناه الأمر بالرفق بهن و « **سوقك** » أي: ارفق في سوقك بالقوارير.

قال العلماء:

سمّى النساء « قوارير » لضعف عزائمهن تشبيهًا بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها.

والمراد به: الرّفق في السّير لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واستلذته فأزعجت الرّاكب وأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عند شدّة الحركة ويخاف

---

(١) « التفسير الواضح » د. محمد محمود حجازي (٤/٨٠).

(٢) رواه البخاري (٦٢٠٩).

(٣) رواه مسلم وغيره.

ضررهنّ وسقوطهنّ» ا.هـ[(١)].

وقال **الخطابي** - رحمه الله - :

«كان أنجشه أسْوَد، وكان في سوقه عُنف فأَمَره أن يَرْفُق بالْمَطَايا» ا.هـ.

(٧) الرِّفق بأسْرى الحرب:

لم يقتصر رفقُ الإسلام على ذويه، بل تعدّى حتى طال معاديه!!

قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨].

قال عطاء: «الأسير من أهل القبلة وغيرهم».

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله - مُعَلِّقًا:

«وكأنّ هذا القول - أي: قول عطاء - عام يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قُربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوّع، فأمّا المفروضة فلا. والله أعلم» ا.هـ[(٢)].

أخي الكريم:

وتتسع دائرة الرّفق لتشمل الرفق:

بالوالدين.

بالخادم.

بالحيوان.

بالطّير.

بالولد.

بالزوجة.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/٨٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٩/١١٥).

وغير ذلك من سائر أنواع التعامل.

فَتَخلَّق - أخي - بهذا الخُلُق ، فما أحسن الإيمان يُزيِّنه العلمُ، وما أحسنَ العلمَ يُزَيِّنه عَملٌ، وما أحسنَ العملَ يُزَيِّنه الرِّفقُ، وما أضيفَ شيءٌ إلى شيءٍ مِثْلَ حِلْمٍ إلى عِلْم.

« اللّهم إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات » .

۞۞۞۞۞

٥٨- حُسْنُ السَّمْتِ

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«إنَّ الْهَدْىَ الصَّالِحَ، والسَّمْتَ الصَّالِحَ، والاقْتِصَادَ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَة وَعِشْرِينَ جُزْءًا من النُّبوَّة»[1].

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – :

«القَصْدُ، والتَّوَدة، وَحُسْنُ السَّمْتِ، جُزْءٌ من خَمْسَةٍ وعِشْرين جُزْءًا من النُّبوَّة!»[2].

فما هو حُسن السمت؟

وما هي فضائله؟

وما هي أركانه؟

هذا ما سوف نتحدّث عنه – بإذن الله تعالى – على السطور القادمة.

أوّلا: تعريفُ حُسْنِ السَّمْت:

حُسْن السّمت «**اصطلاحًا**»: هو : حُسن المظهر الخارجي للإنسان من طريقة الحديث والصَّمت، والحركة، والسّكون، والدّخول والخروج، والسِّيرة العملية في الناس بحيث يستطيع مَنْ يراه أو يسمعه أن ينسبه لأهل الخير والصّلاح والدِّيانة والفَلاح[3].

قلت: وصاحب «حُسن السَّمْت» من الأولياء.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٧٦)، وأحمد (٢٩٦/١)، وصحّحه الشيخ/ أحمد شاكر.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٩٥٤)، وقال عبد الباقي: رواه الطبراني في «الكبير» مرفوعًا، ومثله لا يُقال بالرأى.

(٣)«نضرة النعيم» (١٥٨٨/٥).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رجلٌ: يا رسول الله، من أولياء الله؟

قال: «**الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله**»(١).

ثانيا: فضل حُسْن السَّمْت:

تقدّم الحديثُ الوارد في فضل «حُسْن السَّمت» قريبًا، وقد وردت آثار في فضائله، منها:

(١) قال **ابْن مسعود** رضي الله عنه يوصي الرجال والنساء:

«مَنْ أَدْرك فِيكُنَّ مِن امْرأةٍ أَوْ رَجُلٍ فالسَّمْتَ الأَوَّل، السَّمْتَ الأَوَّل، فإنّا على الفِطْرة».

قال ابن مسعود: «السَّمْتُ: الطَّريق»(٢).

(٢) وقال **إبراهيمُ النَّخعِيّ** - رحمه الله - :

«كانوا إذا أَتَوْا الرَّجُلَ ليأخُذوا عنه نَظَروا إلى صَلاته وإلى سَمْتِه وإلى هيئته، ثم يأخذونَ عَنْه»(٣).

(٣) وقال الإمام **ابن الجوزيّ** - رحمه الله - :

«قد كان جماعةٌ من السَّلف يقصدون العبدَ الصّالح للنّظر إلى سَمْته وَهَدْيه، لا لاقتِباس عِلْمه، وذلك أن ثمرة عِلْمِه هَدْيُهُ وسَمْتُهُ»ا.هـ(٤).

وقال - أيضًا - :

---

(١) **صحيح**: رواه البزّار، وانظر: «الصحيحة» (١٧٣٣).

(٢) رواه الدارمي (٨٢/١) رقم (٢١٣).

(٣) «الآداب الشرعية» (١٤٩/٢).

(٤) «صيد الخاطر» (٢١٦).

«الكمالُ عزيز، والكاملُ قليل الوجود. فأوَّلُ أسْباب الكمال تناسُب أعضاء الْبدَن، وَحُسْنُ صُورةِ الباطن، وصورة الْبَدن تُسمّى خَلْقًا، وصورة الباطن تُسمّى خُلُقًا. ودليل كمال صورة البدن: حُسْنُ السَّمْت واستعمال الأدب، ودليل صورة الباطن: حُسْنُ الطبائع والأخلاق. فالطبائع:

العفّة والنزاهة والأَنَفَة من الْجَهْل، ومباعدة الشَّرَه. والأخلاق : الكَرَم والإيثار وَسَتْرُ العيوب وابتداءُ المعروف، والحِلْمُ عن الجَاهِل» ا.هـ[1].

هذه بعض آثار وأقوال السّلف والعلماء في فضائل «حُسن السّمت»، وسيأتي بعد قليل المزيد - إن شاء الله تعالى - .

ثالثًا: أركانُ حُسْنِ السَّمت:

اعلم: أن ساق «حُسْن السَّمْت» يقوم على **ثلاثة أركان:**

الركن الأوّل: صَلاحُ السَّريرة:

وهذا الرّكن هو أساس الفلاح في الدنيا والآخرة.

يدلّ على ذلك:

(١) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال الإمام **الفخر** - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

«أمّا السّليم ففيه **ثلاثة أوجه:**

الأوّل: وهو **الأصحّ:** أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والأخلاق الرّذيلة، وذلك لأنه كما أن صحّة الْبَدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال، ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الأمور، فكذلك سلامة القلب عبارة عن

---

(١) نفس المرجع (٢٨٩).

حصون ما ينبغي له وهو العلم والخُلُق الفاضل، ومرضه عبارة عن زوال أحدهما.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة، والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها.

الثاني: أن السليم هو اللّديغ من خشية الله تعالى.

التأويل الثالث: أن السليم هو الذي سَلِم وأسْلَم وسالم واسْتَسْلَم.

والله أعلم» ا.هـ[١].

(٢) وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

قال **قتادة** - رحمه الله - :

«أفلحَ من زَكّى نَفْسَه بطاعة اللهِ وصالح الأعمال، وخاب من دَسَّ نَفْسَه في معاصي»[٢].

(٣) وقال ﷺ: «**.... ألا وإنّ في الجَسَد مُضْغَةً إذا صَلَحَت، صَلَحَ الجَسدُ كُلُّه، وإذا فَسَدت فَسَد الجَسَد كُلُّهُ، ألا وهي القَلبُ**»[٣].

قال الحافظ **ابْنُ رَجَب** - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرّمات واتقائه المشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإن كان قلبُهُ سليمًا ليس فيه إلاّ محبّة الله ومحبّة ما يحبّه الله وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرّمات كلّها، وتوقّي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرّمات.

وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يُحبّه ولو كرهه الله،

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٢/١٤٦).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠/٦٩).

(٣) جزء من حديث: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩/١٠٧).

فسدت حركات الجوارح كلّها، وانبعثت إلى كلّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب.

ولهـذا يقـال: القلـب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صـالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة... وفي مسند الإمام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال:

«**لا يستقيمُ إيمانُ عَبْدٍ حتى يستقيم قَلْبُهُ**»[1].

والمراد باستقامة إيمانه: استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال جوارحه لا تستقيم إلاّ باستقامة القلب.

ومعنى استقامة القلب: أن يكون مُمْتَلِئًا من مَحبَّة الله تعالى ومحبّة طاعته وكراهة معصيته.

وقال الحسنُ لرجلٍ: دَاوِ قَلْبَك فإن حاجة الله إلى العباد صَلاَح قلوبهم: يعني أن مراده منهم ومطلوبه: صلاح قلوبهم، فلا صلاح للقلوب حتى يستقرّ فيها معرفةُ الله وعظمتُهُ ومحبّتُهُ وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكّل عليه، ويمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد وهو معنى قول «لا إله إلا الله».ا.هـ[2].

الركن الثاني: صلاح السِّيرة:

وصلاح السيرة، واستقامتها: ثمرة صلاح السريرة كما تقدم.

قال **خَيْرُ النَّسّاج** - رحمه الله - :

«متى أساءت الجوارحُ الأَدَبَ فهو من غَفْلَةِ القَلْبِ، وَظُلْمَةِ السِّرّ».

وقال الشيخ/ **محمد الغزالي** - رحمه الله - :

(١) حسن: رواه أحمد (٣/١٩٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٨٣، ٨٤) باختصار.

«إن النطق بالشهادتين بداية لما بعده من اعتقاد وعمل، لا ما تحسبه الأبصارُ الكيلة، والهمم القاصرة من أن مجرّد النطق فيه الكفاية والغناء.

وحروف هذه الكلمة – كلمة التوحيد – منافذ تُفْضي بالإنسان إلى ساحات رحيبة وآفاق ممتدة، يشرب القلب فيها حقيقة التوحيد الخالص كلّما سجد لبارئه وبادر إلى مرضاته ونفر من مساخطه، وأدّى الواجب وترك المحرّم إن كلمة التوحيد حصانة البشرية من الخنوع للآلهة المزيّفة.

وهذه الآلهة ليست حجرًا منحوتًا فحسب، بل كل ما يقطع صلة الإرادة الإنسانية بالله، ويربطها بغير رباط الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والألم والأمل، فهو ذريعة للشرك.

وهناك ألوف مزّقت المعاصي صلتهم بالله شرّ ممزّق، وظلّت أهواؤهم تجمح بهم بعيدًا عن الله، حتى نسوا الله أتمّ نسيان.

فلو قارنت بين ضمائرهم وضمائر أهل الجاهلية الأولى، ما وجدت فارقًا بين جحود وجحود، وكنود وكنود!!

إلاّ أن هؤلاء نطقوا بكلمة التوحيد و لم يفهموها، وأولئك فهموها و لم ينطقوا بها.

إن البشرية – بفطرتها– تحلّق في أجواء مشرقة من توحيد الله، فإذا علقت بها حبائلُ الشيطان، ورانت عليها أثقال الشهوة، وزهدت في وحي السماء، ونظرت إلى الأرض، ظلّت تهبط وتهبط، وتسقط دون فضل الله، وتسقط حتى تصل إلى الحضيض.

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

ما كانت كلمة التوحيد نبتًا مشلولاً في تربة خبيثة.

ولكنّها نبت تمتد أصوله في القلب الخصب، وتظهر آثاره ظلالاً وارفة، وثمرات شهيّة.

تظهر أعمالاً طلبها الإسلام وأكّدها، وربط وجوده بنمائها ووفرتها:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وهذه الكلمة، أعلى عند الله قدرًا، وأغلى شأنًا، من أن يستغلّها منافق أو لعوب.

فالرجل العقيم من الأعمال، لا تنفعه دعواه ولا يغني عنه إيمان منتحل:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].ا.هـ[1].

ومِمّا سبق: يتبين لنا: أن استقامة أعمال الإنسان، دليل عن صحة الإيمان، وأن صلاح السيرة: دليل على صلاح السريرة.

وكلّما كان تعلّق قلب المؤمن بربّه أقوى، كلّما كان الإنسان أقوى على كبح جماح هواه، وكفّ نفسه عن الشهوات، وترويضها على الطاعات.

قال **بشر بن الحارث** - رحمه الله - :

«لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سَدًّا مِنْ حَدِيد».

الركن الثالث: صلاح الصُّورة:

ومعنى صلاح الصّورة: ضبطُ ظاهر الإنسان «شكله» على الكتاب والسُّنة. وهو - أيضًا - ثمرة صلاح السّريرة.

قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

إن تخلية ظاهر الإنسان من الإثم والمخالفة، وتحليته بالطاعة والمتابعة، شارة من شارات الإيمان.

---

(١) «عقيدة المسلم» (١٥٣، ١٥٤) باختصار.

وهذه أدلة تبرّهن على ما نقول:

(١) قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فهذا أمر من الله تعالى للنساء بالحشمة، وترك التبرّج لما فيه من إثم، ومخالفة ظاهرة.

(٢) وعن أبي سعيد ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إزرَةُ المُسْلم[1] إلى نِصْفِ السّاق ولا حَرَج أو لا جُناح فِيما بينَه وبين الكعبين، ما كان أسفَلَ من الكَعْبين فهو في النار، مَنْ جَرَّ إزارَه بَطَرًا لم ينظرِ اللّهُ إليه»[2].

(٣) وعن خرشة بن الحرّ، قال:

رأيتُ عمر بن الخطاب وَمَرّ به فتى قد أسبل إزاره وهو يَجرُّه، فدعاه فقال له:

أحَائِض أنت؟

قال: يا أمير المؤمنين: وهل يحيض الرّجل؟!

قال: فما بالك قد أسبلت إزارك على قدميك!!، ثم دعا بشفرة ثم جمع طرف إزاره فقطع ما أسفل الكعبين.

قال خرشة: كأني أنظر إلى الخيوط على عقبيه![3].

(٤) وعن عليّ ﷺ قال:

رأيتُ رسولَ الله ﷺ أَخَذ حَرِيرًا فجَعله في يمينه، وذَهَبًا فجَعله في شماله، ثم قال:

---

(١) إزرة المسلم: ثيابه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٩٣). وقال محقق «جامع الأصول» (١٠/٦٣٥): إسناده صحيح.

(٣) صحيح الاسناد: أخرجه ابن أبي شيبة (٨/٣٩٣) مُختصرًا.

« إنّ هَذيْن حَرَامٌ على ذكور أُمَّتي »[١].

(٥) وقال ﷺ : **« لعن اللّهُ الرَّجُلَ يَلْبَس لُبْسَة المرأة، والمرأة تَلْبس لُبْسَة الرّجل »**[٢].

(٦) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

« جُزُّوا الشّوارب، وأَرْخوا اللّحى، خالفوا المجوس »[٣].

(٧) وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال:

قال رسول الله ﷺ :

« خالفوا المشركين: أحفُوا الشّوارب وأَوْفُوا اللّحى »[٤].

قال **ابن تيمية** – رحمه الله – :

« بيَّنا أن المشابهة في الأمور الظّاهرة توُرث تناسبًا وتشابهًا في الأخلاق والأعمال، ولهذا نُهينا عن مشابهة الكُفَّار، ونُهي كلّ من الرّجال والنّساء عن مشابهة الآخر، والرّجل المتشبِّه بالنّساء يكتسب من أخلاقهنّ، والمرأة المتشبِّهة بالرجال تكتسب من أخلاقهم »ا.هـ[٥].

وفي هذه الأدّلة ردٌّ على من يعتقد أن الإسلام دين جوهر ولا علاقة له بالمظهر!!

كما تردّ على قوم قلّدوا الكفار في عاداتهم وَسَمْتهم، ظانين أن هذا التقليد لا يؤثّر على إسلامهم، ولا يقدح في إيمانهم!

ونسي هؤلاء أو تناسوا: قولَ النبي ﷺ :

« من تشبّه بقوم فهو منهم »[٦].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والنسائي، وانظر: «صحيح الجامع» (٢٢٧٤).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وغيره.

(٣) رواه أحمد ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥٤/٢٢).

(٦) حسن: رواه أحمد، وغيره.

هذا، ولم يُهمل الإسلامُ ظاهرَ الإنسان، بل دعا إلى نَظَافته، والاهتمام بأناقته، والإبقاء على نضارته.

وهذه باقة من أقوال وأحوال النبي ﷺ تدلّ على ذلك:

◻ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

«كان النبي ﷺ مَرْبُوعًا، وقد رأَيْتُه في حُلَّة حَمْراء، ما رأيتُ شيئًا أَحْسَنَ منه»[1].

◻ وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أنه قال:

أتيتُ النَّبي ﷺ في ثوبٍ دُونٍ[2] فقال:

«أَلَكَ مَالٌ؟».

قال: نعم.

قال: **«مِنْ أَيِّ المال؟»**.

قال: قد آتاني اللّهُ من الإبل والغَنم والخيل والرَّقيق.

قال: **«فإذ آتاك اللّهُ مالاً فَلْيُرَ أَثَرُ نعمةِ الله عليك وكَرَامَتِه»**[3].

◻ وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

أتانا رسولُ الله ﷺ فرأى رجلاً شعثًا قد تفرق شعره، فقال:

«أَمَا كان يَجدُ هذا ما يُسَكِّنُ به شَعْرَهُ؟».

ورأى رَجُلاً آخر وعليه ثيابٌ وَسِخَةٌ فقال:

«أما كان هذا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ به ثَوْبه؟»؟[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٨٤٨)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٢) ثوب دون: أي: قديم أو بالٍ.

(٣) **صحيح** رواه أبو داود (٤٠٦٣)، وقال محقق «جامع الأصول» (٦٥٨/١): إسناده صحيح.

(٤) **صحيح** رواه أبو داود (٤٠٦٢)، وصحّحه الألباني.

□ وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**من كان له شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْه**»[1].

هذا بالإضافة إلى حث الإسلام على:

- الاغتسال.
- إزالة شعر العانة والإبط.
- قصّ الشارب.
- استعمال السّواك.
- الطهارة.
- الوضوء.
- التخلّص من زهومة اللّحوم.
- الاستنجاء.
- الختان.

وغير ذلك من الأمور التي تُضادّ النّظافة.

أخي المسلم:

هذه هي الثلاثة أركان التي لا يقوم ساقُ «حُسْن السَّمْت» إلاّ عليها.

فجاهد نفسك للوصول إليها، ولن تستطيع ذلك إلاّ بعون الله لك أوّلاً:

إذا لم يكن عَوْنٌ مِنَ اللهِ للفَتى ... فأكثرُ ما يَجْنى عليه اجْتِهادُهُ

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤١٦٣)، وحسّنه الحافظ في «الفتح» (١٠/٣٦٨)، والألباني في «الصحيحة» (٥٠٠).

ثم بمتابعة النبي ﷺ في:

- سريرته.
- وسيرته.
- وصورته.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفّقني الله – تعالى – وإيّاك.



٥٩- الْحَيَاءُ

اعلم - أخي الكريم - أن «الحياء» خُلُقُ الإسْلام.

عن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ لِكُلّ دين خُلُقًا، وإن خُلُقَ الإسْلامِ الحياء**».[1]

وهو: من العلم الأكبر. قال **ابْنُ عطاء**: «العِلْمُ الأكبر: الهيْبة والحياء».

فما هو الحياء؟

وما هي فضائله؟

وما هي أقسامه؟

وما هي مظاهره؟

هذا ما سوف نُبيِّنه بعد قليل.

وعلى الله قصد السبيل.

أوّلاً: تعريف الحياء:

الحياء «**لغة**» مَصْدَرُ قَوْلهم «حَيي» وهو مأْخُوذٌ من مادَّة (ح ى ى) التي تدل على الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة.

وقال **الإمام ابن القيم**: «الحياء (الذي هو الاستحياء) مُشْتَقٌّ من الحياة، ومن ذلك أيضًا: الحَيَا للمطر، لكنّه مَقْصُورٌ، وعلى حَسَب حياة القلب، يكونُ فيه قوّة خُلُق الحياء، وقلّة الحياء، مِنْ مَوْت القلب والرّوح فكلّما كان القلبُ أَحْيَا كان الحياءُ أَتَمَّ» ا.هـ[2].

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وانظر: «صحيح الجامع» (٢١٤٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٧٠).

و «اصطلاحًا»: تَغيُّرٌ وانكسارٌ يَعْتري الإنسانَ من خوْف ما يُعَابُ به.

وَيُقال خُلُقٌ يَبْعثُ على تَرْك القُبْح ويمنعُ من التّقْصير في حَقِّ ذي الحَقِّ.

- وقال الرّاغِبُ: «الحياءُ: انقباض النَّفس عن القبائح وتَرْكها»[1].
- ويقال: الحياء: انقباض القلب لتعظيم الرَّبّ[2].
- وقال ذو النُّونَ المصريّ - رحمه الله -:

«الحياء: وجود الهيبة في القلب مع وَحْشَة ما سَبَق منك إلى ربِّك تعالى»[3].

- وسُئِل «الجنيد» - رحمه الله - عن الحياء، فقال:

«رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولّد من بينهما حالة تُسمّى الحياء»[4].

- وقال ابن علاّن: «خُلُق يبعث على ترك القَبيح من الأقوال والأفعال والأخلاق يمتنع صاحبه من التقصير في حق ذي الحق»[5].
- وقال ابن مُفْلح الحنبلي: «وحقيقة الحياء خُلُق يبعث على فِعْل الْحَسَن وتَرْكِ القَبيح»[6].

ثانيا: فضائل الحياء:

الحياءُ خُلُق عظيم، وَمَقَامٌ كَبير، ويكفي أنه صِفَة من صفات الله ربِّ العالمين.

عن سلمان ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) «المفردات» (١٤٠).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٢١٧).

(٣) نفس المرجع (٢١٥).

(٤) نفس المرجع (٢١٨).

(٥) «دليل الفالحين» (١٥٨/٣).

(٦) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢٧٧/٢).

«**إنّ الله حَييٌّ كريم، يستحيي أن يرفعَ الرّجُلُ إليه يَدَيْه أن يَردَّهما صِفرًا خائبَتَيْن**»[١].

قال الإمام **ابْنُ القيم** - رحمه الله - :

«وأمّا حياءُ الرّبّ تعالى من عبده، فذاك نَوْع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيِّفه العقول؛ فإنه حياءُ كَرَم وَبِرٍّ وجودٍ وجلال؛ فإنه - تبارك وتعالى - حَييّ كريم، يستحي من عبده، إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صِفرًا، ويَسْتَحْيي أن يعذّب ذَا شَيْبة شابت في الإسلام»ا.هـ[٢].

وقال **المباركفوري** - رحمه الله - :

«قوله: «**إنّ الله حَييٌّ**» فعيل من الحياء، أي: كثير الحياء، وَوَصْفه تعالى بالحياء يُحْمَل على ما يليق له، كسائر صفاته، نؤمن بها ولا نُكيِّفها»ا.هـ[٣].

قال **ابْنُ القيِّم** - رحمه الله - :

«ومن وافق الله في صفة من صفاته، قادته تلك الصّفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربِّه، وأدنته وقربته من رحمته، وصيّرته محبوبًا له؛ فإنه سبحانه رحيم يحبُّ الرحماء، كريم يحبُّ الكرماء، عليمٌ يُحبُّ العلماء، قويٌّ يحبُّ المؤمن القويّ، وهو أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حييٌّ يحب أهل الحياء، جميل يُحبُّ أهْل الجمال، وترٌ يُحبّ أَهْل الْوِتر» ا.هـ[٤].

وقد ورد في فضائل «الحياء» أحاديث منها:

(١) عن يعلى بن أميّة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«**إنّ الله تعالى حَييٌّ سِتّيرٌ يُحبُّ الحياءَ والسَّتْرَ، فإذا اغتسل أحدُكم فَلْيَسْتَتِر**»[٥].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصحّحه الألباني.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٦١).

(٣)«تحفة الأحوذي» (٩/٥٤٤).

(٤)«الجواب الكافي» (٧٧).

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود، والنسائي، وغيرهما، وانظر: «الإرواء» (٧/٣٦٧).

قال العلامة المناويّ – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث:

« قال التوربشتي: وإنّما كان اللّهُ يُحبّ الحياءَ والسّتْر؛ لأنّهما خصلتان يُفْضيان به – أي بالعبد – إلى التّخلُّقِ بأخْلاق الله »ا.هـ[1].

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **الحياءُ من الإيمان، والإيمان في الجنّة، والبذاء[2] من الجَفاء، والجفاء في النّار** »[3].

(٣) وعن أنس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **ما كان الْفُحْشُ في شيءٍ قَطُّ إلا شانه، ولا كان الحياء في شيءٍ قَطُّ إلا زانه** »[4].

(٤) وعن عمران بن حُصين ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **الحياءُ خيرٌ كُلّه** »[5].

(٥) وعنه ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **الحياءُ لا يأتي إلاّ بخير** »[6].

---

(١) « فيض القدير » (٢/٢٢٨).

(٢) البذاء: إظهار الفحش من القول.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٣١٩٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٥٥٣١).

(٥) رواه مسلم وأبو داود.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

ثالثًا: أقسام الحياء:

قال الإمامُ ابْنُ القيم - رحمه الله تعالى - :

« قُسِّم الحياءُ إلى عَشْرةِ أوْجُه:

حياءُ جِنَايةٍ، وحياءُ تَقْصيرٍ، وحياءُ إجْلال، وحياءُ كَرَم، وحياءُ حِشْمَة، وحياءُ اسْتِحْقَارِ النَّفْس « استصغارِها »، وحياءُ مَحبَّة، وحياءُ عبودية، وحياءُ شَرَفٍ وعِزَّة، وحياءُ الْمُسْتَحْيي من نَفْسِه.

١- **فأمّا حياءُ الجِنَاية:**

فمنه حياءُ « آدم » عليه السلام لمّا فر هاربًا في الجنّة. قال الله تعالى:

« أفِرَارًا مِني يا آدم؟ ».

قال: « لا يا ربِّ. بل حياءً منك ».

ومنه: حياء الصّالحين ممّا اجترحوا.

لمّا احْتُضر « الأسود بن يزيد » بَكَى، فقيل له: ما هذا الجزع؟

قال: « ما لي لا أجْزَعُ؟! ومن أَحقّ بذلك مني؟! والله لو أُتيتُ بالْمَغْفرة من الله عز وجل لأهمّني الحياءُ منه مِمّا قد صنعتُ؛ إن الرّجُلَ ليكون بينَه وبين الذّنب الصّغير فيعفو عنه ، ولا يزالُ مُستَحْيِيًا منه »[1].

٢- **وحياء التقصير:**

كحياء الملائكة الذي يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا:

« سُبحانك ما عبدناك حق عبادتك ».

٣- **وحياء الإجلال:**

وهو حياء المعرِفة، وعلى حسب معرفة العبد بِربِّه يكون حياؤه منه.

(١) « السّير » (٤/٥٢).

٤- وحياء الكَرَم:

كحياء النّبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة «زينب» - رضي الله عنها - وَطَوَّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا، فقال اللّهُ ﷻ:

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

د- وحياءُ الحِشْمة:

كحياء عليّ بن أبي طالب ﷺ أن يسأل رسول الله ﷺ عن الْمَذْي، لمكان ابنته منه.

فعن عليّ رضي الله عنه قال:

كنتُ رَجُلاً مَذَّاءً، فأمرتُ المقدادَ أن يسأل النّبي ﷺ فسأله، فقال:

«فيه الوضوء»[1].

وفي رواية:

«إذا رأيتَ الْمَذْي فاغسل ذَكَرَك وتوضّأ وضوءك للصّلاة»[2].

٦- وحياء الاستحقار، واستصغار النّفس:

كحياء العبد من ربّه - ﷻ - حين يسأله حوائجه، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها.

وقد يكون لهذا النّوع سببان:

أحدهما: استحقارُ السّائل نَفْسَه، واستعظامُ ذُنوبِهِ وخَطَاياه.

الثاني: استعظامُ مَسْئولِه (وهو الله تعالى).

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (١٩٠).

٧- وأمّا حياءُ المحبَّة:

فهو حياء المحب من محبوبه، حتى أنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياءُ من قلبه، وأحسّ به في وجهه ولا يدري ما سببه.

وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة. ومنه قولهم: «جمال رائع» وسببُ هذا الحياء والرَّوعة مِمّا لا يعرفُهُ أكثُر النّاس.

فإذا فاجأ المحبوب مُحبَّهُ، ورآه بَغْتة، أحَسَّ القلبُ بهجوم سُلْطَانه عليه فاعْتَراه رَوْعَةٌ وخوفٌ.

٨- وأما حياء العبوديَّة:

فهو حياء مُمْتَزج من مَحبَّة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديّته لمعبوده، وأن قَدْرَهُ أعْلى وأجَلّ منها. فعبوديّته له تُوجِبُ استحياءَه منه لا مَحَالة.

٩- وأما حياء الشَّرف والعِزّة:

فحياء النَّفْس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء أو إحسان. فإنه يستحيي - مع بذله - حياءَ شَرَف وَعِزّة؛ وهذا له **سببان:**

أحدهما: هذا.

والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل؛ حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياءً منه، وهذا يدخل في حياء التلوّم؛ لأنه يستحيي من خجلة الآخذ.

١٠- وأما حياءُ المرء من نفسه:

فهو حياء النُّفُوس الشّريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنّقص، وقناعتها بالدّون. فيجد نفسه مُسْتحييًا من نفسه، حتى كأنّ له نَفْسَيْن، يستحيي بإحَداهُما من الأُخْرى، وهذا أكملُ ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استَحْيَى مِن نَفْسه فهو بأن يَسْتحيِيَ مِنْ غيره أجْدر» ا.هـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٧٢/٢) باختصار وتصرّف يسير.

وهذا الحياء يتولّد من عدّة أمور:

الأوّل: رؤيةُ النِّعم، ورؤية التقْصِير:

قال الإمام **الجنيد** - رحمه الله تعالى - :

«الحياءُ: رؤية الآلاء «أي النّعم»، ورؤية التقصير، ويتولّد بينهما الحياء»ا.هـ.

والثاني: التعظيم المَنُوط بالحُبّ:

قال **الهرويُّ** - رحمه الله - :

«يتولّد الحياءُ من التعظيم المنوط بالحب»ا.هـ[1].

قال **ابن القيم** - رحمه الله - شارحًا:

«يعني أن الحياء حالةٌ حاصلة من امتزاج التعظيم بالمودّة، فإذا اقترنا تولّد بينهما الحياءُ»ا.هـ[2].

ولذلك يقال: الحياء: انقباض القَلْب لِتَعْظِيم الرَّب[3].

والثالث: علم العبد بنظر الله تعالى إليه:

قال الإمام **ابن القيّم** - رحمه الله - :

وقد يتولّد الحياء من علم العبد بنظر الحق إليه، فيجذبه ذلك إلى تحمّل المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية، ويسكنه عن الشكوى»ا.هـ[4].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤].

وفي حديث جبريل المشهور: **ما الإحسان؟** قال: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**».

---

(١) نفس المرجع (٢/٢٧٤).

(٢) نفس المرجع

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢١٧).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٧٥).

قال الإمام **القشيريّ** - رحمه الله - :

«الحياء: ذوبان الحشا لاطّلاع المولى» ا.هـ[(١)].

والرابع: تحقّق القلب بالمعيّة الخاصّة مع الله ﷻ:

قال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله - :

«ومن الحياء ما يتولّد من تحقّق القلب بالمعيّة الخاصة مع الله » ﷻ.

والمعيّة مع الله **نوعان:**

عامّةٌ: وهي معيّة العلم والإحاطة المستفادة من قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

خاصّةٌ: وهي التي أشار إليها سبحانه في قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وهذه المعيّة معيّة قُرْب تتضمّن الموالاة والنَّصْر والحِفظ وكلاَ المعيَّتَيْن مُصَاحَبَةٌ منه لِلْعَبْد، لكن الأُولى مُصَاحَبَةُ اطّلاع وإحاطة، والثانية مصاحبةُ مولاة ونصر وإعانة.

وقُرب الله - تعالى - من العبد فهو - أيضًا - **نوعان:**

الأول: قُرْبه من داعيه بالإجابة، وذلك كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولهذا نزلت هذه الآية جوابًا للصّحابة - ﷺ - عندما سألوا رسول الله ﷺ : «ربُّنا قريبٌ فنناجيه أم بعيد فنناديه؟» .

والثاني: قُرْبه من عابده بالإثابة، وشاهدُهُ قوله ﷺ :

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٢١٧).

«أقْرَبُ ما يكون العَبْدُ من ربِّه وهو ساجدٌ».

وهذا القُرْبُ لا يُنافي كمال مُبَايَنَةِ الرَّب لِخَلْقه، واستواءَهُ على عَرْشه، إذ هو ليس كَقُرْب الأجسام بعضها من بعض، تعالى اللَّهُ عن ذلك عُلُوًا كبيرًا»ا.هـ[1].

هذا، وعدوّ الحياء اللّدود: المعاصي، فإنّها تظلّ بالإنسان حتى تُذْهب حياءه، وقد تميته بالكلية!!

قال ابْنُ القيم - رحمه الله -:

«ومن عقوبات المعاصي: ذهاب الحياء الذي هو مادّة القلب، وهو أصل كُلِّ خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه».

وقال ﷺ:

«إنّ مِمّا أدْرك النّاس من كلامِ النُّبوّة الأُولى: إذا لم تَستحي فاصْنعْ ما شِئْت» وفيه تفسيران:

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد، والمعنى: من لم يستحي فإنه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها. وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: أن الفعل إذا لم تستحي من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحيي منه من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد.

فعلى الأوّل يكون تهديدًا، كقوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وعلى الثاني: يكون إذنًا وإباحة.

والمقصود: أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربّما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربّما لا يتأثّر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يُخبر عَنْ حَاله

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٧٥- ٢٧٩) باختصار وتصرّف.

وَقُبْح ما يفعل، والحامل له على ذلك: انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبدُ إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وإذا رأى إبليسُ طَلْعَةَ وَجْهِهِ حَيَّا وقال: فَدَيْتُ مَنْ لا يُفْلِحُ

والحياء مشتقّ من الحياة... فمن لا حياء له فهو ميّت في الدنيا، شقي في الآخرة.

وبين الذنوب وبين قلّة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا، ومن استحيي من الله عند معصيته، استحيي اللّهُ من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته» ا.هـ[1].

قلت: وهذا كلام نفيس، يكتب - والله - بماء الذّهب.

رابعًا: مظاهر الحياء:

للحياء دلائل تشير إلى وجوده، بيّنها الحديث التالي:

عن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **استَحْيُوا من الله حَقَّ الحياء** ».

قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله!

قال: « **لَيْسَ ذَاك، ولكن الاسْتحْيَاء من الله حَقّ الحياء: أن تحفظَ الرأسَ وما وَعى، والبطنَ وما حَوَى، وَلْتَذْكُرْ الموتَ والْبِلَى، ومن أراد الآخرة تَرَك زِينَة الدُّنيا، فَمَنْ فَعَل ذلك فقد استَحْيَا من الله حقَّ الحياء** »[2].

قال العلاّمة المباركفوريّ - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

« قوله: « **استحيوا من الله حق الحياء** » أي: حياء ثابتًا لازمًا صادقًا. قاله المناوي.

---

(١) «الداء والدواء» (٨٠، ٨١) باختصار.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وأحمد، والبيهقي، والحاكم، وصحّحه، وأقرّه الذهبي، وحسنه الألباني.

«**قلنا: يا نبي الله إنا لنستحيي**» لم يقولوا حق الحياء اعترافًا بالعجز عنه.

«**والحمد لله**» أي: على توفيقنا به، «**قال: ليس ذاك**» أي: ليس حقّ الحياء ما تحسبونه، بل أن يحفظ جميع جوارحه عمّا لا يرضى «**ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس**» أي: عن استعماله في غير طاعة الله بأن لا تسجد لغيره، ولا تُصلّي رياء، ولا تخضع به لِغَيْر الله، ولا ترفعه تكبُّرًا. «**وما وعى**» أي: جَمَعَه الرأس من اللسان والعين والأذن عمّا لا يحلّ استعماله، «**وتحفظ البطن**» أي: عن أكل الحرام، «**وما حَوَى**» أي: ما اتصل اجتماعه به من الفرج والرّجلين واليدين والقلب؛ فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف، وحفظها بأن لا تستعملها في المعاصي، بل في مرضاة الله تعالى. «**ولتذكر الموت والبِلَى**» - بكسر الباء - من بلى الشيء إذا صار خلقًا مُتَفتّتًا، يعني تتذكّر صيرورتك في القبر عظامًا بالية، «**ومن أراد الآخرة ترك زينة الدّنيا**» فإنهما لا يجتمعان على وجه الكمال حتى للأقوياء، قال القاري. وقال المناوي:

لأنهما ضرّتان فمتى أرضيت إحداهما أغضبت الأخرى «**فمن فعل ذلك**» أي: جميع ما ذُكِر» ا.هـ[1].

أمثلة عَطِرة في الحياء:

وعلى أرض الواقع، كان للأنبياء والصّالحين النّصيب الأوْفى من الحياء، فعطّروا به التاريخ بعد صحائف أعمالهم.

وهذه بعض أحوالهم وأقوالهم:

(١) حَيَاءُ النّبي ﷺ:

يَصِفُ أبو سعيد الخدْري رضي الله عنه لنا حياء النّبي ﷺ فيقول:

«كان رسول الله ﷺ أشَدَّ حَيَاء من العذراء في خِدْرها، فإذا رأى شيئًا كَرِهَهُ،

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٦/ ٣٣١).

عَرَفْنَاه في وَجْهِه»[١].

(٢) حياء موسى عليه السلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ موسى كان رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَى مِنْ جِلْدِه شيءٌ، اسْتِحياءً منه»[٢].

(٣) حياء عثمان بن عفّان رضي الله عنه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«الحياءُ مِنَ الإيمان، وأَحْيَى أُمَّتِي: عثمان»[٣].

ويصف الحسنُ البصري - رحمه الله - شدّة حياء عثمان رضي الله عنه فيقول:

«إن كان ليكون في البيت، والباب عليه مُغْلَق، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياءُ أن يُقيم صُلْبه!!».

(٤) حياءُ بنت الرّجل الصّالح «شعيب»:

ذكر ربُّنا - تبارك وتعالى - حياءها - ويكفيها شرفًا - فقال عز وجل:

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ [القصص: ٢٥].

فأين نساء اليوم من هذا الخُلُق الكريم؟

(٥) حياءُ عائشة - رضي الله عنها - :

ويكفي أن نشير - هنا - إلى موقف «واحد» تجلّى فيه حياؤها في أَعْلى عُلوِّه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري وغيره.

(٣) صحيح: رواه ابن عساكر، وانظر: «الصحيحة» (١٨٢٨).

قالت - رضي الله تعالى عنها - عن نفسها:

«كنتُ أدخل البيتَ الذي دُفن فيه رسولُ الله ﷺ وأبي ﷺ، واضعةً ثَوْبي، وأقول: إنّما هو زوجي وأبي. فلمّا دفن عُمر ﷺ، فوالله ما دخلتُهُ إلاّ مشدودةً عليَّ ثيابي حياءً من عمر ﷺ !!»[1].

تتحجّب من رجل «ميّت»!!

هل وجدتم في الدّنيا حياءً وصَلَ إلى هذا الحد؟!!

على الحياء اليوم فَلْتَبْكِ البواكي.

وبهذا، أختم حديثي إليك - أخي - هنا.

والله الموفق لما يحب ويرضى.

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/٧) بنحوه، وصحّحه على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

٦٠- النَّظَافَةُ

بعض مُحْترفي التدين يحسبون فَوْضى الملبس واتّساخه ضَرْبًا من العبادة، وربّما تعمّدوا ارتداء المرقعات والتّزيُي بالثّياب المهملة لِيُظْهروا زهدهم في الدنيا وحبّهم للأخرى. وهذا من الجهل الفاضح بالدّين، والافتراء على تعاليمه.

حدّثنا **ابن عباس** قال:

لمّا خرجت الحروريّة[1] أتيتُ عليًّا ﷺ، فقال: ائْتِ هؤلاء القوم.

فلبستُ أحسن ما يكون من حُلَل الْيَمَن، فلقيتُهم، فقالوا:

مرحبًا بك يا ابن عبّاس، ما هذه الحُلّة؟

قلتُ: ما تعيبون عليَّ! لقد رأيتُ على رسولِ الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلَل[2].

ولتصحيح المفاهيم ، فالحديث - هنا - يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريفُ النظافة.

والثاني: الحثّ عليها.

والثالث: مظاهرها.

وأسأل الله - تعالى - حُسن التوفيق.

أولاً، تعريف النظافة:

النّظافة: النَّقَاءُ من الدَّنَس. ويُقال: فلان يَتَنَظَّف: يَترفَّع عمّا يَشِينُ ويتنزه.

والنّظيف: ما لا قَذَرَ فيه. ويقال: هو نظيف الأخلاق: مهذّب.

---

(١) الحرورية: الخوارج.

(٢) رواه أبو داود، وانظر: «خلق المسلم» للغزالي (١٥٨).

ثانيا: الحث على النَّظافة من الكتاب والسُّنَّة:

ولأهمية النظّافة، جاءت الآياتُ القرآنية، والأحاديث النبوية، تحثّ عليها، وتدعو إليها.

فمن الآيات:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

قال الإمامُ **الفَخْر**: - رحمه الله تعالى - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾:

« واعلم أن تفسير هذه الآية يقع على **أربعة أوجه**:

أحدها: أن يترك لفظ الثياب والتطهير على ظاهره.

والثاني: أن يترك لفظ الثياب على حقيقته، ويحمل لفظ التطهير على مجازه.

والثالث: أن يُحمل لفظ الثياب على مجازه، ويترك لفظ التطهير على حقيقته.

والرابع: أن يحمل اللّفظان على المجاز.

أما الاحتمال الأوّل:

وهو أن يترك لفظ الثياب ولفظ التطهير على حقيقته، فهو أن نقول: المراد منه أنه عليه الصّلاة والسلام، أمر بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار.

الاحتمال الثاني:

أن يبقى لفظ الثياب على حقيقته، ويجعل لفظ التطهير على مجازه.

فهنا قولان:

الأوّل: أن المراد من قوله تعالى ﴿ فَطَهِّرْ ﴾ أي: فقصرٌ، وذلك لأن العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرّون أذيالهم فكانت ثيابهم تتنجّس، ولأن تطويل الذّيل إنما يفعل للخيلاء والكبر، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك.

القول الثاني: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي: ينبغي أن تكون الثياب التي تلبسها مطهّرة عن أن تكون مغصوبة أو محرّمة، بل تكون مكتسبة من وجه حلال.

الاحتمال الثالث:

أن يبقى لفظ التطهير على حقيقته، ويحمل لفظ الثياب على مجازه، وذلك أن يحمل لفظ الثياب على الجسم وذلك لأن العرب ما كانوا يتنظفون وقت الاستنجاء، فأمر عليه الصّلاة والسّلام بذلك التنظيف وقد يجعل لفظ الثياب كناية عن النّفس.

الاحتمال الرابع:

وهو أن يحمل لفظ الثياب ولفظ التطهير على المجاز، وذكروا على هذا الاحتمال وجوهًا:

الأوّل: وهو قول أكثر المفسّرين: وقلبك فطهّر عن الصّفات المذمومة.

وعن الحسن: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال: وَخُلُقَك فحسّن.

والسَّببُ في حُسن هذه الكناية **وجهان:**

الأول: أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، يقال: الْمَجْد في ثوبه والعفّة في إزاره.

والثاني: أن الغالب: أن من طهرّ باطنه، فإنّه يطهّر ظاهره»ا.هـ[1].

ومن الأحاديث:

فالأحاديث الداعية إلى النّظافة، المرغّبة فيها كثيرة، منها:

(١) عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

أتانا رسولُ الله ﷺ فرأى رَجُلاً شَعِثًا قد تَفرَّقَ شَعْرُهُ، فقال:

«**أمَا كان يَجِدُ هذا ما يُسكِّنُ به شَعْرَهُ؟**».

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠/٨٢٦- ٨٢٨) باختصار.

ورأى رَجُلاً آخَرَ وعليه ثِيَابٌ وَسِخَةٌ، فقال:

« أما كان هذا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ به ثَوْبَهُ؟ »[1].

(٢) وعن أبي ذرّ ﷺ عن النبي ﷺ قال:

« مَن اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعةِ فأَحْسَن غُسْلَهُ، وتطهَّر فأحْسَن طُهُورَهُ، وَلَبِسَ مِنْ أحسن ثيابه، وَمَسَّ ما كَتَب اللّهُ له من طِيبِ أَهْلِه، ثم أتى الجُمُعةَ ولم يَلْغُ، وَلَمْ يُفرِّقْ بين اثْنين، غُفِر له ما بينَه وَبين الجُمُعَةِ الأُخْرَى »[2].

(٣) وعن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ خَطَب النّاسَ يَوْمَ الجُمُعةِ، فرأى عليهم ثيابَ النِّمَار[3]، فقال رسولُ الله ﷺ :

« ما على أحدكم – إن وَجَدَ سَعَةً – أن يتَّخِذَ ثوبينِ لِجُمُعَتِه، سِوى ثَوبيْ مِهْنَتِه؟! »[4].

قال العلامة **أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي** – رحمه الله – :

« والحديث يدل على استحباب لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة وتخصيصه بملبوس غير ملبوس سائر الأيّام » ا.هـ[5].

هذه بعض الأحاديث الداعية إلى النظافة، وسيأتي بعد قدل – إن شاء الله تعالى – المزيد.

ثالثاً: مظاهر النظافة:

للنظافة صور متعددة في الإسلام، منها:

(١) نظافة البدن:

ونظافة البدن تتمّ بأمور، منها:

---

(١) صحيح رواه أبو داود (٤٠٦٢)، وغيره.

(٢) صحيح « صحيح سنن ابن ماجه » (٩٠٧).

(٣) النمار: جمع نمرة: بردة يلبسها الأعراب فيها خطوطٌ بيضٌ وسُودٌ.

(٤) صحيح « صحيح سنن ابن ماجه » (٩٠٦)، « صحيح سنن أبي داود » (٩٨٩).

(٥) « عون المعبود » (٣/٢٩٢).

أ- الأخذ بِسُنَنِ الفِطْرة: ومنها:

- **الاستحداد**: وهو حلق العانة. والعانة: الشَّعْر الذي فوق ذَكر الرجل وحواليه، وكذلك الشَعْر الذي حول فَرْج المرأة، وقيل أنه الشَّعْر النابت حول حلقة الدُّبر.

«وفي حَلْق العانة حكمة عظيمة، لأن ترك شعر العانة، يولِّد قملاً خاصًّا، يسبب أمراضًا خطيرة، وأوبئة عظيمة، علاوة على ما يسببه من حكّة في الجلد، وهذا ما أثبته الطب الحديث»[١].

- **تقليم الأظفار**: وهو أخذ أعلاها من غير استئصال، والمراد إزالة ما يزيد على ما يلامس رأس الأصبع من الظّفر لأن الوسخ يجتمع فيه فيستقذر، وقد ينتهي إلى حدّ يمنع وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة[٢].
- **نتف الإبط**: والحِكمة في نتفه أنه محلٌّ للرائحة الكريهة.
- **قصّ الشارب**: قال القرطبي: وقصّ الشارب أن يأخذ ما على الشفة بحيث لا يؤذي الآكل ولا يجتمع فيه الوسخ[٣].
- **الاستنشاق**: وهو إيصال الماء إلى داخل الأنف وجذبه بالنَّفَس إلى أقصاه، ويستحب المبالغة في المضمضة والاستنشاق إلاّ في الصّوم.

قال ﷺ: «**إذا توضأ أحُدكم فَلْيَستَنْشق بمنخريه من الماء ثم لِيَنْتَثِر**»[٤].

والانتثار: هو إخراج الماء بعد الاستنشاق مع ما في الأنف من مخاط وشبهه[٥].

وقد أثبت الطبُّ الحديث: أن إدخال الماء في الأنف وإخراجه بقوّة عدّة مرّات في اليوم، يقي من أمراض عدّة!.

---

(١) «عناية الإسلام بالصّحة البدنية» للسيدة كاملة الأنوار محمد صابر حجاب (٣٣).

(٢) «فتح الباري» (٣٥٧/١٠).

(٣) نقله عنه الحافظ في «الفتح» (٣٥٩/١٠).

(٤) رواه مسلم، والبخاري بنحوه.

(٥) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٢٦/٣).

- **غسل البراجم**: وهي عُقَد الأصابع ومفاصلها كلّها، ويحلق بالبراجم إزالة ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأُذن وقعر الصِّماخ، فإن في بقائه إضرار بالسَّمع.

- **الاستجمار والاستطابة**:

والاستجمار: هو مَسْح مَحل البول والغائط بالجمار، وهي الأحْجار الصّغيرة.

وأمّا الاستطابة والاستنجاء: فيكونان بالماء ويكونان بالأحجار[١].

«ومن آداب قضاء الحاجة التي لها صلة كبيرة بالعناية بالصّحة البدنية؛ تخصيص اليد اليسرى للاستنجاء دون اليد اليمنى، حتى تبقى اليد اليمنى كاملة النظافة للطهور والطعام».

قال ﷺ: «**إذا شَرِبَ أحدُكم فلا يتنفَّس في الإناء، وإذا أتى الْخَلاَء فلا يمسح ذَكَره بيمِينه ولا يتمسّح بيمينه**»[٢].

وهذا أمر في قمّة الطّب الوقائي، لأن اليد اليمنى هي التي يتناول الإنسان بها طعامه، فإذا استنجى المرء بها وطعم بعد ذلك كانت هناك مظنّة انتقال شيء من الميكروبات إلى فمه مهما غسل يده بعد الاستنجاء، فيصاب بأمراض جسمية كثيرة، ويصيب غيره كذلك ممّن يأكل معه من إناء واحد»[٣].

- **المضمضة**: وفوائد المضمضة تأتي من أن الفم مدخل لكثير من الأمراض المعدية، وتكثر به الجراثيم المنتشرة في الجوّ التي إذا تكاثرت أضرت، ولا تتكاثر إلا بوجود فضلات الطعام.

- **السّواك**: وهو يطلق على العود الذي يستاك به، وعلى الاستياك نفسه، وهو دلك الأسنان بذلك العود، وخير ما يُستاك به عود الأراك.

«ولقد أثبتت الأبحاث العلمية في جامعة «رستوك» بألمانيا الشرقية أن بعض المواد

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/١٢٥).

(٢) رواه البخاري (١/٢٢١)، ومسلم (٢٦٧).

(٣) «عناية الإسلام بالصّحة البدنية» (١٢).

المضادة للميكروبات، وخاصّة التي تحتمي في المواد الدهنية، موجودة في السّواك»[١].

وقد أثبت الطبّ الحديث أن السواك يحتوي على مادّة قاتلة للميكروبات تفوق البنسلين في مفعولها!

هذه سنن الفطرة، وقد جاءت بتحديدها أحاديث، منها:

عن أبي هريرة ﷺ:

قال رسولُ الله ﷺ:

«الفطرة خَمْس: الاختتان، والاسْتِحداد، وقصّ الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط»[٢].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

قال رسول الله ﷺ:

«عشر من الفطرة: قصّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسّواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانْتِقَاص الماء»[٣].

قال زكريا: قال مصعب: ونسيتُ العاشرة إلاّ أن تكون المضمضة[٤].

ب- غسل اليد بعد النوم:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إذا استيقظ أحدُكم من نومه فلا يُدْخل يَدَه في الإناء حتى يغسلها ثلاثَ مرّات فإن أحدَكم لا يَدْري أين باتت يَدُهُ، أو أين كانت تطوف»[٥].

---

(١) «مجلة الدعوة» عدد ٣٣ (ص٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٨٩١)، ومسلم (٥٠)، (٢٥٨)، وغيرهما.

(٣) **انتقاص الماء**: الاستنجاء.

(٤) رواه مسلم (٢٦١)، وغيره.

(٥) رواه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨)، وغيرهما.

وفي هذا الحديث «إيحاء إلى أن الباعث على الأمر بذلك احتمال النجاسة، لأن الشارع إذا ذكر حُكْمًا وعقَّبه بعلّةٍ دلّ على أن ثبوت الحُكم لأجلها»[١].

فَمَن في العالم الْتَفَتَ إلى هذا الأدب؟

جـ - الوضوء:

وهو بالضّم: الفعل، وبالفتح: الماء الذي يُتوضّأ به على المشهور فيهما، وهو مُشْتق من الوضاءه، وسُمّى بذلك، لأن المصلّي يَتَنَظَّف به، فيصير وضيئًا.

د- الاغتسال:

وقد ورد الأمْر به بالكتاب والسُّنّة.

ومن فوائده: تنظيف الجسم، وإزالة الأقذار عنه، وفتح مسامّه، وتنشيط الدورة الدموية.

هـ - إكرامُ الشَّعْر:

عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ كان له شَعَرٌ فَلْيُكْرِمْه»[٢].

وعن عطاء بن يسار، قال:

كان رسولُ الله ﷺ في المسجد فدخل رجلٌ ثائر الرأس واللّحية، فأشار إليه رسولُ الله ﷺ بيده أن اخرُجْ، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال رسولُ الله ﷺ:

«هذا خَيْرٌ من أن يأتِيَ أحدُكم ثَائِر الرأسِ كأنّه شيطان»[٣].

---

(١) «فتح الباري» (١/٣١٨)، نقلاً عن البيضاوي.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤١٦٣)، وغيره، وقال الحافظ في «الفتح» (١٠/٣١٠): إسناده حسن.

(٣) سنده صحيح، ولكنه مرسل: أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٩٤٩).

قلت: ينبغي على من أكرمه اللّهُ - تعالى - بإعفاء لحيته، أن يتعاهدها، بالنظافة والتسريح، ولا يتركها شَعِثة مهانة.

و- تنظيف الثياب وتطهيرها:

وقد تقدّمت بعضُ الأدلّة الآمِرة بِنَظَافَتِها وتطهيرها.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - ، قال

قال رسولُ الله ﷺ :

« **إذا صلّى أحدُكم فَلْيَلْبَس ثَوْبيه، فإنّ الله أحقّ مَنْ تَزَيَّن له** »[1].

وعن سَمُرة بن جندب ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **الْبَسُوا الْبياض فإنّها أطْهَرُ وأَطْيَب....** »[2].

أخي:

هذا هو هُدى الإسلام في « المظهر » نقاء، نظافة، طهارة، جمال، طِيب ريح.

فإذا علمتَ هذا، فلا تصدّق ما رواه صاحبُ كتاب « تنبيه المغترين » من أن الحسن البصريّ - رحمه الله - « كان إذا لبس القميص لا ينزعه حتى يخلق[3]. وقيل له مرّة:

ألا تغسل قميصك؟

فقال: الأمر أعجل من ذلك! »[4].

فهل هذا يُعقل أيّها الناس؟

---

(١) قال الهيثمي في « المجمع » (٢/٥١): رواه الطبراني في « الكبير » وإسناده حسن.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٦٢)، وقال: حسن صحيح.

(٣) أي: يَبْلَى.

(٤) « تنبيه المغترين » للشعراني (٢٩٩).

أليست النّظافة من الإيمان، والحرص عليها من السُّنة، وفعلها ثواب؟!

إن هذا القول لا يصحّ عن الحسن - رحمه الله - فلقد كان سلفنا - رحمهم الله - أنظف الناس ثيابًا، وأطيبهم ريحًا، وأجملهم هيئة.

قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن:

«لقد رأيتُ مَشْيخة المدينة، وإن لهم لَغَدَائر وعليهم الْمُمَصَّر[١] والمورَّد[٢] في أيديهم مخاصر[٣]. وفي أيديهم آثار الحنّاء في هيئة الفتيان، ودينُ أحدهم أَبْعَدُ من الثّريا إذا أُرِيدَ على دينه»[٤].

(٢) نظافة الماء والطريق:

حرص الإسلام أشدّ الحرص على نظافة الماء - خصوصًا الجاري - وحذّر من مغبّة تَلْويثه، وَتَنْجيسه.

□ عن أبي هريرة - ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال:

«**اتقوا اللّعانين، أو اللَّعْنَتَيْن**».

قالوا: وما هما يا رسول الله؟

قالَ: «**الذي يَتَخلّى في طريق النّاس أو ظلّهم**»[٥].

والمعنى: اتقوا الأمرين الجالبين للعن، وهما قضاء الحاجة في الموضع الذي يستظل فيه الناس، وفي طريقهم.

□ وعن معاذ ﷺ:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) المصّر: ثوب مصبوغ بتراب أحمر.

(٢) المورَّد: المصبوغ بلون الورد.

(٣) المخاصر: جمع مخصرة، وهي: ما يتوكّأ عليه كالعصا.

(٤) «صفة الصفوة» (١٥٦/٢).

(٥) رواه مسلم، وغيره.

« **اتقوا الملاعن الثلاث: البَرَاز في الموارد**[1]**، وقارعة الطَّريق، والظِّلال** »[2].

قال الدكتور/ **الجميلي** – حفظه الله – :

« إن البراز مركّب فسيوكيمائي نتيجة عمليات الأيض البيوكيمائية، والتمثيل الغذائي بالجسم، وهو نفاية الفضلات غير اللاّزمة، التي يسبب غيابها في البدن ضررًا عليه وأذى به.

والبراز كريه الرائحة، يحتوي على عدد كبير من البكتريا والميكروبات المرضية والطفيليات التي تؤذي الإنسان والحيوان.

والبراز وهذا شأنه، يجعل الموارد المائية قذرة، ويملؤها بالطفيليات وببويضاتها الضّارة، وأطوارها المعدية، ويترك نفس الأثر في الطريق والظّل.

وإليك – أخي القارئ – أسماء بعض هذه الطفيليات التي تلوّث الماء عن طريق التبرّز فيه، وهي:

البلهارسيا والأنكلستوما والإسكارس والأنتروبيوس والأميبا، وغير ذلك كثير ممّا لا يتسع له المقام.

وبويضة الإسكارس تفسد بارتفاع الحرارة عند درجة (٧٠) مئوية، وتفقس في الرطوبة، وكذلك بويضة البلهارسيا.

ومن هنا يظهر طرف من حكمة الإسلام في النهي عن قضاء الحاجة في الماء والظلال، حيث المناخ الرّطب الذي يلائم بويضة الأنكلستوما والإسكارس والبلهارسيا.

وليكن معروفًا أن تليّف الكبد وتلف الطحال والاستسقاء وسرطان المثانة وشلل وظائف الكبد الفسيولوجيّة، كل ذلك ناجم عن إصابة الإنسان بالبلهارسيا التي تعمل مخالفةُ آداب الشرع الإسلامي في قضاء الحاجة على انتشارها، ويحدّ من انتشارها التزامُ

---

(١) الموارد: موارد الماء.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وغيره.

آداب الشرع الإسلامي في ذلك» ا.هـ[١].

- وعن جابر رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«غطّوا الإناء، وأوْكو السِّقاء، فإن في السَّنَة ليلة يَنزل فيها وباءٌ لا يَمرّ بإناءٍ ليس عليه غِطاء أو سِقاء ليس عليه وكاء إلاّ نزل فيه من ذلك الوباء!»[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«نهى النبي ﷺ أن يشرب مِنْ فِيِّ السّقاء»[٣].

والشُّرْب من فَم السّقاء – القِرْبة ونحوها – له أضراره: فهو ناقل لِلْعَدْوى، وتعافه النّفس، وقد يندفع الماءُ منها دفعة واحدة فَتُؤْذِي الشّارب.

- وقال ﷺ:

«لقد رأيتُ رَجُلاً يَتقلّب في الجنّة في شجرةٍ قَطَعها مِنْ ظَهْر الطريق كانت تؤذِي النّاس»[٤].

وفي رواية:

«مَرَّ رجلٌ بِغُصن شَجْرة على ظَهْر طريق، فقال: والله لأُنحّيَنّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأُدْخِلَ الجنّة»[٥].

وعن أبي برزة الأسلميّ، قال:

قلت: يا رسول الله، علِّمني شيئًا أنتفع به، قال:

---

(١) «الإعجاز الطبي للقرآن الكريم» (١٥٩، ١٦٠) بتصرّف.

(٢) رواه مسلم (٢٠١٤)، وغيره.

(٣) «فتح الباري» (١٠/٩٠).

(٤) رواه مسلم (١٩١٤).

(٥) رواه مسلم (١٩١٤).

« اعْزِل الأذَى عن طريق المسلمين »[١].

فهذه نصوص تبين مدى اهتمام الإسلام بنظافة المياه والإبقاء على طهارتها، وحرصه على طريق الناس، والإبقاء على سلامتها، حتى لا تكون مباءة للحشرات، ومصدرًا للعلل.

(٣) التخلّص من آثار الطعام:

عن عائشة - رضي الله عنها - :

أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام وهو جُنُب توضأ، وإذا أراد أن يأكل غسل يديه[٢].

هذا قبل الطعام، أمّا بعده، فقد دعا الإسلام إلى التخلّص من آثاره:

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** - رحمه الله -:

« أوجب الإسلامُ النظافة من الطعام، فبعد أن ندب إلى غسل الأيدي له، أمر بأن يتخلّص الإنسانُ من فَضَلاته وروائحه وآثاره، وهذا أنقى للمرء وأطيب.

وعناية الدين بتطهير الفم، وتجلية الأسنان، وتنقية ما بينهما لا نظير لها في وصايا الصّحة القديمة، والحديثة.

قال ﷺ : « **السّواك مَطْهرة لِلفم، مَرْضَاة لِلرَّب** ».

والذي يلحظ أن أمراض الفم واللّثة من إهمال تطهيرهما يدرك سرّ مبالغة الإسلام في دَلْك الأسنان بالمواد الحافظة لرونقها وسلامتها دلكًا يزيل ما يعلوها وما يختفي حولها.

والأطعمة ذات الروائح النفّاذة والآثار الغليظة كاللّحم والسّمك وغيرها يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمالها؛ فإن التنظّف منها ضرورة لحفظ الصّحة، وضرورة لحفظ الكرامة الخاصّة، والآداب العامة:

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢٢٢)، وغيره، وصحّحه الألباني.

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ باتَ وفي يده رِيحُ غُمْرٍ فأصَابه شيء فلا يلومنّ إلا نفسه»[١].

والغُمر: زهومة اللّحم»ا.هـ[٢].

(٤) نظافة المساجد:

قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال الزمخشري:

والمعنى: «طهّراه من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض، والخبائث كلّها» ا.هـ[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال:

قال النبي ﷺ:

«الْبُزَاقُ في المسجد خَطِيئةٌ وكَفَّارتُها دَفْنُها»[٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود: أن صيانة المسجد من القاذورات، ومن كلّ المؤذيات من الأمور الواجبة على المسلم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والبزار.

(٢) «خلق المسلم» (١٥٤، ١٥٥) باختصار.

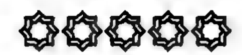
(٣) «تفسير الكشاف» (١/١٨٥).

(٤) رواه البخاري ومسلم.

أخي الكريم:

هذه جوانب مهمّة، أحببت إيضاحها، ليتبين لنا: أن الأناقة في غير سرف، والتجمّل في غير صناعة وتزويق، وإحسان «الشّكل» بعد إحسان «الموضوع» من تعاليم الإسلام، الذي ينشد لبنيه علوّ المنزلة، وجمال الهيئة.

والله الموفّق لما يحب ويرضى.



٦١- اسْتِثْمَارُ الْوَقْتِ

اعلم: أن الناسَ مُنذ خُلِقُوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حَطٌّ عن رحالهم إلاّ في جنة أو النّار.

قال **طيفور البطامي**: «إن الليل والنهار رأس مال المؤمن، ربحهما الجنة، وخسرانها النار».

إنّما الدّنيا إلى الجنّة والنّار طريق
واللّيالي مَتْجَرَ الإنسان والأيام سُوق

وكلّ يوم يَمُرّ، يقرّبك من الآخرة، ويبعدك عن الدنيا!

إنا لنفرح بالأيام نقطعها
وكلّ يَوْم مَضَى يُدني من الأجَل

وكان **الحسن** - رحمه الله - يقول:

«ما مَرَّ يومٌ على ابْن آدم إلاّ قال له: ابن آدم، إني يومٌ جديد، وعلى ما تعمل فِيَّ شهيد، وإذا ذهبتُ عنك لم أرجع إليك، فقدّم ما شئتَ تجده بينَ يَدَيْك، وأخِّرْ ما شئتَ فلن يعود أبدًا إِلَيْك».

فيا أيها الإنسان:

يا من أيام عمره في حياته معدودة.

وجسمه بعد مماته مع دودة.

رأيتُك في النُّقصان مُذْ أنتَ في المهد تُقَرّبك السّاعاتُ من سَاعَة اللّحْد
ستضحك سنّ بعد عَين تعصّرت عليك وإن قالت بكيت من الوجد
أتطمع أن يُشجى لِفَقْدك فاقِد لعلّ سرور الفاقِدين مع الْفَقد

يا غافلاً عن مصيره.

يا واقفًا في تقصيره.

سبقك أَهْلُ العزائم.

وأنتَ في اليقظة نائم.

قفْ على الباب وقوف نادم.

ونَكِّس رأسَ الذّل وَقُلْ أنا ظالم.

ونادِ في الأسحار «مُذْنب وَوَاجِم».

وتشبّه بالقوم وإن لم تكن منهم، وزاحِم.

وابعث بريح الزّفرات، سحاب دَمْع سَاجم.

قُمْ في الدُّجَى نادمًا، وقف على الباب تائبًا، واستدرك من العمر ذاهبًا، ودع اللّهو والهوى جانبًا، وطَلّق الدّنيا إن كنتَ للأُخْرى طالبًا[1].

كلمات تحرّك النفوس، وتضرب على أوتار القلوب، وتبعث العزم، وتدفع نحو المعالي.

أخي:

وإذا كان من خصائص الوقت:

١- سرعة انقضائه.

٢- أن ما مَضَى منه لا يعود.

٣- أنّه أنْفَسَ ما يَمْلِك الإنسان.

فحديثي إليك - على السطور التالية - يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: قيمة الوقت.

---

(١) «المدهش» لابن الجوزي (٢٣٤).

والثاني: أسباب ضياعه.

والثالث: الأسباب المعينة على تنظيمه واستغلاله.

والرابع: ثمرات تنظيمه.

وأسأل الله - تعالى - التوفيق لطاعته.

أولاً: قيمة الوقت:

الوقت: رأس مال المسلم، لذا جاءت الأحاديث الشريفة، تحضّ على استغلاله، وتحثّ على استثماره.

من هذه الأحاديث:

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ:

«**نِعْمَتان مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النّاس: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**»[1].

قال ابن الخازن: «النعمة: ما يتنعّم به الإنسان ويستلذه، والغبنُ: أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل.

فمن صحّ بدنه، وتفرّغ من الأشغال العائقة، ولم يَسْعَ لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع، والمراد بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصّحة والفراغ بل يصرفونهما في غير محلهما، فيصير كل واحد منهما في حقّهم وبالاً، ولو أنّهم صرفوا كل واحد منهما في محله لكان خيرًا لهم، أي خير» ا.هـ.

(٢) وعن ابن عباس - أيضًا - قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ:

«**اغتنم خَمْسًا قبل خمسٍ: حياتَكَ قَبْلَ مَوْتِك، وصِحّتَك قبل سَقَمِكَ، وفَراغك قَبْلَ**

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري، والترمذي، وغيرهما.

شُغْلك، وشَبابَك قَبْل هَرَمِك، وغِنَاكَ قَبْل فَقْرِك»[(١)].

قال العلاّمةُ المناويّ - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«قوله ﷺ: «**اغتنم خَمْسًا قَبْل خَمْسٍ**» أي: افعل خمسة أشياء قبل حصول خمسة أشياء: «**حياتك قبل موتك**» يعني اغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك، فإن من مات انقطع عملُهُ، وفاته أمَلُه، وحق نَدَمُه، وتوالى همّه فاقترض منك لك. «**وصحتك قبل سقمك**» أي اغتنم العمل، وحَال الصّحة فقد يمنع مانع كَمَرضٍ فتقدم المعاد بغير زاد، «**وفراغك قبل شُغْلك**» أي: اغتنم فراغك في هذه الدار قبل شغلك بأهوال القيامة التي أوّل منازلها القبر، فاغتنم فرصة الإمكان لعلك تسلم من العذاب والهوان. «**وشبابك قبل هرمك**» أي اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكِبَر عليك فتندم على ما فرّطت في جنب الله. «**وغناك قبل فقرك**» أي اغتنم التصدّق بفضول مالك قبل عروض جائحة تفقرك فتصير فقيرًا في الدنيا والآخرة، فهذه الخمسة لا يُعْرف قَدْرها إلاّ بعد زوالها» اهـ[(٢)].

(٣) وعن أبي برزة الأسلميّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«لا تزول قَدَما عَبْدٍ حتى يُسأل عن عُمُرِه فيم أَفْناه، وعن عِلْمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيمَ أَنفَقَهُ، وعن جِسْمه فيم أبلاه»[(٣)].

فوظّف أنفاسَك - **أخي الكريم** - في طاعة مولاك، وجاهد نفسك وهواك.

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أنت آكله لا تبلغ المجدَ حتى تلعَق الصَّبْرا

واسمع إلى **ابن مسعود** ﷺ وهو يقول:

«ما نَدِمْتُ على شيء نَدَمي على يوم غَرُبت شَمْسُهُ نَقَص فيه أَجَلي، ولم يزد فيه

(١) **صحيح**: رواه الحاكم، والبيهقي، وانظر: «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

(٢) «فيض القدير» (٢/٢١).

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

عِلْمي!».

واسمع إلى عليّ بن أبي طالب ﷺ وهو يقول:

«مَنْ أمْضى يَوْمَه في غير حَقّ قضاه، أو فرض أدّاه، أو مجد بناه، أو حَمْد حَصَّله، أو خير أسَّسه، أو عِلْم اقْتَبَسه، فقد عَقّ يَوْمَه، وظَلَمَ نَفْسَه».

أخي:

هذا هو الاستثمار الحق لِلْعُمر، وغيره يعني الضّياع.

فانتبه من رَقْدة الغفلة فالعمر قليل

واطْرحْ «سَوْف» و «حَتّى» فَهُما داءٌ عليل

ثانيا، أسباب ضياع الوقت،

ضياع الوقت له عدّة أسباب:

الأوّل: الغَفْلَة:

وهذه صفة لا يكاد يَسْلم منها أحدٌ، ولكنها تتفاوت عند الناس بحسب تفاوت هممهم.

ودوام سَكْرها يَجْلب شقاء الآخرة.

النّاسُ في غَفْلاتهم وَرَحى المنية تَطْحن

السبب الثاني: العَجْز والكَسَل:

والعجز والكسل: يولّدان التقاعد عن أداء الواجبات، والتقاعس عن تحمّل المسئوليات.

ولم أرَ في عيوب النّاس عَيْبًا كَنَقْصِ القادرين على التَّمَام

السبب الثالث: التَّسْويف والتَّمَنّي:

وهما صفتان تلازمان كل مفلس عديم المبالات، كثير الخيالات، صريع الأمنيات، طموح الفكر، مشلول اليدين، فوضوي الطبع، أسير الشيطان، لأنه ما امتطى هذيْن الخُلقين الذميمين إلاّ لدنو همّته، وضعف عزيمته، وقلّة إيمانه ويقينه، فكلما احتبسه واجبه أعاقه عن أدائه التسويف، وهل التسويف إلاّ خذلان الأمانة والواجبات ورأس مال المفلسين.

إذا تمنيت بتّ الليل مُغتبطًا ... إن المنى رأس أموال المفاليس[1]

أيها الْمُسَوِّف:

أيام عُمرك تَذْهب ... وجميع سَعْيك يُكْتَب

ثم الشهيد عليك ... منك فأين المهرب؟

السبب الرابع: مُصَاحبة قُرَناء السُّوء:

فصحبتهم تقتل العزائم، وتميت الهِمَم، وتورث الغفلة، وتعين على الفساد.

ولا تجلس إلى أهل الدّنايا ... فإنّ خلائق السُّفهاء تُعْدِي

قال **ابْنُ عطاء الله**: «لا تَصْحَبْ من لا يُنْهِضُك حالُهُ، ولا يَدُلُّك على الله مقالُهُ».

السبب الخامس: حُبُّ الدّنيا:

قال **يحيى بن معاذ**: «الدُّنيا خَمْر الشيطان، مَنْ شَرِب منها كأسًا لم يَفِقْ إلاّ في عَسْكر الموتى نادمًا مع النادمين».

هذه أسباب ضياع الوقت، وإن شئت فَقُلْ: أسباب ضياع عِزّ الدّارين، فكن منها على حذر، ولا تكن من الغافلين.

---

(١) «تنظيم الوقت في حياة المرأة المسلمة» لأبي الحسن بن محمد الفقيه (٢٢).

ثالثًا: الأسباب المعينة على استثمار الوقت:

من الأسباب المعينة على استثمار الوقت:

السبب الأول: معرفة أهمية الوقت:

إذا عرف المسلم: أن رأس ماله: أنفاسه، وَظَّف خروجها ودخولها في طاعة مولاه.

- قالت داية «**داود الطّائي**»: يا أبا سليمان، أما تشتهي الخبز؟ قال:

يا داية، بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية![1].

- وقال محمد بن الفضل البَلْخي: «ما خطوتُ منذ أربعين سنة خطوة لغير الله»[2].

فانظر - أخي الكريم - إلى دقّة محاسبتهم لأنفسهم، وشدة مراقبتهم لخطواتهم، واذرف الدُّموعَ غِزارًا على تفريطنا وضياع أوقاتنا.

بل اسمع إلى «نافع» مولى ابن عمر، وهي يحي لنا حال ابن عمر في بيته.

فقد سُئل - رحمه الله - : ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال:

«الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما!!».

أخي:

كان هذا حال ابن عمر في بيته.

فماذا عن حالنا في بيوتنا؟!

مشاهدة «الدّش»، والأفلام الخليعة، على مدار اليوم «كلّه» ، وشرب الدخان، والغيبة والنميمة، وحديث النساء، أثناء ذلك!!

فأيّ ضياع بعد هذا؟

وأي دمار أشدّ من هذا الدّمار؟!

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/١٤٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٨٥).

أخي:

للعبد ربٌّ هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربّه قبل لقائه، ويعمّر بيته قبل انتقاله إليه.

أخي:

إضاعة الوقت أشدّ من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله، والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

أخي:

الدنيا من أوّلها إلى آخرها لا تساوي غَمّ ساعة، فكيف بِغَمّ العُمر؟.

أخي:

محبوب اليوم يعقب المكروه غدًا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا.

أخي:

أعظم الربح في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أوْلى بها وأنفع لها في معادها.

أخي:

كيف يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟!

أخي:

يخرج العارفُ من الدنيا و لم يقض وطره من شيئين: بكائه على نفسه، وثنائه على ربِّه.

أخي:

لو نفع العلم بلا عمل لما ذمّ الله - سبحانه - أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذمّ المنافقين.

السبب الثاني: الزّهد في الدنيا:

لأن الرّغبة فيها، والخلودَ إليها، والاطمئنانَ بها، يورث نسيان الآخرة، والغفلة عن الله، ومن وَصَل حالُه إلى هذا الحال، قد تَمَّت خسارته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٨].

فما أشدّ خسارة أولئك الذين استغلوا جميع الموارد المتاحة لهم في معصية ربهم، فتساقطوا بها تساقط الغراب على الجِيَف.

السبب الثالث: تذكّر الموت وما بعده:

قال **الحسنُ البصريّ** – رحمه الله – :

«ابن آدم، إنّك بين مطيّتين يوضعانك، الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرًا»[1].

إن في الموت والمعاد لَشُغلا ... وادّكارًا لذي النّهى وبلاغا

فاغتنم خُطّتين قبل المنايا ... صحّة الجسم يا أخي والفراغا

واسمع إلى صوت «يحيى بن معاذ» وهو يناديك:

«اللّيْلُ طويل، فلا تُقصّره بِمَنَامِك، والنّهار نَقيّ فلا تُدنِّسه بآثامك».

أخي:

ألم تر أنّ اليومَ أَسْرع ذَاهِب ... وأن غدًا للنّاظرين قريب

السبب الرابع: الخوف من الله تعالى:

قال **خيرُ النسّاج**: «الخوف: سوط الله يُقوّم به أنفسًا قد تعوّدت على سوءِ الأدب».

---

(١) «الزهد» للبيهقي (٢٠٤).

وقال إبراهيم التيمي: « شيئان قطعا عني لّذة الدنيا، ذكرُ الموت، والوقوف بين يدي الله ﷻ ».

قصّة:

قال أبو زكريا التيمي: بينما « سليمان بْنُ عبد الملك » - أمير المؤمنين - في المسجد الحرام إذ أُتِي بِحَجَرٍ منقور، فَطَلَب من يقرؤه، فأُتِي بِوَهْب بن مُنَبِّه[1] فإذا فيه:

« ابن آدم، إنَّك لو رَأيت قُرب ما بقى من أَجَلك لزهدتَ في طول أَمَلك، ولرغبتَ في الزيادة من عملك، ولقصّرت من حِرْصك وَحِيَلك، وإنما يلقاك غدًا ندمُك لو قد زلّت بك قدمُك، وأسْلَمك أهلُك وحَشَمك، وفارقك الوالدُ والقريب، ورفضك الولدُ والنَّسيب، فلا أنتَ إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، قبل الْحَسْرة والنّدامة ».

فبكى سليمانُ بكاءً شديدًا[2].

السبب الخامس: مصاحبة الصّالحين:

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فالصاحب الصالح: طريقك إلى الجنة. إن ذكرتَ الله أعَانك، وإن نسيتَ الله ذكّرك.

هذه بعض الأسباب المحفّزة، والداعية إلى استثمار الوقت، فاحرص عليها، واستعن بالله ولا تعجز.

---

(١) كان من أحبار اليهود، أسلم، وحسن إسلامه، وأثنى عليه بعض الصّحابة.

(٢) «الإحياء» (٤/٤٥٥).

رابعاً: ثمرات تنظيم الوقت:

لتنظيم الوقت ثمرات وفوائد ترفع رأس المسلم في الدنيا، وتبيِّض وجهه يوم يقوم الأشهاد.

من هذه الثمرات:

(١) التخلص من الشعور بالذنب:

فالمفرّط لابدّ أن يندم على تفريطه، إن لم يكن في الدنيا، كان في الآخرة.

اقرأ:

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

فأي عاقل يريد أن يجني هذه الثمرات؟!

(٢) توظيف نعم الله – تعالى – فيما خُلِقَتْ له:

فالعقل نعمة، والأعضاء السليمة نعمة، والبصر نعمة، والصّحة نعمة، والمال نعمة... ونعم الله – تعالى – لا تُعدّ ولا تُحصى.

واستغلال هذه النّعم فيما يعود بالنّفع على الإنسان في الدنيا والآخرة، من شكر الله تعالى عليها. ومع الشكر المزيد.

وتوظيف هذه النّعم في معصية المُنْعم، من الجحود، والجحود طريق النار.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ

ٱلْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

نسأل الله العافية.

(٣) إرضاء الله تعالى:

فتوظيف الوقت واستثماره - في الخير - يثمر رضا الله - تعالى - عن العبد، ومن نال رضا الله، سَعِدَ في الدّارين.

وإذا العناية لاحَظَتْك عيونها نَمْ فالمخاوف كُلّهنّ أَمَان

(٤) وقاية النفس من مجالس السوء:

فكم وَلَّد الفراغُ من آثام، وكم جَرَّ على صاحبه من ويلات، خصوصًا في مجالس الغيبة والزّور والفسق.

(٥) عِفّةُ النّفس عن السّؤال:

فالمستثمر لوقته، يصون نفسه عن ذلّ السؤال، إضافة لما يناله من الثواب.

فعن كعب بن عُجْرة، قال:

مرّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونَشَاطه، فقالوا:

يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله!

فقال رسولُ الله ﷺ :

«إن كان خَرَج يَسْعى عَلى وَلِده صِغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَج يَسْعى على أَبوَيْن شَيْخَيْن كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يَسْعى على نفسه يُعِفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان»[1].

(٦) رفع رأس الأمّة:

فالخمول والإهمال، وغياب الضمير، والبطالة، والإسراف، من الأسباب التي أخّرت

---

(١) صحيح: رواه الطبراني، وانظر: «صحيح الجامع» (١٤٢٨).

الأمةُ الإسلامية، وكانت سببًا مباشرًا في إذلالها، وإقصائها عن عرش عزها.

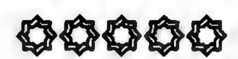
(٧) نيلُ الجنّة:

قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فالمسارعة إلى الخيرات، واستثمار الأوقات، طريق الفوز بالنعيم المقيم.

فجاهد نفسك - **أخا الإسلام** - لنيل هذا المقام الكريم.

وفّقني الله تعالى وإيّاك.



٦٢- الْمُروءَة

اعلم: أنّ مِنْ شَوَاهد الفَضْل ودلائل الكَرَم، المروءة التي هي حِلْيَةُ النّفوس وزينةُ الْهِمَم.

فما أحوجنا إلى «المروءة» في زمن جُرِحَتْ فيه «المروءة»:

مَــرَرْتُ عــلى المــروءةِ وهــي تَبْكِي فقلــتُ: عَــلامَ تَنْتَحِــب الفَــتَاة!

فقالــت: كــيف لا أبكــي وأَهْــلي جمــيعًا دون خَلْــق الله مــاتوا!!

وفيما يلي: نتحدث عن:

أولا: معنى المروءة.

ثانيا: درجاتها.

ثالثًا: حقوقها وشروطها.

رابعًا: الخصال التي تخرم المروءة.

خامسًا: مواقف من حياة أهل المروءة.

أوَّلاً: معنى المروءة:

المروءة «**لغة**»: **قال ابْنُ منظور**:

«المروءةُ: كمالُ الرُّجُوليَّة. مَرُؤَ الرّجُلُ يَمْرُؤُ مُرُوءَةً، فهو مرىء على فعيل، وتَمَرَّأَ على تَفعَّل: صَارَ ذَا مُروءَة. وتَمرَّأَ: تَكَلَّف المروءةَ. وتَمرَّأ بنا أي طَلَبَ بإكرامنا اسْم المروءة. وفلانٌ يَتَمرَّأُ بِنَا أي يطلب المروءة بِنَقْصِنا أَوْ عَيْبِنا»اهـ[1].

و «**اصطلاحاً**»: قال **الماوردِيُّ** – رحمه الله – : «المروءةُ مراعاةُ الأحوال إلى أن تكون – النّفس – على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجَّه إليها ذَمٌّ

(١) «لسان العرب» (١/١٥٦).

باستحقاق»ا.هـ[١].

وقال **ابن القيّم** - رحمه الله - :

«حقيقة المروءة: اتصاف النّفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم، والشيطان الرجيم، فإن في النّفس **ثلاثة دواع متجاذبة:**

دَاعٍ يدعوها إلى الاتّصاف بأخلاق الشّيطان، من الكِبْر، والحَسَد، والعلو، والْبَغْي، والشر والأذى، والفساد والغِش.

وَدَاعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة. وداع يدعوها إلى أخلاق الْمَلكِ، من الإحسان، والنّصح، والْبِرّ، والطّاعة، والعِلْم.

والمروءة: بُغْضُ الدَّاعِيَيْن الأَوَّلَيْن وإجابةُ الدَّاعي الثالث، ولهذا قيل في حَدِّ المروءة: إنَّها غلبةُ الْعَقْلِ لِلشَّهْوة، وَنُقلَ عن الفقهاء قولهم:

حَدُّ المروءة: استعمالُ ما يُجمِّلُ الْعَبْدَ وَيَزِينُهُ، وَتَرْكُ ما يُدَنِّسُهُ وَيَشِينه[٢]، سواءٌ تعلّق ذلك به وَحْدَه أو تعدّاه إلى غيره»ا.هـ[٣].

هذا، ومروءة كُلّ شيء بحسبه:

فمروءةُ اللّسان: حَلاَوَتُهُ وطيبُهُ وَلِينُهُ.

ومروءة الخُلُق: سَعَتُهُ وَبَسْطُهُ لِلْحَبيب والْبَغِيض.

ومروءةُ المال: الإصابةُ بِبَذْله في مَوَاقِعه المحمودةَ عَقْلاً وَعُرْفًا وشَرْعًا.

ومروءةُ الجاه: بَذْلُهُ لِلْمُحتاج إلَيْه.

ومروءةُ الإحسان والبذل: تَعْجِيلُهُ وَتَيْسِيرُه، وَتَوْفِيرُه، وَعَدم رُؤْيَتِهِ حَالَ وقوعه، ونسيانُهُ بعد وقوعه.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٣٨٧).

(٢) يشينه: يعيبه.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٣٦٦).

ثانيا: درجات المروءة:

للمروءة ثلاثُ دَرَجات:

الأولى: مروءةُ الْمَرْء مع نَفْسِه:

وهي أن يَحمِلَها قَسْرًا على ما يُجَمِّلُ وَيَزِينُ، وَتَرْكِ ما يُقَبِّح وَيَشِينُ، لِيَصِيرَ لها مَلَكَةً في العلانية. فمن أراد شيئًا في سِرِّه وخلوته: مَلكه في جَهْره وعلانيته. فلا يكشف عَوْرته في الخلوة، ولا يتجشَّأ بِصَوْتٍ مُزْعِج ما وَجَد إلى خلافه سبيلاً. ولا يُخرِج الرِّيحَ بِصَوْت وهو يَقْدر على خلافه.

وبالجملة: فلا يفعل خاليًا ما يُسْتَحيا من فعله في الملأ، إلاّ ما لا يَحْظُرُه الشَّرعُ والعقل، ولا يكون إلاّ في الخلوة، كالجماع والتَّخَلِّي ونحو ذلك.

الدَّرجة الثَّانية: المروءة مع الْخَلْق:

بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناس مرآة لنفسه. فكل ما كَرِهَه وَنَفَر عنه، مِنْ قَوْل أو فعل أو خُلُق، فَلْيَتجَنَّبه، وما أحَبّه من ذلك اسْتَحْسَنَهُ فَلْيَفْعَلْه.

الدَّرجة الثالثة: المروءة مع الْحَقّ سبْحَانه:

بالاسْتِحْيَاء من نَظَره إليك، واطِّلاعَه عليك في كلّ لحظة ونَفَسٍ، وإصْلاح عُيوب نَفْسِك جَهْدَ الإمْكَان. فإنّه قد اشتراها منك، وأنتَ سَاع في تَسْلِيم الْمَبِيع، وتقاضي الثّمن، وليس من المروءة تَسليمه مَعِيبًا[1].

ثالثًا: حقوقُ المروءةِ وشروطها:

قال الإمام الماورديُّ – رحمه الله – ما مختصره:

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٣٨٢، ٣٨٣).

«اعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تُحصى... والأظهر من شروطها وحقوقها، محصور في تقسيم جامع. وهو ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: شروط المروءة في النّفس: وهي: العفّة، والنزاهة، والصيانة.

والثاني: شروط المروءة في الغير: وهي: المعاونة (المؤازرة)، والمياسرة، والإفْضال.

شروط المروءة في النَّفْس:

فأمّا شروطها في نَفْسه بعد التزام ما أَوْجَبه الشّرْعُ من أحكامه، فيكون **بثلاثة أمور:**

الأَوَّل: العِفَّة: وهي نوعان:

أحدهما: العفّة عن المحارم.

والثاني: العفّة عن المآثم.

فأمّا العفّة عن المحارم: فنوعان:

أحدهما: ضبط الفرج عن الحرام.

والثاني: كفُّ اللّسان عن الأعراض.

وأمّا العفة عن المآثم: فنوعان:

أحدهما: الكَفُّ عن المجاهرة بالظُّلْم.

والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة.

الأمر الثاني: النزاهة: وهي أيضًا نوعان:

أحدهما: النزاهة عن المطامع الدنيويّة.

والثاني: النزاهة عن مواقف الرِّيبة.

وَمَنْ كانت الدّنيا مُناهُ وهمَّهُ ... سَبَتْهُ الْمُنَى واسْتَعْبَدَتْهُ الْمَطَامِعُ

وحسم هذه المطامع **شيئان: اليأس والقناعة.**

وقد روى ابن مسعود ﷺ عن النَّبي ﷺ أنه قال:

«**إنّ رُوح القُدُس نَفَثَ في رَوْعِي أن نَفْسًا لن تموت حتى تَسْتَوْفِي رزْقَها، فاتّقوا الله وأجْمِلوا في الطّلب، ولا يَحْمِلَنكم إبْطاءُ الرِّزْق على أن تَطْلُبُوه بِمَعَاصِي الله تعالى فإنّ الله ﷻ لا يُدْرَكُ ما عِنْده إلاّ بِطَاعَته**»[1].

أمّا النزاهة عن مواقف الرِّيبة، فهذا رسولُ الله ﷺ، وهو أبعد خلق الله من الرِّيَب، وأصْوَنُهُمُ من التُّهَم... وقف مع «صفيّة» أمّ المؤمنين - زوجته - ذات ليلة على باب المسجد يحادثها، وكان مُعتكفًا، فمرّ به رجلان من الأنصار، فلمّا رَأَيَاهُ أسْرعا، فقال لهما:

«**على رِسْلِكما**[2]؛ **إنّها صَفِيَّة**».

فقالا: سُبْحَان الله! أَوَفيك شَكٌّ يا رسولَ الله؟!

فقال: «**مَهْ**[3]؛ **إن الشيطان يَجْرِي مِنْ أَحدِكم مَجْرَى لَحْمه وَدَمه، فخشيتُ أن يقذف في قَلْبيكُما سُوءًا**»[4].

فكيف من تخالَجتْ فيه الشكوكُ، وتقابلت فيه الظُّنون فهل يَعْرَى مَنْ فِي مواقف الرِّيب مِنْ قَادِحٍ مُحَقِّقٍ، ولائم مُصَدَّق؟!

الأمر الثالث: الصِّيانة:

وهي أيضًا على **نوعين:**

أحدهما: صيانة النّفس، بالتماس كفايتها وتقدير مادَّتها، ذلك أن المحتاج إلى النّاس كَلٌّ مُهْتَضَمٌ، وذليلٌ مُسْتَثْقَلٌ، وهو لِمَا فُطِر عليه مُحْتَاجٌ إلى ما يَسْتَمِدُّه لِيُقِيم أَوَدَ نَفْسه، ويدفَع ضرورتها ولذلك قالت العرب:

---

(١) صحيح: رواه البغوي في «شرح السنة» (٤١١٠)، وابن ماجه (٢١٤٤).

(٢) على رسلكما: أي: تَمَهَّلا.

(٣) مَهْ: اسم فعل بمعنى: اكْفُفْ.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وغيرهما.

كَلْبٌ جَوَّالٌ خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ.

والثاني: صيانتها عن تحمل المِنَنِ، ذلك لأن المِنَّة اسْتِرْقَاقٌ للأَحْرار تُحْدِثُ ذلَّة في الممنون عليه، وسطوةً في الْمَانِّ، والاسْتِرْسالُ في الاستعانة تَثقيلٌ، ومن ثَقُلَ على النّاس هَانَ، ولا قَدْر عندهَم لِمُهَانٍ.

شروط المروءة في الغير:

شروط المروءة في الغير **ثلاثة**:

الأوَّل: المؤازرة:

وهي على **نوعين**:

أحدهما: الإسعافُ بالجاه: ويكون من الأعلى قدرًا، والأنفذ أمرًا، وهو أرخصُ المكارم يمنًا، وألطف الصنائع موقعًا، وربّما كان أعظم من المال نَفْعًا، وهو الظّل الذي يلجأ إليه المضطرون، والحِمَى الذي يأوي إليه الخائفون، ولا عُذْرَ لِمَن مُنِحَ جَاهًا أن يبخل به، فيكون أسوأ حَالاً من البخيل بماله.

والثاني: الإسعاف في النّوائب: وهو إمّا واجب فيما يتعلّق بالأَهْل والإخوان والجيران، وإمّا تَبرُّعٌ في مَنْ عَدَا هؤلاء الثلاثة، أمّا الأَهْلُ فَلِمُمَاسَّة الرَّحِم وتعاطف النَّسَب.

وقد قيل: «لَم يَسُدْ مَنِ احْتَاجَ أَهْلُه إلى غَيْره».

وأمّا الإخوان: فَلِمُسْتَحْكم الوُدِّ، وَمُتَأكِّدِ العَهْدِ، وقد سُئِل **الأَحْنَفُ بْنُ قيس** - رحمه الله - عن المروءة، فقال:

«صِدْقُ اللّسان، ومواساة الإخوان».

وأمّا الجار: فَلِدُنُوِّ داره، واتّصال مَزَاره.

فيجب في حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمُّل أثقالهم وإسعافهم في

نوائبهم، ولا فسحة لذي مُروءةٍ عند ظُهُور الْمُكْنَة، أن يكلهم إلى غيره أو يُلْجئهم إلى سؤاله، وَلْيكن السّائل عنهم كرمُ نفسه، فإنّهم عِيالُ كَرَمه، وأضياف مروءته.

أمّا التبرّع لغير هؤلاء، فإنه تبرُّعٌ بفضل الكرم وفائض المرءوة، فمن تكفّل بنوائب هؤلاء فقد زاد على شروط المروءة، وتجاوزها إلى شروط الرِّياسة.

الشرط الثاني: الْمُيَاسَرة:

وهي أيضًا **نوعان:**

أحدهما: العفو عن الهَفَوات.

والثاني: المسامحةُ في الحقوق.

فأمّا العفو عن الهَفَوات: فلأنّه لا مُبَرَّأَ مِنْ سَهْو وَزَلَل، ولا سليمَ من نَقْص، أو خَلَلٍ، وإذا كان الإغضاءُ حَتْمًا، والصّفح كَرَمًا، ترتب ذلك بحسب الهَفْوة.

والهفوات نوعان: صغائرُ وكبائر:

أما الصّغائر: فمغفورة، والنّفوسُ بها معذورة.

وأمّا الكبائر: فنوعان:

أحدهما: أن يَهْفُوَ بها خاطِيًا، ويَزِلَّ بها سَاهِيًا، فالْحَرَجُ فيها مَرْفُوعٌ، والعَتَبُ عليها موضوعٌ، لأن هَفْوَةَ الخاطِئِ هَدَرٌ، وَلَوْمَهُ هَذَرٌ.

والثاني: أن يَعْتَمِدَ ما اجْترم من كَبَائِرِه، ويقصد ما اجْترح من سيئاته، وهو في ذلك إمّا مَوْتُورٌ، فاللائمةُ على مَنَ وَتَره. وإمّا عدوٌّ قد استحمكتْ شَحْناؤه، وحينئذ فالبعد منه حَذَرًا أسْلَمُ، وإمّا أن يكون لئيم الطّبع خبيث النّفس، ولا سلامة لمثله إلاّ بالصَّفح والإعْراض، وإمّا أن يكون صَديقًا قد استحدث نَبْوَةً وتغيُّرًا، أو أخًا قد اسْتَجدَّ جَفْوةً وتنكُّرًا، فأبدى صَفْحَة عقوقه، واطّرح لازم حُقوقه فهذا - وَمِثْلُهُ - قد يَعْرض في المودَّات المستقيمة، كما تَعْرضُ الأمراضُ في الأجسام السّليمة، فإن عُولجتْ أَقْلَعتْ، وإن أهملت أسْقَمَتْ ثم أَتْلَفَتْ.

أما المسامحة: فَنَوْعان:

أ- مسامحة في العقود. **ب- مسامحة في الحقوق.**

أمّا الْمُسَامَحة في العُقود: فهو أن يكون فيها سَهْل المناجَزَة، قليلَ الْمُحَاجَزة، مأمون الغِيبة، بعيدًا من المكر والخديعة.

وأمّا المسامحة في الْحُقوق:

فتتنوّع المسامحة فيها **نوعين:**

أحدهما: في الأحوال.

والثاني: في الأموال.

فأمّا المسامحة في الأحوال: فهي إطّراحُ المنازعة في الرتب، وترك المنافسة في التقدم، فإن مشاحنة النفوس فيها أعظم، والعناد عليها أكثر، فإن سامح فيها و لم ينافس، كان مع أخذه بأفضل الأخلاق واستعماله لأحسن الآداب، أوْقع في النّفوس من إفضاله برغائب الأموال ثم هو أزيد في رُتْبَتِه، وأبلغ في تَقَدُّمه.

وأما المسامحة في الأموال: فتتنوّع **ثلاثة أنواع:**

أ- مسامَحةُ إسْقَاطٍ لِعَدَم.

ب- مسامحةُ تَخْفيفٍ لِعَجْزٍ.

جـ- مسامَحَةُ إنْظارٍ لِعُسْرةٍ.

والمسامحة مع اختلاف أسبابها تَفَضُّلٌ مأثورٌ، وتألُّفٌ مَشْكُورٌ، وإذا كان الكريمُ قد يجود بما تَحْويه يَدُهُ كان أوْلى أن يَجُودَ بِمَا خَرَجَ عن يَدِه فطاب نَفْسًا بِفِرَاقه.

الشرط الثالث: الإفضال:

وهو **نوعان:**

أحدهما: إفضال اصطناع.

والثاني: إفضال استكفاف ودفاع.

فأمّا إفضال الاصطناع: فيتضمَّن ما أَسْدَاه جُودًا في شَكُورٍ أو ما تألّف به نَبْوَةَ نَفُورٍ، وكلاهما من شروط المروءة لأنّ من قَلّت صَنَائعُهُ في الشّاكرين، وأعرض عن تألُّف النّافرين، كان فَرْدًا مَهْجُورًا، وَقَابعًا[1] مَحْقُورًا، ولا مُروءةَ لِمَتْروك مَطْروح، ولا قَدْرَ لِمَحْقُور مُهْتَضَمٍ.

وأما إفضال الاستكفاف (أي بالكفّ عن السُّفهاء) لأَنّ ذا الفَضل، لا يعدمُ حاسد نعمة يبعثه اللؤم على البداء بسفهه، فإن غفل ذو المروءة عن استكفاف السّفهاء صار عِرْضُهُ هَدَفًا لِلْمَثالب، وحالُهُ عُرْضَة للنّوائب، فإن استكفَّهم صان عِرْضَه، وَحَمَى نِعْمَتَه، وعليه أن يُخْفى ذلك حتى لا تنتشر فيه مطامعُ السُّفهاء، وأن يتطلَّب له في المجاملة وَجْهًا ويَجْعَلَ في الإفْضَالِ عَلَيْه سَبَبًا»ا.هـ[2].

رابعًا، الخِصَالُ التي تخرِمُ المروءة،

اعلم: أن الخصال التي تخرم المروءة كثيرة، منها:

(١) اتباع الهوى:

قال الإمام **ابن القيم** – رحمه الله – :

«مَنْ لا دين له؛ يُؤْثر ما يهواه، وإن أدّاه إلى هلاكه في الآخرة، لضعْف ناهي الدِّين، وَمَنْ لا مروءة له؛ يُؤْثر ما يهواه، وإن ثُلِمَ مروءته أو عُدِمَها؛ لضعف ناهي المروءة؛ فأين هذا من قول الشافعيّ – رحمه الله تعالى– : لو علمتُ أن الماءَ الْبَاردَ يثْلَمُ مُروتي، لما شربته؟! »ا.هـ[3].

---

(١) من قولهم: قبع القنفذ: إذا أدخل رأسه في جلده حتى لا يراه أحد.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (٣٩٠– ٤٢٢) باختصار شديد وتصرّف.

(٣) «روضة المحبين» (٤٢٨).

(٢) إخراجُ الرِّيح بِصَوْت وهو يَقْدر على مَنْعه:

فعن عبد الله بن زَمْعة ﷺ أنه سَمِعَ النّبي ﷺ يخطب .... وفيه:

« ثم وعظهم في ضحكهم من الضَّراطة، وقال: « **لِمَ يَضْحَكُ أحدُكم مِمّا يفعل؟!** »[١].

(٣) الأكل في الأسوق:

قال **محمد بن سيرين** – رحمه الله – :

« ثلاثة ليست من المروءة: الأكل في الأسْواق، والادّهان عند العطّار، والنّظر في مرآة الحَجَّام »[٢].

(٤) استخدام الضَّيف:

قال رجاء بن حَيْوة: سَمرتُ عند عمر بن عبد العزيز ذاتَ ليلة، فَعَشَا السِّراج[٣]، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، ألا أُنبِّه هذا الغلام يُصْلِحه؟

فقال: لا، دَعْهُ ينام؛ لا أُحبّ أن أجْمَع عليه عَمَلَيْن.

فقلتُ: أفلا أقوم أُصْلحه؟

فقال: لا، ليس من المروءة اسْتخدام الضَّيْف. ثم قام بنفسه فأصْلَحه وصَبَّ فيه زَيْتًا، ثم جاء، وقال:

قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلستُ وأنا عمر بن عبد العزيز[٤].

(٥) الإعلان بالفجور:

قال الإمام **السرخسي** – رحمه الله – :

« ولا مروءة لمن يكون معلنًا بفسق شرعًا »ا.هـ.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) « روضة العقلاء » لابن حبان (٢٣٣).

(٣) ضعف نورُه.

(٤) « البداية والنهاية » لابن كثير (٩/٢١١).

(٦) التبوّل في طريق الناس أو في أماكن ظلّهم:

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

« **اتَّقُوا اللاَّعِنَيْنِ** ».

قالوا: وما اللاّعنان يا رسول الله؟

قال: « **الذي يَتَخَلَّى في طريق النّاس أو ظِلّهم** »[١].

قال العلاّمة/ **أبو الطّيب محمد شمس الحق العظيم آبادي** - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

« قوله ﷺ : « **اتقوا اللاّعِنَيْنِ** » قال الخطّابي: يريد الأمرين الجالبين لِلّعن الحاملين للناس عليه والدّاعِيَيْن إليه، وذلك أن من فعلهما لُعن وشُتم، يعني عادة الناس لعنه فَلمّا صارا سببًا لذلك أضيف إليهما الفعل فكانا كأهما اللاّعنان، يعني أسند اللعن إليهما عن طريق المجاز العقلي، وقد يكون اللاعن أيضًا بمعنى الملعون فاعلهما. « **الذي يتخلّى في طريق الناس** » أي: يتغوّط أو يبول في موضع يمرّ به الناسُ. والمراد بالطريق: الطريق المسلوك لا المهجور الذي لا يُسلك إلا نادرًا. « **أو ظلهم** » أي: مستظلّ الناس الذي اتخذوه مقيلاً ومنزلاً ويقعدون فيه، وليس كل ظلّ يحرم القعود للحاجة تحته، فقد قعد النبي ﷺ لحاجته تحت حائش من النّخل، وللحائش لا محالة ظلّ. والحديث يدلّ على تحريم التخلّي في طرق الناس وظلّهم لما فيه من إيذاء المسلمين بتنجيس من يمرّ به واستقذاره[٢] » ا.هـ[٣].

(٧) التّجَشُّؤ بِصَوْت مُرْتفع دُون عُذْر:

فعن أبي جُحَيْفة ﷺ قال:

أكَلْتُ ثَرِيدَةً من خُبْزٍ وَلَحْم، ثم أتيتُ النبي ﷺ فجعلتُ أَتجَشَّأُ، فقال:

(١) رواه مسلم وأبو داود.

(٢) إضافة إلى أنه ينقل العَدْوى، ويسبب أمراضًا خطيرة.

(٣) « عون المعبود » (١/ ٣٠، ٣١).

«**يا هذا كُفَّ من جُشَائك، فإن أكثَر النَّاس شَبَعًا في الدّنيا أكثُرهم جُوعًا يَوْمَ القيامة**»[1].

(٨) إفشاء ما يكون بين الرّجل وزوجته:

من أمور الجماع والكلام الذي يدور خلاله.

وقد ورد النّهي عن ذلك.

عن أسماء بنت يزيد: أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرِّجَالُ والنِّساءُ قعودٌ عنده، فقال:

«**لَعَلَّ رَجُلاً يقول ما فَعَل بأَهْلِه، وَلَعَل امرأةً تُخْبِر بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِها**».

فَأَرَمَّ القومُ[2]، فقلتُ:

إي والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن.

قال: «**فلا تفعلوا، فإنّما مَثَلُ ذلك مَثَلُ شَيطانٍ لَقِي شَيْطَانَةً فَغَشِيَها، والنّاس ينظرون**»[3].

(٩) تقبيلُ الرّجل زَوْجه أمام النّاس:

وهذا من العادات المُسْتَهْجَنَة، والتقليد الأَعْمى للكفّار، ولا يجيز لنفسه هذا الفعل إلاّ ديّوث.

(١٠) جعل النّفس أضحوكة:

كمن يأتي بحركات بهلوانية، أو يجعل من نفسه «حمارًا» أو «خروفًا» كما يفعل بعض أهل التمثيل!

قال الإمام **أبو بكر الطرطوش** - رحمه الله - :

---

(١) حسن رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وانظر: «الصحيحة» (٣٤٣).

(٢) أرمّ القوم سكتوا، وقيل: سكتوا من خوف ونحوه.

(٣) رواه أحمد من رواية «شهر بن حوشب»، وله شواهد تقوّيه.

«من خوارم المروءة: الحكاية المضحكة» ا.هـ.

وقد كثر هذا الصّنف في الناس اليوم، فقلّما يخلو مجلس من مستظرف.

(١١) خِضَابُ اللِّحيَة بالسَّوَاد:

إخفاءً للشَّيْب، وإظهارًا للشباب، وهذا من التدليس الممقوت، ومن يفعله يجعل من نفسه أضحوكة!

وقال ﷺ: **«يكونُ في آخِرِ الزَّمَان قَوْمٌ يَخْضُبون بالسَّواد كحواصِلِ الحمام، لا يريحون من رائحة الجنة!»**(١).

(١٢) الإتيان بأفعال الفُسَّاق والْمُخَنَّثين:

كالرَّقْص، والغناء - القبيح - والصّفق بالأكُفّ، ونحو ذلك.

وفاعل ذلك ساقط المروءة، مردود الشهادة.

وقد أطال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله - النَّفَس في وصف هذا النوع من البشر، فمن ذلك قوله:

«لو سمع أحدهم القرآن من أوّله إلى آخره لما حرّك له ساكنًا، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وَجْدًا، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زَنْدًا، حتى إذا تُلي عليه قرآنُ الشيطان، وَوَلج مزموره سَمْعه، تفجرّت ينابيعُ الْوَجْد من قلبه على عينيه فَجَرت، وعلى أقدامه فَرقصت، وعلى يديه فصفّقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزّت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت، فيا أيُّها الْمَفْتُون، والبائع حظّه من الله بنصيبه من الشيطان صفقةَ خاسرٍ مغبون؛ هلاّ كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السَّنيات، عند تلاوة السّور والآيات؟

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والنسائي، وانظر: «صحيح الجامع» (٨٠٠٩).

ولكن كُلّ امرئ يَصْبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يُشاكِله.

ولقد أحسن القائل:

تُلِيَ الكتابُ، فأطْرَقوا، لا خِيفَةً ... لكنَّه إطْراق سَاهٍ لاَهِي

وأتى الغناءُ، فكَالْحَميرِ تَناهَقُوا ... والله ما رَقَصُوا لأجْلِ الله

دُفٌّ وَمِزْمَارٌ، ونَغْمَةُ شَادِنٍ ... فمتى رأيتَ عِبادةً بِمَلاهِي؟

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض؛ وتحذّر من سلوك سبيلهم، واقتفاء آثارهم من جميع طوائف المِلّة»ا.هـ[1].

(١٣) الجلوس على المقاهي:

قال العلاّمة **القاسمي** - رحمه الله - :

«أمّا القهوة في حَدّ ذاتها فهي حلال. وأمّا جلوس الرجل على مصاطبها، فهو من خوارم المروءة»ا.هـ[2].

قلت: ومن العجيب: جلوس رجال - بَلَغوا من الكِبَر عِتيًّا - على المقاهي - الساعات الطوال - يشربون الدخان، ويشاهدون المباريات والتمثيليّات، ويلعبون النّردشير، وغيره، ولا يصلّون!!، ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين: ٤، ٥].

هذه بعض الأفعال المُسقطة للمروءة، فكن منها على حذر، ﴿ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٢٢٨، ٢٢٩) باختصار.

(٢) «قاموس الصناعات الشامية» للقاسمي (٣٩٨).

خامسًا: مواقف من حياة أهل المروءة:

(١) مُروءة النَّبي ﷺ:

الحديث عن مروءة رَسُولِنا - صلواتُ ربي وسلامُه عليه - يطول استقصاؤه، ويكفي أن نشير - هنا - إلى موقف واحد:

عن سَهْل رضي الله عنه

أن امرأةً جاءتِ النّبي ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ فيها حاشِيَتُها. أتدرون ما الْبُرْدَةُ؟

قالوا: الشَّمْلَة.

قال: نعم. .

قالت: نسجتُها بيدي، فجئتُ لأَكْسُوَكَها، فأَخَذَها النَّبي ﷺ مُحْتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنّها إزَارُهُ، فَحَسَّنَها فلانٌ، فقال:

اكْسُنيها، ما أَحْسَنَها!. قال القوم:

ما أحْسَنْتَ، لَبِسَها النّبي ﷺ مُحْتاجًا إليها، ثم سألْتَه وَعَلِمْتُ أنّه لا يُردُّ! قال «إني والله ما سألته لأَلْبَسَهَا، وإنّما سأَلْتُهُ لتكون كَفَني».

قال سَهْلٌ: فكانت كَفَنَه![1].

(٢) مروءةُ الإمام الشافعيّ - رحمه الله -:

قال الرّبيع: «كان الشافعيّ - رحمه الله - مارًّا بالحذّائين فسقط سوطُه، فوثب غلامٌ وَمَسحه بِكُمِّه وناوله، فأعطاه سَبْعَةَ دنانير!!»[2].

(٣) مروءة أحمد بن مهدي - رحمه الله -:

كان أحمد بن مَهْدي كما قال ابْنُ النجّار: «من الأئمّة الثّقات، وَذَوِي المروءات»ا.هـ[3].

---

(١) رواه البخاري (١٢٧٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣٧/١٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥٩٨/١٢).

أمّا قصّته الدّالة على مروءته، فيحكيها لنا فيقول:

« جاءتني امرأةٌ ببغداد ليلةً، فذَكَرتْ أنّها من بنات النّاس، وأنها امْتُحِنَتْ بمحنة، وأسألك بالله أن تَستُرني، فقد أُكْرِهْتُ على نفسي، وأنا حُبْلى، وقلتُ: إنّك زَوْجي فلا تَفْضحني.

فنكَّبْتُ عنها، وَمَضَيت[١]. فلم أَشعُرُ حتى جاء إمامُ المحلّة والجيرانُ يُهنِّئوني بالولد الميمون، فأظهرتُ التَّهْليل، وَوَزَنْتُ في اليوم الثاني للإمام دِينارَيْن، وقلتُ: أعْطِها نَفَقَةً، فقد فارقتُها[٢]، وكنتُ أعُطيها في كلّ شهر دينارين، حتى أتى على ذلك سنتان، فمات الطفلُ، وجاءني الناسُ يَعُزّوني، فكنتُ أظْهُر لهم التَّسْليم والرِّضَى، فجاءتني بعد أيّام بالدّنانير فردَّتْها وَدَعَتْ لي، فقالت:

سَترك الله كما سَتَرْتَني.

فقلتُ: هذا الذّهب كان صِلَةً لِلْوَلَد، وقد وَرِثْتيه، وهو لَكِ!! »[٣].

أخي الكريم:

هذه مواقف من حياة أهل المروءة، فَكُنْ على خَطْوِهم، وتخلّق بأخلاقهم.

إن التشبّه بالرِّجال فلاح.

✡✡✡✡✡

---

(١) وفي رواية: « وَمَضَتْ فلم أشعر حتى وَضَعَتْ ».

(٢) أي: طلّقها.

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٢/٥٩٨).

٦٣- الحِلْمُ

اعلم - أخي المسلم - أن الحِلْمَ خُلُق كَرِيم، ومن نَفَاسَة اسْمِه، وارتِفاع قَدْره، أن الله - تعالى - تَسَمَّى به.

قال جلّ وعلا: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥١].

ومن أسماء الله الحسنى: «**الحليم**».

وقد ذكر العلماء أن معناه «الصّبور» الذي لا يستخفّه - سبحانه - عصيان العُصَاة، ولا يستفزّه الغضب عليهم، ولكنّه جعل لكلّ شيء مقدارًا فهو مُنْتَهٍ إليه.

وذكروا - أيضًا - أن معناه: الذي لا يعجل بالانتقام من عباده المجرمين، ليفسح لهم مجالات التوبة والنّدم، وليقيم الحجّة عليهم بأنهم لم يُصلحوا قلوبهم وأعمالهم بعد الحِلْم الطويل بهم(١).

ولأهمية هذا الخُلُق، فحديثي إليك - **أخي القارئ** - على السّطور التالية، يدور حول ستة أمور:

الأول: تعريفُ الحِلْم.

والثاني: فَضْله.

والثالث: أنواعه.

والرابع: الأسْبَابُ الدافعة إليه.

والخامس: صور ومواقف من حياة الحُلَمَاء.

والسادس: ثمراته.

والله - تعالى - الموفّق للصّواب.

(١) «الأخلاق الإسلامية، وأسسها» لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (٢/٣٣٧).

أولاً: تعريف الحِلم:

الحِلْمُ في «**اللّغة**»: ترك العَجَلة، قال **ابْنُ فارس**:

«الحاء واللاّم والميم أصول ثلاثة: أحدها: ترك العَجَلة. وذكر الأصلين الآخرين ثم قال: فالأوّل خلاف الطَّيْش، يقال: حلمت عنه أحلم، فأنا حليم»[1].

وفي «القاموس المحيط» (٤/٩٩): «الحلم - بالكسر -: الأناة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ﴾ [الطور: ٣٢]. ويقال: هو حليم، وجمعه حلماء وأحلام، وقد حلم فلان بالضّم حلمًا، وتَحلّم إذا تكلّفه».

وفي «**الاصطلاح**»: هو ضبط النّفس والطبع عن هيجان الغضب مع القدرة على ذلك[2]. ويقال: هو: الطمأنينة عند سورة الغضب. ويقال: هو: تأخير مكافأة الظّالم[3].

وجميع هذه التعاريف متقاربة من حيث دلالتها؛ إذ هي تعني عدم المسارعة بالانتقام عند سورة الغضب، والعلاقة بين المعنى اللّغوي والاصطلاحي ظاهرة، لأن الأناة وترك العجلة تنشأ عن ضبط النفس عن الطيش الذي يحدثه هيجان الغضب فيحاول إيصال النقمة إلى من أثار فيه ذلك الخلق السيئ وهو الغضب.

غير أن المعنى الاصطلاحي الآخر الذي أفاده صاحب التعريفات يفيد معنى زائدًا، وهو حصول الطمأنينة، وذلك غير الضبط المفاد أوّلاً، لأن الطمأنينة تعني أن ذلك يكون سَجِيَّة في النفس، وأنها لا تحتاج إلى مغالبة، وهذا معنىً راقٍ في الحِلم.

ويمكن توجيهه على أن الحِلْم درجات، فأوّل درجاته يكون بالمغالبة، وآخرها يصبح سَجِيَّة. وهذا فيمن كان حلمه مكتسبًا، لكن هناك من يكون حلمه وَهْبيا وفطريًا فهذا لا يكون إلاّ طمأنينة، وهو ما كان لدى أنبياء الله ولدى من شاء الله له ذلك من العباد،

---

(١) «معجم مقاييس اللّغة» (٢/٩٣)، مادة (حلم).

(٢) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (٢٣).

(٣) «التعريفات» للجرجاني (٩٢).

ولاشكّ أن هذا الحِلْم أعلى مكانة، لأنه يكون من نفسٍ كاملة الرّضا بالله تعالى وبقضائه وقدره الأزليّيْن.

والحِلْمُ من حيث هو كَسْبي[1] أوْ وَهْبي يُعَدّ خُلُقًا من الأخلاق القرآنية الحميدة التي يترتب عليها صلاح الحال وهدوء البال، وهو فرع من فروع الصّبر الذي يترتب عليه محبة الله تعالى[2].

ثانيا: فضل الحِلْم:

ورد في فضل «الحِلْم» آيات وأحاديث وآثار كثيرة، تدلّ على علوّ مكانه:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

(٣) وقال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

(٤) وعن أبي رُزين ﷺ في قوله – تعالى – : ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال: «حُلَمَاء عُلَمَاء»[3].

(٥) وعن الحسن البصري – رحمه الله – في قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال:

---

(١) **الكَسْبي:** الذي يأتي بمجاهدة النَّفْس، وَحَمْلها على التّخلُّق به طَوْعًا أو كَرْهًا. قال ﷺ: « **إنما العِلْم بالتَّعلّم، والحِلْمُ بالتَّحلّم، ومن يَتَحرَّ الخَيْرَ يُعْطه، ومن يَتّقِ الشَّرَّ يُوقَه**» رواه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (٢)، وغيره، وقال الألباني: حسن. انظر: «الصحيحة» (٣٤٢).

(٢) «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة» (٢/٥٧٦، ٥٧٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/٣٧٧).

«حُلَمَاء، وإن جُهِل عليهم لم يَجْهَلوا»[1].

(٦) وعن عطاء بن أبي رباح - رحمه الله - في قوله - تعالى - : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال:

«حُلَمَاء عُلَمَاء»[2].

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

إن رَجُلاً قال: يا رسول الله، إن لي قَرابةً أَصِلُهُم ويقطعوني، وأُحْسِن إليهم ويُسيئون إليَّ، وأَحْلُمُ عنهم ويَجْهَلون عَليَّ، فقال:

«لئن كنتَ كما قُلْتَ، فكأنَّما تُسِفُّهم الْمَلَّ[3]، ولا يزال مَعَك مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهم ما دُمْتَ على ذلك»[4].

(٢) وعن أبي سعيد الخدْريّ ﷺ أنه قال:

إن ناسًا من عبد القيس قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا:

يا نبي الله، إنَّا حَيٌّ من ربيعة، وبيننا وبينك كُفَّار مُضَر، ولا نَقْدِرُ عليك[5] إلاَّ في أَشْهُر الْحُرُمِ فَمُرْنَا بأَمْرٍ نأْمُرُ به مَنْ وَراءَنا، وندخلُ به الجنّة إذا نحن أَخَذْنَا به، فقال رسولُ الله ﷺ :

«آمُرُكُمْ بأرْبَعٍ وأنهاكم عن أرْبَعٍ: اعْبُدوا الله ولا تُشْرِكوا به شيئًا، وأقيموا الصّلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضانَ، وأَعْطُوا الْخُمْس من الغنائم، وأنهاكم عن أربع: عن

---

(١) «الحلم» لابن أبي الدنيا (١٠).

(٢) «الحلم» لابن أبي الدنيا (١١).

(٣) الملّ: الرّماد الحار.

(٤) رواه مسلم (٢٥٥٨).

(٥) أي: على الإتيان إليك.

الدُّبَّاء[١]، **والحَنْتَم**[٢]، **والْمُزَفَّت**[٣]، **والنَّقِير**».

قالوا: يا نبي الله ما عِلْمُك بالنَّقِير؟

قال: «**بَلَى، جِذْعٌ تَنْقُرونَهُ فَتَقْذِفون فيه من القُطَيْعَاء**[٤]، **ثم تَصُبُّون فيه من الماء، حتى إذا سَكَن غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوه حتى إن أحدَكُم – أو إن أحَدَهم – لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّه بالسَّيْف**» وفي القوم رجلٌ أصابته جِرَاحَةٌ كَذلِك. قال: وكنتُ أُخَبِّؤُها حياءً مِنَ رَسُول الله ﷺ فقلتُ:

فَفِيم نَشْرَبُ يا رسولَ الله؟

قال: «**في أَسْقِيَةِ الأَدَمِ**[٥] **التي يُلاَثُ على أَفْواهِها**[٦]».

قالوا: يا رسول الله، إن أَرْضَنا كثيرةُ الجِرْذَانِ[٧] ولا تَبْقَى بها أَسْقِيَةُ الأَدَمَ.

فقال نبي الله ﷺ: «**وإن أَكلتها الجِرْذَانُ، وإن أَكلتها الجِرْذَان، وإن أكلتها الجِرْذَانُ**».

وقال نبي الله ﷺ لأَشَجِّ عَبْد الْقَيْس:

«**إنَّ فِيكَ لَخِصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما اللَّهُ: الحِلْمُ والأَنَاةُ**»[٨].

(٣) وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال:

كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب يقول:

«**لا إله إلاّ اللّهُ العظيمُ الْحَلِيمُ، لا إله إلاّ الله رَبُّ السَّمَوات والأَرْضِ وَرَبُّ العرشِ العَظِيم**»[٩].

---

(١) **الدُّبَّاء**: القرع وهو وعاء ينتبذ فيه.

(٢) **الحَنْتَم**: الجَرَّة كانوا يشربون فيها الخمر.

(٣) **المُزَفَّت**: الإناء الذي طلي بالزِّفت.

(٤) **القطيعاء**: نوع من التمر صغير.

(٥) **الأدَم**: – بفتح الهمزة والدال – الجِلْد الذي تَمَّ دَبغه.

(٦) **يلاث على أفواهها**: يلف الخيط على أفواهَها ويربط به.

(٧) **الجرذان**: الفئران.

(٨) رواه البخاري (٨٧)، ومسلم (١٨)، والترمذي (٢٠١١)، واللفظ له.

(٩) رواه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٤) وعن أنس ﷺ أنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **التَّأني مِنَ الله، والْعَجَلَةُ من الشَّيْطَان، وما أَحَدٌ أَكْثَرُ مَعَاذِيرَ مِنَ الله، وما من شيءٍ أحَبُّ إلى الله مِنَ الْحِلْمِ** »[1].

ومن الآثار:

(١) قال **لقمان** الحكيم:

« ثلاثة لا يعرفون إلاّ عند ثلاثةٍ: لا يُعْرَفُ الحليمُ إلاّ عند الغضب، ولا الشجاعُ إلاّ عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجةِ إليه »[2].

(٢) وقال **معاوية بن أبي سفيان** - رضي الله عنهما - :

« لا يبلغ العبدُ مبلغ الرّأي حتى يغلب حِلْمُهُ جَهْلَهَ، وَصَبْرُهُ شهوتَه، ولا يبلغ ذلك إلاّ بقوّة العِلْم ».

(٣) وقال **عطاء بن أبي رَبَاح** - رحمه الله - :

« مَا أَوَى شَيءٌ إلى شَيءٍ أَزْيَنُ مِنْ حِلْمٍ إلى عِلْمٍ ».

(٤) وعن **سفيان**، قال معاوية لعمرو بن الأهتم: أيّ الرّجال أشْجَعَ؟

قال: مَنْ ردّ جَهْلَه بِحِلمه.

قال: أيّ الرّجال أسْمى؟

قال من بَذَل دُنياه في صلاح دينه.

(٥) وعن ابن عباس - رضي الله عنها - قال:

« الحِلْمُ مِنَ الخلال التي تُرْضِي الله، وهو يجمع لصاحبه شرف الدنيا والآخرة، ألم

---

(١) قال المنذريّ في « الترغيب والترهيب » (١١٨/٣): رواه أبو يعلى ورواته رواة الصحيح.

(٢) « الإحياء » (١٧٩/٣).

تسمعوا الله – تعالى – وَصَف خَليله بالحِلْم فقال:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود ٧٥].

(٦) وعن **أبي الدرداء** قال:

«ليس الخير أن يَكْثُر مَالك وولدك، ولكن الخير أن يَعْظُم حِلْمُك، ويكثر عِلْمُك، وأن تنادي الناس في عبادة الله، فإذا أحسنتَ حمدتَ الله، وإذا أسأتَ استغفرتَ الله»[١].

(٧) وعن **الحسن**، قال:

«المؤمن: حَليم لا يجهل وإن جُهل عليه، حَليم لا يظلم، وإن ظُلِم غَفَر لا يقطع، وإن قُطِع وَصَل[٢] لا يبخل، وإن بُخِل عليه صَبَر»[٣].

(٨) وذكر أبو عمر العمري:

عن شيخٍ من مُحارب أن عَبْدَ الملك بن مروان كان يومًا في عدة من ولده وأهل بيته. فقالوا: لننشدك أجْمل حكم، وأشعر ما يُرْوى، فأنشدوا لزهير والنّابغة وامْرئ القَيْس وطُرْفة ولبيد، فقال عبد الملك أشعر منهم الذي يقول:

وذي رحم قلمت أظفار صنعه ... بحلمي عنه وهو ليس له حلم

يحاول رغمي لا يحاول غيره ... وكالموت عندي أن يحل به الرغم

فإن أعف عنه أغض عيني على قذي ... وليس به بالصّفح عن دينه علم

وإن أنتصر منه أكُنْ مثل رائش ... سهام عدو يستهاض بها العظم

صبرت على ما كان بيني وبينه ... وما يستوي حرب الأقارب والسلم

ويشتم عرضي بالمغيب جاهلا ... وليس له عندي هوان ولا شتم

إذا سمته وصل القرابة سامني ... قطيعتها تلك السفاهد والإثم

---

(١) «الحلم» لابن أبي الدنيا (٦٠).

(٢) أي: رحمه.

(٣) «الحلم» (٦١).

وإن أدعه للنصف يأبى ويعصني ... ويدعو لحكم جائر غيره الحكم
وقد كنت أطوى الكاشحين وأشتفي ... وأقطع قطعا ليس ينفعه الحسم
وقد كنت أجزي النكر بالنكر مثله ... وأحلم أحيانا ولو عظم الجرم
ولولا اتّقاء الله والرّحم التي ... رعايتها حقّ وتعطيلها ظُلم
إذن لعلاه بارقي وخطه ... بوشم شنار لا يشابهه وشم
ويسعى إذا أبني ليهدم صالحي ... وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يود لو أني معدم ذو خصاصة ... وأكره جهدي أن يخالطه العدم
وتعتد عما في الحوادث نكبتي ... وما أن له فيها سناء ولا غنم
أكون له أن ينكب الدهر مذرعا ... أكالب عنه الخصم إذ عضه الخصم
وألجم عنه كل أبلج طامح ... ألد شديد الخصم غايته العشم
فمازلت في لين له وتعطف ... عليه كما تحنو على الولد الأم
وقولي إذا أخشى عليه مصيبة ... ألا اسلم فداك الخال ذو الرفد والعم
وستري على أشياء منه تريبني ... وكظمي على غيظي وقد ينفع الكظم
لأستلّ منه الضّغن حتى استللته ... وقد كان ذا حقد يضيق به الجرم
دفنت انثلامًا بيننا فرقعته ... برفقي وإحنائي وقد يرقع الثّلم
فأبرأت غلّ الصّدر منه توسعًا ... بحلمي كما يشفى بأدوية كلم
وأطفأتُ نارَ الحرب بيني وبينه ... فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلم

والشّعر لمعين بن أوس المزني.

ثالثًا: أنواعُ الحِلْمِ:

اعلم - وفقني الله تعالى وإيّاك - أن الحِلْم على ضَرْبين:

أحَدُهما: ما يَردُ على النّفس من قضاء الله من المصائب التي امْتَحَن اللّهُ بها عبادَهُ فيصْبِرُ العاقلُ تحت وُرُودها وَيَحْلُمُ عن الخروج إلى ما لا يَليقُ بأَهْل العقل.

والآخر: مَا يَردُ على النّفس بِضِدّ مَا تَشْتَهيه مِنَ المخلوقين، فمن تعوَّد الحِلْم فليس بمحتاجٍ إلى التَّصبُّر لاستواءِ العَدَم والوجودِ عنده[1].

رابعًا: الأسبابُ الدَّافعة للحِلم:

قال الإمام الماورديُّ - رحمه الله تعالى - :

«الحِلْمُ من أشرف الأخلاق وأحقّها بِذَوي الألباب لِمَا فيه من سلامة العِرْض وراحةِ الجسد واجْتلاب الحَمْد.

وأسبابُ الحِلْم الباعثةُ عليه عَشَرَةٌ وهي:

أحَدُها: الرّحمةُ للجُهَّال، وذلك من خيرٍ يوافق رِقّةً، وقد قيل في مَنْثور الحِكَم:

مِنْ أوْكد أسباب الحِلْم رحمةُ الجُهَّال.

والثاني: القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصّدر، وحُسن الثّقة، وقد قال بعضُ البلغاء:

«أحْسنُ المكارم: عَفْوُ المُقْتَدر، وَجُودُ المُفْتَقر».

والثالث: التَّرفُّع عن السِّبَاب، وذلك من شَرف النَّفْس وَعُلوّ الهِمَّة. وقد قيل:

إن الله تعالى سَمَّى نَبيه يَحْيى - عليه السّلام - ﴿سَيِّدًا﴾ وذلك لحلمه ولذلك قال الشاعر:

لا يَبْلُغُ المجْدَ أقْوامٌ وإن كَرُمُوا	**حتى يَذلُّوا وإن عَزُّوا لأقْوَامِ**
وَيُشْتَمُوا فَترى الألوانَ مُسْفِرَةً	**لا صَفْحَ ذُلّ ولكِنْ صَفْحَ أحْلامِ**

والرابع: الاستهانةُ بالْمُسِيء، وذلك عن ضَرْب من الكِبْر والإعجاب، وَمِن مُسْتَحْسَنه:

ما رُوى أن «مصعب بن الزّبير» لمّا وُلّي العِراق جَلَس يومًا لعطاء الجند، وأمَر

---

(١) «روضة العقلاء» (٢٠٨- ٢١٤) بتصرّف.

منادِيَهُ فنادى:

أين عمْرو بن جُرْمُوز؟ - وهو الذي قَتَل أباه الزُّبير بن العوّام - ﷺ، فقيل له:

إنّه قد تباعد في الأرض. فقال:

أوَيَظُنّ الجاهلُ أني أُقِيدُه بأبي عَبْدِ الله؟ فَلْيَظْهَرْ آمِنًا ليأْخُذَ عطاءَهُ موفَّرًا!

فعدّ الناسُ ذلك من مُسْتَحْسَن الكِبْر.

والخامس: **الاستحياء من جزاء الجواب**، والباعث عليه صيانة النّفس، وكمال المروءة، ولذلك قيل:

ما أَفْحَشَ حَلِيمٌ ولا أَوْحَشَ كَرِيمٌ.

والسادس: **التَّفَضُّل على السَّاب**؛ ويبعثُ عليه الكرم وحبّ التآلف، وقد حُكِي عن «الأحنف بن قيس» أنه قال:

ما عاداني أحد قطّ إلاّ أخذتُ في أمره بإحدى ثلاث خصال:

إن كان أعْلى مِني عَرَفْتُ له قَدْره.

وإن كان دوني رفعتُ قَدْري عنه.

وإن كان نَظيري تَفضَّلْتُ عليه.

والسابع: **اسْتِنْكافُ السِّباب وَقَطْعُ سَبَبِه**؛ والباعث عليه الحزم، وقد قال الشَّعْبي - رحمه الله تعالى - :

«ما أَدْرَكْتُ أُمِّي فَأَبَرُّهَا، ولكنْ لا أَسُبُّ أَحَدًا فَيَسُبُّهَا».

ولذلك قيل: في إِعْرَاضِك صَوْنُ أَعْرَاضِك.

وقد قال الشّاعر:

وفي الحِلْـمِ رَدْعٌ للسَّـفِيهِ عـن الأَذَى ... وفي الْخُـرْقِ إغْـرَاءٌ فـلا تَـكُ أَخْرَقَا

وقال آخر:

قُـلْ مـا بَدَا لَكَ من زُورٍ وَمِن كَذِبٍ حِلْمِـي أَصَـمُّ وأُذْني غـيْرُ صَـمَّاءِ

والثامن: الخوف من العقوبة على الجَواب؛ ويبعث عليه: ضَعفُ النّفس، وربما أوجبه الرأيُ واقْتضاء الْحَزْم. وقد قيل:

«الحِلْمُ حِجَابُ الآفات».

وقال الشّاعر في هذا:

ارْفُـقْ إذا خفْـتَ مِنْ ذِي هَفْوَةٍ خَرَقًا لَـيْسَ الْحَلِـيمُ كَمَـنْ فِي أَمْـرِه خَرَقُ

والتاسع: الرِّعايةُ لِيدٍ سَالِفَةٍ وَحُرْمَةٍ لازِمَةٍ: والباعث عليه الوفاءُ وحسنُ العهد.

وقد قيل في مَنْثور الحِكَم:

«أَكْرَمُ الشّيَم، أَرْعَاهَا لِلذِّمَمِ».

والعاشر: الْمَكْرُ وتوقّعُ الْفُرَصِ الخَفِيَّة: ويبعث عليه الدَّهاء، وقد قيل في منثور الحِكَم:

«من ظهر غَضَبُهُ قَلّ كَيْده».

وقال بعضُ الأدباء: غَضَبُ الجاهل في قَوله، وَغَضَبُ العاقل في فعْله.

وقال بعض الحُكَماء: إذا سَكَتَّ عن الجاهِلِ فقد أَوْسَعْتَهُ جوابًا وأَوْجَعْتَهُ عِقابًا.

وقال بعضُ الشّعراء:

وَلَلْكَـفُّ عـن شَـتْمِ اللّئـيم تكرُّمًا أَضَـرُّ له مـن شَـتْمِه حـين يَشْـتُمُ

فهذه عشرة أساب تدعو إلى الحِلم، وبعض الأسباب أفضل من بعض، وإذا كان بعضُ أسبابه مَفْضولاً؛ فإن ذلك لا يَقْتَضي أن نتيجته من الحِلْم مذمومة، وإنّما الأَوْلى بالإنسان أن يدعوه لِلحِلْم أفضل أسبابه، وإن كان الحِلْم كله فضلاً، وإن عَرِىَ الحِلْمُ عن أحد هذه الأسباب كان ذُلاً و لم يكن حلمًا، ولذلك قال الشاعرُ:

مَـنْ يَدَّعِـي الحِلْـمَ أَغْضِـبْهُ لِـتَعْرِفَهُ   لا يُعْـرَفُ الحِلْـمُ إلاَّ سـاعةَ الغَضَـبِ

ا.هـ[١].

هذا، «وليس من الحِلْم التّباطؤ والكَسَل، والتّواني والإهمال، وتبلّد الطّبْع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك، بل هذه أمورٌ مُضادةٌ لِخُلُق الحِلْم.

إن الحِلْمَ فضيلةٌ تقع بين رَذيلتَيْن مُتَباعدتين، في طرفَيْن متقابلين، فمن وراء يمين الحِلْم يأتي التباطؤ والكسل، والتّواني والإهمال، وتَبلُّد الطَّبع عند مثيرات الغضب، ونحو ذلك.

ومن وراء يسار الحِلْم يأتي التسرّع في الأمور، واستعجال الأشياء قبل أوانها، والاستجابة السّريعة لمثيرات الغَضَب، ونحو ذلك.

ولّما كان الحلم هو الفضيلة الخلقية التي تأتي بالخير، وتدلّ على سلامة المزاج واعتداله، وعدم جنوحه ذات اليمين أو ذات الشمال، كان ما يتجاوزه يمينًا أو شمالاً منافيًا له، ونقصانًا خلقيًّا لا يأتي بالخير المطلوب، بل قد يأتي بالشّر والضّر أو الأذى.

فالذي جعل الحلم فضيلة خُلقية هو اعتداله، ومسايرته لمقتضى العقل السليم، والآثار النافعة المفيدة الخيّرة التي تترتّب عليه.

وباستطاعتنا أن نصورّ الحلم بأنّه فضيلة خلقيّة نافعة، تقع في قمّة عالية دونها منحدرات.

فهو أناة حكيمة بين التسرّع والإهمال أو التواني، وضبطٌ للنّفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانةٌ بين الطيش وجمود الإحساس، وهكذا.

وللحِلْم دائرة ذات حدود فما أخرج عنها إلى غيرها أضرّ وأفسد، وخرج من دائرة الفضيلة.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٣١٠- ٣١٤) باختصار. ط. المكتبة التوفيقية.

وما قد يسمّى حلمًا إذا أدّى ما لا تُحمد عُقْباه فهو ليس بِحِلْمٍ، وهو حينئذٍ ليس فضيلة خُلقية، وتسميته حِلْمًا خَطَأ في التقدير، بل هو في حقيقته تباطؤٌ أو إهمال لا حِلم»[1].

خامسًا: صور ومواقف من حياة الحُلَمَاء:

الموقف الأول: حِلْمُ سَيِّدِ الأنبياء ﷺ:

الحديث عن حِلْمِ النبي ﷺ حديث ذو شجون، يحتاج إلى «مجلدات»، ويكفي أن نشير - هنا - إلى ثلاثة مواقف تدلّ على حلمه ﷺ:

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

إن رَجُلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه[2] فأغْلَظ، فَهَمَّ به أصحابُهُ فقال رسولُ الله ﷺ:

«**دَعُوه فإنّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً**». ثم قال:

«**أعْطُوه سِنًّا مِثل سِنِّه**».

قالوا: يا رسول الله، إلاّ أَمْثَل مِنْ سِنِّه.

فقال: «**أعْطُوه، فإنَّ مِنْ خَيْرِكُم أحْسَنَكُمْ قَضَاءً**»[3].

قال الإمام **النووي** - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«وفي هذا الحديث: أنه يستحبّ لمن عليه دَيْن من قَرْض وغيره أن يَرُدّ أَجْوَد من الذي عليه، وهذه من السُّنّة ومكارم الأخلاق، وليس هو من قَرْض جَرّ مَنْفَعة فإنه مَنْهِيّ عنه لأن المنهي عنه ما كان مَشْرُوطًا في عَقْد القَرْض»ا.هـ[4].

---

(١) «الأخلاق الإسلامية وأسُسُها» لعبد الرحمن حسن حبنكة (٢/٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) كان النبي ﷺ قد استَسْلف من هذا الرجل بَكْرًا بمثله - كما في رواية أخرى - والْبَكْر من الإبل: هو الصَّغير.

(٣) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٠/٢١٥).

(٢) وعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال:

«كنتُ أَمْشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْراني غَلِيظ الحاشية فأَدْرَكه أعرابي فَجَبَذه بِردَائه جَبْذَةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صَفْحَة عاتِقِ رسول الله ﷺ قد أَثَّرَتْ بها حَاشيةُ الْبُرْدِ من شدَّة جَبْذَته، ثم قال:

يا محمد مُرْ لي مِنْ مَالِ الله الذي عِنْدَك، فالْتَفَتَ إليه رسولُ الله ﷺ ثم ضَحِك ثم أَمَر له بِعَطاء!»[1].

(٣) وعن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت للنبي ﷺ:

هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يَوْم أُحُد؟

قال: «لقد لقيتُ من قَومِك ما لقيتُ، وكان أشدُّ ما لَقِيتُ منهم يَوْم العَقَبة، إذ عَرَضتُ نفسي على ابْن عَبْد يَا لِيلْ بن عَبْدِ كُلال، فلم يُجبْني إلى ما أردتُ فانْطَلَقْتُ وأنا مهموم على وَجْهي، فلم أسْتَفِقْ إلاّ وأنا بِقَرْن الثّعالِب فرفعتُ رأْسي فإذا أنا بسَحَابة قد أظَلّتني فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنّ الله قد سَمِع قَوْلَ قومك لك وما رَدُّوا عَلَيك، وقد بعثَ اللّهُ إلَيْك مَلَكَ الجِبَالِ لِتأمُرَهُ بما شِئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال فَسلّم عَليَّ ثم قال: يا مُحَمّد، فقال: ذَلِك فيما شِئْتَ، إن شِئْتَ أن أُطْبِقَ عليهمُ الأَخْشَبَين[2]»، فقال النبي ﷺ:

«بل أرْجو أن يُخرِجَ اللّهُ من أصلاَبِهم من يَعْبُدُ الله وَحدَه لا يشركُ به شيئًا»[3].

الموقف الثاني: حِلْمُ إبْراهيمَ عليه السّلام:

أثنى اللّهُ – تعالى – على إبراهيم عليه السلام فقال:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٢) جَبَلا مكّة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله.

(٣) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

وفي موطن آخر:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

قال الإمام **القرطبي** – رحمه الله تعالى – :

«قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ اختلف العلماء في الأوّاه على خمسة عشر قولاً:

الأول: أنه الدَّعَّاء الذي يكثر الدّعاء.

الثاني: أنه الرحيم بعباد الله.

الثالث: أنه الموقن.

الرابع: أنه المؤمن – بلغة الحبشة – .

الخامس: أنه المسبّح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة.

السادس: أنه الكثير الذّكر لله تعالى.

السابع: أنه الذي يكثر تلاوة القرآن. **قلتُ**: وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها.

الثامن: أنه المتأوّه.

التاسع: أنه الفقيه.

العاشر: أنه المتضرّع الخاشع.

الحادي عشر: أنه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها.

الثاني عشر: أنه الكثير التأوّه من الذّنوب.

الثالث عشر: أنه الْمَعْلَمُ[1] للخير.

---

(١) معلم كل شيء: مظنّته.

الرابع عشر: أنه الشفيق.

الخامس عشر: أنه الراجع عن كلّ ما يكره اللّهُ تعالى.

وأصله من التأوّه، وهو أن يسمع للصّدر صوت من تنفّس الصُّعداء.

قال كعب: كان إبراهيم ﷺ إذا ذكر النار تأوّه.

قال الجوهري: قولهم عند الشكاية: «أوْهِ من كذا» - ساكنة الواو - إنما هو توجّع.

والحليم: الكثير الحلم، وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى. وقيل: الذي لم يعاقب أحدًا قط إلاّ في الله ولم ينتصر لأحد إلاّ لله. وكان إبراهيم ﷺ كذلك، وكان إذا قام يصلّي سمع وجيب قلبه[1] على ميلين!»ا.هـ[2].

وقد برز جانب الحلم في إبراهيم ﷺ حينما أخذ يجادل الملائكة حينما أبلغوه بمهمتهم نحو قوم لوط عقابًا لهم على جريمتهم النّكراء، وهي «إتيان الذكور»، وذلك رغبة منه في تأخير العذاب عنهم رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا، ولم يكن يعلم أنه لا مطمع في توبتهم وإيمانهم. قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٤- ٧٦].

الموقف الثالث: حِلْمُ إسْماعيل ﷺ:

وكما أثنى الله - تعالى - على إبراهيم ﷺ بخلق «الحِلْم» كما تقدّم، أثنى على ولده إسماعيل ﷺ به. قال تعالى:

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

---

(١) وجيب القلب: خفقانه واضطرابه.

(٢) «تفسير القرطبي» (٨/١٩٣- ١٩٥) باختصار.

وقد تجلّى هذا الخُلُق في حياته عليه السلام في أوّل اختبار صَعْب واجَهه في بداية حياته، وهو «غلام»، حين قال له أبوه:

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إنه يتلقّى الأمر لا في طاعة واستسلام فَحَسْب، ولكن في رضى كذلك وفي يقين.

فأيّ حِلْم يُضارع هذا الحِلم؟

الموقف الرابع: حِلْمُ ابْن عباس رضي الله عنه:

ذكر الإمام الغزاليّ - رحمه الله - في «الإحياء» (١٧٨/٣):

«أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال لرجل سبَّه:

يا عكرمةُ، هل للرّجل حاجة فنقضيها؟!

فنكّس الرَّجُلُ رأسه واستَحيى مِمّا رأى من حِلْمِه عليه».

الموقف الخامس: حِلْمُ زين العابدين «عليّ بن الحسين»:

ذكر البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٨٣١٧):

أن جارية لعليّ بن الحسين[1] - رحمه الله - جَعَلَتْ تَسْكُب عليه الماءَ ليتوضّأ للصّلاة، فسقط الإبريقُ من يد الجارية على وجهه فشجّه، فرفع علي بن الحسين رأسه إليها، فقالت الجارية:

إن الله عز وجل يقول:

﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فقال لها: قد كظمتُ غيظي.

---

(١) هو: عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، انظر: ترجمته في كتابنا: «صور ومواقف من حياة التابعين».

قالت الجارية: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فقال لها: عفا اللّهُ عنكِ.

قالت: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال: اذهبي فأنت حُرّة!

الموقف السّادس: حِلْمُ الأَحْنَف بن قيس:

كان «الأحنف بن قيس»[1] - رحمه الله تعالى - أَحَد مَنْ يُضْرَبُ بِحِلْمِهِ وسُؤْدُدِهِ المَثَلُ:

قال أَهْلُ السِّير: أن رجلاً خاصَم الأحنف، وقال: لئن قلتَ واحِدة، لَتَسْمَعَنَّ عَشْرًا.

فقال: لكنَّك إن قُلْتَ عَشْرًا لم تَسْمَعْ وَاحِدَة![2].

الموقف السابع: حِلْمُ قَيْس بن عاصم المنقري:

سُئِل «الأحنف بن قيس» يومًا: نراك عظيم الحِلْم، فَمِمَّن تعلَّمْته؟

فقال: تعلّمتُه من «قيس بن عاصم المنقري»، كنَّا يومًا في مجلسه نتلّقى نُصحه، ونستمع من حِكَمه، وهو جالس مُحتبيا[3]، وبينما نحن كذلك، إذْ أقبل أبناؤه عليه ومعهم فتى مقتول يتشحّط في دمه، وفتى آخر مكبّل بالسلاسل والقيود، فكان المقتول ابن قيس، والمكبّل هو قاتله، وكان ابن أخيه، فأقبل عليه أبناؤه وقالوا له:

قامت مشاحنة بين هَذَيْن، فَقَتَل ابْنُ عمِّنا أخانا، ولم نفعل به شيئًا، إلاّ بعد رأيك وأمرك، فماذا تأمرنا؟

فالتفت إلى القاتل وقال له:

---

(١) تابعيّ جليل.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/٩٣).

(٣) احتبى: جلس على أليتيه وضمّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

يا ابن أخي: لماذا فعلت هذه الجريمة الشنعاء، فوالله لقد أَثِمْتَ بربِّك، ورَمَيْت نَفْسَك بِسَهْمك، وقتلتَ ابْن عَمّك. ثم أنشد هذين البيتين:

أقــول للــنّفس تأسَــاءً وتعــزية إحــدى يــدي أصَــابَتْني ولم تــرد

كلاهمــا خلــف عَــنْ فَقْــد صــاحبه هــذا أخــي حــين أدعــوه وذا وَلَدي

ثم سكت قليلاً، وقال لأكبر أبنائه:

حل وثاق ابْن عَمّك، وافكك قيوده عنه، وادْفِن أخاك، وَسُقْ إلى أُمّه مائة ناقة دِية ابْنِها، فإنّها غريبة عنا!

قال الأحنف: فوالله ما فكّ حبوته، ولا غير جلسته، ولا قطع حديثه الذي كان يتحدّث فيه، فكنا نعجب من حلمه في مواقف الشرور. ورثاه الشاعر فقال:

فمــا كــان قــيس مَوْتــه موت واحد ولكــنّه بــنيان قَــوْم تَهَدَّمــا[١]

قلت: دلّت هذه القِصّة على أن «حِلْم» الأحْنَف - رحمه الله - كان كَسْبِيا، وقد كان يعلم هذا من نفسه، فقد ذكر الغزاليّ - رحمه الله - في «الإحياء» (١٧٩/٣): أن الأحنف - رحمه الله - قال:

«لستُ بِحَليم ولكنّني أتحلّم».

سادسًا: ثمراتُ الحِلْم:

قال الشيخ/ **عبد الرحمن الجزيري**[٢]:

«يترتب على الحِلْم آثار جليلة، ومنافع عظيمة يعرف الفردُ أو الجماعة قدرها.

إذا طغى الغضبُ فأثار النفوس وأسعر نار الفتنة. فاضطربت الأمور واستحكمت العداوة والبغضاء واستولى على النفوس حُبّ النزاع والصّدام وحبب إليها الفتك والتدمير

---

(١) انظر: «الحلية» و «صفة الصفوة» (١٩٨/٣)، و «أحسن المحاسن» (٣٢١).

(٢) مؤلف كتاب: «الفقه على المذاهب الأربعة».

وسهل عليها القضاء على الأنفس والأموال والأعراض وعَذُبَ لديها تخريب الديار، والاستهانة بالنظّام ونسيت ما يجرّه الطيشُ والتهوّرُ من بلاء دائم وشقاء مستمرّ، وينتجه من نتائج قد تغيّر مجرى الحياة فتبدّل العزّ ذلاًّ، والسّعادة نَحْسًا، والرّبح خُسْرانًا، والأمن خوفًا، والطمأنينة قلقًا، وراحة النّفس عذابًا، عند ذلك يعرف الناسُ فضل الحِلم ويكبّرون قَدْر الحليم.

فالحلم وقاية تقي مصارع السوء، وتحفظ من الوقوع في مواطن الهلاك. ولهذا أمثلة كثيرة بين الجماعة والأفراد. فلنذكر - هنا - المهمّ منها ليتضح لك الأمر وتنجلي لك الحقيقة من الجهات.

المثال الأوّل:

الحاكم إذا كان حليمًا لا يستفزّه الغضب إلى إبرام الأمور قبل التثبّت منها فإنّه يكون نعمة وبركة على نفسه وعلى أُمّته، لأن التثبّت في الأمور قبل إبرامها يستلزم العدل وإعطاء كل ذي حقّ حقّه، وجزاء كلّ فرد بما هو أهله. وبذلك تسعد أمّته، وتدوم دولته، وترفع مكانته عند الله وعند عباده، فيرضى عنه ربّه فيستجيب له إذا دعا، ويهيئ له وسائل النّصر والظّفر على الأعداء، ويديم عليه نعمه في الدنيا والآخرة.

وعلى العكس من ذلك الحاكم الجائر الذي يستفزّه الغضب فيحمله على الانتقام من الضّعفاء وظلم الأبرياء من غير تثبت ولا دليل. ويكفي مثل هذا تخويفًا وتحذيرًا قول رسول الله ﷺ:

«إن دعوة المظلوم لا ترد، وإن الله تعالى يرفعها فوق السّحاب، ولابد أن ينصره ولو بعد حين».

فالمظلوم يغضب اللّهُ من أجله، ويستجيب له دعوته، وينتقم له ممّن ظلمه في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

المثال الثاني:

زعماء القبائل والعشائر ورؤساء الأُسَر إذا كانوا حُلَماء فإنّهم يرفعون عن أتباعهم كثيرًا من الأذى، ويدفعون عنهم شرّ التنازع والخصومات مع بعضهم بعضًا أو مع غيرهم.

المثال الثالث:

المربي إذا كان حليمًا فإنه ينتج أحسن النتائج ويؤدِّي لأمّته أجل الخدم وأفضلها لأنه يستطيع بحلمه أن يتبين مواضع الضّعف من نفس القائم على تربيته فيعالجه بما يناسب حاله حتى يشبّ صالحًا نافعًا خصوصًا إذا كان قائمًا بتلقينه العلم فإن ملقن العلم إذا لم يكن حليمًا فإنه يضيع على من يعلّمه أحسن الفرص في حياته لأنه يحرمه من مناقشة الحقائق العلمية التي يتمكن بها من معرفة الخطأ من الصّواب، والحق من الباطل، ويتدرّب على المناظرة المفيدة للفكر فضلاً عمّا تتركه حماقة المربي من الأثر السّيئ في نفس الطالب فإن عدواها تسرى إليه من أستاذه ويكون شرًّا على نفسه وعلى الناس.

المثال الرابع:

الزّوج مع زوجه. إذا كان كل منهما حليمًا فإنهما يعيشان عيشة راضية مَرْضِيّة إذ يغضي كلّ منهما عن هفوات صاحبه فلا يثيران نزاعًا لأيسر الأمور وأحقر الأسباب خصوصًا إذا كان لهما أبناء تنطبع فيهم أخلاقهما وتنقل إليهم صفاقهما، فإن فضل الحلم في هذه الحالة عظيم، وضرر الحماقة شديد لما يصيب الأبناء من نفع الأول وضرر الثاني. فالحِلْم في الحياة الزوجية سعادة عاجلة وآجلة وخير عظيم للأسرة بتمامها.

المثال الخامس:

التاجر إذا كان حليمًا، فإن تجارته تكون رائجة، وإقبال الناس عليه يكون كثيرًا، لأن حلمه يرغّبهم في معاملته.

أمّا إذا كان أحمقًا يثور غضبُه لأهون الأسباب وأيسر الأمور فيؤذي بلسانه من لم يسوم سلعته بالثّمن الذي يحب أو يمنع عنه السلعة فلا يمكّنه من إعادة النظر إليها، أو

يحلف الأيمان بأنه لا يبيعه منها، إلى غير ذلك ممّا يفعله كثيرٌ من الباعة حماقة وجهلاً فإنه من أكبر الأسباب في كساد تجارتهم لانصراف الناس عنهم ونفرتهم من معاملتهم، وقد يفضّلون معاملة الحليم حتى ولو كانت سلعته أقلّ جوْدة من سلعة ذلك الأحمق، فكما أن الصّدق من وسائل نجاح التاجر فكذلك الْحِلْم.

فالْحِلْم نافع للأفراد والمجموع والرئيس والمرءوس والتاجر والصّانع والزارع ومفيد للنّاس أجمعين بشرط أن يُسْتَعْمل في مَوْضعه» ا.هـ[1].

فالْزَم - **أخا الإسلام** - هذا الخُلُق، واجْعَلْه لَكَ شِعارًا ودِثارًا، لِسَانُ حَالِك وَمَقالك يُردِّد مع الشّاعر:

أُحِـــبُّ مكـــارمَ الأخْـــلاق جُهْـــدي ... وأَكْـــرَهُ أن أَعِيـــبَ وَأَنْ أُعَابَـــا

وأَصْـفَحُ عَـنْ سِـبَابِ الـنّاس حِلْمًا ... وشَـرُّ الـنّاس مَـنْ يَهْـوَى السِّـبَابا

وَمَـــنْ هَـــابَ الـــرِّجَالَ تَهَيَّـــبوُه ... وَمَـــنْ حَقَـــر الـــرِّجَالَ فَلَـــنْ يُهَابَـــا

« اللّهم وفّقنا لأحسن الأخلاق، لا يوفّق لأحسنها إلاّ أنت، واصْرِفْ عنا سَيِّئها، لا يَصْرِف عنّا سيِّئها إلاّ أنت».

۞۞۞۞۞

(١) «كتاب الأخلاق الدينية والحكم الشرعية» لعبد الرحمن الجزيري (٢١٤- ٢١٧) باختصار.

٦٤- الشَّوْقُ إلى الله تعالى

لِلّه قَوْمٌ صَعَّدوا أَنْفاسَهم إلى مَحْبوبِهم، لا يَخرجُ ويَصْعَد نَفَسٌ منها إلاّ مُتَلَبِّسًا بمحبّته والشّوق إليه، فإذا أرادوا دَفْعَه لم يَدْفَعُوه حتى يُتبعوه نَفَسًا آخر مِثْله، فكلُّ أنفاسِهم بالله وإلى الله، فلا يفوتهم نَفَسٌ من أنفاسهم مع الله إلاّ إذا غَلبهم النومُ[1].

بهذه الكلمات العطرة، نبدأ حديثنا عن « **الشّوق إلى الله تعالى** » ، ذلكم المقام الكريم، الذي لا يصيب إلاّ قَلْبًا عَرَف الله فأحبَّه.

فما معنى الشوق؟

وما هي علاماته؟

وما هي مراتبه؟

هذا ما سوف نُفَصِّله على السطور التالية، ثم نُتْبِع ذلك: بذكر بعض أقوال وأحوال أهل الشّوق.

نسأل الله – تعالى – أن يجعلنا منهم « آمين » .

أوّلاً: معنى الشوق:

الشّوْق: نسيمٌ يَهُبُّ على القلوب يُطيِّب لها السَّيْر إلى بلاد المحبوب، إلى الله، وإلى الدار الآخرة.

وقد تنوّعت عباراتُ أهل الله في تعريف « الشوق » .

- قال الأستاذ **القُشيريّ** – رحمه الله تعالى – :

« الشوق: اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قَدْر المحبّة يكون الشّوق »[2].

---

(١) « صلاح الأمة » د. سيد العفّاني (٥/٧٤٧).

(٢) « الرسالة القشيرية » (٣٢٩).

- وقال **أبو عبد الله بن خفيف** - رحمه الله - :

«الشوق: ارتياحُ القلوب بالْوَجْدِ، ومحبّة اللّقاء والْقُرْب»[١].

- وقال **سَرِّي السَّقَطي** - رحمه الله - :

«الشّوق: أجلّ مقام للعارف إذا تحقّق فيه، وإذا تحقّق في الشوق فإنه يلهو عن كلّ شيء يشغله عمّن يشتاق إليه»[٢].

- وسُئل **أحمد بن عطاء** عن الشوق، فقال:

«احْتِراق الأحْشاء، وتلَهّب القلوب، وتقطّع الأكباد».

- وسُئل - أيضًا - هل الشّوق أعلى أم المحبّة؟

فقال: «المحبّة، لأن الشوق يتولّد منها»[٣].

- وقال **أبو عثمان سعيد الحيري** - رحمه الله - في قوله تعالى:

﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ ﴾ [العنكبوت: ٥]:

«هذا تعزية للمشتاقين، ومعناه: أني أعْلم أن اشتياقكم إليَّ غالب، وأنا أجَّلْتُ للقائكم أجَلاً، وعن قريب يكون وصولكم إلى مَنْ تشتاقون إليه»[٤].

- وقال الأستاذ **القشيريّ** - رحمه الله - : سمعتُ الأستاذ أبا علي الدّقّاق يقول في قوله ﷻ:

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤] قال:

«معناه: شوقًا إليك فَستَره بلفظ الرّضا»[٥].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٣٣١).

(٢) نفس المرجع (٣٣٢).

(٣) نفس المرجع (٣٣٠).

(٤) نفس المرجع (٣٣٢).

(٥) نفس المرجع (٣٣١).

- **وقيل**: «إن المشتاقين يَتَحَسَّسون حلاوةَ الموت عند وُروده، لِمَا كُشِف لهم من روح الوصول أحْلَى من الشَّهْد».

كان «عليّ بن سهل الأصبهاني» - رحمه الله تعالى - يقول لأصحابه:

«أتظَنّون أني أموتُ كما يموتُ النّاس؟ إنّما أُدْعَى، يُقال لي: يا عليّ، فأُجِيب!!».

ومن عجيب أن «ابن سهل» مات كما تنبّأ، فذات يوم وهو يسير بين نَفَرٍ من إخوانه ومريديه، وَقَف فَجْأَة وَصَاح:

«لَبيك».

ثمّ مال على أكتاف صَحْبه، وفاضت رُوحُه![1].

ثانيا: علاماتُ الشّوق:

يعرف المشتاق بعلامات، منها:

العلامةُ الأولى: حُبّ الموت مع الرَّاحة:

قال **أبو عثمان** - رحمه الله - «علامة الشوق: حبُّ الموت مع الراحة»[2].

وقال **أبو علي الدّقّاق** - رحمه الله - : «من علامات الشوق: تمني الموت على بساط العوافي كيوسف عليه السلام لمّا أُلقى في الجُبّ لم يقل: توفّني، ولَمّا أُدخل السّجن لم يقل: توفني، ولَمّا دخل عليه أبواه، وخرّ الإخوةُ له سُجّدًا، قال:

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ [يوسف: ١٠١]، وفي هذا المعنى قالوا:

نحن في أكمل السُّرور ولكن ... ليس إلاّ بكم يتمُّ السّرور

عَيْبُ ما نحن فيه يا أهْل ودّي ... أنكم غُيَّبٌ ونحن حضور

وقد تَرْجَم أهلُ الشّوق تَعَجُّل اللّقاء على أرض الواقع، وهذه لقطات من حياتهم:

---

(١) «والموعد الله» للأستاذ/ خالد محمد خالد (١٠٣).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٣٣٠).

□ جاء أحمد بن حامد الأسود إلى «عبد الله بن المبارك» فقال:

رأيتُ في المنام أنك تَموت إلى سَنَة، فلو استعددتَ للخروج.

فقال عبدُ الله بن المبارك:

لقد أجَّلْتَنا إلى أَمَدٍ بَعيد، أَعِيشُ أنا إلى سَنَة! لقد كان لي أُنْسٌ بهذا البيت الذي سمعتُه مِنْ هذا الثقفي - يعني أبا عليّ - :

يـا مَـنْ شَـكَا شَوْقَه من طول فرقته ... اصْـبِرْ لعلّـك تَلْقَـى مَـن تُحبّ غَدًا

□ **وهذه لقطة ثانية:**

لمّا هاجر النبي ﷺ وأصحابُه من مكة إلى المدينة، آخَى النّبي ﷺ بين سعد بن خيثمة الأنصاريّ وبين أبي سَلَمة بن عبد الأسد.

ولّما ندب رسولُ الله ﷺ الناس إلى غزوة «بدر» قال خيثمةُ لولده سعد:

إنه لابد لأحدنا أن يقيم، فآثرني بالخروج وأقم مع نسائك. فأبى سعد، وقال:

«لو كان غير الجنة آثرتُك به، إني لأرجو الشهادة في وجْهي هذا!».

فاستهما[1] فخرج سهمُ «سعد» فخرج فقتل «ببدر» رضي الله عنه[2].

وتدور الأيام ... ولّما تجهّز النبي ﷺ لخوض معركة «أُحُد» أتى خيثمةُ رسولَ الله ﷺ فقال:

لقد أخطأتني وقعة «بدر» وكنت - والله - عليها حريصًا، حتى ساهمتُ ابني في الخروج، فخرج - في القُرعة - سَهْمُه فَرُزِق الشّهادة. وقد رأيتُ البارحة ابني في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة، وأنهارها يقول:

الْحَقْ بِنا تُرَافِقْنا في الجنّة، فقد وجدتُ ما وَعَدَني رَبي حَقًّا.

---

(١) اقترعا.

(٢) «الإصابة» لابن حجر (٤/١٤١).

ثم قال: وقد أصبحتُ يا رسولَ الله مُشتاقًا إلى مُرافقته، وقد كَبُرتْ سِني، وَرَقّ عَظْمي، وأحببتُ لقاءَ رَبي، فادع الله يا رسولَ الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني «سعد» في الجنّة.

فدعا الرسولُ ﷺ له.

فقتل شهيدًا في «أُحُد».

هذا هو «الشوق» في أبهى صوره، وأحلى معانيه.

العلاّمة الثانية: فطامُ الجوارح عن الشّهوات:

قال **يَحيى بْنُ مَعَاذ الرّازي** – رحمه الله – :

«علامة الشّوق: فطام الجوارح عن الشهوات».

وذلك: بأن يُعْرِضَ العبدُ عنها شوقًا إلى ربِّه، كما يعرض الطّفلُ عن اللّبن حين يطيب له الطعامُ ويشتاق إليه.

كان «داود الطائي» – رحمه الله – يقول في مناجاته:

«إلهي، هَمُّك عَطّل عليَّ الهموم، وحال بيني وبين الرُّقاد، وشوقي إلى النّظر إليك أَوْثَقَ مني اللّذات، فأنا في سِجْنِك أيُّها الكريم مطلوب».

فيا أخي:

إمّا أن تَحْرِقَ مَوَاضع شَهَواتك بِنَار النَّدم على التّقصير، والشّوق إلى لقاء السميع البصير، وإلاّ فَسُيصاح بك:

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥].

العلامة الثالثة: المسارعة إلى الطاعات:

رُوِي عن **بعض السّلف**:

«أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصِّديقين: إن لي عبادًا من عبادي، يحبونني وأحبّهم،

ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حَذَوْتَ طَرِيقَهم أحببتُك، وإن عدلتَ عنهم مقتُّك. قال:

يا ربّ، وما علامتهم؟

قال: يُراعون الظّلال بالنهار كما يراعي الرّاعي الشّفيق غَنَمه، ويحنّون إلى غروب الشمس كما يحن الطّائرُ إلى وَكْره عند الغروب، فإن جَنّهم اللّيلُ واختلط الظّلامُ، وَفُرِشَتِ الْفُرُش، وَنُصِبَتِ الأَسِرَّة، وخلا كُلّ حَبيب بحبيبه، نَصَبوا أَقْدامهم، وافترشوا إليّ وجوهَهم، وناجوني بكلامي، وتملّقوا إليّ بإنعامي، فَبين صَارِخ وَبَاك، وبين متأوِّه وَشَاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحمّلون من أَجْلي، وبسمعي ما يشتكون من حُبي، أوّل ما أعطيهم **ثلاث**:

أَقْذِفُ من نُوري في قلوبهم فَيُخْبِرون عَني كما أُخبر عنهم.

والثانية: لو كانت السمواتُ والأَرْض وما فيهما في موازينهم لاسْتَقللتُهما لهم.

والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترى من أقبلتُ عليه يَعلم أَحَدٌ ما أُريد أن أعطيه؟»[1].

أخي:

لله دَرُّ أقوام لاطفهم بأُنسه فتقرّبوا إليه بقلب سليم، أذاقهم حلاوة مناجاته فكلّ منهم بحبّه يهيم، أسكن قلوبهم حُبّه فليلهم بالأشواق ليل سليم، طهّرها من الهوى فحبُّ الدّنيا عنها راحل وحُبّ الآخرة مقيم، على كل حال لا يعرفون سواه، فأهلاً به من تَنعّم، وأهلاً به من نعيم.

للصّالحين كَرَامَاتٌ وأَسْرَارُ ... لهم من الله تَخْصِيصٌ وآثارُ

صَفَتْ قُلُوبهم للّه واتّصَفَتْ ... بالصّدق وانكشفتْ بالنّور أنوارُ

واستغرقت كلّ وَقْتٍ مِنْ زَمانهم ... في طاعة الله أورادٌ وأذْكارُ

---

(١) «الإحياء» (٤/٣٢٤).

صَامُوا النّهارَ وقاموا اللّيلَ ما سَئِمُوا حتّى تَعَزَّتْ عن الظُّلْماءِ أَسْحَارُ
خَلَوْ به ورواق اللّيل مُنْسَدِلٌ حتّى لهم قد تجلّتْ منْهُ أنْوَارُ
طُوبى لهمْ فلقد طَابَتْ حَيَاتهم وَشَرفتْ لَهُم في النّاس أقْدارُ
فازوا مِنَ الله بالزُّلْفَى وأسْكَنَهم جَنّاتِ عَدْنٍ فَنِعْم الدَّارُ والْجَارُ

ثالثًا، مَرَاتِبُ الشّوْق:

اعلم: أن «الشوق» على **ثلاث درجات:**

الأولى: شوق العابد إلى الجنّة، ليأمن الخائف، ويفرح الحزين، ويظفر الآمل.

الدّرجة الثانية: شوقٌ إلى الله - تعالى - زَرَعَه الحبُّ الذي ينبت على حافات المِنَنِ، فَعَلِقَ قَلْبُهُ بصفاته المقدَّسة، فاشتاق إلى مُعَايَنة لطائف كَرَمِه، وآيات برِّه، وأعلام فَضْله.

والشوقُ إلى الله - تعالى - لا ينافي الشّوق إلى الجنّة، فإن أَطْيَبَ ما في الجنّة:

قربه ورؤيته، وسماع كلامه ورضاه. نعم الشوق إلى الأكل والشرب والحور العين في الجنّة ناقص جدًّا بالنسبة إلى شوق المحبين إلى رؤية الله تعالى، بل لا نِسْبَة له البتة.

وهذا الشوق يَنْبُتُ على حافات الْمِنَنِ ومطالعة إحسان الله ونعمه، فيعلَقُ القلبُ بالصّفات المختصّة بالمنن والإحسان، كالْبَرِّ والمنَّان والمحسن، والجواد والمعطي والغفور.

هذا الشّوْق مشحون بالبرِّ مغشيٌّ به، وهو إمّا برُّ القلب وكثرة خيره، فهذا القلب أكثر القلوب خيرًا، فيفعل البرّ تقرّبًا إلى مَنْ هو مُشْتاقٌ إليه، فهو يجيش بأنواع البرّ، وهذا من فوائد المحبّة؛ أنّ قلب صاحبها ينبع منه عيونُ الخير وتتفجّر منه ينابيعُ الْبِرِّ.

الدرجة الثالثة: نار أضرمها صفوُ المحبَّة، فنغّصت العيش، وسكبت السّلوة، ولم يُنَهْنِهها مغزًى دون اللقاء.

والشوق لا يزول بالمشاهدة؛ فإنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة، وهم إلى يوم المزيد أشوق، وكذلك هم أشوق شيءٍ إلى رؤية مولاهم وسماع كلامه تعالى وهم في الجنة.

قال **الحسن** - رحمه الله - :

«لو عَلِمَ العابدون أنهم لا يَرَوْنَ ربَّهم يَوْمَ القِيامة، لماتوا. وفي رواية: لَذَابَتْ أنفسُهم».

وقال **ذو النون المصري** - رحمه الله - :

«ما طابت الدنيا إلاّ بِذِكْرِه، ولا طابت الآخرة إلاّ بِعَفْوِه، ولا طابت الجنان إلاّ بِرُؤْيته».

فيا أخا الإسلام:

هيّا إلى طاعة مولاك، وجاهد نَفْسَك وهواك، واسمع إلى قول **يحيى بن معاذ وهو يوقظُ الهمَمَ الفاترة:**

«لله ما أحْلَى زمانًا تَسْعى فيه أَقْدامُ الطّاعة على أَرْض الاشْتياق».

بعض أقوال وأحوال أهل الشوق:

والحديث عن أقوال وأحوال أهل الشّوق حديث ذو شجون، وهذه بعض أحوالهم وأقوالهم الدّالة على شدة شوقهم لربهم:

□ **شَوْقُ النَّبي ﷺ:**

كان النبي ﷺ أشدّ الناس شوقًا إلى الله - تعالى -، يدلّ على هذا حاله، ومقاله.

وها هو أنس رضي الله عنه يخبرنا عن شوق النبي ﷺ لربّه - تبارك وتعالى - فيقول:

«أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مَطَرٌ، فَحَسر رسولُ الله ﷺ ثَوْبه حتى أصَابَه المطرُ، فقلنا:

يا رسول الله، لم صنعتَ هذا؟

قال: «**لأنَّهُ حَديثُ عَهْد بِرَبِّه**»[١].

وكان - صلواتُ رَبي وسلامُه عليه - يسأل رَبَّهُ الشّوقَ إلى لقائه، في غير ضَرّاء مُضِرّة، ولا فِتْنة مُضِلّة.

فعن عمار بن ياسر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**اللّهُمّ بعِلمك الغَيْب، وَقُدْرَتك على الْخَلْق؛ أَحْيني ما علمتَ الحياةَ خَيْرًا لي، وتوفَّني إذا علمتَ الوفاة خَيْرًا لي.**

اللّهمّ وأسألُك خَشْيَتَك في الغَيْب والشّهادة، وأسألُك كلمةَ الإخْلاص في الرِّضا والغَضَب، وأسألُك القَصْد في الفَقْر والغِنى، وأسألُك نَعيمًا لا يَنْفَد، وأسألُك قُرَّة عَيْن لا تَنقَطِع، وأسألُك الرِّضَا بالْقَضَاءَ، وأسألُك بَرْدَ الْعَيْش بَعْدَ الموت، وأسألُك لذّة النَّظَر إلى وَجْهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضَرّاءَ مُضِرَّة، ولا فِتْنَةٍ مُضِلّة، اللّهم زَيِّنا بِزِينَةِ الإيمان، واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدين»[٢].

وَخَيَّره اللّهُ - تعالى - بين أن يُؤْتيه من زهرة الدُّنيا، وبين ما عند الله فاختار ما عند الله.

عن أبي سعيد الخدْريّ ﷺ قال:

خطب النبي ﷺ فقال:

«**إنّ الله خَيَّر عَبْدًا بين أن يُؤتيه من زَهْرة الدُّنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عند الله**».

فبكى أبو بكر ﷺ وقال:

فَدَيْناك بآبائنا، فَعَجبْنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخُ يخبر رسولُ الله ﷺ عَنْ عَبْد خَيَّره اللّهُ بين أَن يُؤْتِيَه من زَهْرَة الدنيا وبين ما عند الله، وهو يقول: فَدَيْنَاك بآبائِنا وأمّهَاتِنا، فكان رسولُ الله ﷺ هو العبد المُخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا... »[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح: رواه النسائي والحاكم، وانظر: «صحيح الجامع» (١٣١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

▫ شَوْقُ أبي عُبيدةَ الخوَّاص:

وكان أبو عبيدة الخواص يمشي في الأسواق، ويقول: «واشوقاهُ إلى مَنْ يراني ولا أراه».

▫ شَوقُ الحارِث بن عمير:

كان «الحارث بن عمير» - رحمه الله - يقول إذا أصبح:

«أصبحتُ ونفسي وَقَلْبي مُصِرٌ على حُبِّك سَيِّدي، وَمُشْتَاقٌ إلى لقائك، فَعَجِّل بذلك قبل أن يأتيني سَوادُ الليل». فإذا أَمْسَى قال مثل ذلك، فلم يزل على مثل هذا الحال ستِّين سنة!! [1].

▫ شوق معاذ بن جبل ﷺ

ولمَّا حضرت الوفاةُ «مُعاذَ بن جبل» ﷺ قال:

اللَّهمَّ إني كنتُ أَخافك وأنا اليوم أَرْجوك، اللَّهم إنَّك تعلم أني لم أكن أُحِبّ الدنيا وطول البقاء فيها لِجَرْي الأنهار، ولا لِغَرْسِ الأشجار، ولكن لِظَمَأ الهواجر ومكابدة السَّاعات ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَقِ الذِّكْر.

فلمَّا اشتدّ به النزع كان كلَّما أفاق فتح طرفه ثم قال:

«رَبِّ اخْنُقْني خَنْقَك فوعزَّتِك إنَّك تعلم أن قَلْبي يُحِبُّك» [2].

▫ شَوْقُ بِشْر بْنِ مَنْصور:

قال عبد الأعلى بن حمّاد: دَخَلْنا على «بشر بن منصور» وهو في الموت، وإذا هو من السّرور في أَمْرٍ عظيم، فقلنا له:

هذا السرور؟

قال: «سبحان الله أخرُجُ من بين الظَّالمين والحاسدين والمغتابين والباغين، وأقدم على

(١) «الطريق إلى الله» لأبي سعيد الخرّاز (١١٨). تحقيق: د. عبد الحليم محمود - شيخ الأزهر -.
(٢) «وسائل الرحمات فيما يطلب لمن مات» للشيخ: أحمد الحلواني (١٤٧).

أرحم الراحمين ولا أُسَر »[1].

قلــــوبُ العـــــارفين لهـــــا عُـــــيون	تـــــرى مــــــا لا يــــــراهُ الــــــنّاظرونا
وأجــــــنحةٌ تَطــــيرُ بكــــلّ شَـــوْق	فــــــتأوى عــــــند رَبِّ العَالَميـــــــنا

أخي المسلم:

هذه بعضُ أحوال وأقوال أهل الشوق، فكن على طريقهم، وَسِرْ على دَرْبِهم، عسى أن تنال الوصال، ولن تنال هذا المقام إلاّ إذا استحكمت معاني المحبّة في قلبك.

قال **ذو النّون المصري** - رحمه الله - :

« إذا استحكمتْ معاني المحبّة في قلب المؤمن، سَكَن بعدها الشّوْقُ، فإذا اشتاق أدّاه الشّوقُ إلى الأُنس بالله، فإذا أَنِس بالله اطمأنّ إلى الله، فإذا اطمأنّ كان ليلُه في نعيم، ونهارُه في نعيم، وَسِرُّه في نعيم، وعلانيتُه في نعيم».

« اللّهم إنا نسألك لذّة النّظر إلى وَجْهِك، والشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضرّة، ولا فِتْنَةٍ مُضِلّة».



(١) نفس المصدر (١٤٧).

٦٥- الرِّضا عَنِ الله

اعلم - **أخي المسلم** - أن رضا الله - تعالى - عن الإنسان هو غاية الغايات، وأقصى الأماني:

عن أبي سعيد الْخُدْريّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ الله ﷻ يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنّة. فيقولون: لَبيك ربَّنا وسَعْدَيْكَ، والخيرُ في يديك، فيقول: هل رَضيتمُ؟ فيقولون: وما لنا لا نَرْضى يا رَبَّنا وقد أعْطيتنا ما لم تُعْطِ أحَدًا من خَلْقك. فيقول: ألا أُعطِيكم أَفْضَلَ مِنْ ذلك؟ فيقولون: وأَيُّ شيءٍ أفضَلُ مِنْ ذَلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضْواني فلا أَسْخَطُ عليكم بَعْدَه أَبَدًا»[1].

فيكون هذا الرّضا أعظم هدية لهم، ولذلك قال القرآن العظيم:

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

ومن أجل الوصول إلى هذا المقام الكريم، فالحديث على السطور التالية يدور حول:

أولا: تعريف الرضا.

ثانيا: فضله.

ثالثًا: درجاته.

رابعًا: شروط الوصول إليه.

خامسًا: من صور الرّضا عن الله.

والله الموفّق.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

أولاً: تعريف الرِّضا:

الرِّضا: ضد السّخط.

ويُراد بالرِّضا عند العلماء: تَقَبّل ما يَقْضِي به اللّهُ - تعالى - من غير تَردّد، ولا مُعَارضة.

ولقد أكثر العلماء القول في تعريف الرّضا:

فقال عنه الإمامُ **الجنيد:**

« الرّضى هو صحّة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلبُ حقيقة العلم أدّاه إلى الرّضى ».

وقال الإمام **ابن عطاء:**

« الرّضى: سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به ».

وقال **الفضيل بن عياض:**

« الراضي لا يتمنّى فوق منزلته »[1].

وعن القادم الديلمي - العابد - قال: قلتُ للفضيل بن عياض:

من الرّاضي عن الله؟

قال: « الذي لا يُحبّ أن يكون على غير منزلته التي جُعِل فيها ».

وقيل: إن الرضى هو نهاية التوكل.

وقيل: الرّضى ارتفاعُ الجزع في أي حال كان.

وقيل: الرّضى استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل: الرّضى سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

---

(١) إسناده حسن: رواه البيهقي (٢٢٧).

وقيل: الرّضى هو الوقوف الصّادق مع مراد الله تعالى.

ثانيا: فَضْلُ الرِّضا:

ورد في فضل الرضا عدّة آيات، وأحاديث، وآثار:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧، ٨].

(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩- ٢١].

(٤) وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

(٥) وعن علقمة: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١]، قال: - يعني في تفسيرها:

«هي المصيبة تصيب الرّجُلَ فيعلم أنها من عند الله فيسلّم لها، وَيَرْضَى»[1].

ومن الأحاديث:

(١) عن ثعلبة البصريّ، قال: قال لنا أنسُ بْنُ مالك:

لأحدّثنكم بحديثٍ لا يُحَدّثكم به أَحَدٌ بعدي، كنّا عند رسولِ الله ﷺ جلوسًا

---

(١) «الرّضا عن الله» لابن أبي الدنيا (٧).

فَضَحِك، وقال:

« **أتدرون مِمّا ضَحِكتُ؟** ».

قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلم.

قال: « **عجبتُ للمؤمن إنّ الله تبارك وتعالى لا يَقْضِي له قضاءً إلاّ كان خيرًا له** »[١].

(٢) وعن عبادة بن الصامت، قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

يا رسولَ الله، أيّ العمل أفضل؟

قال: « **إيمانٌ بالله، وتَصْدِيقٌ برسوله، وَجِهَادٌ في سبيله** ».

قال: أريدُ أَهْوَنَ من هذا.

قال: « **لا تَتّهِمه في شيءٍ قَضَاه** »[٢].

(٣) وعن أبي العلاء بن عبد الله بن الشّخير عن رجل من بني سُليم، قال: وأحسبه قد رأى النبي ﷺ رفع الحديث، قال:

« **إنّ الله ﷻ يَبْتَلي عبده فيما أعطاه، فَمَنْ رَضى بما قَسَم اللّهُ له، بارك اللّهُ له فيه ووسّعه، ومن لم يرض لم يبارك له فيه** »[٣].

(٤) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **المؤمن القويّ[٤] خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كُلّ خَيْر، احْرِصْ على ما يَنْفَعُك، واستَعِنْ بالله ولا تَعْجَز، فإن أصَابَك شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أني فعلتُ كَذَا وكذا،**

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١١٧/٣)، وابن حبان (٥٥/٢).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٣١٨/٥، ٣١٩).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤/٥)، وغيره.

(٤) المراد بالقوّة – هنا – : عزيمة النفس التي تولّد قوّة الإقدام على مجاهدة النّفس وَمُجَالدة العدوّ.

ولكن قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وما شاء فَعَل، فإن لَوْ تَفْتَح عَمَل الشيطان»[١].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ومن الآثار:

(١) عن زيد بن أسلم، قال:

قال موسى عليه السلام:

«يا رَبِّ، مَنِ الأمَّة المرحومة؟ قال: أُمَّة أحمد، يرضون بالقليل من العطاء، وأرْضَى منهم بالقليل من العمل، وأدخلهم الجنّة بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله»[٢].

(٢) وعن محمد بن كعب القرظي، قال:

قال موسى النبي عليه السلام:

«أيْ رَبِّ أيُّ خَلْقك أعْظم ذَنْبًا؟ قال: الذي يَتّهمني. قال: أيْ رَبِّ وهل يتهمك أحَدٌ؟ قال: نعم الذي يَسْتَخِير بي، ولا يَرْضَى بقضائي»[٣].

(٣) وعن وَهْب بن مُنَبِّه - تابعيٌّ ثِقة - قال:

«وجدتُ في زبور داود: يا داود، هل تَدْري مَنْ أسْرع النّاس مَرًّا على الصّراط؟ الذين يرضون حُكْمي، وألسنتُهم رَطبة مِن ذِكْري»[٤].

(٤) وعن عبد الواحد بن زيد، قال:

«الرِّضا بابُ اللّهِ الأعظم، وَجَنَّةُ الدُّنيا، وَمُسْتَراحُ العابدين»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤)، غيره.

(٢) إسناده حسن: رواه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٥١).

(٣) إسناده لا بأس به: رواه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٤٤).

(٤) إسناده حسن: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٤٦)، والأثر من الإسرائيليات كسابقيه.

(٥) « الرّضا عن الله» لابن أبي الدنيا (١٣).

(٥) وعن بشر بن بشار المجاشعي - وكان من العابدين - قال:

«لقيتُ عُبَّادًا ثلاثة ببيت المقدس، فقلتُ لأحدهم:

أوصني؟

قال: ألقي نفسك مع القَدَر حَيْثُ أَلْقَاكَ، هو أَحْرى أن يفرغ قَلْبك، ويقلّ هَمّك، وإيّاك أن تَسْخَط ذلك، فيحلّ بك السّخط، وأنت في غفلة لا تَشْعر به.

قال: وقلتُ للآخر:

أوصْني؟

قال: ما أنا بِمُسْتَوصٍ فأوصيك.

قلتُ: عليَّ ذلك، عسى اللَّهُ أن ينفع بوصيّتك.

قال: أما إذا أبيتَ إلاّ الوصية فاحْفظ عني: التمس رضوانه في ترك مناهيه، فهو أَوْصَل لك إلى الزُّلْفَى[1] لديه.».

قال: فقلت للآخر:

أوْصني.

فبكى واسْتَحرّ سفوحًا[2]، ثم قال: أي أخي، لا تَبْتَغ في أَمْرك تَدْبيرًا غير تدبيره فتهلك فيمن هَلَك، وتضلّ فيمن ضَلّ»[3].

ثالثًا: دَرَجاتُ الرّضا:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

«وهو على **ثلاث درجات**:

---

(١) الزُّلفى: القُرْبى.

(٢) يعني من الدموع.

(٣) «الرضا عن الله» (٧٢).

الدرجة الأولى: الرّضا بالله ربًّا، وتَسَخّط عِبادة ما دونه:

وهذا قُطْب رَحى الإسلام، وهو يُطهّر من الشّرك الأكبر.

والرِّضا بالله رَبًّا: أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، ويُنزل به حوائجه. قال الله تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال ابن عباس: « سيّدًا وإلهًا » يعني فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رَبُّ كل شيء؟

وقال في أوّل السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤]. يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ. وهو من الموالاة التي تضمّن الحبّ والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وأنت إذا تأمّلت هذه الآيات الثلاث حقّ التأمّل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها[1]. فكثير من الناس يرضى بالله ربًا، ولا يبتغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًا وناصرًا. بل يوالي من دونه أولياء ظنًا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الوليّ من دونه لون.

الدرجة الثانية: الرّضا عن الله:

وهو رضا العبد بما يفعله – الله تعالى – به، ويعطيه إيّاه. ولهذا لم يجئ إلاّ في الثواب والجزاء. كقوله تعالى:

(١) قال ﷺ: « ذاق طَعْمَ الإيمان: مَنْ رَضِي بالله رَبًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمّد رسولاً

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته كقوله تعالى:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨].

والرّضا به: أصل الرّضا عنه، والرّضا عنه: ثمرة الرّضا به.

الدرجة الثالثة: الرّضا برَضى الله:

فلا يرى العبدُ لنفسه سخطًا، ولا رضا، فيبعثه على ترك التحكم، وحسم الاختيار، واسْقاط التمييز، ولو أُدْخِل النار.

وهذه الدرجة أعلى مما قبلها من الدرجات، لأنها درجة صاحب الجمع، الفاني بِربّه عن نفسه وعمّا منها، قد غيّبه شاهد رضا الله بالأشياء في وقوعها على مقتضى مشيئته عن شاهد رضاه هو، فيشهد الرّضا لله ومنه حقيقة، ويرى نفسه فانيا، ذاهبًا مفقودًا، وفي هذا المقام لا يرى لنفسه رضًا ولا سخطًا، فيوجب له هذا الفناء: ترك التحكّم على الله بأمر من الأمور، وترك التخيّر عليه، فتذهب مادة التحكّم وتفنى، وتنحسر مادة الاختيار وتتلاشى، وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشى» ا.هـ[(١)].

رابعًا: شروط الوصول إلى الرِّضا:

قال الإمام **ابن القيم** – رحمه الله – :

أحدها: أن يكون الله – ﷻ – أحب شيء إلى العبد.

الثاني: أن تسبق مَحَبّته إلى القلب كلَّ مَحبة، فتتقدم محبّته المحابَّ كلها.

الثالث: أن تقهر مَحَبّته كلَّ محبّة، فتكون محبّته إلى القلب سابقة قاهرة، ومحبّة غيره متخلّفة مقهورة، مغلوبة منطوية في محبّته.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٣٤- ١٧٦) باختصار شديد.

الرابع: أن تكون محبة غيره تابعة لمحبته، فيكون هو المحبوب بالذّات، والقصد الأوّل، وغيره محبوبًا تبعًا لحبه، كما يطاع تباعًا لطاعته، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب[1].

خامسًا: الأسباب الموجبة لِرِضَا العبد عن رَبِّه تبارك وتعالى:

اعلم – **أخي المسلم** – أن الأسباب الموجبة لرضا العبد عن الله – تعالى – كثيرة:

أحدها: أنه عَبْدٌ مفوِّض: والمفوِّض راضٍ بكل ما اختاره له مَنْ فوض إليه، ولا سيّما إذا علم كمال حكمته ورحمته، ولطفه وحُسْن اختياره له.

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادّ لِحُكْمه.

الثالث: أنه عَبْدٌ مَحْض، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيّده المشفق البارّ الناصح المحسن، بل يتلقّاها كلّها بالرّضا به وعنه.

الرابع: أنه محب، والمحب الصّادق: من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور، وسيّده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها، فهو جاهل ظالم، وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها، ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب. قال تعالى:

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

السابع: أنه مسلم، والمسلم من قد سلّم نفسه لله.

الثامن: أنه عارف بربّه، حَسَن الظنّ به، لا يَتَّهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره.

فالرّضا بالله ثمرة من ثمرات المعرفة.

قال **الفضيلُ**: «أحق الناس بالرّضا عن الله أهل المعرفة بالله عز وجل».

وقال **أحمد بن أبي الحواريّ**: «مَنْ عَرَفَ اللهَ آثَر رِضَاه».

---

(١) نفس المرجع.

التاسع: أنه يعلم أن حظّه من المقدور ما يتلقّاه به من رضا وسخط، فلابدّ له منه، فإن رَضِي فَله الرّضا، وإن سَخط فَلَه السّخط.

العاشر: أن يعلم أن رضاه عن ربّه - سبحانه وتعالى - في جميع الحالات يثمر رضا رَبِّه عنه.

الحادي عشر: أن يعلم أن أعظم راحته، وسروره ونعيمه: في الرضا عن ربه - تعالى - في جميع الحالات.

الثاني عشر: أن السّخط باب الهمّ والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال.

الثالث عشر: أن الرّضا يوجب له الطمأنينة، وَبَرْد القَلْب، وسكونه وقراره.

الرابع عشر: أن الرّضا ينزل عليه السكينة، ومتى نزلت عليه السكينة: استقام، وصلحت أحواله، وصلح باله.

الخامس عشر: أن الرّضا يفتح له باب السّلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغشّ والدّغَل والغِلّ، ولا ينجو من عذاب الله إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

السادس عشر: أن السّخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلاّ بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم العبودية، فإذا رضي عن رَبِّه في جميع الحالات، استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التلوّن عن العبد شيء مثل الرّضا.

السابع عشر: أن السّخط يفتح عليه باب الشّك في الله، وقضائه وقدره، وحِكْمته وعَدْله.

الثامن عشر: أن الرّضا يوجب له أن لا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل الإيمان.

التاسع عشر: أن الرّضا يفرغ القلب لله، والسّخط يفرغ القلب من الله.

العشرون: أن الرّضا يثمر الشُّكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسّخط يثمر ضده.

الحادي والعشرون: أن الرّضا ينفي عنه آفات الحرص والتكالب على الدنيا.

الثاني والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السّخط والشهوة، فهناك يصطاده، ولا سيّما إذا استحكم سخطه، فإنه يقول ما لا يرضى الرّب، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا يرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم:

« **يحزنُ القلب، وتدمع العين، ولا نقول إلاّ ما يرضى الرّب** » حديث صحيح.

الثالث والعشرون: أن الرّضا يخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربّه منه.

الرابع والعشرون: أن الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه - كما تقدم - فإن الجزاء من جنس العمل.

الخامس والعشرون: أن الرّضا بالقضاء أشق شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قَطُّ حتى ترضى بالقضاء، فحينئذٍ تستحق أن يقال لها:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

السادس والعشرون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرّضا، والطاعات كلها أصلها من الرضا.

السابع والعشرون: أن عدم الرّضا يفتح باب البدعة، والرّضا يغلق عنه ذلك الباب، ولو تأملت بدع الروافض[١]، والنواصب، والخوارج، لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني، أو الديني، أو كليهما.

الثامن والعشرون: أن الرّضا يخلّص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته.

التاسع والعشرون: أن كُلّ قَدَر يكرهه العبدُ ولا يلائمه، لا يخلو: إما أن يكون عقوبة

---

(١) الروافض: الشيعة.

على الذّنب، فهو دواء لمرض. أو يكون سببًا لنعمة لا تنال إلاّ بذلك المكروه.

فإذا شهد العبدُ هذين الأمرين انفتح له باب الرّضا عن ربّه في كل ما يقضيه له وَيُقدّره.

الثلاثون: أن حُكْم الرّبّ - تعالى - ماضٍ في عَبْده، وقضاؤه عَدْلٌ فيه، كما في الحديث:

«**ماضٍ فِيَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤك**»[1]، ومن لم يَرْض بالعدل فهو من أهل الظُّلْم والْجَوْر.

الحادي والثلاثون: أن الرّضا من أعمال القلوب، نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كلّ واحدٍ منهما ذروة سنام الإيمان.

وقال **أبو الدّرداء** ﷺ:

«ذروة سنام الإيمان: الصّبر لِلْحُكْم، والرِّضا بالْقَدَر».

الثاني والثلاثون: أن أوّل معصية عُصِيَ الله بها في هذا العالم، إنما نشأت من عدم الرّضا، فإبليس لم يَرْضَ بِحُكْم الله الذي حَكَمَ به كَوْنًا، من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بِحُكْمِه الديني، من أَمْره بالسجود لآدم.

الثالث والثلاثون: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنّة وما فيها، لأن الرّضا صفة الله والجنة خلقه. قال تعالى:

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ﴾ [التوبة: ٧٢]. بعد قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهذا الرّضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولمّا كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأسباب.

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١/٤٥٢)، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

الرابع والثلاثون: أنه ﷺ أثنى على الرّاضين بمرّ القضاء.

الخامس والثلاثون: أن الرّضا يقوم مقام كثير من التعبّدات التي تشق على البدن.

قال ابن مسعود: «من رضى بما أُنزل من السماء إلى الأرض غُفِر له».

وقال **بعض العارفين**:

«من يتوكل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصّالحة التي تُصْلح للعبد أمره».

الخامس والثلاثون: أن الرّضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النّفس وسكونها في كلّ حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربّه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبير، وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوى ربّه إلى غيره وتبرّمه بأقضيته، ولهذا سمّى بعض العارفين الرّضا: «حُسْن الْخُلُق مع الله».

وقال **عمر بن عبد العزيز**: «أصبحتُ ومالي سرور إلاّ في مواقع القَدَر».

وقال **عمر بن الخطاب** ﷺ يومًا لامرأته عاتكة - وقد غضب عليها - :

«والله لأسُوأنَّك».

فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام، بعد إذ هداني الله له؟

قال: لا.

فقالت: فأي شيء تسوءني به إذن؟

تريد أنها راضية بمواقع القدر، لا يسوؤها منه شيء إلاّ صرفها عن الإسلام، ولا سبيل له إليه.

السادس والثلاثون: أن النبي ﷺ سأل الله الرّضا بالقضاء، كما في «المسند» و «السّنن»:

« اللّهُمّ بعلْمك الغَيْب، وَقُدْرَتك على الْخَلْق؛ أَحْيني ما علمتَ الحياةَ خَيْرًا لي، وتوفّني إذا علمتَ الوفاة خَيْرًا لي.

اللّهمّ وأسألُك خَشْيَتك في الغَيْب والشّهادة، وأسألُك كلمةَ الحق في الرِّضا والغَضَب، وأسألُك القَصْد في الفَقْر والغِنى، وأسألُك نَعيمًا لا يَنْفَد، وأسألُك قُرَّة عَيْن لا تَنْقَطِع، وأسألُك الرِّضَا بالْقَضَاءَ، وأسألُك بَرْدَ الْعَيْش بَعْدَ الموت، وأسألُك لذّة النَّظَر إلى وَجْهك الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرّاءَ مُضِرَّة، ولا فِتْنَة مُضِلَّة، اللّهم زَيِّنا بِزِينَةِ الإيمان، واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِين» .

السابع والثلاثون: أن الرّضا يفرّغ قلب العبد، ويقلّل همه وغمّه، فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها، كما ذكر ابنُ أبي الدنيا عن بِشْر بْنِ بَشّار المجاشعي - وكان من العلماء - قال:

قلتُ لعابد: أوصني؟

قال: «ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك، فهو أحرى أن يفرغ قلبك، ويقلّل همّك، وإيّاك أن تسخط ذلك، فيحلّ بك السّخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به، فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم» .

ولله دَرُّ القائل:

العـبدُ ذو ضَـجر، والـرَّبُ ذو قَدَر	**والدَّهْـر ذو دُوَل، والـرّزق مَقْسـوم**
والخـيرُ أجمـع فـيما اخـتار خالِقُـنا	**وفي اختـيار سـواه اللُّـوم والشُّـوم**

الثامن والثلاثون: أن المحبّة والإخلاص والإنابة: لا تقوم إلاّ على ساق الرّضا، فالمحب راضٍ عن حبيبه في كل حالة.

قال **بعض السلف:** «لو قرض لحمي بالمقاريض كان أحبّ إليّ من أن أقول لشيء قَضَاه اللّهُ: لَيْتَه لَمْ يَقْضِه»ا.هـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٥٢- ١٦٦) باختصار شديد.

سادساً: مِنْ صُوَر الرِّضا عن الله تعالى:

وهذه بعض أقوال وأحوال أهل الرضا:

(١) رضا أيوب عليه السلام:

لبث أيوب عليه السلام في مرضه ثماني عشرة سنة - كما ورد في الحديث الصحيح - حتى رفضه القريب والبعيد[1]، وصبر - عليه السلام - طوَال هذه المدّة صبرًا جميلاً، فمدحه ربُّه - تبارك وتعالى - بقوله:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

(٢) رضا إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - :

عن عليّ بن صالح الْبَكَّاء، قال:

أن إبراهيم ﷺ لمّا أضجع ابنَه ليذبحه، قال:

يا أبه، شدّ وثاقي، فإني أخاف أن تنظر إليّ وأنت تذبحني، فلا تَمْضي لأمر ربِّك، أو أنظر إليك وأنت تَذْبحني، فلا أدَعْكَ تَمضي لأمر ربّك، قال: فكبّه على وَجْهِه، قال: فذلك قولُ الله:

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣][2].

(٣) رضا عِمْران بن حُصَيْن رضي الله عنه:

قال جرير: «سقى[3] - عِمْران بن حُصَيْن- بطنه، فمكث ثلاثين سنة على سرير مثقوب!!».

---

(١) لم يبق سليمًا إلاّ لسانه وقلبه، ولم يكن مرضه - عليه السلام - من النّوع الْمُنَفِّر كما حكت بعض الروايات الإسرائيلية، إنما مرضه كان يشبه «الروماتيزم» كما ذكر الشيخ/ محمد أبو شهبة - رحمه الله - في كتابه «الإسرائيليات والموضوعات». والله أعلم.

(٢) إسناده حسن: إلى عليّ بن صالح: رواه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٠).

(٣) سقى بطنه: اجتمع فيه السّقى، وهو ماء يتجمّع في البطن عن مرض يهلك منه الإنسان.

وفي خلال هذه المدّة لم يُظهر جزَعًا ولا ضَجرًا، بل كان أَحَدُ جبال الصَّبر الرّاضين عن ربِّهم.

اقرأ:

- عن الحسن قال:

اشتكى عمران بن حُصين فدخل عليه جار له، فاستبطأه في العيادة[١]، فقال له:

يا أبا نجيد، إن بعض ما يمنعني عن عيادتك ما أرى بك من الجهد.

قال: فلا تفعل، فإن أحبّه إليّ أحبّه إلى الله فلا تبتئس لي بما ترى، أرأيت إذا كان ما ترى مجازاة بذنوب قد مضت، وأنا أرجو عفو الله على ما بقي، فإنه قال:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] [٢].

(٤) رضا الرّبيع بْن خُثَيْم «صاحب ابن مسعود»:

عن عمرو بن مرّة، قال:

كان الربيع بن خثيم قد أصابه فَالِجٌ[٣]، فَسَال مِنْ فِيه ماء فَجَرى على لحيته، فرفع يده فلم يستطع أن يَمْسَحه، فقام إليه بكر بن ماعز[٤] فَمَسَحه عنه، فَلَحَظَه، ربيعٌ ثم قال:

«يا بكر، والله ما أُحِبّ أن هذا الذي بي بأَعْتى الدَّيْلم[٥] على الله»[٦].

(٥) رضا سُوَيْد بن مثعبة «صاحب ابن مسعود» أيضًا:

عن أبي حيّان التيمي، قال:

---

(١) عاتبه على تقصيره في عيادته.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦١)، وغيره.

(٣) مرض يصيب نصف البدن بالشّلل.

(٤) أحد أصحابه، وكان من العابدين.

(٥) أي: بأشد الأعداء على ثواب الله.

(٦) إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦/١٨٩).

دخلوا على سويد بن مثعبة، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله - يعني: ابن مسعود وبعضُ أهله يقول له:

نفسي فداؤك، أما نطعمك؟ أما نسقيك؟

قال: فأجابه بصوت له ضعيف: دَبرت الحَرَاقِف وطالت الضَّجْعة، والله ما يسرّني أن الله نقصني منه قَدْر قُلاَمة! [١].

(٦) رضا أعرابي:

عن الحسن، قال:

أصبح أعرابي وقد مات له أَبَاعِر [٢] كثير، فقال:

لا والـــذي أنـــا عَـــبْدٌ في عـــبادته	لـــولا شماتـــة أعَاديـــه أُظُـــنِ
مـــا سَـــرّني أنّ إبِـــلي في مـــبارِكها	وأن شـــيئًا قَضَـــاه اللّـــهُ لَـــمْ يَكُـــن [٣]

(٧) رِضَا رَجُل بالمصيصة.

عن عليّ بن الحسن، قال:

كان رجلاً بالمصّيصة [٤] ذاهب النّصف الأسفل لم يبق منه إلاّ روحه في بعض جَسَده، ضرير على سرير مثقوب، فدخل عليه داخلٌ فقال له:

كيف أصبحت يا أبا محمد؟

قال: مَلِك الدّنيا، مُنْقطع إلى الله، ما لي إليه من حاجة إلاّ أن يَتوفّاني على الإِسْلام» [٥].

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦/١٦٠).

(٢) **الأباعر**: جميع بعير.

(٣) «الرضا عن الله» (١١).

(٤) مكان.

(٥) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٦٥)، وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/٢٨٧).

أخي الكريم:

هذه بعض أقوال وأحوال أهل الرّضا عن الله، فكن على طريق القوم تسعد، وليكن شعارك:

يا رب:

رضاكَ خَيْرٌ من الدُّنيا وما فيها ... يا مَالك النَّفْس قَاصيها وَدَانيها

فليس للرُّوح آمالٌ تُحققها ... سِوى رِضَاكَ، فذا أقْصَى أمانيها

فنظرةٌ مِنْك يا سُؤْلي ويا أَمَلي ... خَيْرٌ إليّ مِنَ الدُّنيا وما فيها

هذا، وعلى الله قصد السبيل.



٦٦- العَفْو

العفو: صِفَةٌ من صِفاتِ رَبِّ العالمين، وَخُلُق من أَخْلاق النَّبيين والصّالحين.

وأُمَّتنا الإسلامية - اليوم - أحوج إلى خُلُقِ «العَفْو» من حاجة الظمآن إلى الماء، والمريض إلى الدّواء!

فكم جَرَّ علينا الانتقامُ مِن وَيْلات، وكم فَرَّق من جماعات، وكم هَيَّج من عداوات، وكم بَدّد من ثَرَوات.

لذا، فالحديث - هنا - يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريف العفو.

والثاني: فَضْله.

والثالث: مواقف من حياة أهل العفو.

سائلاً المولى جلّ وعلا أن يجعلنا منهم.

أوّلاً: تعريف العفو:

العفو «**لُغَةً**»: مَصْدَرُ قَوْلِهم: عَفَا يَعْفُو عفوًا وهو مأخوذٌ مِنْ مادة (ع ف و) التي تدلُّ على **معنيين أصليين**:

الأوّل: تَرْكُ الشَّيء.

والآخر: طَلَبُهُ.

ومن المعنى الأوّل: عفو الله تعالى عن خلقه، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم، فضلاً منه تعالى.

ومن المعنى الثاني: العُفاة وهم طلاّب المعروف، ومن ذلك أيضًا: أعطيته المال عفوًا

أي من غير طلب[١].

- **العفوُ مِنْ أسماء الله تعالى:**

قال **ابْنُ الأثير**: من أسماء الله تعالى «العَفُوُّ» هو فعولٌ من العفو وهو التَّجَاوُزُ عن الذَّنْب وتركُ العِقَاب عليه، وأصْلُه الْمَحْوُ والطَّمْسُ، وهو من أَبْنِيةِ الْمُبَالَغة[٢].

وقال الإمام **الغزاليُّ** - رحمه الله - :

«والعفو صفةٌ من صفات الله تعالى، وهو الذي يمحو السَّيِّئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنّه أبلغ منه فإن الغفران يُنْبِئُ عن السَّتْرِ، والعَفْوُ يُنْبِئ عن الْمَحْو، والمحو أبلغ من السّتر.

وحظّ العبد من ذلك لا يخفى وهو أن يعفو عن كلّ من ظلمه، بل يُحْسن إليه كما يرى الله تعالى محسنًا في الدنيا إلى العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة. بل ربما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم، وإذا تاب عليهم محا سيئاتهم، إذ «**التَّائِب من الذَّنْب كَمَن لا ذَنْب له**»[٣]، وهذا غاية المحو للجناية»ا.هـ[٤].

- **العفو اصْطِلاحًا:**

قال **المناويّ**: «العفو: القصد لتناول الشيء، والتجاوز عن الذّنب»[٥].

وقال **الكَفَويُّ**: «العفو: كفّ الضّرر مع القدرة عليه، وكلُّ من استحق عقوبة فتركها فهذا الترك عفو»[٦].

---

(١) انظر هذه وما أشبهها في «المقاييس» (٤/٦١) وما بعدها.

(٢) «النهاية في غريب الحديث» (٣/٢٦٥).

(٣) **حسن**: رواه البيهقي، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠٠٨).

(٤) «المقصد الأسنى» (١٤٠).

(٥) «التوقيف» (٢٤٣).

(٦) «الكليات» (٥٣).

▫ الفرق بين الصَّفْح والعَفْو:

والصّفح والعفو متقاربان في المعنى فيقال: صفحتُ عنه أعرضتُ عن ذَنْبِه وعن تَثْرِيبه.

إلاّ أن الصَّفْحَ أَبْلَغ مِنَ العَفْو فقد يَعْفو الإنسانُ ولا يَصْفح.

▫ العفو في القرآن الكريم:

قال الإمام **ابن الجوزي** - رحمه الله - :

ذكر أهلُ التفسير أن العَفْوَ في القرآن الكريم على **أربعة أوجه:**

أحدها: الصفح والمغفرة؛ ومنه قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

والثاني: الترك؛ ومنه قوله تعالى:

﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والثالث: الفاضل من المال؛ ومنه قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والرابع: الكثرة؛ ومنه قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ [الأعراف: ٩٥]. أي: كَثُرُوا.

وقال **ابن عباس** - رضي الله عنهما - في قوله تعالى:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصّلت: ٣٤]،قال:

« الصَّبر عند الغضب، والعفو عن الإساءَة، فإذا فعلوه عَصَمهم اللّهُ - عَجَّلَ - وخَضَع لهم عَدُوُّهُم »[1].

---

(١) « نضرة النعيم » (٢٨٩١، ٢٨٩٢) باختصار شديد.

ثانيا: فضل العفو:

وَرَدَ في فَضْل الْعَفْو آيات وأحاديث وآثار كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

قال الإمام **الفخرُ الرّازي** – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

« اعلم أن معاقد الخيرات على كثرتها محصورة في أمْرَيْن، صِدْقٌ مع الْحَقّ، وَخُلُقٌ مَعَ الْخَلْقِ، والذي يتعلّق بالخَلْق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودَفع ضرر عنهم، فقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَعْفُواْ ﴾ إشارة إلى دفع الضّرر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الْخَيْر وأعمال البر.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾**وفيه وجوه:**

الأول: أنه تعالى يعفو عن المسيء مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى، وهو قول الحسن.

الثاني: إن الله كان عفوًّا لمن عفا، قديرًا على إيصال الثواب إليه.

الثالث: قال الكلبي: إن الله – تعالى – أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو صاحبك» ا.هـ[١].

(٢) وقال تعالى – في وصف المتقين – : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

---

(١) « مفاتيح الغيب » (١٠/٥٠٦).

قال الحافظ **ابن كثير** – رحمه الله – في تفسير هذه الآية:

«ثم ذكر – تعالى – صفة أهل الجنة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في الشدّة والرّخاء، والمنشط والمكره، والصّحة والمرض، وفي جميع الأحوال، والمعنى أهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البرّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كَتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمَّن أساء إليهم. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ا.هـ[1].

(٣) وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

ثبت في «الصحيحين» أن الله تبارك وتعالى لما أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر آيات[النور: ١١– ٢٠]، قال أبو بكر وكان يُنفق على «مِسْطح»[2] لقرابته وفَقْره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة؛ فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

قال **عبد الله بن المبارك** – رحمه الله – :

«هذه أرْجى آية في كتاب الله تعالى».

فقال أبو بكر: والله إني لأحِبّ أن يغفر اللّهُ لي؛ فرجَع إلى مِسْطح النَّفقة التي كان

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦٠٥/١).

(٢) هو: مِسْطَح بن أُثَاثة، – من المهاجرين البدريين المساكين – ، وكان قد خاض في الإفك ونال من عائشة – رضي الله عنها – .

ينفق عليه، وقال:

«واللهِ لا أَنزعُها منه أَبدًا».

قال الإمام **القشيري** - رحمه الله - :

قوله - تعالى - : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ : العفو والصفح بمعنى، فكررهما تأكيدًا.

ويقال: العفو في الأفعال، والصّفْح في جنايات القلوب.

قوله جَلّ ذِكْرُه: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. هذا من كمال تلطّفه - سبحانه - . وإن الله لا يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم، وأنّى بالكراهة من الخلق والمتفرّد بالإيجاد الله؟! وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ رَامٍ لِي بأحْجَـــــار الأذى لم أجِـدْ بُـدًّا مـن العَطْـف عليـه
فعســى أن يطّلــع اللّــهُ علَــى قَـدْحِ القـومِ فَـيُدنيـني إلَـيْه[1]

(٤) وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

«قال العلماء: جعل اللّهُ المؤمنين صنفين؛ صنف يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم بقوله:

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]. وصنف ينتصرون من ظالمهم. ثم بيَّن حدّ الانتصار بقوله:

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فينتصر ممّن ظلمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم. وقاله الشافعيّ وأبو حنيفة وسفيان.

---

(١) «لطائف الإشارات» (٤/٢٧٦) ط. المكتبة التوفيقية.

وقال **السُّدِّي**: إنما مدح الله من انتصر ممّن بغى عليه من غير اعتداء بالزّيادة على مقدار ما فعل به... وسُمِّي الجزاء سيئة لأنه في مقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوؤه بمثل ذلك أيضًا.

قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابنُ عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو: ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إن الله يأجره على ذلك. قال **مقاتل**: فكان العفو من الأعمال الصّالحة. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: من بدأ بالظّلم؛ قاله سعيد ابن جبير. وقيل: لا يحبّ من يتعدّى في الاقتصاص ويجاوز الحدّ؛ قاله ابن عيسى »ا.هـ[(١)].

ومن الأحاديث:

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال:

« **تَعَافَوْا**[(٢)] **فِيمَا بينكم، فَمَا بَلَغَني مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ**[(٣)] »[(٤)].

(٢) وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال:

جاء رجلٌ إلى النّبي ﷺ فقال:

يا رسول الله، كم نَعْفو عن الخادِمِ؟

فَصَمت! ثم عاد عليه الكلام، فصَمَتَ! فلمّا كان في الثالثة، قال:

« **اعْفُوا عَنْه في كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِين مَرّة** »[(٥)].

(٣) وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

قلتُ: يا رسول الله، أرأيت إن علمتُ أيّ ليلة هي ليلة القدر ما أقول فيها؟

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٦/٣٨، ٣٩) باختصار.

(٢) تعافوا: أمر بالعفو وهو التجاوز عن الذنب.

(٣) أي: وجب إقامته.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٧٦)، وصحّحه الألباني.

(٥) **حسن**: رواه أبو داود (٥١٦٤)، والترمذي (٢٠٣١)، وقال محقق « جامع الأصول » (٨/٤٨): إسناده حسن.

قال: «**قُولِي اللّهُمّ إِنَّك عَفوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَني**»[١].

(٤) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وما زاد اللّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاّ عِزًّا، وما تواضع أحَدٌ لِلّه إلا رَفَعَه الله**»[٢].

وقوله ﷺ: «**ما نقصت صدقةٌ من مال**» ذكروا فيه **وجهين:**

أحدهما: معناه: أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرّات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية. وهذا مدرك بالحسّ والعادة.

والثاني: أنه وإن نقصت صورته، كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة.

وقوله ﷺ: «**وما زاد اللّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا**» فيه - أيضًا - **وجهان:**

أحدهما: على ظاهره، ومن عرف بالعفو والصّفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزّه وإكرامه.

والثاني: أن المراد أجره في الآخرة وعزّه هناك.

وقوله ﷺ: «**وما تواضع أحَدٌ لله إلاّ رفعه اللّهُ**» فيه - أيضًا - **وجهان:**

أحدهما: يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه اللّهُ عند الناس ويجلّ مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، رفعه فيها بتواضعه في الدنيا.

قال **العلماء:** وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة. وقد يكون

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة[1].

ومن الآثار:

- ذكر الحافظ **أبو نُعيم** - رحمه الله - عن عليّ بن الحسين «زين العابدين» - رحمه الله - أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أيّكم أَهْل الفَضْل؟ فيقوم ناسٌ من الناس؛ فيقال: انطلقوا إلى الجنّة، فتتلقّاهم الملائكةُ؛ فيقولون:

إلى أين؟

فيقولون: إلى الجنة.

قالوا: قبل الحساب؟

قالوا: نعم.

قالوا: من أنتم؟

قالوا: أهل الفَضْل.

قالوا: وما كان فضلكم؟

قالوا: كنَّا إذا جُهل علينا حَلِمْنا، وإذا ظُلِمْنا صَبَرْنا، وإذا سيء إلينا عَفَوْنا.

قالوا: ادخلوا الجنّة فَنِعم أَجْرُ العَامِلين».

- وعن **أبي بكر** رضي الله عنه أنه قال:

«بَلَغَنا أنّ الله - تعالى - يأْمُر مُنَاديًا يَوْمَ القِيامة فينادي: مَنْ كان له عِند الله شيءٌ فَلْيَقُم، فيقومُ أَهْلُ العَفْو، فيُكَافِئهم اللّهُ بما كان مِنْ عَفْوِهم عَنِ النّاس»[2].

---

(١) «نضرة النّعيم» (٢٩٠٤).

(٢) «الإحياء» (١٩٥/٣).

- وقال **الحسن** – رحمه الله – :

« أفضل أخلاق المؤمن العفو ».

- وعن **إبراهيم النخعي** – رحمه الله – في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩]، قال:

« كانوا يَكْرَهون أن يُسْتَذَلُّوا، فإذا قَدروا عَفَوْا »(١).

ثالثًا: مواقف من حياة أهل العفو:

تقدّم معنا أن « **الْعَفوّ** » صفة من صفات الله تعالى، يدلّ على ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة: ٢].

ب- وقوله ﷺ لعائشة – رضي الله عنها – :

« **قُولي: اللّهمّ إنّك عَفوٌّ كريمٌ تُحِبّ الْعَفْو فاعْفُ عَني** ».

- ومن عفوه – تعالى – : **صَبْرُه على الأذى:**

عن أبي موسى رضي الله عنه قال:

قال النبي ﷺ :

« **مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ على أذىً سَمِعَهُ مِنَ الله، يَدْعُونَ له الولدَ ثم يُعافِيهم وَيَرْزُقُهم** »(٢).

- ومن عفوه – تعالى – : **أنه لا يعود إلى شيءٍ عفا عنه:**

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ : « **مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّل عُقوبتُهُ في الدُّنيا، فالله أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنّي على عَبْده العقوبة في الآخِرة، ومَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَتَره اللّهُ عَلَيْه وَعَفَا عَنْه، فالله أَكْرَمُ مِنْ أن**

---

(١) رواه البخاري (١٢٠/٥).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

يَعُودَ إلى شَيءٍ قَدْ عَفَا عَنهُ»[1].

□ ومن عفوه – تعالى – : **أنه يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي:**

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥].

والأدلة في هذا المعنى أكثر من أن تحصى.

هذا، ولمّا كان العفو صفة من صفات الله تعالى؛ تَخَلّق به الأنبياءُ والصُّلحاء.

وهذه مواقف ضربوا فيها أروع الأمثلة في تطبيق هذا الْخُلُق الكريم.

الموقف الأوّل: عفو النبي ﷺ:

قال تعالى – آمرًا نبيه ﷺ:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الإمام **القرطبي** – رحمه الله – :

«هذه الآية من ثلاثة كلمات، تضمّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغضّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الحضّ على التعلّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظّلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة»ا.هـ[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦)، وقال: حديث حسن غريب صحيح، والحاكم (٧/١)، وصحّحه، وأقرّه الذهبي.

(٢) «تفسير القرطبي» (٣٠٨/٧).

وروى البخاريّ من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال:

«ما أنزل الله هذه الآية إلاّ في أخلاق الناس».

وقال **جعفر الصّادق** - رحمه الله - :

«أمر اللّهُ - تعالى - نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية» ا.هـ.

وقد تخلّق النبي ﷺ بهذا الخُلُق - وبغيره - على أتمّ الكمال، وهذه بعض الصّور الدّالة على ذلك:

أ- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«ما ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا إلاّ أن يُجاهَد في سبيل الله، وَمَا نيلَ منه شيءٌ قطّ فَيَنْتقِمَ مِنْ صَاحِبه إلاّ أن يُنْتَهكَ شيءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله تعالى، فَيَنْتَقِمَ لِلّه - عَزَّ وَجَلَّ -»[1].

ب- عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فلمّا قَفَلَ[2] رسولُ الله ﷺ قَفَلَ مَعَه، فأدركَتْهُم القَائِلَةُ في وادٍ كثير العِضَاه[3]، فنزل رسولُ الله ﷺ، وتفرّق النّاسُ يستظلّون بالشّجر، فنزل رسولُ الله ﷺ، تَحْتَ شَجَرة وَعَلّقَ بها سَيْفه، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فإذا رسولُ الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي[4]. فقال:

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٢) قفل: رجع.

(٣) أي: كثير الشّجر الْملْتَفّ الأغصان.

(٤) في رواية أنه: «غورث بن الحارث».

«إنّ هذا اختَرطَ[١] عليَّ سَيْفي وأنا نائِمٌ، فاستَيْقَظْتُ وهو في يده صَلْتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلتُ: اللَّهُ «ثلاثًا» ولم يعاقبه وجلس[٢].

الموقف الثاني: عفو ابن مسعود:

جلس عبد الله بن مسعود ﷺ في السُّوق يبتاع طعامًا[٣]، فابتاع، ثم طلب الدّراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حُلَّتْ، فقال:

لقد جَلَسْتُ وإنّها لَمَعي! فجعلوا يدعون على من أخذها، ويقولون:

اللّهُمّ اقْطَعْ يَدَ السّارقِ الذي أخَذَها، اللّهم افْعَلْ به كَذَا، فقال عبدُ الله:

«اللّهم إن كان حَمَلَه على أخْذِها حَاجَةٌ فَبَارِكْ له فِيها، وإن كان حَمَلته جَرَاءَةٌ على الذَّنْبِ فاجْعَلْه آخِرَ ذُنُوبه!»[٤].

الموقف الثالث: عفو عُمَر بن عبد العزيز:

حَكَى الإمام **مجاهد** – رحمه الله تعالى – قصّة موت عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – فقال:

«قال لي عمر بن عبد العزيز: يا مجاهد، ما يقول الناسُ فِيَّ؟ قلتُ:

يقولون: مسحور.

قال: ما أنا بمسحور.

ثمّ دعا غلامًا له فقال: وَيْحَك، ما حَمَلَكَ على أن سقيتني السُّمَّ؟

---

(١) اخترط: أي: سَلّ.

(٢) رواه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

(٣) يبتاع: يشتري.

(٤) «الإحياء» (١٩٦/٣).

قال: أَلْفُ دينار أُعْطِيتُها وأن أُعْتَق!!

قال: هاتها، فجاء بها؛ فألقاها في بيت المال! وقال:

« اذْهَبْ حَيْثُ لا يَرَاك أَحَدٌ!! »[١].

قلت: وهذا غاية العفو، فرحم اللَّهُ عُمَرَ، فأين مثله الآن؟

الموقف الرابع: عفو عبد الْمَلِك بن مروان:

أُتِي عَبْدُ الملك بن مروان بأُسَارى ابْنِ الأَشْعث[٢]، فقال لِرَجَاء بن حَيْوة: ماذا ترى؟

قال: « إنّ الله - تعالى - قَدْ أَعْطَاكَ ما تُحِبُّ من الظَّفَر[٣] فَأَعْطِ الله ما يُحِبّ من الْعَفْو » فَعَفَا عنهم[٤].

الموقف الخامس: عفو الإمام أحمد بن حنبل:

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** - رحمه الله - :

« كنتُ أحسب أحمد بن حنبل رجلاً يغلب على تقواه التزمُّت، وعلى مذهبه في الفقه القسوة والصّرامة.

ولعلّ لفيفًا كبيرًا من العامّة والخاصّة يحسبون الرجل كذلك.

وهذا وهم يجانب الصّواب.

وأروع ما قرأته وأكبرته وأغراني بالتعرّف عليه موقفه الكريم يوم طُلب منه - بالسَّبّ

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٤/٤٥٣).

(٢) بعد موقعة « دير الجماجم » التي دارت بين جَيْش عبد الرحمن بن الأشعث، وجيش عَبْد الملك بن مروان.

(٣) **الظَّفر**: النّصر والتمكين.

(٤) « الإحياء » (٣/١٩٦).

والضّرب- أن يشارك في بدع المتكلّمين وأن يقول بخلق القرآن.. [١]

قال الإمام أحمد: وجيء بالضرّابين ومعهم السياط، فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له المعتصم:

شدّ قَطَع اللّهُ يَدَيْك.

ويجيء الآخرُ فيضربني سَوْطَيْن، ثم الآخر كذلك، فَضربوني أَسْواطًا حتى أُغمى عليَّ وذهب عَقْلي مرارًا!

فإذا سكن الضّربُ يعود إليّ عقلي.

وقام المعتصم يدعوني إلى قولهم فلم أجِبْهُ!

ورجال حاشيته يصيحون: وَيْحَك. الخليفة على رأسك، فلم أقْبَل...

وأعادوا الضّرب ثم عاد إليّ فلم أجبه... فأعادوا الضّرب فذهب عقلي فلم أحسّ به.

وأرْعَبَه ذلك من أمْري فأطْلَق سَرَاحي، ولم أشعر إلاّ وأنا في حُجرة من البيت وقد أطبقت الأقْيَادُ على رِجْلي...

قال ابن كثير[٢]: وجاء الأطباء إلى الإمام المعذّب فقطعوا لحمًا ميتًا من جسده وجعلوا يداوونه حتى عاد إليه روحه الذي كاد يزهق، فلمّا شفاه اللّهُ بقى مُدّة وإبهاماه يؤذيهما البَرْدُ...

أتدري ما كان موقفه بعد؟

جعل كلّ ما أذَاه في حِلٍّ إلا أهل البدع! وكان يتلو قوله ﷻ:

﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ ﴾ [النور: ٢٢].

---

(١) الاعتقاد الحق: أن القرآن كلام الله، منه خرَجَ وإليه يعود.

(٢) في «البداية»، وراجع محنته بتمامها في كتابنا «فتن آخر الزمان» ط. المكتبة التوفيقية.

ويقول: «ماذا ينفعك أن يعذّب أخوك المسلم بسببك، وقد قال الله:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

وينادي المنادي يوم القيامة: لِيَقُمْ من أجْرُه على الله فلا يقوم إلاّ مَنْ عَفَا ....».

ولستُ أسوق هذا الكلام في مَعْرِض المهادنة للاستبداد السياسي كما قد يسبق إلى أذهان الجهلة، فإني منذ أمسكتُ بالقلم لم أَتَرَيَّثْ في مهاجمة الجبابرة والإعانة عليهم بالتّافه والجليل.

وكم أعياني تدريس الحريات الاقتصادية والسياسية لجماهير من المتديّنين ما كانت تعقل في الإسلام شيئًا منها.

وإنما أسوق كلام ابن جنبل ليعرف الناس أن الرجولة لا تحقد.

وأن الأتقياء فوق الأهواء.

وأن رغبتهم في انتشار الخير وثبوت الحق أسبق في أفئدتهم من رغبة التشفي وسورة الانتقام لأشخاصهم.

وعلى ضوء هذه الكلمة الرّقيقة النّدية للإمام أحمد: «ماذا ينفعك أن يُعَذَّب أخوك المسلم بِسَبَبِك!» تعرف أَقْدار قَوْم لا يَرَوْنَ بناء حياتِهم إلاّ على أنقاض الآخرين، ومن هم أولئك الآخرون؟

إنهم ليسوا خصومًا يطلبون عفوًا، إنهم البنّاءُون الأوّلون والمعلّمون المجْحُودون.

لقد عرفتُ من عاطفة السماحة التي أودعها اللّهُ قلبَ ابنْ حنبل سِرًّا من أسرار الاصطفاء الإلهي للإمامة في الدّين والإمامة في الدنيا...

والذين يتعشّقون خلال الرّجولة أين كانت: يرون أن الإمام أحمد كان يسير على سننها العتيد» ا.هـ[1].

(١) «من معالم الحق» (١٤٣- ١٤٥).

أخي الكريم:

هذه هو فضل «العفو»، وهذه بعضُ مواقفِ أهله، فليكن «العفو» شعارك، والصّفح دثارك، وتذكّر دائمًا قَوْل ربِّك:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فأيّ فَضْل بعد هذا الفضل؟

وعلى الله قصد السبيل.



٦٧- الصَّفْح

اعلم - **أخي المسلم** - أن ضبط النفس عند سورات الغضب دليلُ قُدْرةٍ محمودة، وتماسكٍ كريم.

فعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« ما تَعدُّون الصُّرعة فيكم؟ ».

قالوا: الذي لا تصرعه الرّجال.

قال: **« ولكنّه الذي يَمْلك نَفْسه عِند الغَضَب »**[١].

إنه إعلان عن فَوْزِ مؤمن كريم على شيطان رجيم.

قال رجلٌ للفضيل بن غزوان[٢]: إن فلانًا يقع فيك. قال: لأغيظنّ مَنْ أمَره، غَفَر اللّهُ له.

قيل له: مَنْ أمَره؟

قال: الشّيْطان[٣].

فإذا ترقّى المسلم من درجة ضبط النفس، إلى درجة الصَّفْح الجميل، فقد بلغ درجة المتقين.

أخي:

إن « **الصَّفْح** » شعارُ النّبيين، وزينةُ المتقين، وحليةُ العارفين.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) كُوفي، ثقة، حديثه في الكُتب السّتة، من كبار الطبقة السابعة، توفي بعد سنة ١٤٠هـ.

(٣) **إسناده صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في « الإشراف في منازل الأشراف » (٣٣٦).

به يُهزم الشيطانُ، وتتقارب القلوبُ والأبدانُ، وتمتد جسورُ الوئام، وتُوصَل الأرحام.

وبغيره ينتصر الشيطانُ، وتتنافر القلوبُ والأبدانُ، وتُهدم جسورُ المودّة والوئام، وتقطع الأرحام.

وأمّة هذا حالُها، أُمَّة مفككة الأوْصال، مُشتَّتة الأفكار، مَهْزومة أمام عدوّها، بعد أن هُزِمت أمام نفسها والشيطان.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أخي المسلم:

وإحْيَاء لِخُلُق «**الصَّفْح**» عند المسلمين، فالحديث يدور على السطور التالية حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريف الصّفح.

الثاني: فضله.

الثالث: سطور مضيئة من حياة أهل الصّفح.

والله المسئول أن يوفّقنا لأحسن الأخلاق.

أولاً: تعريفُ الصَّفْح:

الصّفح «**لُغة**»: مصدر «صَفَحَ يَصْفَح» إذا أعَرْض عن الذّنب وتجاوز عنه.

وقال **الفيروز آبادي**: والصّفح أبلغ من العفو، وقد يعفو الإنسانُ ولا يصفح.

و «**اصطلاحًا**» قال **القرطبي** - رحمه الله - : «الصّفح: إزالة أثَر الذّنْب من النّفس، صفحتُ عن فلان، إذا أعرضتُ عن ذَنْبه، وقد ضربتُ عنه صَفْحًا، إذا أعْرَضت عنه وتركته»[1].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/٧١).

وقال **الرّاغب**: « الصّفح: تَرْكُ الذّنْب »[١]

ثانيا: فضله:

ورد في فضل « الصّفح » آيات وأحاديث.

فمن الآيات:

(١) قال تعالى – في الصّفح عن المذنبين من المسلمين – :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

وهذه الآية الكريمة نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ لمّا منع النفقة عن « مِسْطَح بن أُثَاثة » ﷺ بسبب خوضه في الإفك[٢].

غير أنها كما قال الإمامُ **القرطبي** – رحمه الله – : « تتناول الأمّة إلى يوم القيامة بألاّ يغتاظ ذو فَضْل وَسَعة فَيحْلف ألاّ ينفع مَنْ هذه صفته غابر الدّهر »[٣].

وقال الإمامُ **الفخر** – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

« والعفو والصّفح عن المسيء حَسَن مَندوب إليه، وَربّما وَجَب ذلك ولو لم يدلّ عليه إلاّ هذه الآية لكَفى » ا.هــ[٤].

(٢) وقال تعالى – في الصّفح عن المشركين:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

---

(١) « المفردات » (ص ف ح).

(٢) انظر القصَّة بتمامها في صفَة « العَفو ».

(٣) « تفسير القرطبي » (١٢/١٩١).

(٤) « مفاتيح الغيب » (٢٢/٥١٧).

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ قال: «الرِّضا بِغَيْر عِتاب»[١].

وعن مجاهد – رحمه الله –: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ قال: «هذا الصّفح الجميل كان قبل القتال»[٢].

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي إسحاق، قال:

سمعتُ أبا عبد الله الْجَدَلِيّ يقول: سألتُ عائشةَ عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ فقالت:

«لم يكن فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا ولا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يَجْزِي بالسَّيِّئة السيئة ولكن يَعْفُو ويَصْفَح»[٣].

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَقَال مُسْلِمًا،أقال اللّهُ عَثْرَته يَوْمَ القيامة»[٤].

(٣) وعنه رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إن الله تَجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أَنْفُسَها[٥] مَا لَمْ يَتَكلّموا أَوْ يَعْمَلوا به»[٦].

(٤) وعنه – أيضًا – قال:

---

(١) «الدّر المنثور» للسيوطي (٥/٩٤).

(٢) نفس المرجع.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٦/١٧٤)، والترمذي (٢٠١٦) واللفظ له، وأصله في «الصحيحين».

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩) واللفظ له، وصحّحه الألباني.

(٥) أي: بغير اختيارها.

(٦) رواه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧) واللفظ له.

قال رسولُ الله ﷺ:

«**كان الرّجلُ يُدَاين النّاسَ، فكان يقول لِفَتَاه: إذا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فتجاوزْ عَنْه، لَعَلّ الله أن يتجاوز عَنّا. قال: فَلَقِي الله فَتَجَاوَزَ عَنْه**»(١).

(٥) وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**أَقِيلوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهم إلاّ الْحُدود**»(٢).

والأحاديث في هذا المقام كثيرة، وسيأتي بعد قليل المزيد.

ثالثًا: سطور مُضيئة مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ الصَّفْح:

لّما كان «الصَّفْح» من مستلزمات الإحسان، والإحسان أعلى درجات الإيمان، كان للأنبياء من «الصّفح» النّصيب الأوفى، ثم جاء الصّالحون فَحَذو حَذْوَهم، واقتفوا آثارهم، وتخلّقوا بأخلاقهم، وهذه بعض الأقوال والأحوال الدّالة على ذلك:

(١) صَفْحُ النّبي ﷺ:

كان «الصَّفْح» صفة ملازمة للنبي ﷺ، شهد بذلك من لازموه، ومن عاملوه، بل ونطقت بذلك قبل ذلك «التوراة»!! اقرأ:

عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال:

«أَجَل، والله إنّه لموصوف في التوراة بِبَعض صِفَته في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥]، وَحِرزًا للأُمِّيين، أنت عَبْدي ورسولي، سمّيتُك المتوكّل، ليس بِفظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخّاب في الأسْواق، ولا يدفع السّيئة

(١) رواه البخاري، وغيره.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٧٥)، وانظر: «الصحيحة» (٦٣٨).

بالسّيئة، ولكن يَعْفو ويَصْفح، ولن يَقْبَضه اللّهُ حتى يُقيمَ به الملّةَ العَوْجاء، بأن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويفتحُ بها أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا»[1].

وقال **وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه** - رحمه الله -:

«إنّ الله تعالى أَوْحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له «شعياء»: أن قُمْ في قَوْمك بني إسرائيل فإني مُنْطِق لسانك بوَحْيٍ، وأبعث أُمّيًا من الأُمّيين، أبعثه ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا سَخّابٍ في الأسواق، لو يَمُرّ إلى جَنْب سِراجٍ لم يُطْفِئْهُ مِنْ سَكينته، ولو يَمْشي على القَصَب[2] لم يُسْمَع مِنْ تحت قدميه، أبعثه مُبشّرًا ونذيرًا ولا يقول الخَنَا[3]، أفتح به أعينًا كُمْهَا[4]، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا، أُسَدّده[5] لكلّ جميلٍ، وَأَهَب له كل خُلُقٍ كريم، وأجعل السّكينة لباسَه، والبِرَّ شعارَهُ، والتّقوى ضميره، والحِكْمَة منطقه، والصّدقَ والوفاءَ طبيعته، والعفو والمعروف خُلُقَه، والحَقَّ شَريعته، والعَدْلَ سِيرته، والهُدى إمَامَه، والإسْلام مِلّته، وأحمد اسْمه، أَهْدي به بعد الضّلالة، وأُعلّم به بعد الجهالة، وأرْفع به بعد الخَمَالة[6]، وأعرّف به النكرة، وأكثر به بعد القلّة، وأُغني به العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلّف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئامًا من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحّدين، مؤمنين، مُخلصين، مصدّقين لما جاءت به رُسلي، أُلْهمهم التَّسْبيح والتّحْميد، والثّناء والتكبير والتوحيد في مَسَاجدهم ومَجَالسهم ومَضَاجعهم وَمُنْقَلَبهم وَمَثْواهم، يُصَلُّون لي قيامًا وقعودًا، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مَرْضَاتي أُلوفًا، يُطَهِّرون الوجوهَ والأطْراف، ويَشدّون الثّياب في الأَنْصَاف، قُرْبانُهم

(١) رواه أحمد والبخاري.

(٢) القصب: اللؤلؤ.

(٣) الخنا: فحش القول.

(٤) كُمْهَا: عُميًا.

(٥) أُسَدّده: أوَفّقه.

(٦) الخمول: عدم الشهرة.

دماؤهم، وأناجيلُهم في صدورهم، رُهْبانٌ بالليل، ليوثٌ بالنّهار، وأجعل في أهْل بيته وذرّيته السابقين، والصّديقين والشهداء والصّالحين؛ أُمّته يَهْدُون بالحقّ وبه يَعْدلون، وأعزّ مَنْ نصرهم، وأؤيدّ مَنْ دَعَا لهم، وأجعل الدّائرة السّوء على من خَالَفهم، أَوْ بَغَى عليهم أو أراد أن يَنتزع شيئًا مِمّا في أيديهم.

أجعلهم وَرَثةً لِنبيهم، والدّاعية إلى رَبِّهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصّلاة، ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم.

أَختِم بهم الْخَيْرَ الذي بدأتهُ بأوَّلِهم، ذلك فَضْلي أوتِيه مَنْ أشَاء، وَأَنا ذُو الفَضْل العظيم»[1].

دلّ هذا الأثر على أن خُلُق النّبي ﷺ كان معروفًا ومشهورًا في الأمم السابقة - صلواتُ ربي وسلامُه عليه - .

وعلى أرض الواقع، كان ﷺ تَرْجَمة عملية، وَتَجْسيدًا حيًّا، لما وَصَفه به ربُّه - تبارك وتعالى - ، وهاك البيان:

أ- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«اللّهم إني أَتّخذُ عِندَك عَهْدًا لن تُخلفَنيه. فإنما أنَا بَشَرٌ فأيُّ المؤمنين آذَيْتُهُ، شَتَمْتُه، لَعَنْتُه، جَلَدتُه، فاجعلها له صَلاة وزَكاة وَقُرْبَةً تُقرِّبُهُ بها إلَيْك يَوْم القيامة»[2].

ب- روى ابنُ هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٢٠):

أن «فضالة بن عبيد»[3]، أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلمّا دنا منه، قال رسولُ الله ﷺ:

«أَفُضَالَة؟».

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٩١).

(٢) رواه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) واللّفظ له.

(٣) وكان قد أسْلم ظَاهِرُه، ولم يتمكّن الإيمانَ مِنْ باطنِه.

قال: نعم فضالة يا رسول الله.

قال: «**ماذا كُنْتَ تُحَدِّث به نَفْسك؟**».

قال: لا شيء كنتُ أذكر الله!!

فضحكُ النبي ﷺ ثم قال:

«**اسْتَغْفِر الله**».

ثم وضع يَدَه على صَدْره، فَسَكَنْ قَلْبُه[1]، فكان فضالةُ يقول:

«والله ما رفع يَدَه عن صَدْري حتى ما مِنْ خَلَق الله شيءٌ أحبّ إليّ منه!!».

أيّها الناس: هذا هو نبينا:

بَلَــغ الْعُــلاَ بكَمَالــه   كَشَــف الدُّجَــى بجَمَالــه
عَظُمَــتْ جَمِــيعُ خِصَــاله   صَــلّوا عَلَــيْه وآلــه

(٢) صَفْحُ نَبي الله يوسف عليه السلام:

لمّا اجتمع إخوةُ يوسف بيوسف عليه السلام بأرض مصر، وكشف لهم عن نفسه، سُقط في أيديهم، وهاج عليهم النّدم، وقدّموا إليه اعتذارهم: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١].

فلم يتردّد يوسفُ عليه السلام في الصّفح عنهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

ولّما حضرته الوفاةُ بيّن لهم: أن «الصّفح» من صالح الأعمال، وهو أحد أسرار رِفعة الإنسان.

قال صاحب «المنتقى من مكارم الأخلاق» (٨٤):

«قال يوسفُ عليه السلام لإخوته لّما حضرته الوفاة: «يا إخوتاهُ، إني لم انتصف لِنفسي

---

(١) أي: اطمأن بالإيمان.

من مَظْلَمةٍ ظُلمتُها في الدُّنيا، وإني كنتُ أُظهِرُ الْحَسَنة، وأَدْفِنُ السَّيِّئة. فذلك زادي من الدُّنيا.

يا إْخوتي، إني شاركتُ آبائي في صَالِح أَعْمالِهم، فأَشْرِكُوني في قُبورهم».

أخي المسلم:

وبعد أن تبيَّن لك أن «الصَّفْح» خُلُقُ الأنبياء، وشيمة الأصفياء، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وعاشِرْ بمعروفٍ، وسامِحْ مَنِ اعْتَدى ودافِعْ ولكن بالتَّي هِي أَحْسَنُ

فَأَقِل العَثْرة، واغْفِرِ الزَّلَّة، واسْتر العَيْب، وَغُض الطَّرف عن الهفوات، واعلم أن الكمال عزيز.

ومن أراد أخًا بلا عيب، لم يكن له في الإخوة نصيب.

وَمَنْ ذَا الذي تُرْضَى سَجَايَاه كُلُّها كَفَى المرءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

قال بعضُ البلغاء: «لا يُزْهدنَّك في رَجُلٍ حَمَدتَ سيرَتَهُ، وارْتَضَيْتَ وَتيرَته، وَعَرَفْتَ فَضْلَهُ، وبطنتَ عَقْله - عَيْبٌ خفيٌّ، تحيط به كثرةُ فضائله، أو ذنبٌ صغيرٌ تستغفر له قوّةُ وسائله، فإنك لن تَجدَ - ما بَقِيتَ - مُهَذَّبًا لا يكون فيه عيب، ولا يقع منه ذَنْب، فاعتبر بنفسك بَعْدُ ألاَّ تَرَاها بِعَيْن الرِّضا، ولا تجري فيها على حُكم الهوى، فإن في اعتبارك بها، واختبارك لها، ما يُواسيك مِمّا تطلب، ويَعطِفك على مَنْ يُذْنب».

وقال **جعفرُ بْنُ مُحمّد لابنه:** «يا بُني، مَنْ غَضِبَ من إخْوانك ثلاثَ مرّات، فلم يَقُلْ فيك سوى الحقّ، فاتّخِذه لنفسك خِلاًّ».

وقال **الحسن بن وهب** - رحمه الله - :

«مِنْ حُقوق المودّة: أَخْذ عَفْو الإخوان، والإغْضاء عن تَقْصير إن كان».

ولله دَرُّ القائل:

تـــريدُ مُهَذَّبًـــا لا عَيْـــبَ فِـــيه وهَـــلْ عُـــودٌ يَفُـــوحُ بـــلا دُخَـــانِ

إيضاح مهم:

هذا، واعلم أن الحثَّ على الأخذِ بخُلُق « الصَّفح » والحضّ عليه، وَمِنْ قَبْله خُلُق « العفو » – وما في معناهما – : له دائرته التي لا يجوز لمسلم أن يتخطاها، بل يجب عليه أن يدور في فلكها، فهناك « صفح » لا يجوز، وفعله يعدّ جريمة، يعاقب عليها الإسلام!

ومن هذا « الصَّفْح » المذموم:

(١) **صَفْح الحاكم – أو نائبه – عن الزّناة بعد ثبوت جريمتهم،** لأن الله – تعالى – قال:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ ﴾ [النور: ٢].

فمن كَشَفَ القَدَرُ صَفْحَته، جُلِدَ كالحيوان، وحَلَّ به ما يستحق.

(٢) **صَفْح الحاكم عن القاذف للمحصنات؛** لقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** – رحمه الله – :

« وضرب المفترين هذا الحدّ، ثم إسقاط كرامتهم أبد الدّهر بردّ شهادتهم، وعدّها كذبًا هو جزاء شديد بلا ريب، إلاّ أنه عادل، ومبرّأ عن الاتهام بالباطل.

إن النساء الشريفات ينبغي أن يُحَطْن بشتى الضمانات ليعشن آمنات.

وثَمّ أمرٌ نلفت إليه النّظر لدقّته وروعته، إن الدين يحب أن تموت الخطيئة مكانها فلا تلوكها الألسن وتبعثر نبأها في كلّ مكان » ا.هـ[1].

---

(١) « هذا ديننا » (١٦١).

(٣) صفح الحاكم عن السارق بعد ثبوت الجريمة عليه، لقوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن قُرَيْشًا أهَمّهم شأنُ المخزومية التي سَرَقت فقالوا:

من يُكلّم فيها رسول الله ﷺ؟ ثم قالوا: من يَجْترئ عليه إلاّ أسامةُ بْنُ زيد حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلّمه أسامةُ، فقال رسولُ الله ﷺ:

«يا أُسامةُ أَتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدود الله؟».

ثمّ قام فاختَطب فقال:

«إنّما هَلَك الذين مِنْ قَبْلِكم أنّهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشّريفُ تَركُوه، وإذا سَرَق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدَّ، وايْمُ الله لو أن فاطمةَ بِنتَ مُحمّد سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها»[1].

الأيدي في نظر الإسلام ثلاثة:

- **يد عاملة:**

وهذه حقّها أن تكافأ وتصان وتشجّع ومن حقّها أن يضمن لها سعيها وأن تذاد عنها الآفات، وأن تمَنّاً به دون متطفّل سمج يفتات عليه.

- **ويد عاطلة:**

وهذه حقّها أن تجد العمل الذي يشغلها، وأن توفّر لها أسباب العيش الشريف، وأن تأخذ حقّها الطبيعي في الحياة، ولا يجوز أن نلجئها إلى طلب القوت عن طريق التسوّل أو التلصّص.

- **ويد فاسدة:**

وهي اليد التي عزفت عن العمل الشريف وانبسطت للناس بالأذى، وعز علاجها مع

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفرة التعاليم الدينية التي تغري بالحلال وتنفر من الحرام، ماذا يصنع الإسلام لهذه اليد إلاّ أن يقطعها ليريح منها صاحبها، ويريح المجتمع كلّه من مفاسدها.

إن اليد التي تُقْطع هي اليد التي ظَلَمت المجتمع لا اليد التي ظَلَمها المجتمع[1].

(٤) صفح الحاكم عن عصابات الإجرام المُسَلّحة؛ لقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

روى الأئمةُ واللّفظ لأبي داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أن قَوْمًا من عُكْلٍ[2]- أو قال: من عُرَيْنة[3] - قَدِموا على رسول الله ﷺ فاْجتَوُوا المدينة[4]؛ فأمر لهم رسول الله ﷺ بلقاحٍ وأمرهم أن يَشْربوا من أبْوالها وألبانها، فانطلقوا، فلمّا صَحُّوا قَتَلوا راعي النّبي ﷺ واستاقوا النَّعَم؛ فبلغ النبي ﷺخبرُهم من أوّل النهار فأرسل في آثارهم؛ فما ارتفع النهارُ حتى جيء بهم؛ فأَمَر بهم فَقُطِعَتْ أيديهم وأرجلهم وَسَمَر أعينهم وألقوا في الحرة يَستَسْقون فلا يُسْقون.

قال أبو قِلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله.

وفي رواية: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم[5].

وفي رواية: فبعث رسول الله ﷺ في طلبهم قافة[6] فأتي بهم؛ قال:

---

(١) «هذا ديننا» (١٥٦) باختصار.

(٢) عُكلٌ قبيلة من الرّباب، فيها غباوة.

(٣) عُرَيْنة حيّ من قضاعة.

(٤) اجتويت البلد كرهت الإقامة فيها. والجوى: داء الجوف إذا تطاول.

(٥) الحسمُ الكيّ لمنع سيلان الدم.

(٦) القافة جمع قائف وهو الذي يتتّبع الأثر.

فأنزل الله - تبارك وتعالى - في ذلك:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا... ﴾ (الآية).

وفي رواية: قال أنس: فلقد رأيتُ أحدَهم يَكْدِمُ[١] الأرض بِفِيه عَطَشًا حتى ماتوا.

وفي البخاريّ قال جريرُ بن عبد الله في حديث:

فبعثني رسولُ الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم وقد أشرفوا على بلادهم، فجئنا إلى رسول الله ﷺ . قال جرير:

فكانوا يقولون: الماء، ويقول رسولُ الله ﷺ :

« النّار ».

قال الحافظ **ابن كثير** - رحمه الله - :

« هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم مِمَّن ارتكب هذه الصّفات » ا.هـ[٢].

قال صاحبُ « الظّلال » - رحمه الله - :

« هذا تنكيل من الله رادع. والرّدع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدّثه نفسه بها، لأنّه يكفّه عنها. ورحمة بالجماعة كلّها لأنّه يوفّر لها الطمأنينة، ولن يدّعي أحدٌ أنه أرحم بالناس من خالق الناس، إلاّ وفي قلبه عمى، وفي روحه انطماس!

والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبّق في خلال نحو قرن من الزّمان في صدر الإسلام إلاّ في آحاد؛ لأن المجتمع بنظامه، والعقوبة بشدّقها، والضمانات بكفايتها لم تنتج إلاّ هذه الآحاد.

ثم يفتح اللّهُ باب التوبة لمن يريد أن يتوب، على أن يندم ويرجع ويكفّ » ا.هـ[٣].

---

(١) يكدم: يعض بأدنى فمه.

(٢) « تفسير ابن كثير » (٧٦/٢).

(٣) « الظّلال » (٨٨٦/٢).

(٥) صفح الحاكم عن المخمورين:

فهذا أيضًا من الصّفح المذموم؛ فعن معاوية ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ شَرِب الخَمْرَ فاجْلِدوه، فإن عاد في الرّابعة فاقْتُلوه»(١).

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** – رحمه الله – :

«عندما بتّ القرآن الكريم الحكم بتحريم الخمر وذكر أن ذلك لآثارها النفسية والعقلية السّيئة»: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

والمرء إذا استرخَى زمام تفكيره، استيقظت غرائزه، وتلاشى ما يحكمها وشرعت تنطلق هنا وهناك دون حذر، ومن ثم ترى المخمور أو المخدَّر يأتي بأفعاله وكأنّه حيوان لا صاحب له.

وقد أحسّت أممٌ كثيرة خطورة هذه الحال على يومها وغدها فقاومت المسكرات والمخدّرات بقوّة، ونفذت بعض الحكومات عقوبة الإعدام فيمن يتناول المخدّرات أو يروّجها، وانطلقت صيحات كثيرة ترهّب من الخمور وغائلتها وتلفت الأنظار إلى ضراوهّا وفتكها.

وفي أوسط هذا القرن أرادت الولايات المتحدة أن تحرم الخمر لما استبانته من سوئها، وَسَنَّت لذلك قانونًا، ولكنها فشلت في تطبيقه لأنها لم تتبع سنّة التدرّج التي اتخذها الإسلام، ولو أنّها تدرّجت في الحظر لنجحت في وقاية الجمهور من هذا البلاء.

والإسلام يحرّم المسكرات، ويعاقب شاربيها بالجلد ثمانين، وهو حدّ اتفقت الأمة عليه لأن الروايات اختلفت في عقوبة تناول الخمر، فمنها ما جاء بضربه وإهانته، ومنها ما جاء بجلده أربعين، ومنها ما بلغ بالجلد ثمانين.

وقد رأى الصحابة أن مَنْ سَكر هَذَى، ومن هَذَى افْترى، فليعاقب بحدّ الافتراء أي:

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٣٠٩).

قذف المحصنات.

ونلفت النّظر إلى أن الإسْلام يُعاقب على شُرْب الخَمر لا على السُّكر منها، فمن شَرِب، سَكِر أو لم يسكر، ضُرب الحدّ الْمُقَرّر.

وأرى أن هناك بيئات قد استَباحت الْمُسْكر والمخدر، وأن إنزال عُقوبة الموت بها أجْدى على الدِّين والدُّنيا»ا.هـ.

(٦) صَفْح الحاكم عن المرتد:

وهذا - أيضًا - صفح مذموم لأنه يشجّع على الكفر، ويعين على الانفلات من ربقة الدين، ويصيب بنيان المجتمع بالتصدّع.

وقد ثبت حدّ الرِّدة بالأحاديث الصّحيحة، منها:

أ- قوله ﷺ: «**مَنْ بَدّل دِينه فاقْتُلوه**».

ب- «**لا يَحل دَمُ امْرئٍ مُسْلم إلاّ بإحْدى ثلاث: زنا بعد إحْصَان، وقتل النفس التي حرّم اللّهُ بغير حق، والتّارك لدينه المفارِق لِلْجَمَاعة**».

وقد هوجم هذا الحدّ من قِبل الأعْداء والأدْعياء هجومًا عنيفًا، وشنوا عليه حربًا لا هوادة فيها قاصدين من وراء ذلك: زلزلة اعتقاد الأمّة، وضربها في نخاعها.

وقد انبرى لهم علماؤنا فردّوهم على أعقابهم خاسئين، ومن أحسن ما قرأتُ من تلك الرّدود: قول الشيخ/ **محمد الغزالي** - رحمه الله -:

«من حق أي إنسان أن يؤمن أو أن يظلّ على كفره، ولكن هذا الحق يتقرر لصاحبه وهو فرد لم تتضح له الأمور، إن له أن يدرس ويوازن ويرجّح، وأن يبقى على ذلك طول عمره.

فإذا آثر الوثنية أو اليهودية أو النصرانية لم يعترضه أحد.

وإذا آثر الإسلام فعليه أن يُخلص له، ويتجاوب معه في أمره ونهيه وسائر هديه، وهنا نتساءل:

هل من حرية الرأي عند اعتناق الإسلام أن نكسر قيوده، ونهدم حدوده؟

أو بتعبير آخر: هل حرية الرّأي تعطي صاحبها في أي مجتمع إنساني حق الخروج على هذا المجتمع ونبذ قواعده ومشاقة أبنائه؟

هل خيانة الوطن أو التجسس لحساب أعدائه من الحرية؟

هل إشاعة الفوضى في جنباته والهزء بشعائره ومقدساته من الحرية؟

إن قضية الارتداد تحتاج إلى إيضاح لتعرف أبعادها، فالإسلام معروض للأغمار والعباقرة على أنه عقيدة وشريعة، وكتابه ونهج نبيه يقرران مثلاً أن الله واحد، وأن الآخرة حق، وأن القصاص حق، وأن الصيام حق.

ومعنى ذلك أن الذي يدخل في الإسلام يرتضي كل هذه التعاليم وينفذها.

فإذا جاء من قال: أؤمن بالله وأرفض الإيمان بالآخرة، أو أؤمن بهما وأرفض شريعة الصيام، وشريعة القصاص، وما أشبه ذلك... فهل يترك هذا الشخص ليعبث بدين الله على هذا النحو؟ كلا.

إمّا أن يثوب إلى رشده ويرجع إلى الجماعة، أو فالخلاص منه حَتْم، ولا تُتَّهم جماعة تؤمّن وجودها وتصون حقيقتها، وتذود العبث عن كيانها.

لو أن إنسانًا ثارت في صدره شبهة لوجب على الراسخين في العلم أن يزيلوها، ولو بقيت في نفسه هذه الشبهة فاعتزل بها ما أحسَّ أحد خطره ولا خطورتها.

أمّا أن تنبت في رأس أحد فكرة أن الرجل - مثلاً - لا يجوز أن يرأس البيت ولا أن يضاعف له الميراث، أو تنبت في رأسه فكرة أن نظام الرّبا يجب أن يسود ويمتد ويوجّه الاقتصاد كله. ثم يتحوّل هذا الشخص إلى داعية لفكرته ويحاول تنفيذها بشتى الطرق... فذاك ما لا يمكن قبوله باسم الإسلام.

وإقناع الإسلام بقبول هذا الوضع سَفَهٌ، ومطالبته بتوفير حق الحياة والحركة لمن يريد نقض بنائه وتنكيس لوائه أمر عجيب.

لا يوجد في الدنيا مجتمع ينتحر بهذه الطريقة السقيمة، ولذلك لا نرى أي غرابة في أن يُستتاب المرتد فإذا لم يَتُب قُتل»(١). وقال - أيضًا - :

« ونلفت النّظر إلى أن قوى كثيرة تعمل الآن لنهش الكيان الإسلامي، وتوهين عُراه، وإثارة لَغَط مُفتعل حَوْل شُعَب الإيمان كلها، أعلاها وأدناها.

وعلى المسلمين أن يدفعوا عن دينهم بالوسائل المشروعة كلّها، يُثبّتون القَلِقَ، ويقتلون الخائن، ويحيون في جوّ من الوضوح والإخلاص.

إن سرقة العقائد والأخلاق أصبحت حرفة لعصابات من المبشّرين الذين يكرهون الإسلام وكتابه ونبيه، ويعثرون أسباب الفتنة في كل ناحية حتى يقبلوا المجتمع كله رأسًا على عقب.

ومن حق المسئولين عن هذه الأمة المظلومة أن يحملوا عقائدها وشرائعها ويردوا عنها كيد المتربِّصين، ومؤامرات الحاقدين.

ويجب أن نتشبث بحدود الإسلام كلّها، مدركين أن الصّحة العقلية والاجتماعية في إقامتها وكما جاء في الحديث الشريف:

« لَحَدٌّ يُقام في الأرض بِحَقِّه أَبرك لها من أن تُمْطر أَرْبعين صَبَاحًا »(٢).

إن الغيث يُحْيي ما مات من الأرض، ولكن الحدود تحيي ما مات من الأخلاق، وتمنع أوبئة الفساد من الإتيان على الأمم، وتدمير حاضرها ومستقبلها»ا.هـ(٣).

قلت: وهذا كلام يكتب بماء الذّهب، ودفاع كريم عن شريعة نزلت: لاستتباب الأمن، ولضبط حياة الناس، ولقيادتهم لما فيه سعادتهم، فرحمةُ الله على قائله.

---

(١) « هذا ديننا » (١٦٧، ١٦٨).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه بلفظ : « حَدٌّ يُعْمَل به في الأرض خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْض مِنْ أن يُمْطَروا أَرْبَعين صباحًا »، وانظر « صحيح الجامع » (٣١٣٠).

(٣) « هذا ديننا » (١٧٠).

(٧) صفح الحاكم عن مجرمي الحروب:

وهذا أيضًا من أنواع «الصَّفْح المذموم» ، فلا ينبغي ترك من ألّب على المسلمين عدوّهم، وأعان على اجتثاث جذورهم، وإخماد أنفاسهم، وتنكيس لوائهم، وإذلال رجالهم، وتيتيم أطفالهم، وترمّل نسائهم، لا ينبغي تركه يَرْكُض رِكْض الوحش في البرّية دون حساب ولا عقاب.

إن إنهاء حياة هؤلاء «ديانة» تقرّب إلى الله زُلْفى.

لقد انتدب النبي ﷺ بعض أصحابه الكرام، لقتل «سلام بن أبي الحقيق» و «كعب ابن الأشرف»، وأمر بقتل «عقبة بن أبي معيط» و «حُيي بن أخطب»، وغيرهم مِمَّن عَظُم كُفرهم، واستغلظ عودُ جرائمهم.

إن ترك القتلة إهمالاً لحكم الله وإعلاء لحكم الطاغوت يساعد على انتشار الجريمة، ويعين على الفساد، ويبث الذّعر في قلوب الآمنين.

وأيّ عاقل يعلم أن الحياة لا تستقيم بالإبقاء على حياة القتلة والسّفاحين والمجرمين. وصدق الله العظيم – إذ يقول – :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والمقصود: أن «الصّفح» من أخلاق النّبيين، وقد أمر به ربُّ العالمين، ولكن له موضعه، ودائرته التي يدور في فلكها، لا يتخطّاها، ولا يتعداها، وإلاّ كان «صفحًا» مذمومًا، يأثم صاحبه ولا يؤجر!!

فاللّهم أرِنا الحْق حَقًّا وارْزُقنا اتباعه، وأَرِنا الباطل بَاطلاً وارْزُقْنا اجتنابه، ولا تجعله مُلْتَبِسًا علينا فَنَضِلّ ضلالاً بعيدًا.

۞۞۞۞۞

٦٨- الْحَمْدُ

الحكمة الشائعة في الترجمة عن شكر الإنسان لِرَبِّه هي «**الحمد**».

و «**الحمد**» كلمة تعني - مع الشكر - الثناء على الله، وتمجيد ذاته، ومن ثم كانت أرْجَح وأَذْيَع.

والمهم أن يرددها المسلم، وهو شاعر بالمنّة والجميل، مقرّ من أعماقه بأن الله - تعالى - مَصْدر ما اندفق عليه من خير، وأَهْل ما صعد إليه من شكر...

- جاء رجلٌ إلى «يُونُس بن عبيد» - رحمه الله - فَشَكا إليه ضيقًا من حاله ومعاشه واغتمامًا منه بذلك.

فقال له يونس: أَيَسُرُّكَ بِبَصَرِك هذا الذي تُبْصِرُ به مائةُ ألفٍ؟

قال: لا.

فَسَمْعُك الذي تَسْمَعُ به يَسُرُّك به مائةُ ألفٍ؟

قال: لا.

قال: فيداك يسرُّك بهما مائة ألف؟

قال: لا.

قال:

فَرِجْلَاكَ؟ وقال: فَذَكَّرَهُ نِعَمَ اللهِ عليه. فأقبل عليه يونس، فقال:

«أرَى لك مِئين أُلوفًا وأنت تشكو الحاجة!!»[1].

- وقال أمير المؤمنين هارون الرشيد لابن السّماك «الواعظ»: عظني - وكان في يد هارون شربة من ماء - فقال:

يا أمير المؤمنين، أرأيت لو حُبِسَتْ عنك هذه الشَّربةَ أكنتَ تفديها بِمِلكك؟

---

(١) «إيقاظ أولى الهمم العالية» (٩٠).

قال: نعم.

قال: فلو حُبس عنك خروجُهَا أكنتَ تَفْدِيها بِمُلْكِك؟

قال: نعم.

قال: لا خَير في مُلْكٍ لا يُساوي شَرْبَةَ ماء ولا بَوْلَة، فبكى الرشيد[1].

إن نعم الله - تعالى - لا تعدّ ولا تحصى.

□ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ومعنى: ﴿ لَا تُحْصُوهَآۗ ﴾ أي لا: تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها.

ومعنى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ قيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها، كفّار: شديد الكفران لها. وقيل: ظلوم: في الشّدة يشكو ويجزع، كفّار: في النّعمة يجمع ويمنع[2].

□ وقال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾ [لقمان: ٢٠].

قال مقاتل بن حيان: «أمّا الظاهرة: فالإسلام، وأمّا الباطنة: فستره عليكم بالمعاصي».

قلت: والآية أعمّ.

قال **الإمامُ الشوكاني** - رحمه الله - :

«والمراد بالنعم الظاهرة: ما يدرك بالعقل أو الحسّ ويعرفه من يتعرّفه، وبالباطنة: ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم.

وقيل: الظاهرة: الصّحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل.

وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله من البعد عن الآفات.

وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة.

---

(١) نفس المرجع (٢٦٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٥٢/١٨) باختصار.

وقيل: الظاهرة: الإسلام والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السّيئة»ا.هـ[(١)].

ومع هذه النّعم الظاهرة والباطنة «هناك ناسٌ لهم طباع غبية كنود، تسدي إليهم الجميل بعد الجميل فكأنما ترقم على ماء، لا يبقى في نفوسهم أثر منه، ولا اعتراف به.

وكثير ممّن نلقى على هذا الغرار الرديء، يجيء أحدهم بطلبه فتحسّ أنه محرج، وأنه محتبس في دائرة هذه الحاجة التي يفتقدها.

فإذا قضيتها له ولّى مُدبرًا ولم يُعَقّب!

فإذا احتاج مرة أخرى أتى واللّهفة بادية في سؤاله وحالته حتى إذا تمّ له ما يريد انصرف على عَجَل أو بعد كلمات ميتة لا تترجم عن قلب حاضر، ولا فؤاد واع.

هؤلاء الناس يظنون أن الحياة مكلّفة بتيسير مطالبهم، فحسبهم أن يمدوا أيديهم لتعود بما يبتغون، كما تمد الدّواب أفواهها إلى الكلأ وورق الشجر لتطعم منه متى شاءت دون إحساس بفضل من غرس، وصنيع من مَنَح!

كذلك هُم حذو النّعل بالنّعل يحتاجون فيجدون فيولون!! فإذا منعتهم شيئًا ممّا يريدون ارتفعت صيحاتُهم بالسّخط والسّباب والاستنكار.

لماذا؟ إنه صراخ الحيوان المحروم.

فهلاّ إذ تألمتم من الحرمان أبديتم الرّضا والشكر لدى العطاء.

كثير من الناس يعاملون الله بهذا الأسلوب السافل، يسألونه فيجيبهم، فإذا رجع أحدهم بيده حافة «مَرّ كأن لم يدع رَبّه إلى ضرّ مَسّه»، مرّ دون شكر ودون حياء.

فإذا احتاج – وما أسرع الاحتياج – عاد بذات الشعور وذات الكنود، فلماذا يتألّم إذا لدغته آلام الحرمان والطرد؟

---

(١) «فتح القدير» (٢٤١/٤).

إن المنع أيسر ما يقابل به الشخص الجاحد، فهو لا يذوق طعم العطاء، ولا يقدّر صاحبه.

ونحن - جماهير البشر - نُصْبح ونُمْسي نخوض في نِعَم الله خَوْضًا، فلماذا لا نوقظ أفكارنا الغافية إلى معرفة تلك المنن؟ ولماذا لا نوقظ ضمائرنا لِشُكْر مُرْسِلها؟»[1]

إن ترك «الحمد» سوسة تنخر في عظام النِّعَم.

وما أحوج الناس - اليوم - إلى من يذكّرهم بِنعم ربِّهم عليهم.

لقدانتشر الكنود، واستغلظ عودُ الجحود.

خَيْرُ رَبِّنا إلى العباد نازل، وشرُّهم إليه صاعد!

يتقرّب إليهم بالنّعم، ويتبغّضون إليه بالمعاصي!

يُقَلِّبهم في نِعَمِهِ، ويتقلّبون هُم في مَعْصِيته!

لذا، فالحديث على السطور التالية يدور حول:

الأول: تعريف الحمد.

والثاني: أقسام الحمد.

والثالث: ثمرات الحمد.

والرابع: لقطات من حياة أهل الحمد.

أوّلاً، تعريف الحمد،

الحمد «**لغة**»: مصدر قولهم: حمد يحمد، وهو مأخوذ من مادة (ح م د) التي تدلّ كما يقول ابنُ فارس[2] على خلاف الذّم، يقال: حمدتُ فلانًا أحمده «مدحته»، ورجل محمود ومحمّد، إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة.

---

(١) «الجانب العاطفي من الإسلام» (٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) «مقاييس اللّغة» (٢/١٠٠).

وقال الجوهريُّ:

«والتحميدُ أبلغ من الحمد، والحمدُ أعمّ من الشكر، والمحمّد الذي كثرت خصاله المحمودة، والْمَحْمَدَةُ خلاف المذمّة، وأحْمَدَ فلانٌ: صار أمْرُه إلى الحمد، وأحمدتُهُ أي وجدتُهُ محمودًا، وقولهم في المثل: العود أَحْمَدُ أي أكثرُ حَمْدًا. ويقال: رجلٌ حُمَدَةٌ أي: يكثر حمد الأشياء، ويقول فيها أكثر مِمّا فيها».

و «اصطلاحًا»: قال الجُرْجَاني: «الحمد: هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها»ا.هـ.

وقال ابن القيم: الحمدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبّه وإجلاله وتعظيمه»ا.هـ.

وقال الراغب: «الحمد لله تعالى: هو الثناء عليه بالفضيلة»ا.هـ.

معنى اسْمِ اللهِ «الحميد»:

قال الإمام الغزاليّ - رحمه الله -:

«الحميدُ: هو المحمودُ الْمُثْنَى عليه، واللهُ ﷻ هو الحميد بحمده لنفسه أزَلاً وبحمد عباده له أبدًا، ويرجع هذا إلى صفات الجلال والْعُلوّ والكَمَال»ا.هـ[1].

ثانيا: أقسام الحمد:

قَسَّم بعضهم الحمد كما يلي:

(١) الحمدُ القَوْليُّ:

هو حمدُ اللّسان وثناؤه على الحق بما أَثْنَى به على نفسه على لسان أنبيائِه.

(٢) الحمدُ الفعليُّ:

هو الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاءً لوجه الله تعالى.

(٣) الحمدُ الحاليُّ:

هو الذي يكون بحسب الرُّوحَ والقلب كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية

---

(١) «المقصد الأسنى» (١٣٠).

والتخلق بالأخلاق الإلهية.

(٤) الحمدُ اللُّغويُّ:

هو الوصف الجميل على جهة التعظيم والتّبْجيل باللّسان وحده.

(٥) الحمدُ العُرْفيُّ:

فعلٌ يُشْعِرُ بتعظيم الْمُنْعِم بسبب كَوْنِه مُنْعِمًا وهو أعمُّ من أن يكون فعلَ اللّسان أو الأركان[1].

ثالثًا: ثمراتُ الحمد:

لكلمة «الحمد» ثمرات وفضائل كثيرة، فهي:

(١) أفْضَل الدُّعاء:

فعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«أفْضَلُ الذّكْر: لا إله إلا الله، وأفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحمدُ لِلّه»[2].

(٢) وهي: أحَبّ الكَلَام إلى الله تعالى:

- فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أحَبُّ الكلام إلى الله أَرْبَعٌ: سُبْحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلاّ الله، واللهُ أكبرُ، لا يَضُرُّك بأيِّهنَّ بَدأْتَ»[3].

- وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (٩٣- وما بعدها).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (١١٠٤).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٧)، والبخاري - تعليقًا - (١١/٥٦٦).

«ألا أُخْبِرُك بأحبِّ الكَلاَم إلى الله؟».

قلتُ: يا رسولُ الله، أخبرني بأحبّ الكلام إلى الله.

فقال: **«إن أحبَّ الكلام إلى الله: سُبْحَان الله وَبِحَمْده»**[1].

(٣) وهي: غراس الجنّة:

فعن جابر رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ

«مَنْ قال: سُبْحَان اللهِ العظيم وَبِحَمْدِه: غُرِسَتْ له نَخْلَةٌ في الجنَّة»[2].

(٤) وبها ينال العبدُ «بيت الحمد»:

فعن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إذا ماتَ وَلَدُ الْعَبْد، قال اللّهُ لملائكته: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قَبَضتم ثَمَرةَ فُؤَاده؟ فيقولون: نَعَم. فيقولُ: ماذا قال عَبْدي؟ فيقولون: حَمِدَك واسْتَرْجَعَ. فيقولُ اللّهُ: ابْنُوا لعبدي بيتًا في الجنّة وسَمُّوه بيتَ الْحَمْدِ»[3].

(٥) وهي: نَفَسُ أهْل الجنّة:

فعن جابر رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ أَهْلَ الجنَّة يأكلون فيها وَيَشْرَبُون، ولا يَتْفُلُونَ ولا يَبُولونَ ولا يَتَغَوَّطُون ولا يَمْتَخِطُون!».

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣١).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وحسنه، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٤٢٩).

(٣) حسن: رواه الترمذي (١٠٢١)، وقال: «حسن غريب»، وحسنه السيوطي والحافظ ابن حجر.

قالوا: فما بالُ الطعام؟

قال: « **جُشَاءٌ**[1] **ورَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُون التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيد، كما تُلْهَمُون النَّفَس** »[2].

(٦) وهي: قوّة للبَدَن:

فعن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: إن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرّحى في يدها. وأتى النبي ﷺ سبي، فانطلقت فلم تجده، ولقيت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليه، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم، فقال النبي ﷺ :

« **على مَكَانِكُما** ».

فَقَعد بيننا حتّى وجدتُ بَرْدَ قَدَمه على صَدْري، ثُمَّ قال:

« **ألا أُعَلِّمُكُما خَيْرًا مِمَّا سألتُما؟ إذا أخذتُما مَضَاجِعَكُما: أن تُكَبِّرا الله أَرْبَعًا وثلاثينَ، وتُسَبِّحاه ثَلاثًا وثلاثين، وتَحْمَدَاه ثلاثًا وثلاثين، فهو خَيْرٌ لكما مِنْ خَادم** »[3].

قال شيخ الإسلام/ **ابن تيمية** – رحمه الله تعالى – :

« بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات لم يأْخُذْه إعْيَاء فيما يعانيه من شُغل وغيره » ا.هـ[4].

(٧) وهي: تَمْلأُ الْمِيزان:

فعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الجُشَاء: تنفّس المعدة عند الامتلاء.

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٣) رواه البخاري (٥٣٦١)، ومسلم (٢٧٢٧).

(٤) « الوابل الصّيب » لابن القيم (١٣٢).

« الطُّهُور شَطْرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأُ الميزان، وَسُبْحَان الله والحمدُ لله تملآن أو تملأ ما بين السّموات والأرض، والصَّلاةُ نورٌ، والصَّدقةُ بُرْهَانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والقرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك. كُلُّ النّاسِ يَغْدو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها أَوْ مُوبِقُها[1] »[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« كلمتانِ خفيفتان على اللّسان، ثَقِيلتان في الميزان، حَبِيبتان إلى الرحمن: سُبْحَان الله العظيم، سبحان الله وَبِحَمْده »[3].

(٨) تتسابق الملائكةُ إلى كتابتها! :

فعن رفاعة بن رافع ﷺ قال:

كُنّا يومًا نصلّي وراء النبي ﷺ، فلمّا رفع رأسه من الركعة قال:

« سَمِعَ اللّهُ لِمَنْ حَمِدَه ».

قال رَجُلٌ: ربّنا ولك الحمد حمدًا طيّبًا مباركًا فيه.

فلمّا انصرف قال:

« مَنِ الْمُتكَلِّم؟ ».

قال: أنا.

قال: « رأيتُ بِضْعَةً وثلاثين مَلَكًا يَبْتَدِرُونها أَيُّهم يكتُبُها أَوَّلَ »[4].

(٩) تتسابق الملائكةُ إلى رفعها:

فعن أنس ﷺ: أن رجلاً جاء فدخل الصّف وقد حَفَزَهُ النَّفَسُ[5]، فقال: « الحمد لله

(١) موبقها: مهلكها.

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٤) رواه البخاري (٧٩٩).

(٥) حفزه النّفس: أي ضغطه وهو يمشي بسرعة ليدرك الصّلاة.

حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه »، فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ صلاته قال:

« **أيُّكم المتكلّم بالكلمات؟** ».

فأَرَمَّ القوم[١].

فقال: « **أيّكم المتكلّم بها؟ فإنه لم يَقُلْ بأْسًا** ».

فقال رجلٌ: جئت وقد حَفَزَني النَّفَسُ فَقلتُها، فقال ﷺ:

« **لقد رأيتُ اثْنَى عَشَر مَلَكًا يَبتدرونها، أيُّهم يَرْفَعها** »[٢].

(١٠) لا حَدَّ لِثوابِها:

فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – :

أن رسول الله ﷺ حدّثهم:

« **أن عَبْدًا من عباد الله قال: يا رَبِّ لَكَ الحمدُ كما يَنْبغي لجلال وَجْهك ولعظيم سُلْطانك. فَعضلت بالمَلَكيْن فَلَمْ يَدْرِيا كيف يَكْتُباها، فَصَعَدوا إلى السّماء فقالا:**

يا رَبّنا إن عبدك قد قال مقالة لا نَدْري كيف نكتبها. قال اللّهُ – وهو أعلم بما قال عبده – : ماذا قال عبدي؟

قالا: يا رَبُّ إنّه قد قال: يا رب لك الحمدُ كما ينبغي لجلالِ وَجْهِك وعظيم سلطانك.

فقال اللّهُ لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يَلْقَاني فأَجْزيه بها »[٣].

(١١) تفتح لها أبواب السماء:

فقد ثبت في « صحيح مسلم » ، وغيره أن النبي ﷺ سمع رجلاً يستفتح صلاته بقوله: « الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً » ، فقال ﷺ :

---

(١) أي: سكتوا.

(٢) رواه مسلم (١/٤١٩).

(٣) رواه ابن ماجه.

« عَجِبْتُ لها! فُتِحت لها أبوابُ السّماء ».

(١٢) وهي: كلمة الشكر:

فعن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« مَا أَنْعَم اللّهُ على عَبْدٍ نِعْمَةً فقال: الحمدُ لله، إلا كانَ الّذِي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمّا أَخَذ » [(١)].

(١٣) تغفرُ بها الذّنوب:

فعن معاذ بن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« مَنْ أَكَلَ طعامًا فقال: الحمد لله الذي أَطْعَمَني هذا وَرَزَقَنِيه مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِني ولا قوَّةَ، غُفِرَ له ما تَقَدّم مِنْ ذَنْبِه » [(٢)].

(١٤) تَقِي مِنَ الأَمْرَاضَ:

فعن عمر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« مَنْ رَأى صَاحِبَ بَلاءٍ فقال: الحمدُ لله الذي عافاني مِمّا ابتلاكَ به وفَضَّلَني على كثير مِمَّن خَلَق تَفْضِيلاً. إلاّ عُوفِي مِنْ ذَلِكَ البلاءِ كائنًا ما كان ما عاش » [(٣)].

قلت: هذا مَصْلٌ شَرْعِيّ واقي، فأين من يَتّقي به اليوم؟

ألا ما أحوج الناس إليه في هذا الوقت - بالذات - الذي ابْتُلوا فيه بأمراض لم تكن

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٠٥)، وقال في « الزوئد »: إسناده حسن.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٤٥٨)، وغيرهما.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣٤٣١) واللفظ له، وقال: حديث غريب، وحسنه النووي والألباني.

في أسلافهم الذين مضوا:

(١٥) قائلها أوْلَى بالكَرَم يوْمَ القيامة:

قال الإمام **الحسن البصري** - رحمه الله - :

« إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ، سيعلمُ الْجَمْعُ مَنْ أوْلَى بالكَرَم، أين الذين كانت: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

قال: فيقومون فَيَتَخَطَّوْنَ رِقابَ النّاس.

قال: ثم ينادى منادٍ: سيعَلمُ أَهْلُ الْجَمْعِ مَنْ أوْلَى بالكَرَم، أين الذين كانت: ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧].

قال: فيقومون فَيَتَخَطَّوْن رقابَ الناس.

قال: ثم ينادى منادٍ: سيعلمُ أهْلُ الْجَمْعِ مَنْ أوْلَى بالكَرَم، أين الحمَّادون لِلّه على كلّ حَال؟

قال: فيقومون وهم كثير ثم يكون النّعيمُ والحسابُ فِيمَنْ بَقِيَ »[١].

(١٦) قائلها يكتبُ من الحامدين:

قال أبو عبد الرّحمن الْحُبُلِيُّ - رحمه الله - :

« إنّ الرّجُلَ إذا سَلَّم على الرّجل وسأله: كيفَ أَصْبَحْتَ؟ فقال له الآخر: أَحْمَدُ الله إليك، قال: يقول الْمَلَكُ الذي عن يَسَاره لِلّذي عن يَمينه: كيف تكْتُبُها؟ قال: أَكْتُبُهُ من الحامدين. فكان أبو عبد الرحمن إذا سُئِل كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه »[٢].

---

(١) « الوابل الصّيب » (٨٩).

(٢) « مختصر منهاج القاصدين » (٢٧٨).

(١٧) بها تَزْدَادُ النِّعمة:

قال **الفضيلُ بْنُ عياض** - رحمه الله - :

«مَنْ عَرَفَ نعمةَ اللهِ بِقَلْبِهِ، وَحَمِدَهُ بِلِسَانِه، لَمْ يَسْتَتِمَّ ذَلك حَتَّى يرى الزِّيادة، لقوله تعالى:

﴿ لَبِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]»[١].

(١٨) بها تُقْضَى الحوائج:

قال **ابْنُ زيد** - رحمه الله - :

«إنَّه ليكونُ في المجلس الرَّجُلُ الواحدُ يَحْمَدُ الله - عَجَلَّ - فَيَقْضِي لذلك المجلسِ حَوَائِجَهم كُلِّهم»[٢].

(١٩) وهي: طريق الجنة:

قال **ابْنُ زَيْد** - رحمه الله - أيضًا :

«في بعض الكتب التي أنزلها اللَّهُ تعالى أنه قال: «سُرُّو عَبْدي المؤمنَ، فكانَ لا يأتيه شَيْءٌ إلاَّ قال: «الحمدُ للّه، ما شاءَ اللهُ». قال: رَوِّعُوا عَبْدي المؤمَن، فكان لا يَطْلَعُ عَلَيه طَلِيعَةٌ مِنْ طلائع المكروه إلاَّ قال: «الْحَمْدُ لله، الحمد لله». فقال اللَّهُ - تبارك وتعالى - إنَّ عَبْدي يَحْمَدُني حين رَوَّعْتُهُ كما يَحْمَدُني حِين سَرَرْتُهُ[٣] أَدْخِلوا عِبْدي دَارَ عِزّي كما يَحْمَدُني على كلِّ حالاته»[٤].

(٢٠) وهي: آخرُ دُعَاءِ أَهْل الجنّة:

قال تعالى: ﴿ دَعْوَنهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَنهُمْ

---

(١) «عدّة الصابرين» (١٢٤).

(٢) نفس المرجع (١٣٩).

(٣) سررته: أدخلت عليه السرور.

(٤) «عدة الصابرين» (١٣٩).

أن ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله - :

«يستحبّ للدّاعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» اهـ[(١)].

(٢١) وهي - أخيرًا - سبَبٌ في ردّ ربِّ العزّة على عبده:

وهذا فضل عظيم، وكرم كبير، ومنّة عظيمة:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«قال اللهُ ﷻ : قسمتُ الصّلاة[(٢)] بيني وَبين عَبْدي نصفَيْن ولعبدي ما سَأل، فإذا قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال اللهُ: حَمَدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عَبْدي، فإذا قال: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله: مَجَّدني عبدي- وقال مرّة - فوَّض إليّ عبدي، فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال الله: هذا لِعَبْدي، ولعبدي ما سَأل»[(٣)].

رابعًا: شرائط الحمد:

قال **شقيق بن إبراهيم** - رحمه الله تعالى - في تفسير: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال:

«هو على **ثلاثة أوجه**:

أوّلها: إذا أعطاك الله شيئًا تعرف من أعطاك.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/٢٢٩).

(٢) يعني: الفاتحة.

(٣) رواه مسلم، والنسائي.

والثاني: أن ترضى بما أعطاك.

والثالث: ما دامت قوّته في جَسَدك ألاّ تَعْصيه؛ فهذه شرائط الحمد»[1].

فيا أخا الإسلام:

عَظِّم شأن نعمة ربّك عليك، وارضَ بما أعطاك، وإيّاك أن تستخدم نعمه في معصيته، فتكن ممّن قال الله - تعالى - فيهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وليكن لك في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، ففي سيرته من مظاهر الشكر وآيات الحمد لله رب العالمين، ما يثير الدّهشة، وما يسري في القلوب شوقًا ورِقّة...

- كان إذا استيقظ من النوم يقول: «**الحمد لله الذي رَدّ إليّ رُوحي، وعافاني في جَسَدي، وأذِنَ لي بِذِكْرِه**»[2].
- وكان إذا انتهى من الطعام يقول: «**الحمد لله الذي أطْعَمَنا وسقَانا وجَعَلنا مسلمين**»[3].
- وكان إذا لبس ثوبًا جديدًا يقول: «**الحمد لله الذي كَسَاني هذا ورزقني إيّاه من غير حَوْل مني ولا قوّة**»[4].
- وكان إذا عاد من سفر يقول: «**آيِبون**[5]**، تائِبون، عابدون، لِرَبِّنا حامدون**»[6].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

«**التّأني من الله، والعَجَلة من الشيطان، وما أَحَدٌ أكثر مَعَاذير من الله، وما شيء أحَبّ**

---

(١) «تفسير القرطبي» (١/١٣٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٥/٤٧٣).

(٣) رواه أبو داود والترمذي

(٤) أخرجه أهل السُّنن إلاّ النسائي، انظر: «ارواء الغليل» (٧/٤٧).

(٥) آيبون: راجعون.

(٦) رواه البخاري (٧/١٦٣)، ومسلم (٢/٩٨٠).

إلى الله من الْحَمْد»[1].

فأحبّ - أخي الكريم - ما يحبّه ربُّك، واحمده سِرًّا وَجَهْرًا، واهتف مع الإمام الحسن، وقلْ:

«الحمدُ لله، اللهم ربَّنا لك الحمدُ بِمَا خَلَقْتَنا وَرَزَقْتَنا وَهَدَيْتَنا وعَلّمتَنا وأنقذتنا وفرَّجْتَ عنّا.

لك الحمدُ بالإسْلام والقرآن.

ولك الحمد بالأهْلِ والمال والمعافاة.

كَبَتَّ عَدُوَّنا، وبسطتَ رزقنا، وأظْهَرْتَ أَمْنَنَا، وجمعتَ فُرْقَتَنا، وأَحْسَنْتَ معافاتنا، وَمِن كلّ ما سألناك ربَّنا أَعْطَيتنا، فلك الحمدُ على ذلك حَمْدًا كثيرًا، ولك الحمد بكلّ نعمة أنعمتَ بها علينا في قديمٍ أو حديثٍ أو سِرٍّ أو علانية أو خاصّةٍ أو عَامَّة أَوْ حَيٍّ أَوْ مَيِّتٍ، أو شاهدٍ أو غائبٍ.

لك الحمد حتى تَرْضَى، ولك الحمد إذا رَضِيتَ»[2].



(١) رواه أبو يعلى.

(٢) «عدة الصابرين» (١٢٤).

٦٩- التسليم

اعلم - أخي الكريم - أن «التسليم» شارة المؤمنين، وعلامة الموقنين، وتاج الصّالحين، ومنهاج المتقين، وحال العارفين، وصفة العابدين، وطريق الفالحين.

ولا إيمان إلاّ به.

□ قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وهذا التسليم الذي تشير إليه الآية الكريمة، إنما يتحقق - كما في تفسير «المنار» **بثلاثة أمور:**

الأوّل: أن يحكّموا الرسول ﷺ في القضايا التي يختصمون فيها ويشتجرون.

والأمر الثاني: أن تذعن نفوسُهم لقضاء الله - تعالى - ، الذي ينطق به الرسولُ ﷺ فلا يكون عندهم ضيق أو امتعاض.

والأمر الثالث: التسليم والانقياد بالفعل، وما كل من يعتقد حقيّة الحكم، ولا يجد في نفسه ضيقًا منه، ينقاد له فعلاً، وينفذه طوعًا.

وقال العلامة/ **محمد الأمين الشنقيطي** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«أقسم - تعالى - في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يحكّم رسوله ﷺ في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا ويسلمه تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وبيَّن في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلّي، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لما حكم به ﷺ، وهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾(الآية) [النور: ٥١]»ا.هـ[1].

---

(١) «أضواء البيان» (١/٢٠٥).

وقال الإمام **الفخر الرازي** - رحمه الله - في تفسيرها:

«اعلم أن قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط.

الشرط الأوّل: قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وهذا يدلّ على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمنًا.

الشرط الثاني: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ قال الزجاج: لا تضيق صدورهم من أقضيتك.

واعلم أن الراضي بحكم الرسول ﷺ قد يكون راضيًا به في الظاهر دون القلب، فبيَّن في هذه الآية أنه لابد من حصول الرّضا به في القلب. أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر، فليس المراد من الآية ذلك، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول ﷺ هو الحق والصّدق.

الشرط الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقًّا وصدقًا قد يتمرّد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقّف في ذلك القبول، فبين تعالى أنه كما لابد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب، فلابد أيضًا من التسليم معه في الظّاهر، فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ المراد به الانقياد في الباطن، وقوله تعالى: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ المراد منه الانقياد في الظاهر، والله أعلم» ا.هـ[1].

- وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الإمام **الشوكاني** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

(١) «مفاتيح الغيب» (٩/٢٩٢، ٢٩٣) باختصار.

«ومعنى الآية: أنه لا يحلّ لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرًا أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له، وجمع الضميرين في قوله: ﴿ لَهُمُ ﴾ و ﴿ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ لأن مؤمن ومؤمنة وقعا في سياق النفي فهما يعمّان كل مؤمن ومؤمنة، و﴿ ٱلۡخِيَرَةُ ﴾ مصدر بمعنى الاختيار.

ثم توعّد - سبحانه - من لم يُذْعن لقضاء الله وقدره فقال: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في أمر من الأمور، ومن ذلك: عدم الرضا بالقضاء، ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ أي: ضل عن طريق الحق ضلالاً ظاهرًا واضحًا لا يخفى»ا.هـ[1].

وهذا التسليم: هو طريق النجاة، وحبل الإنقاذ:

- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال الإمام **الشوكاني** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: يفوّض إليه أمره، ويخلص له عبادته، ويُقبل عليه بكلّيته ﴿ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ في أعماله، لأن العبادة من غير إحسان لها ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين، وقد صحّ عن الصّادق المصدوق لمّا سأله جبريلُ عن الإحسان أنه قال له: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ ﴾ أي: اعتصم بالعهد الأوثق وتعلّق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل، فتمسّك بأوثق عرى حبل مُتَدلٍّ منه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ أي: مصيرها إليه لا إلى غيره»ا.هـ[2].

---

(١) «فتح القدير» (٤/٢٨٣) باختصار.

(٢) «فتح القدير» (٤/٢٤٢).

أخي الكريم:

ولمكانة «التسليم» من الدين، فالحديث على السطور التالية يدور حول **ثلاثة أمور:**

الأول: تعريف التسليم:

والثاني: أنواعه.

والثالث: مواقف إيمانية من حياة أهل التسليم.

وعلى الله قصد السبيل.

أولاً: تعريف التسليم:

مادة «سلم» فيها معنى الخلوص، والأمان، والنجاة، والخلوّ من العوارض والموانع.

والقلب السليم: هو الخالي من دغل الشرك والذنوب، ومنه قوله تعالى في «سورة الصافات» عن إبراهيم الخليل - عليه السلام - :

﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤].

والتسليم: هو الانقياد والإذعان. ولفظ الإسلام يدل على الانقياد، وعلى الإخلاص، وعلى الدخول في دين الإسلام.

والتسليم: فضيلة أخلاقية، تدلّ على الخضوع لله، والتوكل عليه، وتسليم الزّمام إليه.

وينهض التسليم لله على **ثلاث دعائم:**

الأولى: تسليم الغيب لله، وعدم تحكيم العقل في كل الأمور، فالعقل يعجز أمام الكثير من هذه الأمور. وقد قيل: «كل ما هو فوق قدرة العقل موجود».

والثانية: الإذعان لتصرّف الله في الخلق وفي حظوظ الناس.

والثالثة: الإقدام على جلائل الأمور، لا يخاف اقتحام المخاطر والأهوال، لأن قوة تسليمه تحميه من خطرها.

ومن خلال ما تقدم: فإن رفض الإسلام، ورَدّ أحكامه، ومحاولة ترحيله عن الأرض،

كفر بلا ريب، وإن ادّعى فاعل ذلك أنه مسلم.

- قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨- ١٠].

وكراهية حكم الله ورسوله يحبط الأعمال، ومن شعار أهل النار.

- قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٨، ٩].
- وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣].
- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

فكن - **أخا الإسلام**- على حذر ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

ثانيا: أنواع التسليم:

التسليم **نوعان:**

تسليم لِحُكْم الله الدِّيني الأَمْري، وتسليم لِحُكْمه الكَوْني القَدَري.

فأمّا الأوّل: فهو تسليم المؤمنين العارفين؛ قال تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصَّدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

وقد تقدَّم قريبًا أقوال السادة العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة.

وأما التسليم للحكم الكوني:

فَمَزَلَّة أقْدَام، ومَضَلَّة أفهام، حَيَّر الأنام، وأوْقَع في الخصام، وهي مسألة الرِّضا بالقضاء.

والتسّليم للقضاء يُحْمد إذا لم يُؤمر العبد بمنازعته ودَفْعه، ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قُدرة له على دفعها.

وأمّا الأحكام التي أُمر بدفعها: فلا يجوز له التسليم إليها، بل العبودية: مدافعتها بأحكام أُخَر، أحبَّ إلى الله منها[1].

قال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله - في وصف المقرّبين:

«ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخالف تدبيره - تعالى - واختياره، بل قد سلّموا إليه - سبحانه - التدبير كله، فلا يزاحم تدبيرهم تدبيره ولا اختيارهم اختياره، لتيقّنهم أنه الملك القاهر القابض على نواصي الخلق المتولي لتدبير أمر العالم كلّه، وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم في أفعاله الذي لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة، فلم يدخلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بِلَوْ كان كذا وكذا، ولا بعسى ولعلّ، ولا بلَيْتَ، بل ربّهم أجلّ وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخّطوا تدبيره، أو يتمنّوا سواه، وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن يتهموه في تدبيره أو يظنوا به الإخلال بمقتضى حكمته وعدله؛ بل هو ناظر بعين قلبه إلى بارئ الأشياء وفاطرها، ناظر إلى إتقان صنعه، مشاهد لحكمته فيه وإن لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم.

قال بعض السلف: «لو قُرض جسمي بالمقاريض[2] أحبّ إليّ من أن أقول لشيء

---

(١) «مدارج السالكين».

(٢) المقاريض: جمع مقراض، وهو ما يقرض به الثوب أو غيره كالمقصّ.

قضاه الله: ليته لم يقضه».

وقال آخر: «أذنبتُ ذنبًا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة» - وكان قد اجتهد في العبادة - قيل له:

ما هو؟

قال: «قلتُ مرّةً لشيء كان: ليته لم يكن!».

وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها، لأنها صنعه وأثر حكمته، وهو سبحانه أحسن كلَّ شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو أحكم الحاكمين، وأحسن الخالقين، له في كل شيء حكمة بالغة، وفي كل مصنوع صنع متقن، والرجل إذا عاب صنعة رجل آخر وذمّها سرى ذاك إلى صانعها، فمن عاب صنعة الرّب - سبحانه - بلا إذنه سري ذلك إلى الصّانع، لأنه كذلك صنعها عن حكمته أظهرها، إذ كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صنع لها في خلقها.

والعارف لا يعيب إلاّ ما عابه الله، ولا يذمّ إلاّ ما ذمّه، وإذا سبق إلى قلبه ولسانه عيب ما لم يعبه الله، وذم ما لم يذمّه الله تاب إلى الله منه كما يتوب صاحب الذّنب من ذنبه فإنه يستحيي من الله أن يكون في داره وهو يعيب آلات تلك الدّار وما فيها، فهو يرى نفسه بمنزلة رجل دخل إلى دار ملك من الملوك ورأى فيها من الآلات والبناء والترتيب، فأقبل يعيب منها بعضها ويذمّه ويقول: لو كان كذا بدلَ كذا لكان خيرًا، ولو كان هذا مكان هذا لكان أَوْلى، وشاهد الْمَلك يولّي ويعزل ويحرم وَيُعْطي فجعل يقول: لو ولى هذا مكان فلان كان خيرًا، ولو عزل هذا المتولي لكان أَوْلى، ولو عُوفي هذا... ولو أغنى هذا... فكيف يكون مقت الملِك لهذا المعترض وإخراجه له من قربه؟

وكذلك لو أضافه صاحبٌ له فقدّم إليه طعامًا فجعل يعيب صفته ويذمّه، أكان ذلك يهون على صاحب الطعام؟

قالت عائشة - رضي الله عنها - «ما عَابَ رَسُول اللهِ ﷺ طعامًا قطّ، إن اشتهى شيئًا أكَلَه وإلاّ تَرَكَه»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٨٧).

والمقصود: أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار، بل همّهم كلّه في إقامة حقّه عليهم، وأمّا التدبير العام والخاص فقد سلّموه لولي الأمر كلّه ومالكه الفعّال لما يريد.

ولعلك تقول: من ذا الذي ينازع الله في تدبيره؟

فانظر إلى نفسك - في عجزها وضعفها وجهلها - كيف هي عرضة للمنازعة، منازعة جاهل عاجز ضعيف لو قدر لظهرت منه العجائب، فسبحان من أذّله بعجزه وضعفه وجهله، وأراه العبر في نفسه لو كان ذا بصر:

كيف هو عاجز القدرة، جبّار الإرادة، عبد مربوب، مُدَبَّر مملوك، ليس له من الأمر شيء، وهو مع ذلك ينازع الله ربوبيته وحكمته وتدبيره، لا يرضى بما رضى الله به، ولا يسكن عند مجارى أقداره، بل هو ضعيف مسكين يتعاطى الربوبية، فقير مسكين في مجموع حالاته، ويرى نفسه غنيا، جاهل ظالم ويرى نفسه عارفًا مُحسنًا، فما أجهله بنفسه وبربّه، وما أتركه لحقّه وأشدّ إضاعته لحظّه، ولو أحضر رشده لرأى ناصيته ونواصي الخلائق بيد الله - سبحانه وتعالى - يخفضها ويرفعها كيف يشاء، وقلوبهم بيده - سبحانه - وفي قبضته يقلّبها كيف يشاء، يزيغ منها من يشاء، ويقيم من يشاء، ولكان هذا غالبًا على شهود قلبه فيغيب به عن مشيئاته وإرادته واختياره، ولعرف أن التدبير والركون إلى حول العبد وقوّته من الجهل بنفسه وبربّه، فينفي العلمُ بالله الجهلَ عن قلبه، فتمحى منه الإرادات والمشيئات والتدبيرات، ويفوّضها إلى مالك القلوب والنواصي، فيصير بذلك عبدًا لربّه، تُقَلّبه يَدُ القدرة، ويصيرُ ابْن وَقْته لا ينتظر وقتًا آخر يدبّر نفسه فيه، لأن ذلك الوقت بيد موقّته، فيرى نفسه بمنزلة الميت في قبره ينتظر ما يفعل به، مستسلم لله منقطع المشيئة والاختيار.

هذا ما يجرى على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني، فإذا جاء الأمر جاءت الإرادة والاختيار والجدّ والسّعي واستفراغ الفكر وبذل الجهد، فهو قويّ حيّ فعّال يشاهد عبودية مولاه في أمره، فهو متحرّك فيها بظاهره وباطنه، قد أخرج مقدوره من القوّة إلى الفعل، وهو مع ذلك مستعين بربّه، قائم بحوله وقوّته، ملاحظ لضعفه وعجزه

قد تحقق بمعنى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فهو ناظر بقلبه إلى مولاه الذي حرّكه، مستعين به في أن يوفّقه لما يحبّه ويرضاه، عَيْنُه في كل لحظة شاخصة إلى حقّه المتوجّب عليه لربّه ليؤديه في وقته على أكمل أحواله، فإذا وردت عليهم أقداره التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية، وهم فيها على **مراتب ثلاث**:

أحدها: الرّضا عنه فيها، والمزيد من حُبّه، والشوق إليه، وهذا نشأ من مشاهدتهم للطفه فيها وبرّه وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونَصْبها سببًا لمصالحهم، وشوقهم بها إلى حُبّه ورضوانه، ولهم من ذلك مشاهد أُخر لا تسعها العبارة وهي فتح من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله.

المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره على النّعم وهذا فوق الرّضا عنه بها ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن.

والثالثة: للمقتصدين وهي مرتبة الصَّبر التي إذا نزل منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته من التسخّط والتشكّي، واستبطاء الفرج، واليأس من الرَّوْح والجزع الذي لا يفيد إلاّ فوات الأجر وتضاعف المصيبة» ا.هـ[1].

وصفوة القول: أن «التسليم» من أجلّ مقامات الإيمان، وأعلى طُرق الخاصة.

ثالثًا: مواقف إيمانية من حياة أهل التَّسْليم:

وهذه مواقف من حياة النبيين والصالحين تدلّ على كمال تسليمهم، ورضاهم التّام عن ربّهم، عسانا أن نَحْذُو حَذْوَهم، ونقتفي آثارهم.

١ - تَسْلِيمُ إبْراهيم وإسْمَاعيل - عليهما السّلام - :

وأكمل التسليم: تسليمُ الخليل وولده إسماعيل - عليهما السلام - قال تعالى - مُثنيا على خليله إبراهيم - :

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٣٥-٢٣٧).

﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤]، سليم ممّا سوى الله ﷻ... سلّم لربّه كل شيء.. يأمره الله ﷻ بوضع ولده وزوجته في صحراء، لا مكان فيها لقطرة ماء أو طعام أو إنس، فَيُسَلِّم.

ويشبُّ ولدُه النجيب الذي أُعْطيه على الكبير وهو الشيخ الطاعن في السّن، المهاجر من الأهل والقرابة والدار، فيأمره بذبحه بإشارة في المنام، وليس أمرًا صريحًا في اليقظة، فَيُسَلِّم، حتى ولو كان الأمر منامًا، فيكفي أنه من الله لِيُسَلِّم، ويريد إبراهيم أن يذوق ابنهُ جمال التسليم وحلاوة الرّضا، فيقول لابنه:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فماذا يكون من إسماعيل الحليم ابن الخليل؟

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٩].

وهل يُنْبتُ الخطِّيَّ إلا وشيجُه ويُزْرَعُ إلاَّ في مَنَابته النَّخْلُ

وَيَبْقى هذا الحادث الوحيد الفريد منارةً للتسليم وجماله، والرّضا ومذاقه الطّيب، استحق به إبراهيمُ وولدُه سلام الله ﷻ، يُرقم في السّجل الخالد، وكتابه المرقوم.

(٢) تسليم أصحاب النبي ﷺ:

وهؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ، تقبل عليهم الأحزاب بخيلها ورجلها، وعدوانها وطغيانها، فلا يزدادون إلاّ إيمانًا وإقبالاً على الله وتسليمًا له، فأثنى الله عليهم، وامتدحهم قائلاً – جلّ جلالهُ – :

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهكذا يتجلّى الإيمان في ساعة العُسرة.

(٣) تسليم: «ماهان الحنفي»:

إذا استقرّت جبال المحبّة في أرض القلوب، لم تزعزعْها عواصف الْبلَى!

قال إبراهيم - مؤذّن بني حنيفة: «أمر الحجّاج - الثقفي - بماهان[1] أن يُصلب على بابه، فرأيتُه حين رُفع على خشبته يسبّح ويهلّل ويكبّر، ويعقد بيده[2] حتى بلغ تسعًا وعشرين. قال:

فطعنه الرجلُ على تلك الحال. قال: فلقد رأيتُه بعد شهر مَعقُودًا بيده تسعة وعشرين. قال: كُنّا نرى عنده الضّوء بالليل شِبْه السِّراج!»[3].

لتحشـرنّ عِظـامي بعـد مـا بليـتْ ... يـوم الحسـاب وفـيها حُـبّكم عَلِـق

قال أبو إسحاق الشيباني: «دنوت من «ماهان» لمّا أراد أن يُصلب فقال:

تَنحَّ يا ابْنَ أخي لا تسأل عن هذا المقام!».

هذه لقطات من حياة أهل التسليم ذكرناها لتتوق النفوسُ إليها، وتهتدي بهداها.

فيا أخا الإسلام:

دَعِ الأيـامَ تفعـلُ مـا تشـاءُ ... وَطِـبْ نَفْسًـا إذا حَكَـم القَضـاءُ

ولا تجـزعْ لحادِثـةِ اللّيـالي ... فَمَـا لحَـوادثِ الـدُّنيا بقـاءُ

وكـن رَجُـلاً عـلى الأهـوال جَلْدًا ... وشِـيمَتُك السَّـمَاحَةُ والوفَـاءُ

«اللّهم إنا نسألك نَفْسًا مطمئنة، تَرْضَى بقضائك، وتَقْنَعُ بِعَطَائك، وتُوقِنُ بِلِقَائِك».

۞۞۞۞۞

---

(١) اسمه «عبد الرحمن بن قيس» أخو طليق.

(٢) أي: يعقد التسبيح بيده.

(٣) «صفة الصفوة» (٣/٤٧).

٧٠ - الصبرّ

إذا ترادفت الضوائق وطال ليلُها، وتتابعت الأزمات وتعقّدت حبالُها، وأقبلت الهموم وانفرط عِقْدُها، وهُرِعَت الابتلاءات واشتدّ ظلامُها، فإن «الصّبر» يشع للمسلم النورَ العاصم الذي يقيه من التردّي إلى ظلمات اليأس والقنوط.

قال ﷺ: «**الصَّبْرُ ضِياء**»(١).

وقال **عليّ بن أبي طالب** ﷺ: «الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو».

وقال **عمرُ بن الخطاب** ﷺ: «وَجَدْنا خَيْرَ عَيْشِنا الصَّبْرَ».

ولأهمية هذا الخُلُق في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالحديث عنه يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: تعريف الصَّبر.

والثاني: مراتب الصّبر.

والثالث: أنواع الصّبر.

والرابع: ثمار الصبر.

والله الموفّق لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أوّلاً: تعريفُ الصَّبْر:

الصَّبْر «**لغة**»: مصدرُ صبر يصبر وهو مأخوذ من مادة (ص ب ر) التي تدلّ بحسب وضع اللّغة على معانٍ ثلاثة:

الأوّل: الحبس.

والثاني: أعالي الشيء.

(١) رواه مسلم.

والثالث: جنسٌ من الحجارة.

وقد اشتقّ الصَّبْرُ المراد – هنا – من المعنى الأوّل وهو الحبس، يقال: صبرتُ نفسي على ذلك الأمر أي حبستُها.

والتصبّر: تكلّف الصّبر.

أمّا الصّبر الجميل في قوله تعالى على لسان يعقوب ﷺ:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨] فالمراد به: الصّبر الذي لا جَزَع فيه ولا شكوى.

من معاني الصَّبْر:

قال **الفيروزآباديُّ**: وَرُبَّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه.

فإن كان حبسُ النّفس لمصيبة سُمّى صبرًا.

وإن كان في محاربة سُمّى شجاعة.

وإن كان في إمساك الكلام سُمّى كتمانًا.

وإن كان عن فضول عيش سُمّى زُهدًا.

وإن كان عن شهوة الفَرْج سُمّى عفّة.

وإن كان عن شهوة طعام سُمّى شرف نفس.

وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمّى حِلْمًا[١].

قال الإمام **ابن القيم**: «والاسم الجامع لذلك كلّه «الصَّبْر» وهذا يدلّك على ارتباط مقامات الدين كلّها بالصّبر»ا.هـ[٢].

قلت: ومن أسماء الله – تعالى – : «**الصّبور**». قال الإمام **الغزالي** – رحمه الله:

«الصّبور هو الذي لا تحملُهُ العَجَلَةُ على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل

---

(١) «بصائر ذوي التمييز»(٣/٣٨٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/١٦٥).

الأمور بِقَدَر معلوم وَيُجْريها على سَنَنٍ محدود، لا يؤخّرها عن آجالها المقدّرة لها، ولا يُقَدّمها على أوقاتها، بل يودعُ كُلّ شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي» ا.هـ(١).

و «اصطلاحًا» قال **الراغب**:

«حبس النّفس على ما يقتضيه العقلُ والشّرعُ أو عمّا يقتضيان حبسها عنه».

وقيل: هو حبسُ النّفس عن الجَزَع والتّسخُّط، وحبس اللّسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التّشْويش.

وقيل: هو تركُ الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلاّ الله؛ لأن الله – تعالى – أثنى على أيّوب – الطَّيْلا – بالصّبر بقوله:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] مع دعائه في دفع الضُّر عنه بقوله: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فَعُلِمَ أنّ العبدَ إذا دعا الله تعالى في كشف الضُّرّ عنه لا يَقْدح في صبره.

وقيل: هو خُلُقٌ فاضل من أخلاق النّفس يمتنع به من فعل ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ، وهو قوّةٌ من قوى النّفس التي بها صلاحُ شأنِها وقوامُ أمْرِها.

وقيل: هو الثبات على أحكام الكتاب والسّنّة.

وقيل: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل: هو الثبات مع الله، وتلقّي بلائه بالرُّحْبِ والسَّعَة.

وقيل: هو ثبات القلب عند موارد الاضطراب.

ثانيا: مَرَاتب الصَّبْر:

قال **الفيروزآباديّ**:

---

(١) «المقصد الأسنى» للإمام الغزالي (١٤٩).

«مراتب الصّبر خمسة: صابرٌ، ومصطبرٌ، ومتصبّر، وصبور، وصبّار.

فالصّابر: أعمّها.

والمصطبر: المكتسبُ للصَّبر، المبتلى به.

والمتصبّر: متكلّف الصَّبْر حامل نفسه عليه.

والصّبور: العظيم الصّبر الذي صبرُه أشدُّ من صبر غيره.

والصبّار: الشديد الصّبر فهذا في القَدْر والكَمّ والذي قبله في الوصف والكيف» ا.هـ[1].

ثالثًا: أنوع الصبر:

الصّبر ثلاثة أنواع:

الأول: صَبْرٌ على الطّاعة:

فأداء الطاعات، والمسارعة في الخيرات، والنهوض إلى عمل القربات، يحتاج إلى جهاد نفس طويل:

- قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢].
- وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].
- وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].
- وقال تعالى: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].
- وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ﴾ [مريم: ٦٥].

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/٣٧٨).

□ وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

فالنهوض إلى الصّلاة عند سماع النداء يحتاج إلى صبر.

والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يحتاج إلى صبر.

ومجاهدة الكافرين والمنافقين والشياطين، كل ذلك يحتاج إلى صبر.

ومجاهدة النفس وحملها على الطّاعة يحتاج إلى صبر.

وبالجملة: فأفضل الأعمال وأحبّها إلى الله تعالى ما أُكرهت عليها النفوس.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

هذا، ومن أقوى الأسباب الدافعة إلى طاعة الله:

١- **الإيمان والمحبّة:** فكلّما قوى داعي الإيمان والمحبّة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

٢- **معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة:** وهذا مقام يطول استقصاؤه.

النوع الثاني: الصبر عن المعصية:

والصّبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: عِلْمُ العبد بِقُبْحِها ورذالتها ودناءَتها، وأن الله إنما حرّمها ونهى عنها صيانة وحماية

عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عمّا يضرّه. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه: فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه، وأنه بِمَرْأى منه ومَسْمع - وكان «حيًّا»، حَيِيًّا - استحيى من ربّه أن يتعرّض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه عليك: فإن الذنوب تزيلُ النّعم ولابدّ، فما أذنب عبدٌ ذنبًا إلاّ زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذّنب، فإن تاب ورجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصرّ لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلم النّعم كلها، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وأعظم النّعم: الإيمان، وذنب الزّنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النّهبة يزيلها ويسلبها.

قال ﷺ: «**لا يَزْني الزّاني حين يَزْني وهو مؤمن، ولا يَسْرقُ السّارِقُ حين يَسرق وهو مؤمن...**» الحديث(١).

قال الإمام **ابن تيمية** - رحمه الله - :

«من أتى الكبائر مثل الزّنى أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك، فلابد أن يذهب ما في قلبه من الخشية والخشوع والنور، وإن بقى أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة» ا.هـ(٢).

وقال بعضُ السّلف: أذنبتُ ذَنبًا فحرمتُ قيام الليل سنة.

وقال آخر: أذنبتُ ذنبًا فحرمتُ فهم القرآن.

وفي مثل هذا قيل:

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) «كتاب الإيمان» (٢٣).

إذا كنت في نِعْمة فارْعها فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة: فإن المعاصي نارُ النّعم تأكلها كما تأكل النارُ الحطب، عياذًا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

السبب الرابع: خَوْفُ الله وخشية عقابه: وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يُقَوَّي بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال بعض السلف: «كفى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلاً».

السبب الخامس: محبّة الله – سبحانه – : وهي من أقوى الأسباب في الصّبر عن مخالفته ومعاصيه. فإن المحبّ لمن يحب مطيع، وكلّما قَوِيَ سلطان المحبّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى، وإنّما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبّة وسلطانها، وَفَرْقٌ بين من يحمله على ترك معصية سيّده خوفُهُ من سَوْطه وعقوبته، وبين من يحمله على ذلك حُبُّه لِسَيِّده.

فالمحبّ الصّادق، عليه رقيبٌ من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبّة هذا الرقيب ودوامه.

وههنا لطيفة يجب التّنبه لها:

وهي أن المحبّة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلاّ بالمحبّة الخالية عنهما إنما توجب نوع أُنْس وانبساط وتذكّر واشتياق، ولهذا يتخلّف عنها أثرها وموجبها، ويفتش العبد قلبه فيرى فيه نوع محبّة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرّدها عن الإجلال والتعظيم، فما عمر القلب شيء كالمحبّة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السبب السادس: شرف النّفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطّها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقرها، وتسوّى بينها وبين السّفلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وَقُبْح أثرها والضرّر الناشئ منها: من سواد الوجه، وظلمة القلب، ومرضه الذي استحكم به فهو الموت ولابدّ، فإن الذنوب تميتُ القلوب.

ومنها: ذله بعد عزّه.

ومنها: أن يصير أسيرًا في يد أعدائه بعد أن كان ملكًا متصرّفًا يخافه أعداؤه.

ومنها: زوال أمْنه وتَبدّله به مخافة، فأخوف الناس أشدّهم إساءة.

ومنها: زوال الأُنس والاستبدال به وحشة، وكلّما ازداد إساءة ازداد وحشة.

ومنها: زوال الرّضى واستبداله بالسّخط.

ومنها: زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه والإيواء عنده واستبدال الطّرد والبعد منه.

ومنها: وقوعه في بئر الحسرات.

ومنها: نقصان رزقه، فإن العبد يُحرم الرزق بالذنب يُصيبه[1].

ومنها: ضعف بدنه.

ومنها: زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطّاعة فتبدّل بها مهانة وحقارة.

ومنها: حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس.

ومنها: الطّبع والرّين على قلبه.

ومنها: أنه يُحرم حلاوة الطاعة.

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه.

---

(١) قال ﷺ: «وإن العبدَ لَيُحْرَمُ الرّزق بالذّنب يُصيبه» رواه ابن ماجه (٤٠٢٢)، والحاكم، وصحّحه، وانظر: «الصحيحة» (١٥٤).

ومنها: أن الذّنب يستدعي ذنبًا آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعًا، وَهَلم جرًّا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته.

قال بعض السّلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السّيئة بعدها.

ومنها: خروجه من حصن الله.

ومنها: أنه بالمعصية قد تعرّض لمحق بركته.

وبالجملة: فآثار المعصية القبيحة أكثر من يحيط بها العبد علمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علمًا فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشرّ الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته.

السبب الثامن: **قصر الأمل**، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع الخروج منها[1]، أو كراكب قال[2] في ظِلّ شجرة ثم سار وتركها. فهو لعلمه بقلّة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضرّه ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضرّ من التسويف وطول الأمل.

السبب التاسع: **مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس**، فإن قوّة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات، فإنها تطلب لها مصرفًا فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام.

ومن أعظم الأشياء ضررًا على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضرّه ولابد.

السبب العاشر: **وهو الجامع لهذه الأسباب كلّها**: ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر

(١) أزمع الأمر، وبه، وعليه: عزم عليه وثبت وجدّ في مضائه.

(٢) قال: من القيلولة: وهي نومة النهار للاستجمام.

العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصّبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الليل عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرّم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، وامتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم.

ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوى سراجُ الإيمان في القلب، وأضاءت جهاته كلّها به، وأشرق نوره في أرجائه، سرى ذلك النور إلى الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعة مُذَلّلة غير متثاقلة ولا كارهة بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه الْمُحْسِنِ إليه إلى مَحَلّ كرامته. فهو كل وقت يترقّب داعيه، ويتأهّب لموافاته. واللّهُ يختصّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1].

هذا، واعلم أن اجتناب المعاصي: من أسباب غفران الذنوب، ونيل المطلوب.

قال **عمر بن الخطاب** ﷺ: إن الذين يشتهون المعاصي ثم لا يأتونها:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣].

النوع الثالث: الصَّبْرُ على البلاء:

والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها:

فالله – تعالى – أعطى الصّابرين على البلاء ثوابًا عظيمًا وأجرًا جزيلاً:

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» للإمام ابن القيم (٢٩٣– ٢٩٧) باختصار وإضافة.

ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧]. وسيأتي بعد قليل المزيد.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومَحْوها لها:

- فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« ما يزالُ البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يَلْقى الله وما عليه خطيئةٌ »(١).

- وعن أنس بن مالك ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« إذا ابْتَلى اللّهُ ﷻ العبدَ الْمُسْلِم ببلاء في جَسَده، قال اللّهُ ﷻ لِلْمَلَك اكْتُبْ له صَالِح عَمَله الذي كان يعملُ، وإن شفاه غَسَلَه وَطَهَّرَه، وإن قَبَضَه غَفَر له وَرَحِمَهُ »(٢).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي بعضها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

الثالث: شهود القَدَر السّابق الجاري لها، وأنها مقدّرة في أمّ الكتاب قبل أن يخلق فلابدّ منها، فجزعه لا يزيده إلاّ بلاءً.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« كتب اللّهُ مقادير الخلائق قبل أن يَخْلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة »(٣).

فإذا كان كذلك؛ فليعلم العاقل: أن كلّ ما قدّره الله تعالى فلا سبيل إلى تخلّفه قطعًا.

قال الإمام **ابن الجوزي** - رحمه الله -:

---

(١) **صحيح:** رواه الترمذي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٥٨١٥).

(٢) **حسن:** رواه أحمد، وانظر: « صحيح الجامع » (٢٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣).

«مَنْ عَلِم أن ما قُضي لابدّ أن يصيبه: قلّ حُزْنُه».

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصّبر بلا خلاف بين الأُمّة، أو الصَّبر والرِّضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلابد له منه وإلاّ تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتّبها عليه بِذَنْبه، كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

قال **عليّ بن أبي طالب** رضي الله عنه:

«ما نزل بلاءٌ إلاّ بذنب، ولا رُفع بلاءٌ إلاّ بتوبة».

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختاره وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضى له به سيّده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقّه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصّبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظّلم وتعدّى الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرّعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصّحة وزوال الألم ما لم يحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وَحُسْن تأثيره. قال تعالى:

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

وفي مثل هذا القائل:

لعلّ عتبك محمود عواقبه   وربما صحّت الأجْسَام بالْعِلَل

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذٍ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثَبَتَ اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الإكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه[1] طُرد وأُقصي وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقّه صارت مصائب، كما يعلم الصّابر أن المصيبة في حقّه صارت نعمًا عديدة.

العاشر: أن يعلم أن الله – تعالى – يربي عبده السّراء والضّراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأمّا عبد السّراء والعافية الذي يَعْبُد الله على حَرْف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محلّ الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأمّا إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلّغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية.

فالابتلاء كِير[2] العبد وَمَحَكُّ إيمانه: فإما أن يخرج تِبْرًا أحمر[3]، وإمّا أن يخرج زغلاً مَحْضًا[4]، وإمّا أن يخرج فيه مادتان: ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاءُ حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهبًا خالصًا، فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست دُونَ نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه، «**اللّهم أعني على ذِكْرِك، وشكرك، وحُسْن عبادتك**» ، وكيف لا يشكر من قيّض له ما يستخرج خبثه ونحاسه

(١) نكص على عقبيه: رجع عمّا كان قد اعتزمه وأحجم عنه.

(٢) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحدّاد وغيره للنفخ في النار لإشعالها.

(٣) التبر: فتات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا، والتبر الأحمر: الذهب.

(٤) الزغل: المغشوش.

وصَيَّره تِبْرًا خالِصًا يصلح لمجاورته، والنَّظر إليه في داره؟[١].

الحادي عشر: أن يعلم العاقل أن الإنسان ما دام في هذه الدار، فهو معرّض للبلايا، والرّزايا، والأمراض، والأسقام، وأنه كالهدف الذي يُرمى بالسّهام.

ولينظر إلى قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

أي: في شدّة ونصب.

قال الإمام **الحسن** – رحمه الله – :

« يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة ».

وعنه – أيضًا – : « يكابد الشكر على السّراء، ويكابد الصَّبْر على الضرّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما ».

الثاني عشر: أن يعلم العاقل أن هذه الدار دار كَدَر، لا راحة فيهاَ للمؤمن: إن أضحكت اليوم: أبكت غدًا، وإن أسرّت: أعقب السرور داء؛ وإن أضحكت قليلاً: أبكت كثيرًا، وإن سرّت يومًا: ساءت دهرًا.

قال **ابن مسعود** – ﷺ – : « لكل فرحة ترحة[٢]، وما مُلِئ بيت فرحًا إلا مُلِئ تَرَحًا »[٣].

ولمّا علم العاقلون أن هذه الدنيا بهذه المثابة: استراحوا؛ فلم يفرحوا بما آتاهم، ولا حزنوا على ما فاتهم وناحوا.

وأصبح قائلهم يقول:

وما استغربت عيني فراقًا رأيتُهُ ... ولا علمتني غير ما أنا عالمه

---

(١) « طريق الهجرتين » (٢٩٩، ٣٠٠) مع حذف وإضافة.

(٢) التَّرحَ: ضد الفرح، وهو الهلاك والانقطاع أيضًا.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الاعتبار ».

الثالث عشر: أن يتذكّر المصاب ما يعقب مصيبته من الثواب:

فإن لذّة الثواب! تُنسي ألم العقاب..

كما حُكي: أن بعض الصالحات: عثرت، فانقطع ظفرُها، فبكت ثم ضحكت.

فقيل لها: سبحان الله!! أتجمعين بين البكاء والضّحك في مقام واحد؟

فقالت: أمّا بكائي: فلشدّة ما وجدتُ من الألم. وأمّا ضحكي: فلأجل ما تذكرتُه من لذّة الثواب.

الرابع عشر: أن يعلم العاقل أن الجزع لا يفيد شيئًا، بل يشمت عدوّه، ويسوء صديقه، ويغضب ربّه، ويسرّ شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه.

قال **عمر بن الخطاب** ﷺ: «إن صبرتَ: مَضَى أَمْرُ الله، وأنتَ مأجورٌ، وإن جزعتَ: جَرَى أَمْرُ الله، وأنتَ مأزور».

فيا أيها المصاب:

إذا بليـــــتَ بالكُـــــره فكـــن بالصّـــبر لَـــوَّاذَا
وإلاّ ذهـــبَ الأجْـــرُ فـــلا هَـــذَا ولا هَـــذَا

الخامس عشر: أن يتذكّر العاقل المصاب، ما ورد في الحديث الصّحيح:

«إن لِلّه ما أخَذَ وما أعْطَى، وكُلّ شيء عنده إلى أجَلٍ مُسَمّى»(١).

وإن أموالنا وأولادنا؛ إنما هي عندنا ودائع، ولابدّ لصاحب الوديعة أن يأخذها من الدّهر.

ومـــا المـــال والأهْلُـــون إلا وديعـــة ولابـــدّ يومًـــا أن تُـــرَدّ الودائـــع

السادس عشر: أن العاقل يتسلّى بمصيبته بالنبي ﷺ عن كُلّ مصيبة:

روى الطبراني عن عبد الرحمن بن سابط، عن أبيه، قال:

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٥ - فتح)، ومسلم (٩٢٣).

قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ أُصيب بمصيبة، فَلْيَذْكُر مُصِيبَته بي؛ فإنها أعظم المصائب».

فيا أيّها المصاب:

اصْبِرْ لكلّ مُصيبة وتجلّد واعلم بأن الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلّد
وإذا ذكرتَ مُفارقًا ومُصَابه فاذكرْ مُصَابَك بالنّبي مُحَمّد

السابع عشر: وهو من أعظم ما يورث التسلّي، ويذهب الأسى:

تذكر ما وقع للخلق من ذلك، فقلّ أحد؛ إلاّ وقد سلك به هذه المسالك.

ولولا الأَسَى ما عشتُ في النّاس ساعة
ولكن متى نادَيْتُ جاوَبَني مِثْلي

ولينظر المصاب يمنة: فهل يرى إلاّ محنة.

ثم ليعطف يُسْرة: فهل يرى إلاّ حسرة.

وأنه لو فتّش العالم، لم يَرَ فيهم إلاّ مُبْتَلى: إمّا بفوات محبوب، أو حصول مكروه.

فالعاقل يَتَسَلّى بِغَيْره.

وما أحسن قول الخنساء في مثل هذا المقام:

ولولا كَثْرَةُ الباكين حَوْلي على إخوانهم لَقَتَلتُ نَفْسي
وما يكون مثل أخي ولكن أُسَلّي النّفس عنه بالتّأسّي

الثامن عشر: أن يعلم العاقل أن هذه الأيام إنما هي مراحل ومسافات، تقطعها الرواحل، لا بقاء لأحد في هذه الدار، وإن طالت به مدّة الأعمار.

وما هذه الأيام إلاّ مراحل يحث بها حَادٍ من الموت قاصد
وأعجبت شيءٍ لو تأملْتَ أنها منازل تُطْوى والمسافِر قاعد

التاسع عشر: أن يعلم العاقل، أنه ما من مصيبة إلاّ وفوقها أعظم منها، فليحمد الله

المصاب، حيث دفع عنه ما هو أشق وآلم.

وما دفع الله كان أعظم.

فعن الشُّعبي، أن شُرَيْحًا قال:

إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرّات:

أحمد: إذ لم يكن أعظم منها.

وأحمد: إذ رزقني الصّبر عليها.

وأحمد: إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب.

وأحمد: إذ لم يجعلها في ديني.

حكاية:

حَكى **ابن الجوزي** - رحمه الله - في «التبصرة»:

أنه جاء رجلٌ إلى بعض السّلف وهو يأكل طعامًا، فقال له: مات أخوك.

فقال: قد علمتُ، اجلس فكل.

فقلتُ: ما سبقني غيري فمن أعلمك؟

قال: قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

حكاية ثانية:

مات ولدٌ لإبراهيم الحربي - وكان قد قَرَأ وَتَفقّه - فلمّا عُزى فيه قال:

كنتُ أُحب موته!!

فقيل له: و لم؟

قال: رأيتُ في المنام: القيامة قد قامت، والناس عطاش، وإذا صبيان معهم قلال الماء يتلقون الناس به، فقلت لأحدهم:

اسقني، فقال:

لستَ أبي![1].

حكاية ثالثة:

قال الإمام **ابن الجوزي** - رحمه الله - :

«قال بعض السّلف: رأيتُ في بعض الجبال شابًا، أصفر اللون، غائر العينين، مرتعش الأعضاء، لا يستقر على الأرض، كأنِ به وخز الأسنّة؛ ودموعه تتحادر، فقلتُ له:

من أنت؟

فقال: أَبِقٌ هَرب مِنْ مَوْلاه.

قلتُ: فيعود ويعتذر.

فقال: العذر يحتاج إلى إقامة حجّة؛ فكيف يعتذر المقصّر؟

فقلتُ: يتعلّق بمن يشفع فيه.

فقال: كل الشفعاء يخافون منه.

قلتُ: فمن هو؟

قال: مَوْلَى؛ رَبَّاني صغيرًا؛ فعصيتُه كبيرًا، شَرَط لي فَوَفَّاني، وضَمِنَ لي فأعطاني، فَخُنْتُهُ في ضماني، وعصيتهُ وهو يراني فواحيائي؛ من حُسْن صنعه، وقبيح فِعْلي.

فقلتُ: أين هذا المولى؟

فقال: أين توجّهت لقيت أعوانه، وأين استقرت قدمك ففي داره.

فقلتُ: ارْفُقْ بنفسك، فربّما أَحْرقك هذا الخوف.

فقال: الحريق بنار خوفه: أحق وأَوْلى، لعلّه يرضى.

---

(١) «سلوان المصاب بفرقة الأحباب» للعلامة: مرعى بن يوسف المقدسي الحنبلي (٧٢).

ثم أنشأ يقول:

لم يُبْقِ خوفك لي دَمْعًا ولا جلدًا	**لاشك أني بهذا ميت كمدا**
عَبْد كئيبُ أتى بالعَجْز مُعترفًا	**وناره تحرق الأحشاء والكبدا**
ضاقت مَسَاكنه في الأرض من وَجَل	**فهب له منك لُطفًا إن أتاك غَدَا**

فقلت له: يا غلام: الأمر أسهل مِمّا تظن.

فقال: هذا من فتن الباطلين، هبه تجاوز وعفا، أين آثار الإخلاص والصّفا، ثم صاح صيحة فخرّ ميتًا، فخرجت عجوز من كهف جبل عليها ثيابٌ رثّة.

فقالت: مَنْ أعانَ على البائس الحيران؟

فقلتُ: يا أمة الله، دعوتُه إلى الرّجاء.

فقالت: قد دعوتُه إلى ذلك، فقال: الرّجاء بلا صفاء: شِرْك.

قلتُ: مَنْ أنْتِ منه؟

قالت: والدته.

فقلتُ: أقيم عندك أعينك عليه؟[1].

فقالت: خَلّه ذليلاً بين يَدَى قاتله؛ عَسَاه يراه بغير مُعين فَيَرْحَمه.

فَلَمْ أدْرِ مِمّاذا أعْجَب؛ مِنْ صِدْق الغلام في خوفه، أوْ مِنْ قول العجوز وحُسْن صبرها، وصدقها[2].

فليتأس المصاب بصبر مثل هؤلاء القوم، وليتشبّه بهم، «**فمن تشبه بقوم فهو منهم**»[3].

---

(١) يعني في تجهيزه.

(٢) « سلوان المصاب» (٧٣- ٧٥).

(٣) حسن: رواه أحمد.

رابعًا، ثمارُ الصَّبْر:

للصابرين ثمرات، من هذه الثمرات:

(١) نيل الأجر بلا حدود:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

قال سليمانُ بن القاسم: كلّ عملٍ يُعرف ثوابه إلاّ الصَّبْر، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . قال: «كالماء المنهمر».

(٢) نيلُ مَعِيَّة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والمعيّة على **قسمين:**

مَعِيّة عامة: وهي المعية بالعلم والقدرة، وهذه عامّة في حقّ كلّ أحد.

ومعيّة خاصة: وهي المعيّة بالعون والنّصرة، وهذه خاصّة بالصّابرين ونحوهم، كالمحسنين والمتقين.

(٣) نيل إمامة الدنيا والآخرة:

- قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].
- وقال تعالى: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

(٤) نيلُ صلوات الله - تعالى - ورحمته وهدايته:

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

(٥) سبيلُ النَّصْر على الأعداء:

قال تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

(٦) تكفير السيئات:

وقد تقدّمت أحاديث تدلّ على ذلك. وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال:

«ما يُصيبُ المؤمنَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذَىً، ولا غَمٍّ حتى الشوكةَ يُشاكُها إلاّ كفّر اللّهُ بها من خطاياه».

(٧) طريق الجنة:

قال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الفرقان ٧٥].

أخي المسلم:

هذه بعض ثمار الصبر، وعلى الله قصد السبيل.



٧١ - الشُّكْر

ما أعزر النّعم التي تنهمر على الناس ليلهم ونهارهم من المهد إلى اللّحد، وهي نعم لو قدّروها قدرها، أو أحسنوا استغلالها لملأت قلوبهم بالحمد، وأطلقت ألسنتهم بالثناء.

عن **الحسن**، قال:

قال داود - عليه السلام - «إلهي، لو أن لكلّ شَعْرة مني لسانين يُسَبّحانك اللّيل والنهار ما قَضيا نعْمة من نعمك»[1]

إن شكر الله - تعالى - على أنعمه حَقٌّ، ولكن ما أكثر النّعم وأقلّ الشاكرين!

قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

وعن **الحسن** في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]، قال:

«يُعَدّد المصائب، وينسى النّعَم».

وأنشد محمود الوَرَّاق في ذلك:

يا أيّها الظّالم في فعله ... والظُّلم مَرْدود على من ظَلَم

إلى متى أنت وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النّعم

وفي كلّ طرْفة عَيْن، ونبضة قلب، يتعرّف الله إلى عباده عن طريق ما يمنحهم من بركاته، وينزل عليهم من خيراته.

وهي بركات وخيرات متجدّدة على اختلاف الليل والنهار، فلا غَرْو إذا استقبلها الناسُ بمعرفة من أسداها. وشكره!

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «الزهد» (٦٩)، وغيره.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقد أمر الله – تعالى – الناس أن يشكروه لأن قلّة الشكر خسّة يجب التنزه عنها.

إنك لو أطعمت امرأ شهرًا أو شهرين، أو قضيت عنه دَيْنًا أو دَيْنين، أو رفعته درجة أو درجتين، ثم تَجَهَّم لك بعد هذه الأيادي، وأعرض عنك، لرأيت أن فراغ الحياة من مثله واجب، وأن بقاءه على ظهر الأرض قذى يتحرّك!

فما ظنك بمن خلق من عَدَم، وأطعم وسَتَر، وأَغْدَق وأَمَدّ الأعوام بعد الأعوام؟ عندما يرى عبده قد حاز كل هذه النّعم ثم عادى مُسْديها؟

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤].

إن الله أمر الناس أن يشكروه لأن الكنود نذالة، ولأن الإصرار عليه يجعل حق صاحبه في الحياة الكريمة صفرًا، ولأنه ما يليق بإنسان أن يستقبل فضل مولاه بكرة وأصيلاً ثم يدير له ظهره، ويتولّى عن إجابة أمره.

إن الأمر بالشكر ليس تكليف مشقة يصبر الناس على أدائه، بل هو طريق كمال ينبغي أن يسير الناس فيه بِهمَّة وقُدْرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وماذا على الناس إذ مرحوا في نعمة الله أن يطووا ضمائرهم على عرفان الجميل والاعتراف بالفضل، وأن يقولوا لله المنعم: نشكرك[1].

أخي الكريم:

من أجل هذا، فالحديث – هنا – يدور حول **أربعة أمور:**

(١) «الجانب العاطفي من الإسلام» للشيخ/ محمد الغزالي (٢٣٥) باختصار.

الأول: تعريف الشكر.

والثاني: ثمرات الشكر.

والثالث: عاقبة الجحود.

والرابع: لقطات من حياة أهل الشكر.

والله وليّ التوفيق.

أولاً: تعريف الشكر:

الشكر «**لغة**»: مَصْدرُ شَكَرَ يَشْكُرُ، وهو مأخوذٌ من مادّة (ش ك ر) التي تدلّ على «الثّناء على الإنسان بمعروف يُولِيكَهُ».

وقال **الراغب**: «الشكر تَصَوُّر النّعمة وإظهارها، وقيل: هو مقلوبٌ عن الكَشْر أي الكَشْف: ويضادُّهُ الكُفْر الذي هو نسيان النّعمة وسَتْرُها.

وقيل: أصله من عين شَكْرَى أي مُمْتَلِئة. فالشُّكْر على هذا هو الامتلاءُ مِنْ ذِكْر الْمُنْعِم عَلَيه» ا.هـ[(١)].

وقال **ابن منظور**: «الشُكر: عرفانُ الإحسان ونَشْره، وهو مأخوذ من قولك: شَكَرَتِ الإبلُ تَشْكُرُ إذا أصابت مَرْعًى فَسَمِنَتْ عليه، والشّكران خلاف النّكران.

والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل.

ويقال: شكره وشكر له يشكر شكرًا وشكورًا وشكرانًا.

ويقال أيضًا: شكرتُ الله، وشكرت لله، وشكرت بالله، وكذلك شكرتُ نعمة الله، ورجل شكور: كثير الشكر، وهو الذي يجتهد في شُكْر رَبِّه بطاعته وأدائه ما وَظَّفَ عليه من عبادته» ا.هـ[(٢)].

---

(١) «المفردات» للراغب (٢٦٥).

(٢) «لسان العرب» (٤/٢٣٠٥- ٢٣٠٨).

و «اصطلاحًا»: قال الكَفَويُّ:

«الشكر: كلّ ما هو جزاءٌ للنعمة عُرْفًا، وقال أيضًا: أصل الشكر: تصوّر النعمة وإظهارها، والشكر من العبد: عرفان الإحسان، ومن الله المجازاة والثناء الجميل»ا.هـ[(١)].

وقال العلامة المناويّ: «الشكر شكران:

الأول: شكر باللسان وهو الثناءُ على الْمُنْعِم.

والآخر: شكرٌ بجميع الجوارح، وهو مكافأةُ النعمة بقدر الاستحقاق، والشكور الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا»ا.هـ[(٢)].

وقال الإمام **ابن القيم**: «الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبّة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»ا.هـ[(٣)].

وقيل: هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع[(٤)].

وقال **سهل بن عبد الله**: «الشكر: الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السّر والعلانية».

وقال **الجُنيد**: «حقيقة الشكر: العجز عن الشكر».

وعنه قال: كنتُ بين يدي السَّرِّي السَّقَطي[(٥)] ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلّمون في الشّكر، فقال لي:

يا غلام ما الشكر؟

فقلتُ: ألا يُعْصَى الله بنِعَمه.

---

(١) «الكليات» للكفويّ (٥٢٣).

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» (٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٤).

(٤) «بصائر ذوي التمييز» (٣/٣٣٩)، وانظر: «نضرة النعيم» (٦/٢٣٩٣).

(٥) أستاذ الجنيد - رحمه الله - .

فقال لي: أخشى أن يكون حَظّك من الله لسانك.

قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السَّرّي لي(١).

وقال **الشّبلي**: «الشكر: التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات وبذل الطّاعات، ومراقبة جبّار الأرض والسموات».

وقال الإمام **ابن القيم**: «وشكر القوم هو عملهم بطاعة الله واستعانتهم بنعمه على محابه، قال تعالى:

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال النبي ﷺ لما قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال:

«**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(٢).

فسمّى الأعمال شكرًا، وأخبر أن شكره قيامه بها ومحافظته عليها، فحقيقة الشكر: هو الثناء على المنعم ومحبّته والعمل بطاعته، كما قال:

أفادتكم النّعماء عندي ثلاثة يَدي ولساني والضّمير الْمُحَجّبا

فاليد للطاعة، واللسان للثناء، والضمير للحبّ والتعظيم» ا.هـ(٣).

وبالجملة: «فالشكر من أعلى المقامات وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد، وهو مقصود لنفسه ولذلك لا ينقطع في الجنّة، وليس فيها خوف، ولا توبة، ولا صبر، ولا زهد.

فالشكر دائم في الجنة، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١/٣٧٤).

(٢) رواه البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٦)، ومسلم (صفات المنافقين/٧٩).

(٣) «طريق الهجرتين» (٣٧٨).

أما كيفية الشكر فيتم بأمور:

أوّلاً: أن يحمد الله على نعمه بلسانه ويشكره.

ثانيا: أن يعتقد أن هذه النعمة أو النّعم آتيتُهُ من الله كَرَمًا منه وإحسانًا.

ثالثًا: أن لا يستعين بها على معاصيه، بل يُطيع الله فيها.

رابعًا: أن يعرف فضل الله عليه وكَرَمه فيستحيي منه فلا يَعْصه.

حكاية:

قال **وهبُ بْنُ مُنَبِّه** - رحمه الله - :

«عَبَدَ الله - ﷻ - عابدٌ خمسين عامًا، فأوحى اللّهُ - ﷻ - إليه: قد غفرتُ لك، قال: يا رب وما تَغْفر لي، ولم أُذنب؟ فَأَذِنَ اللّهُ لعِرْقٍ في عُنُقه فَضَربَ عليه، فلم يَنم ولم يُصَلِّ، ثم سَكَن فنام، فأتاه مَلَكٌ فَشَكا إليه فقال: ما لَقِيتَ من ضربان العِرْق؟

قال الْمَلَكُ: إن رَبَّك - ﷻ - يقول: إن عِبادتك خمْسِين سنة تَعْدِل سكون ذلك العِرْق»[1].

معنى اسم الله «الشكور»:

قال الإمام **الغزاليُّ**:

«الشكور: «في أسماء الله تعالى» هو الذي يجازى بيسير الطاعات كثير الدرجات، ويُعطى بالعمل في أيام معدودة نعيمًا في الآخرة غير محدود، ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة، ومن أثنى على الْمُحْسِن أيضًا يقال: إنه شكر، فإذا نظرتَ إلى معنى الزّيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلاّ الله - ﷻ - لأن زياداته في المجازاة غير مَحْصُورة ولا مَحْدودة، ذلك أن نعيم الجنة لا آخر له»ا.هـ[2].

---

(١) «كتاب الشكر» لابن أبي الدنيا (١٤٨).

(٢) «المقصد الأسنى» (١٠٥).

ثانيا: ثمرات الشكر:

لشكر الله - تعالى - ثمرات، من هذه الثمرات:

(١) حفظ النعمة من التعرّض للزّوال:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال الإمام **الحسن** - رحمه الله - :

«إن الله لَيُمَتِّعُ بالنّعمة ما شاء، فإذا لم يُشْكَرْ عليها قَلَبَها عَذَابًا، ولهذا كانوا يُسَمُّون الشكر: الحافِظَ، لأنه يحفظُ النّعم الموجودة: والجالِبَ، لأنه يَجْلِبُ النّعم المفقودة»[١].

وقال **الفضيل بن عياض** - رحمه الله - :

«عليكم بملازمة الشكر على النّعم، فَقَلَّ نعمةٌ زالت عن قومٍ فعادت إليهم»[٢].

وقال **عمر بن عبد العزيز** - رحمه الله - :

«قيدّوا نعم الله بشكر الله».

وكان يقال: «الشكر قيد النّعم».

(٢) زيادة النّعم:

- قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].
- وَيُرْوى عن **عليّ** رضي الله عنه أنه قال لرجل من همدان:

«إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر مُعلّق بالمزيد، وهما مقرونان في قَرْن، فلن ينقطع المزيد من الله - عز وجل - حتى ينقطع الشكر من العبد»[٣].

---

(١) «عدة الصابرين» لابن القيم (١٢٢).

(٢) نفس المرجع (١٤٤).

(٣) «كتاب الشكر» لابن أبي الدنيا (١٨).

- وقال **الفضيل بن عياض** - رحمه الله - :

كان يقال: من عرف نعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقلبه، وحمده بلسانه، لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

(٣) دليل على الإيمان:

عن **عامر**، قال:

«الشكرَ نصف الإيمان، والصّبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كلّه»[1].

وقال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله - :

«قَرَنَ الله - سبحانه - الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]. أي: إن وفّيتم ما خلقكم له، وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟»ا.هـ[2].

(٤) رفع درجة العبد في الآخرة:

قال **كعبُ الأحبار** - رحمه الله - :

«ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله، إلاّ أعطاه اللهُ نفعها في الدنيا، ورفع لها بها درجة في الآخرة. وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا، فلم يشكرها لله، ولم يتواضع بها إلاّ منعه اللهُ نفعها في الدنيا، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه»[3].

(٥) نيلُ شرف مجالسة الرحمن في الآخرة:

قال **أبو سليمان الدّاراني** - رحمه الله تعالى - :

---

(١) إسناده حسن: رواه البيهقيّ في «الشعب» (٤١٣٤).

(٢) «عدة الصابرين» (١١٨).

(٣) نفس المرجع (١٤٥).

«جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل في قلبه خصالاً: الكَرَم والسّخاء والحِلْم والرّأفة والشكر والبرّ والصّبر»[(١)].

(٦) نيلُ رضا الله – تعالى – عن العبد:

فعن أنس ﷺ أنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«إنّ الله لَيَرْضَى عن العبد أن يأكل الأَكْلَة فَيَحْمَدَهُ عليها، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَة فَيَحْمَده عليها»[(٢)].

(٧) نيل ثواب الصابرين:

قال **ابن بطال** – رحمه الله تعالى –: «مِنْ تَفَضُّل الله على عباده أن يجعل للطّاعم إذا شكَر ربَّه على ما أنعم به عليه ثَوابَ الصّائم الصّابر»[(٣)].

(٨) نيل مغفرة الله تعالى للعبد:

فعن رئاب بن عبد الله السعدي، قال:

سمعتُ معاوية بن قرّة يقول:

«مَنْ لَبِس ثوبًا جديدًا فقال: «بِسْم الله والحمد لله» غُفر له».

وسمعتُه يقول:

«من أكل طعامًا فقال: «بسم الله والحمد لله»، غُفِر له، ومن شَرِب فقال: «بسم الله والحمد لله» غُفِر له»[(٤)].

---

(١) نفس المرجع (١٣٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٣) «فتح الباري» (٩/٥٨٣).

(٤) إسناده حسن: أورده ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر» (٤٨).

(٩) الأمانُ من الهلاك:

فعن ثابت، قال:

قال رفيع أبو العالية: «إني لأرجو أن يهلك عَبْدٌ بين اثنتين: نعمةٍ يحمد الله عليها، وذَنْبٍ يَسْتَغْفِر منه»(١).

قلت: وهذا من أحسن الأقوال.

ثالثًا: عاقبة الجحود:

الإقرار بالجميل، وركون الفؤاد إلى صانعه يجعل المرء أهلاً للمزيد - كما تقدّم -، لأن النعمة تثمر فيه، كما يثمر الماء في الأرض الخصبة، ولذلك لا يضن عليها بالقليل والكثير.

أمّا الأرض السّبخة فإن انعدام الأمل في ريّها يجعل إرسال الماء إليها عبثًا، ولذلك يقطع عنها...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وشدّة العذاب كفاء لخباثة الجحود!

إن الله قصّ علينا قصّة «سبأ» لنعرف منها عقبى الكنود، وكيف أنها كانت زاهرة ثم صارت خرابًا أتى على ما سبق من سعة ورفاهية:

قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

(١) إسناده حسن: أورده ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر» (٨٨).

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٥- ٢٠].

وعن تفصيل قصتهم قال **أهل السِّيَر**:

سكن قوم «سبأ» بأرض اليمن، وأغدق الله عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة، وأصلح لهم البال والحال، وبارك لهم في الأرض والمال، ووضع عنهم الأوزار والأحمال، وَنَقَّى لهم الهواء، ونزلت عليهم بركة السماء. قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ﴾ أي: علامة دالّة على كمال قدرة الله تعالى وبديع صنعه. قال الإمام **عبد الرحمن بن زيد**: «إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم: أنهم كانوا لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملة ولا عقربًا ولا حيّة ولا غير ذلك، وإذا جاءهم الرّكبُ في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم!!».

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ﴾ كان الماءُ يأتيهم بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا السيول، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا هو سدّ «مأرب» حتى ارتفع الماء، وحكم على حافّات تلك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلّوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والْحُسْن، فكانت الأشجار تثمر أجود وأنضج وأحلى الثمار بقدرة العزيز الغفار.

قال **قتادة**: «إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل - وهو الذي تغترف فيه الثمار - فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونُضْجه واستوائه».

قال الإمام **الشوكاني**: «وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطت به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي»ا.هـ.

ماذا طلب الله منهم؟

قال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

فماذا فعلوا؟

قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ أي: عن الشكر، وكفروا بالمنعم - سبحانه - .

فماذا كانت العاقبة؟

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾.

أرسل اللّهُ عليهم سيلاً شديدًا لا يُطاق فشقّ السّد وهدمه. وقيل: أرسل اللّهُ على أصل السّد الفأر[1]، فلمّا فطنوا لذلك أرصدوا لها «السنانير». فلم تُغن شيئًا إذ حمّ القَدَر، و لم ينفع الحذر، كلا لا وزر، فلمّا تحكّم في أصله الفساد سقط وانهار، فسلك الماء القرار، فقطعت تلك الجداول والأنهار، وانقطعت تلك الثمار، وحادت تلك الزروع والأشجار، وتبدّلوا بعدها برديء الأشجار والثمار كما قال العزيز الجبار:

﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

قال **ابن عباس**: ﴿ خَمْطٍ ﴾: هوالأراك- وأثل: وهو الطرفاء. وقيل: ﴿ خَمْطٍ ﴾: ثمر مُرّ لا يؤكل، ﴿ وَأَثْلٍ ﴾: شجر لا ثمر فيه. ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾: أي قلّة من شجر النّبق، وهو ثمر قليل في شوك كثير.

يا ترى ما السبب؟

يقول - ﷻ - : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ أي: نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا. وكذّب رسلنا، وخالف أمرنا، وانتهك محارمنا. ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ فالجزاء من جنس العمل.

---

(١) قال ابن الأعرابي: العَرِم من أسماء الفأر.

قال الإمام **القشيري**: «ما عُوملوا إلاّ بما استوْجَبوا، ولا سُقُوا إلاّ ممّا ثبطوا[1]، وما وقعوا إلاّ في الوهْدة التي حَفَروا، وما قُتلوا إلاّ بالسّيف الذي صنعوا»ا.هـ.

ثم فرقهم الله في البلاد، وأذلّهم بين العباد، وشردّهم في كل واد.

﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

فيا أخا الإسلام:

إذا كنتَ في نعمةٍ فَارْعهـا	**فـإنّ الذُّنوب تزيل النِّعم**
وَحُطْها بطاعةِ رَبِّ العباد	**فَرَبُّ العباد سريع النِّقم**
وإيّاك والظّلم مهما استطعتَ	**فَظُلْمُ العباد شديد الوخم**
وسافر بقلبك بين الْوَرَى	**لِتُبْصِر آثار من قد ظلم**
فتلك مساكنهم بعدهم	**شُهود عليهم ولا تتهم**

رابعًا: لقطاتٌ مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ الشّكر:

عرف الأنبياءُ والصُّلحاء قَدْر «الشكر»، وفضله، فظهر أثر ذلك - واضحًا - في أحوالهم وأقوالهم.

وهذه لقطات تدل على ذلك:

(١) شكر النبي ﷺ:

كان نبينُا ﷺ سيّد الشاكرين، يدلّ على ذلك حاله ومقاله:

- عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال:

إن كان النبي ﷺ لَيَقُوُم أو لَيُصَلّي حتى تَرِمَ قَدَماه أو ساقاه، فَيُقال له، فيقول: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**[2].

---

(١) ثبط: حمق في عمله.

(٢) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

□ وعن أبي بكرة نُفَيْع بن الحارث ﷺ قال:

كان رسول الله ﷺ ، إذا جاءه أَمْرُ سرورٍ أَوْ بُشِّر به خَرَّ سَاجِدًا شاكرًا لِرَبِّه[1].

□ وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

كان النبي ﷺ يدعو يقول:

«رَبِّ أعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْني ولا تَنْصُر عَلَيَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ، واهْدِني وَيَسِّر الْهُدَى لِي، وانْصُرْني على مَنْ بَغَى عَلَيَّ.

رَبِّ! اجعلني لك شَكَّارًا، لك ذَكَّارًا، لك رَهَّابًا، لك مُطِيعًا، إليك مُخْبِتًا، إليك أوَّاهًا مُنِيبًا.

رَبِّ! تقبّل تَوبتي، واغْسل حَوْبَتِي[2]، وأجِب دَعْوَتِي، واهْدِ قَلْبِي، وسَدِّد لِساني، وثَبِّتْ حُجَّتِي. واسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»[3].

(٢) شكرُ نبي الله نوح – عليه السلام – :

أثنى رَبُّنا – عز وجل – على نبيه نوح – عليه السلام – فقال:

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

قال هشام بن سعد: سمعتُ محمد بن كعب[4] قال:

«كان نوح – عليه السلام – إذا أَكَل قال: الحمد لله، وإذا رَكِب قال: الحمد لله ، فسمّاه اللّهُ – عز وجل – عَبْدًا شكورًا»[5].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٧٧٤)، وقال الألباني: «صحيح».

(٢) الحوب: الذنب.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (١٥١٠)، وأحمد (٢٢٧/١)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٤) هو: محمد بن كعب القرظي، من التابعين.

(٥) إسناده حسن: أخرجه أحمد في «الزهد» (٥٠)، وغيره.

(٣) شكرُ نَبي الله داود - ﷺ - :

- قال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا عليّ بن جعد أخبرني مزاحم بن زفر، عن مسعر قال:

لمّا قيل لهم: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]، قال:

« لم تأتِ على القوم سَاعة إلاّ ومنهم مُصَلّ » .[١]

- وعن عليّ بن الجعد، قال:

سمعتُ سفيان بن سعيد وذكر داود النبي - ﷺ - فقال:

«الحمد لِلّه حَمْدًا كما ينبغي لِكَرم وَجْه رَبي عزّ جلالُه، فأوحى اللّهُ إليه: يا داود، أتْعَبْتَ الملائكة»[٢]. يعني : من كتابة ثواب ذلك.

(٤) شكرُ نبي الله موسى - ﷺ - :

عن عبد الله بن سلام ﷺ: أن موسى ﷺ قال:

« يا رب: ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال:

يا موسى لا يزال لسانك رطبًا من ذكري »[٣].

(٥) شكر نبي الله إبراهيم ﷺ:

أثنى الله - تعالى - على نبيه إبراهيم الخليل ﷺ بقوله:

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ﴾ [النحل: ١٢١].

(٦) شكر أبي تميمة ﷺ:

عن عقبة بن عبد الله الرفاعي، قال:

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه البيهقي في « الشُّعب » (٤٢٠٦)، وغيره.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه البيهقيّ في « الشعب » (٤٢٦٢)، وغيره.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٢)، وغيره.

دخلتُ أنا وبكر بن عبد الله المزني على أبي تميمة الهجيمي نعوده، فقال له بكر:

كيف أصبحت يا أبا تيمية؟

قال: أصبحتُ بين نعمتين أميل بينهما، لا أدْري أَيُّهما أفضل: ذَنْب سَتَره اللّهُ عليّ فأصبحتُ لا أخاف أن يُعيِّرني به أحدٌ، ومودّة جعلها اللّهُ ﷻ لي في صدور الناس لم أبلغها.

(٧) شكر محمد بن واسع – رحمه الله – :

عن عبد العزيز بن أبي روّاد، قال:

«رأيتُ في محمد بن واسع قُرحة، قال: فكأنه رأى ما شق عليّ منها فقال لي:

أتدري ماذا لله ﷻ عليّ في هذه القرحة من نعمة؟

فَأُسْكِتُّ، قال:

«إذ لم يجعلها على حَدَقَتي، ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذَكَرى»، فهانت عليّ قُرْحَته[1].

(٨) شكر مُبْتلى:

قال أبو محمد العابد: «مرّ وهبُ بن منبّه – رحمه الله – بمبتلى أعمى مجذوم مُقعد عريان به وضح[2] وهو يقول:

«الحمد لله على نعمته».

فقال رجل كان مع وهب: أيّ شيء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها؟

فقال له المبتلى: ارْم ببصرك إلى أهل المدينة، فانظر إلى كثرة أهلها، أَوَ لاَ أَحْمَد الله أنه ليس فيهم أحَدٌ يَعْرفه غيري؟»[3].

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٥٢)، وغيره.

(٢) الوضح: البرص.

(٣) أخرجه أبو نعيم، وفي سنده الحسن بن يحيى، قال الحافظ في «التقريب»: لا بأس به.

(٩) شكر محارب بن دثار:

عن عنبسة بن الأزهر، قال:

كان «محارب بن دثار» قاضي أهل الكوفة قريب الجوار مني فربمّا سمعتُه في بعض الليل يقول ويرفع صوته:

«أنا الصّغير الذي ربيته فلك الحمد.

وأنا الضعيف الذي قوّيته فلك الحمد.

وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد.

وأنا الصّعلوك الذي مولته فلك الحمد.

وأنا العزب الذي زوجته فلك الحمد.

وأنا السّاغب[١] الذي أشبعته فلك الحمد.

وأنا العاري الذي كَسَوْته فلك الحمد.

وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد.

وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد.

وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد.

ولك الحمد ربنا حمدًا كثيرًا على كلّ حمد»[٢].

أخي المسلم:

هذه لقطات من حياة أهل الشكر، فالزم هديهم، وارفع يديك بالدعاء، وأطلق لسانك بالثناء، وقل:

---

(١) الساغب: الجائع.

(٢) «كتاب الشكر» لابن أبي الدنيا (١٩٩).

- ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩].
- «**اللّهم أعني على ذِكْرِك، وشكرك، وَحُسْن عبادتك**».
- «اللّهم إنا نسألك تمامَ النّعمة في الأشياء كلّها، والشّكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرّضا، والخِيَرَةَ في جميع ما تكون فيه الخِيَرَةُ بجميع مَيْسُور الأمورِ كُلّها لا مَعْسُورها يا كريم».

۞۞۞۞۞

٧٢- الخَوْف

اعلم - **أخي المسلم**- أن الخوف من الله - تعالى - «عاطفة تدلّ على شرف النّفس، ويقظة الحس، وامتلاك الزّمام في الساعات الحرجة.

وإنه لرجل جدير بكل احترام ومثوبة هذا الذي يستمكن ممّا يشتهي، ثم يمتنع عنه وهو خال لا لشيء إلاّ لأن الله يراه[1].

علام يدلّ هذا المسلك؟

إنه يدلّ على إيمان بالله عميق، وعلى أن ذلك الإيمان يقظان ليؤدّي واجبه كالدَّيْدَبان الحارس، وعلى أنه لمّا استثيرت النفس نهض إليها، وفرض وجوده وحده فحسم نوازع الشّر»[2].

قال **خَيْرُ النّساج** - رحمه الله - :

«الخوف: سَوْط الله يُقوِّم به أَنْفُسًا قد تَعوّدت سُوءَ الأَدَب»[3].

والخوف - كما قال بعضُ السّلف - إذا سَكَن القلب، أَحْرق مواضع الشهوات مِنْه!

لذا وغيره، فالحديث - هنا - يدور حول **ستة أمور**:

الأول: تعريف الخوف.

والثاني: منزلته.

والثالث: الأسباب الباعثة عليه.

---

(١) قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إن الذين يشتهون المعاصي، ثم لا يأتونها» ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ [الحجرات: ٣].

(٢) «الجانب العاطفي من الإسلام» للشيخ/ محمد الغزالي (٢٥٥).

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢٧).

والرابع: فضله.

والخامس: علاماته.

والسادس: لَقَطَاتٌ حَيَّة من حياة الخائفين.

أوّلاً: تعريف الخوف:

الخوف «**لُغَةً**»: مصدر خاف يخاف، يقال: خاف الرّجل يخاف خوفًا وخيفًا وخيفة ومخافة إذا فزع[١].

و «**اصطلاحًا**»: قال **الراغب**:

الخوف: تَوَقُّع مكروهٍ عن أَمَارةٍ مَظْنونَة أو معلومة. ويضادُّه الأَمْن، ويستعملُ ذلك في الأمور الدنيوية والأخرويّة[٢].

ويقول **الْجُرْجَانِي**:

الخوف: توقّع حلول مكروه أو فوات مَحْبوب[٣].

وقيل: اضطرابُ القلب وحَرَكَتُهُ مِن تَذكّر الْمَخُوفِ[٤].

وقيل: فَزَعُ القَلْبِ من مكروه يَنَالُهُ أَوْ مَحْبوبٍ يَفُوتُهُ[٥].

ثانيا: مَنزلة الخَوْف:

قال الحافظُ **ابن رجب** – رحمه الله – :

«إنّ الله خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعرِفوه ويعبدوه ويَخْشَوْهُ ويخافُوه، ونَصَبَ لهم الأدّلة الدّالة على

(١) «القاموس المحيط» (١٣٩/٣).

(٢) «المفردات» (١٦١).

(٣) «التعريفات» (١٠١).

(٤) «التوقيف على مهمات التعاريف» (٣٢٨).

«دليل الفالحين» لابن علان (٢٨٥/٢).

عظَمَته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خَوْف الإجلال، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدّها لمن عصاه ليتّقُوه بصالح الأعمال، ولهذا كرّر - سبحانه - في كتابه ذكر النار وما أعدّه فيها لأعدائه من العذاب والنكال... ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه والمسارعة إلى امتثال ما يَأمُرُ به ويحبّه ويرضاه، واجتنابِ ما يَنْهى عنه ويكرَهُهُ وَيَأْباه، فَمن تأمّل الكتاب الكريم وأدار فكره فيه وجد من ذلك العجب العجاب، وكذلك السّنة الصحيحة التي هي مفسّرة ومبينة لمعاني الكتاب، وكذلك سِيَر السّلف الصّالح أهل العلم والإيمان من الصّحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن تأمّلها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والإخبات، وأن ذلك هو الذي رَقّاهم إلى تلك الأحوال الشريفة، والمقامات السّنيات، من شدة الاجتهاد في الطاعات، والانكفاف عن دقائق الأعمال والمكروهات فضلاً عن المحرّمات»[1].

وقال - رحمه الله - :

«والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك، بحيث صار باعثًا للنفوس على التّشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتّبسُّط في فضول المباحات، كان ذلك فضلاً محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أَوْرَثَ مَرَضًا أَوْ مَوْتًا، أو هَمًّا لازمًا، بحيث يقطع السَّعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة للّه ﷻ لم يكن محمودًا»[2].

وقال الحافظ **ابن حجر** - رحمه الله تعالى - :

«إن الخوف من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان. قال تعالى:

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال ﷺ : **«أنا أعْلَمُكم بالله وأشدُّكم له خَشْية»**.

---

(١) «التخويف من النار» لابن رجب (٦، ٧).

(٢) نفس المرجع (٢١).

وكلّما كان العبد أقرب إلى ربّه كان أشدّ له خشية ممّن دُونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله:

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النّحل: ٥٠].

والأنبياء بقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وإنّما كان خوف المقربين أشدّ؛ لأنهم يُطَالَبُون بما لا يُطَالَبُ به غيرُهُم فيُرَاعُون تلك المنزلة، ولأن الواجِب للّه منه الشّكر على المنزلة فَيُضَاعَفُ بالنِّسْبة لعلوّ تلك المنزلة، فالعبد إن كان مستقيمًا فخوفه من سوء العاقبة لقوله - تعالى - : ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، أو نقصان الدّرجة بالنِّسبة، وإن كان مائلاً فخوفه من سوء فعله، وينفعه ذلك مع النّدم والإقلاع؛ فإن الخوف ينشأ من معرفة قُبْح الجناية والتّصْديق بالوعيد عليها، وأن يُحْرَمَ التَّوْبَة، أَوْ لا يكون مِمَّن شاء اللّهُ أن يَغْفِر لَه، فهو مُشْفِقٌ مِنْ ذَنْبِه طالبٌ من رَبِّه أنْ يُدْخِلَه فِيمَنْ يَغْفِرُ له» ا.هـ[1].

ثالثًا: الأسباب الباعثة على الخوف من الله تعالى:

من كلام الإمَامَيْن ابْن رَجَب وابن حَجَر - رحمهما الله تعالى - يمكننا إجمال الأسباب الباعثة على الخوف من الله تعالى في النّقاط التالية:

(١) معرفة الله تعالى.

(٢) العلم به.

(٣) الخوف من سلب الإيمان.

(٤) الخوف من عدم قبول العمل.

(٥) الخوف من الذّنوب.

(٦) الخوف من حَجْب الله - تعالى - التوبة عنه.

---

(١) «فتح الباري» (٣١٣/١١).

(٧) الخوف من نقصان الدّرجة.

(٨) الخوف من النار.

(٩) الخوف مِنْ أن يكون مِمّن شاء الله - تعالى - ألا يغفر له.

رابعًا: فضل الخوف من الله تعالى:

لِلْخوف مِنَ الله - تعالى - فضائل كثيرة، منها:

(١) قبول الدعاء:

قال تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

(٢) النَّصرُ على الأعداء:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤].

(٣) الانتفاع بالموعظة:

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].

(٤) إيقاظ الهمّة لطاعة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

(٥) إخلاص العمل لله:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٩، ١٠].

(٦) الكفّ عن المعاصي:

قال بعض السّلف: «إذا سَكَنَ الخوفُ في القلب أحْرق مَوْضعَ الشّهوات منه».

(٧) سَبَبٌ في دُخول الجنّة:

- فعن أبي سعيد الخُدْري ﷺ، عن النبي ﷺ:

«ذكر رَجُلاً فيمن كان سَلَف - أوْ قَبْلكم - آتاه اللّهُ مالاً وولدًا، يعني أعطاه، قال: فلمّا حُضِرَ[1] قال لبنيه:

أيّ أب كنتُ لكم؟ قالوا: خَيْرَ أب. قال: فإنّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ[2] عند الله خيرًا، وإن يَقْدُمْ على الله يُعَذّبْهُ، فانظروا فإذا مِتُّ فأحرقوني حتى إذا صِرْتُ فَحْمًا فاسْحَقُوني - أو قال: فاسْهَكُوني - ثم إذا كان ريحٌ عَاصِفٌ فاذْرُوني فيها، فَأَخَذَ مَوَاثِيقهم على ذلك وَرَبي. ففعلوا. فقال اللّهُ: كُنْ. فإذا رَجُلٌ قائم، ثم قال:

أيْ عَبْدي، ما حَمَلكَ على ما فَعَلْت؟ قال: مَخَافَتُك، أو فَرَقٌ منك. فَمَا تَلاَفاهُ[3] أنْ رَحِمَهُ اللّهُ»[4].

- وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغ الْمَنزلَ، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سِلْعَةَ الله الجنّة»[5].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة جدًّا.

---

(١) يعني: حضره الموت.

(٢) لم يَبْتَئِر: لم يَدَّخر.

(٣) فما تلافاه: أي تداركه، و «ما» موصولة أي الذي تلافاه هو الرحمة: أو نافية وصيغة الاستثناء محذوفة.

(٤) رواه البخاري (٦٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٧).

(٥) رواه الترمذيّ (٢٤٥٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم (٤/٣٠٧)، وصحّحه، ووافقه الذّهبي.

(٨) إضفاءُ الْمَهَابة على الخائف:

قال **عمر بن عبد العزيز** - رحمه الله تعالى - :

«مَنْ خَاف اللّهَ أَخَاف اللّهُ منه كُلَّ شيءٍ، ومن لَمْ يَخَفِ الله خَافَ مِنْ كُلِّ شيء».

وقال **يحيى بن معاذ الرّازيّ** - رحمه الله تعالى - :

«على قَدْرِ حُبِّك لِلّهُ يُحِبُّكَ الْخَلْقُ، وعلى قَدْرِ خَوْفِك من الله يَهَابُكَ الْخَلْقُ»[١].

(٩) الاستظلال في ظِلِّ الله يوْمَ القيامة:

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال:

«سَبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عادل، وشابٌ نَشأ في عبادة الله، ورَجلٌ قَلْبُه مُعَلّق في المساجد، وَرَجُلان تَحابّا في الله اجْتَمَعا عليه وتَفرّقا عليه. وَرَجُلٌ دَعَتْه امْرأةٌ ذاتُ مَنْصبٍ وَجَمَالٍ فقال: إني أخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصدَّق بِصَدَقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمَالُه ما تُنفِق يَمينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَر الله خَالِيًا، فَفاضتْ عَيْنَاهُ»[٢].

(١٠) دليل على الهداية:

قال **ذون النون المصريّ** - رحمه الله - :

«النّاسُ على الطّريق ما لم يَزَلْ عنهم الخوفُ، فإذا زَال عنهم الخوفُ ضَلُّوا عَنِ الطّريق».

خامسًا: علامات الخوف:

قال الإمام **أبو اللّيْث السّمرقندي** - رحمه الله تعالى - :

«علامة خوف الله - تعالى - تظهر في **سبعة أشياء:**

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٣/٢٠٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

أوّلها: لسانه:

فيمنعه من الكذب، والغيبة، والنميمة، والبهتان، وكلام الفضول، ويجعله مشغولاً بذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، ومذاكرة العلم.

والثاني: قَلْبه:

فيخرج منه العداوة والبهتان وحسد الإخوان، لأن الحسد يمحو الحسنات. واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة في القلوب ولا تداوى إلاّ بالعلم والعمل.

والثالث: نَظَره:

فلا ينظر إلى الحرام من الأكل والشرب والكسوة وغيرها ولا إلى الدّنيا بالرغبة بل يكون نظره على وجه الاعتبار ولا ينظر إلى ما لا يحلّ له.

والرابع: بطنه:

فلا يُدْخِل بطنه حرامًا فإنه إثم كبير.

والخامس: يده:

فلا يمدّ يده إلى الحرام بل يمدّها إلى ما فيه طاعة لله تعالى.

والسادس: قَدَمه:

فلا يمشي في معصية الله، بل يمشي في طاعته ورضاه وإلى صحبة العلماء والصّلحاء.

والسابع: طاعته:

فيجعل طاعته خالصة لوجه الله تعالى، ويخاف من الرّياء والنفاق، فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله – تعالى – في حقهم:

﴿ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥].

سادسًا: لَقَطاتٌ من حَيَاة الخائفين:

لمّا كان الخوف من الله - تعالى - ثمرة المعرفة به - جل جلاله - ، كان أشدّ الناس خوفًا من الله، أعرفهم به.

وهذه بعضُ أقوال وأحوال أهل الخوف التي عطّرت التاريخ، وأنارت للسالكين الطريق.

أوّلاً: خَوْفُ سيّد الخائفين ﷺ:

قلنا فيما سبق: بِقَدْر ما يكون العِلْم بالله تكون الخشية منه.

لذا فالأنبياء - وعلى رأسهم نبينا ﷺ - أكثر خشية من غيرهم، وكذا الملائكة، ثم تتفاوت خشية العلماء ومن دونهم بتفاوت علمهم بالله - تعالى - ، ولذلك قالوا:

على قَدْر عِلْم المَرْءِ يَعْظُم خَوْفه ... فلا عَالِم إلاّ مِنَ الله خائف
وآمن مكر الله بالله جَاهِل ... وخائف مَكْر الله بالله عَارف

ولّما كان نبينا - صلوات ربي وسلامه عليه - أَعْلَم خَلْق الله بالله، كان أشدّهم خوفًا منه، وهذه بعض أحواله:

(١) عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال عيسى عليه السلام:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].، فرفع يديه وقال:

«اللّهمّ أُمّتي أُمّتي» وبكى، فقال اللهُ ﷻ:

يا جبريلُ، اذْهب إلى مُحمّد - وربُّك أعلم - فَسَلْهُ مَا يُبْكيك؟ فَأَتاه جِبْريلُ عليه السلام

فَسَأَله، فَأَخْبَره رسولُ الله ﷺ بمَا قال - وهو أعلم - فقال اللَّهُ:

يا جبريلُ، اذْهب إلى محمدٍ فَقُلْ: إنا سَنُرْضيك في أُمَّتِك ولا نَسُوؤُك»[1].

(٢) وعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ أنها قالت:

ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حتى أَرَى من لَهَوَاته[2]. إنما كان يَتَبَسَّم. قالت:

وكان إذا رأى غَيْمًا أو ريحًا، عُرِفَ ذَلِكِ في وَجْهِه. فقالت:

يا رسولَ الله، أَرَى النّاسَ إذا رأَوْا الغَيمَ فَرِحوا، رجاءَ أن يكون فيه الْمَطَرُ، وأراك إذا رأيتَه، عَرَفْتُ في وَجْهك الكراهية؟ قالت:

فقال: «**يا عائشةُ، ما يُؤَمِّنني أن يكون فيه عذابٌ، قد عُذِّب قَوْمٌ بالرِّيح، وقد رأى قومٌ الْعَذَاب، فقالوا:** ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[3].

(٣) وعنها - رضي الله عنها - قالت:

فَقَدتُ رسولَ الله ﷺ ليلةً مِنَ الفِراش، فالْتَمَسْتُه فوَقَعَتْ يَدِي على بَطْنِ قَدَمَيْه وهو في الْمَسْجد[4] وهما مَنْصُوبتان وهو يقول:

«**اللّهم أعوذُ برضاك من سَخَطِك، وَبِمُعَافَاتِك من عُقوبتك، وأعوذُ بك مِنك، لا أُحْصِيَ ثناءً عَلَيك**[5] **أنتَ كما أَثْنيتَ على نَفْسِك**»[6].

(٤) وعن عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ قال:

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

(٢) لَهَواته: اللّهوات جمع لهاة: وهي اللّحمة الحمراء المعلّقة في أَعْلَى الْحَنَك.

(٣) رواه البخاري (٤٨٢٨)، ومسلم (٨٩٩) واللّفظ له.

(٤) المسجد: أي في السجود - أو الموضع الذي كان يصلّي فيه في حُجرته.

(٥) أي: لا أحصى نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك.

(٦) رواه مسلم (٤٨٦).

«أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يُصَلّي ولِجَوْفِه أزيزٌ[١] كأزِيز الْمِرْجَل[٢] من البكاء».

وفي رواية: «كَأزِيز الرَّحَاء[٣] من البكاء»[٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ثانيا: خوف إبراهيم عليه السلام:

قال كعب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]:

كان إذا ذكر النار قال: أوْه.

قال العلاّمة **الشّوكاني** - رحمه الله - في تفسيره:

«والمطابق لمعنى الأوّاه - لُغةً - أن يقال: إنّه الذي يُكْثِر التأوّه مِن ذنوبه» ا.هـ[٥].

ثالثًا: خوف آدم عليه السلام:

- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

«نزل آدمُ بالحَجَر[٦] يَمْسح به دُمُوعه حين أُهْبِط من الجنَّة و لم تَرْقَأ عَيْنُ آدَم حِين خرَج من الجنّة حتّى رَجَع إليها»[٧].

- وعن الحسن، قال:

«أهبط آدم من الجنّة فبكى ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء، ولا يلتفت إلى المرأة ولا يضع يده عليها!!»[٨].

---

(١) أزيز: حركة واهتياج وحدة.

(٢) أي: كغليان القدْر.

(٣) الرَّحا: الحَجَر التي يطحن عليها الدّقيق

(٤) **صحيح**: «صحيح سنن أبي داود» (٨٣٩)، وغيره.

(٥) «فتح القدير» (٤١١/٢).

(٦) أي: بالحجر الأسود.

(٧) **صحيح**: أخرجه البيهقيُّ في «الشُّعب» برقم (٨٣٧).

(٨) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرّقة والبكاء» (٣٢٥)، وقال المحقق: مُسْعد السّعدني: «صحيح».

□ وعن الحميديّ، قال:

سمعت سفيان[١] ذكر آدم، فقال:

«إنّه بكى على جبل الهند ثلاثمائة عام حتى صار في وَجْهه جَدْولان، ومَا ضَحِك حتى أتاه الْمَلَكُ فقال: «حَيَّاك اللَّهُ وَبَارك»»[٢].

رابعًا: خوف نوح ﷺ:

قال وهيب بن الورد - رحمه الله تعالى - :

«لَمّا عاتب اللَّهُ نوحًا ﷺ في ابْنه فأنزل عليه:

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء»[٣].

خامسًا: خوف داود ﷺ:

□ قال عطاء الخراساني - رحمه الله - :

«أن داود ﷺ نَقَش خَطِيئته في كَفِّه[٤] لِكَيْلا يَنْسَاها، وكان إذا رآها اضطربت يداه!»[٥].

□ وعن ثابت:

«أن داود حشى سَبْعة فُرش بالرَّماد، ثم بكى حتى انفد بها دموعه!»[٦].

---

(١) يعني: سفيان الثوري.

(٢) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٣٢٦)، وقال المحقق: «صحيح».

(٣) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٥٠).

(٤) لم تكن خطيئة داود ﷺ من النّظر كما يظن البعض، وإنما كانت في «الحُكْم» حيث أنه سمع من خَصْم ولم يسمع من الآخر.

(٥) صحيح: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٣٤٤)، والعسكري في «حديثه عن شيوخه» (١٣/٨٦).

(٦) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا في «الرّقة والبكاء» (٣٦١).

سادسًا: خوف الملائكة:

- قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النّحل: ٤٩، ٥٠].

- وعن جابر رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي به بالملأِ الأَعْلى، وجبريلُ كالْحِلْسِ**[١] **الْبَالي مِنَ خَشْيَةِ الله تعالى**»[٢].

- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل:

«**ما لي لا أرى ميكائيلَ يَضْحَكُ؟**».

قال: «**ما ضَحِكَ مِيكائيل مُنذُ خُلِقَتِ النّار**»[٣].

سابعًا: خوف الصّالحين:

- كان «شداد بن أوس» إذا دخل الفراش يتقلّب على فِراشه بمنزلة القَمْحَة[٤] في المقلاة على النار، ويقول:

«اللّهم إنّ النّارَ قد أَذْهَبتْ مِني النّوم» فيقوم يُصَلّي حَتّى يُصْبح.

- وقال يونس بن عُبيد: ما رأيتُ أَحَدًا أطول حُزْنًا مِن الحسن، كان يقول:

«نَضْحك ولعلّ الله قد اطّلع على أعمالنا فقال: لا أَقْبلُ منكم شيئًا».

وَأُتِي - رحمه الله - بكوز من ماءٍ ليفطر عليه، فلما أَدْناه إلى فِيه بَكَى، وقال:

---

(١) الْحِلْسُ: كلُّ ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج. و -: ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع. «المعجم الوجيز» (١٦٧).

(٢) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» عن جابر، وانظر: «صحيح الجامع» (٥٨٦٤).

(٣) إسناده جيد: رواه أحمد، وغيره، وقال العراقي: إسناده جيد.

(٤) القمحة: الحبّة.

ذكرتُ أُمْنية أَهْل النار، وقولهم:

﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ ... [الأعراف: ٥٠]، وذكرتُ ما أُجيبوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

- وكان طاووس - رحمه الله - يُفْرَش له الفرشُ فَيضطّجع وَيَتَقَلّب كما تَتَقَلّب الحَبَّةُ في المقْلى، ثم يثب فَيدرجه ويستقبل القِبلة حتى الصّباح، ويقول:

«طيَّر ذِكْرُ جَهَنّم نَوْمَ الخائِفين»[1].

- وقال يوسف بن أسْباط:

«كان سفيان الثوريّ إذا أَخَذَ في ذِكْر الآخرة يبول الدّم!»[2].

- وقال عبيد الله بن العيشيّ:

كان هشام الدستوائي إذا فقد السّراج من بيته يتململ على فراشه، فكانت امرأته تأتيه بالسّراج، فقالت له في ذلك، فقال:

«إني إذا فَقَدتُ السِّراج ذكرتُ ظُلْمة القَبْر!».

- وقال الخطيب:

«مات عليّ بن الفضيل بن عياض - رحمه الله - من آية سَمِعها تُقْرأ، فغُشي عليه، وتُوفِّي في الحال!»[3].

قال إبراهيم بن بشّار: الآية التي مات فيها عليُّ بن الفضيل في «الأنعام»:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ .. الآية [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنتُ فِيمَن صَلّى عليه، رحمه الله![4].

---

(١) «الإحياء» (١٩٨/٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٤٢/٧).

(٣) نفس المرجع (٤٤٣/٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤٤٦/٨).

يا لله ... ما أرقّها من أفئدة، وما أخشعها من قلوب، ولِلّه نَشْكو حَالَ قلوبنا.

و لم يكن «عليّ» – رحمه الله تعالى – الوحيد الذي مات خوفًا من الله. **اقرأ:**

- قال بهز بن حكيم:

أَمَّنا «زُرَارَةُ بْنُ أَوْفى» في مَسْجد بني قُشَيْر، فقرأ «المدّثّر»، فلمّا انتهى إلى هذه الآية: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ [المدثر: ٨]، خرَّ مَيّتًا!

قال بهز: «فكنتُ فِيمن حَضَره»[١].

- وعن إسماعيل بن نصر العبدي، قال:

«نادى منادٍ في مجلس «صالح الْمُرِّيّ»[٢]: لِيَقُم الباكون والمشتاقون إلى الجنّة، فقام أبو جهث[٣]، فقال:

اقرأ يا صالح:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان ٢٣، ٢٤]، فقال أبو جهث:

رددها يا صالح. فما فرغ من الآية حتى مات أبو جهث – رحمه الله – »[٤].

لِلّه دَرُّ أقوام شَغَلَهم حبُّ مولاهم عن لذّاتِ دنياهم، اسْمَعْ حَدِيثَهم إن كُنْتَ ما تراهم، خوفُهم قد أزعج وأقْلق، وَحِذْرُهم قد أَتْلف وأَحْرق، وَحَادى بجدهم مُجدٌّ لا يترفق، دموعهم في أنهار الخُدود تَجْري وَتَتَدفّق، يَشْتَاقُون إلى الحَبيب والحبيبُ إلى لقائِهم أشْوَق.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» عن أبي خبّاب القصّاب، وغيره، وقال الذهبي في «السِّير» (٥١٦/٤): «صحّ، وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين»ا.هـ.

(٢) الواعظ الْبَكّاء.

(٣) في «صفة الصفوة»: أبو جهير مسعود الضّرير.

(٤) «الجامع لشعب الإيمان»، و «صفة الصفوة» (٣٣٣/٣).

□ وقال الصّلت بن مسعود:

خرج الحسنُ بْنُ صالح بن حيّ يومًا من بيتي، فنظر إلى جراد يطير، فقال:

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧]، ثم خرَّ مَغْشِيًّا عليه[١].

□ وقال الحسنُ بْنُ عَرفة العَبْدي:

رأيتُ يزيد بن هارون بواسط وهو من أحْسَن النّاس عَيْنين، ثم رأيتُه بعين واحدةٍ، ثم رأيتُه وقد ذَهَبَتْ عَيْناه، فقلتُ له:

يا أبا خالدٍ، ما فَعَلَتِ العَيْنان الجَميلتان؟

قال: ذهب بهما بكاءُ الأسْحَار![٢].

أَعَيْني هَلاّ تَبْكيان على ذَنْبي ... تناثر عُمْري مِنْ يدي ولا أدْري

□ وقال قيس بن مسلم:

كان الضّحّاك إذا أمْسَى بَكَى، فيقال له، فيقول:

«لا أدْري ما صَعَد الْيَوْم مِنْ عَمَلي».

□ وقال أبو مُسْهر:

«كان الأوزاعي يُحيي الليل صلاة وقرآنًا وبكاءً، وأخبرني بعضُ إخواني من أهل بيروت أن أُمّه كانت تَدْخل مَنزل الأوزاعي، وَتَتَفَقّد مَوْضع مُصلاّه، فَتَجِدُه رَطْبًا من دموعه من الليل!».

كَذاكَ الْفَخْرُ يا هِمَم الرِّجَالِ ... تَعَالَى فانْظُري كَيْفَ التَّعَالِي

□ وعن عبد الله بن بشر، قال:

(١) «ثلاث شعب من الجامع» (٢٣٣/١).

(٢) «تاريخ بغداد» (٣٤١/١٤).

كان «الأسود بن يزيد»[١] صاحب عبادة، صام يومًا فكان النّاس بالهجير وقد تَرَبَّد وَجْهُه، فأتاه علقمة - أخوه - فضرب على فخذه، فقال:

ألا تتَّقي الله يا أبا عمرو في هذا الجسد؟ علام تعذب هذا الجسد؟

فقال الأسود: «يا أبا شبل، الجد الجد».

قلت: صام - رحمه الله - حتى ذهبت إحدى عينيه من الصّوم!!

أخي:

لاحَت للقوم جَادّة السُّلوك فقالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾[فصّلت: ٣٠]، فركبوا سُفنَ العزم، وَهَبَّت لهم رِيَاح العَوْن، فَقَطَعوا بالعلم لُجَج[٢] الجهل، فوصلوا إلى إقليم القُرْب، وَأُرْسُوا على ساحل بلد الوصل.

لم تُبْقِ فيهم حَرارَةُ الهَوَى	وَجَوى الأَحْزَانِ غَيْرَ خيالاتٍ وأشْباحِ
تكادُ تُنْكِرُهم عَيْنُ الخبيرِ بهم	لَوْلا تَرَدُّدُ أَنْفَاسٍ وأرواحِ!

أخي:

قد سمعتَ أخبارَ القَوْم، فَسِرْ في سِرْبِهم، وقد عرفتَ شَرَابَهم، فاشْرَبْ كَشُرْبِهم، فَمَتى سَلَكْتَ طَرِيقَهم كُنْتَ رَفِيقَهم، أطار خوفُ النّار نَوْمَهم، وأطال ذكرُ العَطَشِ الأكبر صومَهَم، يَحْسَبُهم النّاظِرُ مَرْضَى الأبدان، وإنما هو سقام الأحزان.

أخي:

من لم يكن له مِثل تَقْواهم، لم يَدْرِ ما الّذي أَبْكَاهم.

من لم يُشاهد جَمَالَ يُوسف، لم يَدْرِ ما الذي آلم قَلْبَ يَعْقوب[٣].

---

(١) من التابعين الكرام.

(٢) اللّجة - هنا - بمعنى البحر.

(٣) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (٢٣٩).

أخي:

إن للخوف حركات تُعْرَفُ في الخائِفين، ومقامات تُعْرَفُ في الْمُحِبين، وإزعاجاتٍ يُعْرف بها الْمُشْتَاقون، وَأَيْن أولئك؟! أولئك هم الفائزون.

اللّهُمَّ اجْعَلْنا من أَتْبَاعِهم، وَوَفِّقنا لاتّباعِهم.

« آمين » .



الفهرس

الموضوع | الصفحة

(٣٩) **الغيرة**.. ٥

أولاً: تعريف الغيرة ٥

ثانيًا: الأسباب الباعثة على الغيرة.......................... ٦

ثالثًا: أنواع الغيرة.. ١١

رابعًا: ثمرات الغيرة.. ١٦

(٤٠) **القناعة** ١٧

أولاً: تعريفُ القناعة ١٧

ثانيًا: فضل القناعة ١٨

ثالثًا: مواعظ في القناعة ٢٥

رابعًا: صورٌ ومواقف من حياة أهل القناعة.......................... ٢٦

(٤١) **انتظار الفَرَج**.. ٣١

مفاتيح الفرج.. ٣٣

المفتاح الأول: الدعاء.. ٣٣

حكاية أغرب من الخيال.. ٣٤

المِفْتَاحُ الثاني: كَثْرَةُ الذِّكْر ٣٥

المفتاح الثالث: الصّلاة ٣٥

المِفْتاح الرابع: الدعاء بدعوة ذي النون عليه السلام ٣٦

المِفْتاح الخامس: الإكثار من أدعية علاج الكَرْب ٣٦

المفتاح السادس: الجهاد في سبيل الله ٣٧

المِفتاح السابع: الإقبال على الآخرة ٣٧

المِفتاح الثامن: الانكسارُ لِلّه تعالى ٣٨

المِفتاح التاسع: الإكثار من دعاء علاج الهَمّ والحزن ٣٩

المفتاح العاشر: الإكثار من الصّلاةِ على النبي ﷺ ٤٠

(٤٢) التعفف عن المسألة ٤٣

مفاتيح الرزق ٤٩

(١) الاستعفاف ٥٠

(٢) تحريك سلسلة الأسباب ٥٠

(٣) الهمّة في طلب الرزق ٥٠

(٤) التوكّل على الله ٥٠

(٥) الدّعاء بالسَّعة ٥١

(٦) القناعة بما قسم الله ٥١

(٧) القضاء على كل مظاهر الإسراف ٥١
(٤٣) **الزيارة في الله تعالى وفضائلها** ٥٣
أولاً: آداب الزيارة في الله تعالى ٥٥
ثانيًا: أنواع الزيارة في الله تعالى ٥٩
(٤٤) **الاستئذان** ٦٢
أولاً: تعريف الاستئذان ٦٣
والثاني: حكم الاستئذان ٦٣
والثالث: كيفية الاستئذان ٦٥
(٤٥) **التواضع** ٧٧
أولاً: معنى التواضع ٧٨
ثانيًا: درجات التواضع ٧٩
ثالثًا: الفرقُ بين التواضع والمهانة ٨٢
رابعًا: فضل التواضع ٨٣
خامسًا: صور ومواقف من حياة أهل التواضع ٨٤
سادسًا: ثمرات التواضع ٨٨
(٤٦) **الاستغفار** ٩٠
أولاً: تعريف الاستغفار ٩١

ثانيًا: الاستغفار المطلوب ٩٢

ثالثًا: فضل الاستغفار ٩٢

(٤٧) **التوكل** ١٠٤

أولاً: تعريف التوكل........................ ١٠٥

ثانيًا: الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل........................ ١٠٦

ثالثًا: درجات التوكل........................ ١١

رابعًا: مواطن التوكل ١١٢

خامسًا: ثمرات التوكل........................ ١١٤

(٤٨) **الزهد** ١٢٣

أولاً: تعريفُ الزهد ١٢٥

ثانيًا: الترغيب في الزهد ١٢٧

ثالثًا: أقسام الزهد ١٢٨

رابعًا: ما يعين على الزهد ١٢٩

خامسًا: خطأ في مفهوم الزهد ١٣٠

سادسًا: لقطات من حياة الزهَّاد ١٣١

(٤٩) **الزهد في المال والرياسة**........................ ١٣٦

أولاً: أنواع الحرص على المال........................ ١٣٧

ثانيًا: أنواع الحرص على الشرف ١٤٠
ثالثًا: أصل محبة المال والرياسة........................ ١٤٨
رابعًا: أسباب الزهد في العُلوّ الفاني........................ ١٤٩
(٥٠) **الورع**........................ ١٥٢
أولاً: تعريفُ الورع........................ ١٥٢
ثانيًا: فضل الورع ١٥٤
ثالثًا: أقسام الورع ١٦٠
رابعًا: علامات الورع........................ ١٦٠
خامسًا: مواقف مؤثرة من حياة أهل الورع ١٦٢
(٥١) **كتمان السر**........................ ١٦٧
أولاً: تعريف كتمان السر ١٦٧
ثانيًا: فضل كتمان السر........................ ١٦٩
ثالثًا: أنواع الكتمان ١٧٢
(٥٢) **الصمت** ١٧٨
أولاً: تعريف الصمت ١٧٨
ثانيًا: فضل الصمت........................ ١٧٩
ثالثًا: شروط الكلام........................ ١٨٢

رابعًا: آداب الكلام ١٨٣
خامسًا: جهاد الصالحين للّسان ١٨٦
(٥٣) **حفظ اللّسان** ١٩١
أولاً: تعريفُ اللسان ١٩٢
ثانيًا: آفات اللسان ١٩٢
ثالثًا: وجوب حفظ اللسان ٢١٧
رابعًا: فوائد اللسان ٢١٨
(٥٤) **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ٢٢٠
أولاً: تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٢١
ثانيًا: منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٢١
ثالثًا: وجوبه، وفضيلته، والمذمَّة في إهماله وإضاعته ٢٢٣
رابعًا: مراتب تغيير المنكر ٢٢٥
خامسًا: صفات الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر ٢٢٦
سادسًا: ثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٣١
(٥٥) **النصحية** ٢٣٦
أولاً: معنى النصيحة ٢٣٦
ثانيًا: مكانة النصيحة ٢٣٧

ثالثًا: لمن تكون النصيحة ٢٤٠

رابعًا: الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها الناصح........................ ٢٤٢

(٥٦) **الرحمة** ٢٤٦

أولاً: تعريفُ الرحمة........................ ٢٤٦

ثانيًا: الحث على الرحمة ٢٤٧

ثالثًا: من مظاهر رحمة الله تعالى ٢٤٩

الرحمة في حياة رسول الله ﷺ ٢٥٣

الرحمة في حياة المسلمين........................ ٢٦١

(٥٧) **الرِّفْق**........................ ٢٦٣

أولاً: تعريف الرفق ٢٦٣

ثانيًا: حقيقة الرفق ٢٦٣

ثالثًا: مكانة الرفق........................ ٢٦٤

رابعًا: مظاهر الرفق ٢٦٦

(٥٨) **حُسْن السمت** ٢٧٤

أولاً: تعريف حُسن السمت ٢٧٤

ثانيًا: فضائل حُسن السمت ٢٧٥

ثالثًا: أركان حسن السمت........................ ٢٧٦

رابعًا: براهين على حُسْن السمت وتَحَلّي الرسول ﷺ به.................. ٢٨١

(٥٩) **الحياء**.. ٢٨٦

أولاً: تعريفُ الحياء.. ٢٨٦

ثانيًا: فضل الحياء... ٢٨٧

ثالثًا: أقسام الحياء... ٢٩٠

رابعًا: مظاهر الحياء.. ٢٩٦

(٦٠) **النظافة**.. ٣٠٠

أولاً: تعريف النظافة.. ٣٠٠

ثانيًا: الحث على النظافة... ٣١٠

ثالثًا: مظاهر النظافة.. ٣٠٣

(٦١) **استثمار الوقت**.. ٣١٥

أولاً: قيمة الوقت... ٣١٧

ثانيًا: أسباب ضياعه... ٣١٩

ثالثًا: الأسباب المعينة على تنظيمه واستغلاله............................ ٣٢١

رابعًا: ثمرات تنظيم الوقت... ٣٢٥

(٦٢) **المروءة**.. ٣٢٨

أولاً: تعريفُ المروءة... ٣٢٨

ثانيًا: درجات المروءة ٣٣٠

ثالثًا: حقوق المروءة وشروطها ٣٣٠

رابعًا: الخصال التي تخرم المروءة ٣٣٦

خامسًا: مواقف من حياة أهل المروءة ٣٤٢

(٦٣) الحلم ٣٤٤

أولاً: تعريفُ الحلم ٣٤٥

ثانيًا: فضل الحلم ٣٤٦

ثالثًا: أنواع الحلم ٣٥١

رابعًا: الأسباب الدافعة إليه ٣٥٢

خامسًا: صور ومواقِفُ من حياةِ الحلماء ٣٥٦

سادسًا: ثمرات الحلم ٣٦٢

(٦٤) الشوق إلى الله تعالى ٣٦٦

أولاً: تعريفُ الشوق ٣٦٦

ثانيًا: علامات الشوق ٣٦٨

ثالثًا: مراتب الشوق ٣٧٢

رابعًا: بعضُ أقوال وأحوال أهل الشوق ٣٧٣

(٦٥) الرضا عن الله ٣٧٧

أولاً: تعريفُ الرضا ٣٧٨

ثانيًا: فضل الرضا ٣٧٩

ثالثًا: درجات الرضا ٣٨٢

رابعًا: شروط الوصول إليه ٣٨٤

خامسًا: الأسبابُ الموجبة لِرِضَا العبد عن ربِّه عزّ وجلّ........................ ٣٨٥

سادسًا: صور الرضا عن الله ٣٩١

(٦٦) **العفو** ٣٩٥

أولاً: تعريفُ العفو........................ ٣٩٥

ثانيًا: فَضْلُ العفو ٣٩٨

ثالثًا: صورٌ من حياة أهل العفو ٤٠٤

(٦٧) **الصفح** ٤١٢

أولاً: تعريف الصفح........................ ٤١٣

ثانيًا: فَضْلُ العفو ٤١٤

ثالثًا: سطور مضيئة من حياة أهل الصفح ٤١٦

أمثلة على الصَّفح المذموم........................ ٤٢١

(٦٨) **الحمد** ٤٣٠

أولاً: تعريف الحمد ٤٣٣

ثانيًا: أقسام الحمد ٤٣٤

ثالثًا: ثمرات الحمد ٤٣٥

رابعًا: شرائط الحمد ٤٤٣

مظاهر الحمد عند الرسول ﷺ ٤٤٤

(٦٩) **التسليم** ٤٤٦

أولاً: كيف يتحقق؟ وما شروطه؟ ٤٤٦

ثانيًا: تعريف التسليم ٤٤٩

ثالثًا: أنواع التسليم ٤٥٠

رابعًا: مواقف إيمانية من حياة أهل التسليم ٤٥٤

(٧٠) **الصبر** ٤٥٧

أولاً: تعريف الصبر ٤٥٧

ثانيًا: مراتب الصبر ٤٥٩

ثالثًا: أنواع الصَّبر وأسبابه ٤٦٠

رابعًا: ثمار الصبر ٤٧٦

(٧١) **الشكر** ٤٧٨

أولاً: تعريف الشكر ٤٨٠

ثانيًا: ثمرات الشكر ٤٨٤

ثالثًا: عاقبة الجحود ٤٨٧

رابعًا: لقطات من حياة أهل الشكر ٤٩٠

(٧٢) **الخوْف** ٤٩٦

أولاً: تعريفُ الخوف ٤٩٧

ثانيًا: منزلة الخوف ٤٩٧

ثالثًا: الأسبابُ الباعثةُ على الخوف من الله تعالى ٤٩٩

رابعًا: فضلُ الخوف من الله تعالى ٥٠٠

خامسًا: علامات الخوف ٥٠٢

سادسًا: لقطات حيَّة من حياة الخائفين ٥٠٤

الفهرس ٥١٥